الدكتور فيليب حتي

صانعو التاريخ العربي

ترجمة : الدكتور أنيس فريحة

مراجعة : الدكتور محمود زايد

دار الثقافة

الطبعه الأولى
ايلول (سبتمبر) - ١٩٦٩

الإهـــداء

إلى

ذكرى والدي الذي قضى شطراً طويـــلاً من
حياتـــه جاهداً لينشىء عائلة كبيرة ، وكادحـــاً
ليوفر لهـــا التعليم العـــالي الذي ُحرِمَـــه .

مقدّمة

لقد أردنا هذه المحاولة في التاريخ أن تكون « مقدّمة » في متناول فريقين من الناس : طلاب التاريخ العربي ، والقرّاء من عامة الناس الذين يبغون الوقوف على الحركات الدينية والسياسية وغيرها من الحركات الثقافية التي ظهرت في التاريخ العربي عبرَ سِيَر القادة الذين صنعوا هذا التاريخ . ولو أن كاتباً غيرنا حاول ما حاولناه لكان اختار غير من اخترنا من قادة ، ولكان فسّر التاريخ على غير ما فسرناه . وهذا أمر طبيعي لا عجب فيه . إن الذين صنعوا التاريخ العربي — أو الذين صنعوا أيّ تاريخ لأمة أخرى — كانوا هم من صنع التاريخ . إنهم كانوا من نتاج الحركات المائجة الثائرة ، غير أنهم كانوا ممن اعتلى متن أمواجها العارمة ، فأمسكوا بالأعنّة ليكبحوا جماحها أو ليشقوا لها طريقاً تسلكه . هؤلاء هم مبتدعو تقاليد أمتهم ، وبناة أسلوبها في العيش الكريم .

إن المادة التي اعتمدناها في هذه الدراسة مستمَدّة من المصادر الأولية ، بعد مقابلتها بنتائج الأبحاث العلمية التي قام بها علماء في الشرق والغرب . ولذا لم نرَ ضرورة للقيام بأبحاث مستجدة . فقد استفدنا من المادة التي اثبتناها في كتبنا السابقة : « تاريخ العرب » و « تاريخ سورية » و « تاريخ لبنان » و « تاريخ

الشرق الأدنى » . ونحن نتوخى أن تكون هذه المقدّمة المحتمشة باعثاً في نفوس القراء يدفع بهم إلى طلب المزيد من المعرفة الوثيقة بالتاريخ العربي المعقّد والممتع في الوقت ذاته. وطريق المعرفة الصحيحة تؤدّي بصاحبها إلى المودة والاحترام.

فيليب حتي

جامعة برنستون ،
برنستون ، نيوجرسي

١٥ آذار سنة ١٩٦٨

محتويات الكتاب

صفحة

الخارطـــات

الكتاب الأول
في
الدين والسياسة

النبيّ العربي محمّد

صاحبُ وحيٍ ورسالة ، وباني أمّة ، ومؤسّسُ دولة

كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون .

صورة البقرة ١٥١

لقد سجّل لنا التاريخ عدداً من أسماء رجال أوجدوا ديانات، وأسماء رجال آخرين ، بنو أمماً ، وغيرهم أسّسوا دولاً ، غير أنه لم يسجل لنا اسم رجل واحد ، سوى النبي العربي محمد ، كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة . وإن كان قد وجد في التاريخ رجل سوى محمد ، فإن التاريخ قد أغفل ذكر اسمه . هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت في نشأتها وحدة متلاحمة متراصة لا يمكن أن تنفصم الواحدة منها عن الأخرى ، وكانت إلى حدّ ما متوافقة يشدّ بعضها أزر بعض . وكان الدين من بينها ، على مدى التاريخ ، القوة الموحدة ، وكان أبقاها زمناً .

– ١ –

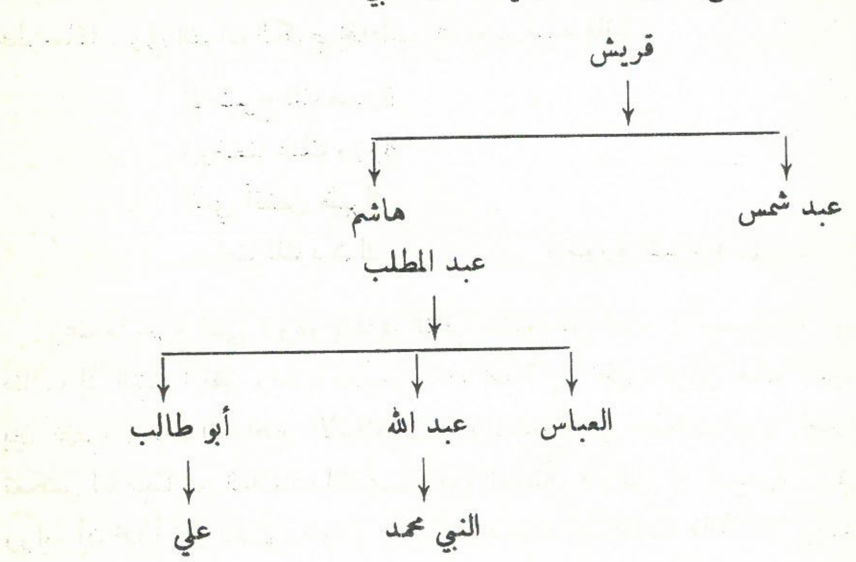
يعتنق الدين الذي أتى به النبي العربي ، الإسلام ، قرابة أربع مئة وخمسين

مليوناً من الناس ينتمون إلى جميع الأعراق البشرية ، ويتكلمون عدداً كبيرا من اللغات ، ويسيطرون على معظم المنطقة الواقعة بين مرّاكش ونيجيريا غرباً إلى أندونيسيا وماليزيا شرقاً. وإذا رحت تعدّ الناس في العالم اليوم وجدت أن السابع أو الثامن منهم يدعو نفسه مسلماً . وأمـــا الأمة التي دعاها محمد إلى الإسلام أولاً — العرب — فانها تعد اليوم مئة مليون ، من مرّاكش إلى العراق. والدولة الصغيرة التي وضع أسسها في الجزيرة العربية أصبحت فيما بعد الخلافة أعظم امبراطورية ظهرت في العصور الوسيطة . وورثاء هذه الامبراطورية في شمالي إفريقيا ، وفي غربي آسيا ، يحلمون اليوم باقامة دولة موحدة .

لم يكن في حياة النبيّ العربي وهو بعد صبيّ ، كما أنه لم يكن في البيئة التي كان يعيش فيها، ما ينبىء عن مستقبل الرجل وشأنه ، أو عمّا يخبئه له القدر. ولم تكن مكّة التي يحجّ اليها المسلمون ، والبلد الذي رأى محمد فيه النور ، بلداً ذا شأن في حياة الأمة ، ولم يلعب دوراً في الشؤون الدولية. وقولنا هذا ينطبق على وطنه الحجاز. كانت الأنوار في هذه الفترة تسطع في الامبراطورية الرومانية الشرقية في الشمال الغربي ، وفي الامبراطورية الفارسية في الشمال الشرقي ، بينما كانت الجزيرة العربية برمّتها في ظلام دامس . والاسم الذي أطلق عليه ، محمد، يطلق الآن أكثر من غيره من الأسماء على أكبر عدد من الأولاد في العالم كله . ولا يرد هذا الاسم في التاريخ قبل مولد محمد ، ويبدو أنه لقب فخر ، لا الاسم الحقيقي الذي سمّته به أمه عند مولده سنة ٥٧٠ ميلادية. وتشير الآية القرآنية (سورة الصف، ٦) إلى أن اسمه أحمد ، أما بنو قومه فكانوا يعرفونه بالأمين.

ان الحقائق الثابتة تاريخيّاً حول نشأة النبيّ العتيد يمكن تضمينها فقرة قصيرة في صفحة من كتاب . توفي أبوه ، عبد الله ، أثناء سفرة قام بها مـــع قافلة إلى سورية قبل أن يولد محمد . وماتت أمه آمنة ولم يكد يبلغ السادسة من عمره . وتوفي جدّه عبد المطّلب الذي أوى الولد اليتيم إلى بيته حيث ربي وترعرع بعد ذلك بسنتين ، تاركاً الولد في عهدة عمّه أبي طالب . وهنا تبدأ فترة غامضة من

حياته ، ولا ينحسر الظلام عنهـــا حتى زواجه من خديجة ، وكان ذلك بعـــد انقضاء سبع عشرة سنة . واليك نسب النبيّ :



يشير القرآن الكريم (سورة الضحى ، ٦ — ١٠) إلى ملحـــين بارزين في طفولة النبي — الفاجعة التي حلّت بعائلته ، وفقر عشيرته :

ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ، فأمّا اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربّك فحدّث .

وأما قوله « فأغنى » فإشارة إلى زواجه الأول .

إذا كان الواقع ، وإذا كان التاريخ ، قد حرما محمداً الفتى الثروة والسعادة فإن إيمان الناس ورواياتهم الشعبية أغنت حياته وزيّنتها بالعجائب التي تذكّرنا بما أحاط به المسيحيون حياة المسيح، والبوذيون حياة بوذا من عجائب وخوارق. فإن أمّه لم تشعر به قطّ في أحشائها حتى ساعة مولده عندما جاء ملاك يبشّرها بمولود . وشعرت مرضعته بالحليب يملأ ثدييها الجافّ ساعة وضعته في حجرها .

وقد رأى ابنها الذي كان يلعب معه خلف البيوت رجلين عليهما ثياب بيض أضجعاه فشقا بطنه ، واستخرجا قلبه فشقاه ، واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها . وفي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى نبيّه قائلاً :

ألم نشرح لك صدرك
ووضعنا عنك وزرك
الذي أنقض ظهرك
ورفعنا لك ذكرك (سورة الشرح ١–٤) .

وعندما خرج الفتى ، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره ، مع عمه أبي طالب إلى الشام ، نظر راهب مسيحي اسمه بحيرا إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفَيه . هذه الأساطير الاسلامية والمسيحية التي حيكت حول بَحِيرا تعكس لنا شيئاً عن العلاقات القديمة بين الديانتين ، وعن أثر المسيحية . وفي رواية أن محمداً زار دمشق ، وانه تردّد عند دخوله باب المدينة قائلاً انه يريد دخول الجنة مرّة لا مرّتين . ولكن من العسير أن نأخذ بهذه الرواية ، إذ أن مثل هذه الزيارة لمدينة تختلف كل الاختلاف عن مسقط رأسه من شأنها أن تترك انطباعاً عميقاً في نفس الفتى ، لا سيما وهو في سنّ تترك الأحداث الكبيرة في نفس صاحبها انطباعاً عميقاً . غير أننا لا نجد في القرآن الكريم إشارة لها .

إن القرآن الكريم ، في اشاراته إلى حوادث وقعت في حياة محمد، لأفضل مصدر يوثق به في دراسة جوانب حياة النبيّ . ان أول سيرة لحياته جمعها ابن هشام الذي توفي في مصر سنة ٨٣٣ . فكانت قد انقضت فترة طويلة احيطت خلالها حياة النبي بهالة من أعمال وعجائب وصفات لم يقل بها النبي نفسه ، ولا أشار اليها القرآن الكريم . وأما سيرة حياته الثانية فنجدها مضمّنة في تاريخ الطبري الذي توفي سنة ٩٢٣ في بغداد . وأما مغازي النبي فقد كتب فيها الواقدي (توفي سنة ٨٢٢) وكان من بغداد . في هذه الأثناء كانت صورة النبيّ الذي جاء بالإسلام قد تركت في نفوس البيزنطيين انطباعاً كان أول من

عبّر عنه هو ثيوفانس سنة ٨١٣ . وقد كان محمد ، في نظره ، « أمير العرب وحاكمهم ومدّعي النبوءة» . وقد ظلّت هذه الصورة التي رسمها ثيوفانس عالقة باذهان الناس من غير المسلمين حتى العصور الحديثة .

– ٢ –

بدأ السعد يبسم للنبي عندما تزوّج ، وهو في سن الخامسة والعشرين ، من خديجة ، وكانت أرملة على جانب من الثراء ، وتنتمي نسباً إلى عشيرته . وكانت تكبره بخمس عشرة سنة ، وكانت لها تجارة وقوافل ، وكان محمد يعمل عندها . في هذه الفترة يبرز محمد إلى وضح التاريخ المثبت . ولم يتزوج محمد من امرأة ثانية طوال حياة زوجته التي كانت على جانب كبير من الذكاء ، وحسن الخلق، وقوة الشخصية . وبعد وفاتها (سنة ٦١٩) تزوج النبي تسع نساء .

بعد أن تزوج بخديجة انصرف إلى ما كانت تصبو اليه نفسه : التأمل الروحي ، والعزلة . فكان يأوي إلى غاب حراء خارج مكة وعلى مقربة منها . أمران كانا يلهبان نفسه أسىً . الأول ما كان يعانيه مجتمعه من بؤس وشقاء – وكان مجتمعاً في بدء انتقاله من طور البداوة إلى طور الحضارة – والثاني انه كان للنصارى ولليهود « كتاب » وانهم كانوا أكثر تقدّماً ، وأحسن مستوى مما كان عليه قومه . كانت الجزيرة العربية آن ذاك محاطة ببلدان تدين بالمسيحية . وينبغي أن يكون النصارى الذين تعرّف اليهم النبي من جماعة السريان والاقباط والأحباش والعرب المتنصّرة على أطراف سورية والعراق . وكانوا يفدون إلى الجزيرة العربية تجاراً ، أو عبيداً أرقاء ، أو زائرين . وأما اليهود فكانوا من مواطني المدينة المنوّرة ، أو من اليمن ، أو انهم كانوا يفدون كتجار أجانب أو كعبيد أرقاء .

في تلك الأثناء كانت مكة قد أصبحت ملتقى تقاطع الطرق التجارية التي

كانت تربط بين اليمن ، بلاد البخور والأفاويه ، وبلاد الحبشة من جهة ، وبين سورية وموانئها على البحر الأبيض المتوسط ، والعراق من جهة ثانية . وينبغي أن تكون مكة مدينة بوجودها لعوامل من أهمها بئر ماء : زمزم ، الذي تجعل منه الرواية بئراً فاضت مياهه باعجوبة لينجو اسماعيل وأمّه هاجر من الموت عطشاً عندما ضلاّ الطريق في الصحراء ، وصار اسماعيل أباً للعرب. وأعاد ابراهيم أبوه بناء البيت الحرام الذي هو الكعبة الآن ، وسنّ للناس الحجّ اليه (سورة آل عمران ٩٠ – ٩١ ، وسورة الحج ٢٧) . وأصبحت البقعة التي بني عليها البيت ملجأ من دخله كان آمناً . وكان جدّ محمد قد أعاد حفر البئر ليوزّع ماءه على الحجاج كسباً لعيشه .

كانت تجارة مكّة قد غيّرت المجتمع البدوي إلى مجتمع تجاري متحضّر رأسمالي . وكانت الفجوة الاقتصادية الاجتماعية بين المالكين والمعدمين تزداد اتساعاً ، فتغيّر ولاء الناس ، وتلاشت العصبية القبلية – والعصبية قوام الحياة في الصحراء – في المجتمع المتحضّر لتحلّ محلها الفردية المستقلة. كانت الشجاعة، والقدرة العسكرية ، وسرعة التنقل عنوان المقام الرفيع والمكانة السامية في المجتمع البدوي، وأما في المجتمع التجاري المتحضّر فإن العنصر الهام هو الثروة.

وذات ليلة من اخريات ليالي رمضان (سورة البقرة ١٨٥) سنة ٦١٠ ، بينما كان محمد يفكّر في المشكلات التي كانت تقلق باله سمع فجأة صوتاً يقول له : « اقرأ » فكأنه سأل : « ما أقرأ ! ؟ » ولكن الصوت أتاه ثانية يقول :

اقرأ وربّك الأكرم
الذي علّم بالقلم
علّم الإنسان ما لم يعلم (سورة العلق ٣ – ٥) .

ولربما كان النبيّ ينتفع بالقراءة والكتابة في تصريف شؤونه ، ولكن يبدو أنه لم يكن متأكّداً من أنه يستطيع أن يكتب أموراً في الدين . وبعد فترة قصيرة عاوده الصوت ثانية مثل « صلصلة الأجراس » وفي هذه الحالة النفسية

من الانفعال الشديد أسرع إلى بيته وطلب إلى زوجته أن تدثّره. وهو في حالة اللاواعي سمع الصوت يقول :

يا أيها المدثّر
قم فأنذر (سورة المدثر ١ – ٣) .

وهنا لم يعد يخامره أدنى شك . لا ريب في أن الصوت صوت ملاك من السماء ، وأخيراً عرف أنه جبريل . لقد تسلّم النبيّ الرسالة . ولم تكن الدعوة التي تلقّاها النبيّ العربي كتلك التي تلقّاها موسى واشعياء وبولس الرسول . أولئك رأوا رؤيا وسمعوا صوتاً . اما النبيّ فلم يرَ بل سمع صوتاً يدعوه . وكان أول من آمن به ، وقبل دعوته ، زوجته خديجة . وايمانها به ، وثقتها به ، من العوامل التي شدّت أزره ، وبعثت في نفسه العزم والشجاعة عند بدء الدعوة . كان جوهر رسالته في باديء أمرها رسالة مقتضبة يمكن ايجازها ببضع كلمات: لا إله إلا الله وحده. هو الخالق والحيّ القيوم. ومحمد رسوله. وهنالك يوم حساب، والجنة ثواب الذين يطيعون أوامره ، وجهنم عقاب الذين يعصون وصاياه .

ولم يكن « الله » الذي تكلّم النبيّ بلسانه إلهاً غريباً عن أهل مكة . والواقع أنه كان إله الكعبة التي كانت تُعرف « ببيت الله » . واسم أبيه عبدالله يحتفظ باسم هذا الإله .

ان الشرك بطبيعته أرحب صدراً من التوحيد في قبول آلهة أخرى جديدة. ولكن أهل مكة لم يرضوا عن هذا الإله الجديد « الله » وذلك لطبيعته المنزّهة عن كل شرك . وهذه العقيدة الجديدة التي دعا النبيّ اليها ، الإسلام ، من شأنها أن تباعد بين العرب المحافظين وبين آلهتهم وآلهة آبائهم الذين مصيرهم ، بحسب التعاليم الجديدة التي أتى بها محمد ، جهنم . نعم ، ان محمداً كان يقول عن نفسه إنه نبي ، ولكن تعاليمه الجديدة تتضمّن أموراً اقتصادية واجتماعية وسياسية من شأنها أن تغيّر الأوضاع التي ألفها القرشيون. وقد أدرك القرشيون خطورة ما تتضمنه هذه التعاليم الجديدة بالنسبة إلى مصالحهم الخاصة . فقد

تقوّض التعاليم الجديدة اسس الحجّ ، وكان الحج ، بعـد التجارة ، من موارد الرزق الأوّليـة . كانوا ينظرون نظرة اكبـار إلى تعاليـمه عن الكرم والعطاء ، لأن الكرم من الفضائل العربية ، ولكن النظرة الدينية الجديدة إلى أن الانسان مجرّد وكيل على ثروته وأملاكه ، وأن للفقير حقاً في هـذا المال « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » (سورة المعارج ٢٤–٢٥) لم تكن بالنظرة التي تقبّلها الناس برضى . وفي اللغة العربية لفظة « الكرم » تعني أيضاً النبل . وإلى جانب هذا فإن تعاليم النبي العربي الجديدة تحلّ الايمان محلّ النسب كرابطة تربط بين الانسان وأخيـه : « إنما المؤمنون إخوة » (سورة الحجرات ١٠) وهذا من شأنه أن يقوّض الأسس القديمـة للعائلة ، وللعصبية القبليـة ، ويحل محلها الوحـدة الدينية والرابطة الدينية . وأخيراً ادركت قريش أنه إذا حالف النصر الدينيّ النبيّ محمداً فانـه سينتصر أيضاً سياسياً ، وبهـذا يكون قد ألحق بسلطتهم بعض الاجحاف . ومن هنا كانت المعارضة الشديدة التي أخذت تتصاعد يوماً بعد يوم .

ان الدعوة التي تلقاها النبي محمد من ربّه ألهبت شعوره ، ودفعت به ليقف حياته على تبليغ الرسالة ، فاندفع بين قومه يعلّم ويعظ وينذر . فسخروا منه ، وهزأوا بـه ، وأغلظوا له القول . فقالوا « مجنون » (سورة التكوير ٢٢٥) وقالوا « ساحر كذاب » (سورة ص ٣) وقال آخـرون « كاهن » (سورة الحاقّة ٤٢) . والواقع أن مثل هذه الاتهامات التي اتهمته بها قريش ، ان دلت على شيء ، فانها تدل على أن خصمهم كان رجلا تميّز بقوى روحية بالرغـم من أن خصومه راحوا يفسّرون هـذه القوى تفسيراً مهيناً . وأول من استجاب لهذه الدعوة الكريمة ، بعد صحبه والأقربين من أهله ، كانت جماعة المنبوذين والمعدمين والعبيد ، وهم الذين أشارت اليهم الآية الكريمة « واتبعك الارذلون » (سورة الشعراء ١١١) ، وبعد انقضاء خمس سنوات عمل فيها جاهـداً جاءت النتيجة مخيّبة للآمال .

وعندما بدا لقريش أن الهزء به ، والسخرية من تعاليمه ، لا تجـدي معه نفعـاً لجأوا إلى العنف والقسوة . فأرغم النبي وأصحابه على الهجرة أولاً إلى الحبشة النصرانيّة حيث قدّر النبيّ أن أحداً من الناس هناك لن يؤذيه . وقـد لبى دعوته للهجرة أكثر من ثلاث وثمانين عائـلة (سنة ٦١٥) . أولئك كانوا المهاجرين الأول الذين كانوا يؤلفون مع الصحابة الطبقة النبيلة الراقية في المجتمع الجديد . وقد رفض وليّ محمد ، أبو طالب ، أن يسلّم ابن أخيه لأعدائه بإباء وشمم ، ليس لأنه كان يؤمن برسالته — لأنه لم يكن قد قبل الدعوة — بل لأن قانون الشرف القبلي كان يأبى عليه مثل هذا الأمر . ودخول أحد أفراد القبيلة في دين غير دينها ليس من شأنه أن يبرّر طرده واخراجه من القبيلة . فلم يبق لدى قريش سوى أن يقاطعوه اقتصادياً . وتعاون معهم في هذه المقاطعة سائر العشائر القرشية . فوجد النبيّ نفسه وعشيرته منعزلين في حيّهـم من المدينة ، وامتنع الناس عن التعامل معهم ، وحرّم عليهم الزواج من نساء باقي القبيـلة . دام هذا الحصار ثلاثة أعوام انتهت في السنة التي توفيت فيها خديجة وأبو طالب (٦١٩ على وجه التقريب) .

وساءت أحوال النبيّ ، وفكر في الانتقال إلى بيئة جديدة، فوقع اختياره على الطائف ، وهي مدينة تقع جنوبي شرقي مكـّة على بعد خمسة وسبعين ميلاً . وكانت مدينة الطائف مدينة زراعية تقع على نجد عال ، وليس كمدينة مكة التي يصفها القرآن الكريم أنها « بواد غـير ذي زرع » . كانت مصطافاً لذوي الثروة من المكيّين ، وكان فيها مزار للات . وكانت اللات والعزّى ومنـاة آلهة تُعبد في الجزيرة العربية . لم يتلق أهل الطائف محمداً بالترحاب والاكرام، بل كان استقبالهم له فظّاً غليظاً . وتجمهر الناس ورجموه بالحجارة ، فلجأ إلى حديقة يملكها أحد زعماء المعارضة . فأشاح النبي ببصره عن الطائف وعاد إلى مكـّة وهو يتلو هذه الصلاة الرقيقة :

اللهمّ إليك أشكو ضعف قوتي ، وقـلة حيلتي ، وهواني على

الناس ، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عدو ملّكته أمري، ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ علي سخطك . لك العتي ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك [١] .

وقد ظنّ النبيّ ، وهو في مكة ، ان القبائل الوافدة من الصحراء لتزور مكة لتؤدّي فيها الحجّ ، أو لتحضر أسواقها للمقايضة بالسلع ، قد تقبل على دعوته ، وتبدي نحو الأمور الروحية ما تبديه من كرم وبذل في حقّ الضيافة التي اشتهر بها العربي . ولكن مقابلته شيوخهم ، وحديثه معهم ، أظهر خطأ حدسه . ولكنه لم ييأس من التحدّث إلى الوافدين إلى مكة . إذ أنه لقي مرّة جماعة من يثرب (على بعد ٢٥٠ ميلا إلى الشمال من مكّة) وجد عندها أذناً صاغية . فانهم كانوا قد سمعوا من اليهود من أبناء مدينتهم أن زعيماً دينياً عظيماً سيظهر، وقد يكون محمد هذا الزعيم الديني . وكان لأمّه آمنة صلة قرابة بيثرب . وفي يوم حسن الطالع عقد عهداً مع وفد من يثرب تعهدوا فيه أن يحموه وصحبه في موطنهم الجديد ، يثرب .

وتحاشياً لمراقبة قريش ويقظتها ، أوعز النبيّ إلى حوالي مئتين من أتباعه أن يبارحوا مكة متفرقين ليتوجهوا سرّاً إلى يثرب ، التي أصبحت فيما بعد تعرف بالمدينة . اما هو فوصلها ، يرافقه أبو بكر وعليّ ، في الرابع والعشرين من شهر ايلول سنة ٦٢٢ . وهذا اليوم هو بدء التقويم الهجري ، ونهاية الفترة المكية في حياة الرسول ، وبدئها في المدينة .

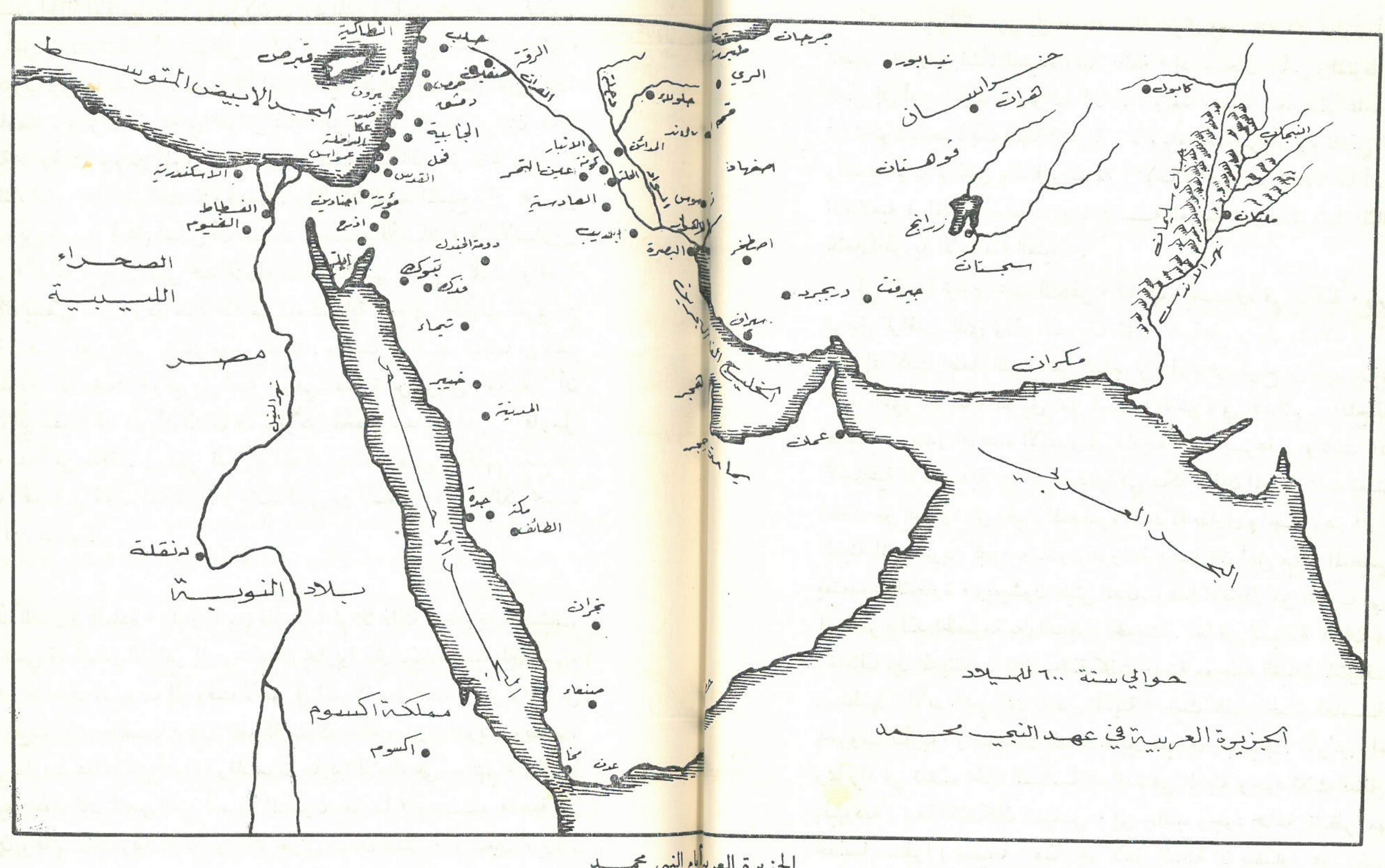
---

(١) سيرة سيدنا محمد رسول الله ، رواية ابن هشام طبعة فيستنفلد (غيتنغن ١٨٥٨ - ٥٩) ص ٢٨٠ .

- ٣ -

كانت هجرة الرسول إلى المدينة نقطة تحوّل في حياته ، وخطوة أولى نحو الطور الخطير في نشأة العقيدة وبناء الأمة ، إذ استحال اليأس والقنوط في حياة النبي إلى أمل ، وثقة ، وتوكيد للذات . وبعد انقضاء سبعة عشر عاماً آثر عمر أن تكون الهجرة بدء السنة القمرية ، لا يوم مولد النبي أو يوم تلقيّ الدعوة . وأصبح الإسلام الذي ولد في المدينة ، الإسلام الذي عمّ العالم ، كما أن الجالية الاسلامية في المدينة أصبحت نواة الأمة العربية ، وحكومتها المثال الأول للامبراطورية الاسلامية العتيدة .

في المدينة توارى محمد الكاهن ، كما اتهمه أهلوه في مكّة ، وبرز محمد الرجل الواقعي الذي تولّى تصريف شؤون الساعة . وأول مشكلة توجّب عليه حلها إنما كانت اطعام الفقراء من المهاجرين وايواءهم. فراح يوزّعهم بين الأنصار، الأمر الذي كان بمثابة تطبيق عملي لمبدإ الاخوّة في الإسلام . وأفلح النبي في تطبيقه . ويبدو أن عدد الانصار في المدينة ازداد بسرعة . وكانت الأمراض الاجتماعية الاقتصادية في المدينة ذاتها في مكة . فان المدينة كانت تعيش فترة انتقال من البداوة إلى الحياة المتحضرة المتمدّنة بفارق واحد وهو أن أهل المدينة المتحضّرين كانوا يعتمدون الزراعة ، بينما كان أهل مكة المتحضرون يعتمدون التجارة ، ويعيشون عيش المدن. وهذا الانتقال من اسلوب في العيش إلى آخر يولّد الخصومة بين القديم والحديث . أما في السياسة فكان هناك اختلاف بين المدينتين . فإن مكّة كانت مدينة موحّدة القيادة باشراف قريش وسلطتها ، الأمر الذي كان ينقص المدينة ، حيث كانت الحياة العامة تتميز بالحروب الثأرية، والمنازعات الداخلية بين قبيلتين رئيسيتين: الأوس والخزرج. ومما زاد في تعقّد الحالة السياسية السائدة في المدينة وجود ثلاث قبائل تدين باليهودية . وهذا التفكك السياسي ، إلى جانب وجود جماعة تنتظر مهدياً أو مخلّصاً منتظراً (مسيحاً) هيّأ الجوّ لأهل المدينة أن يتقبّلوا عن رضىً نبياً ذا سلطة تقوم على الدين .



الجزيرة العربية أيام النبي محمد

ولكن بعد انقضاء سنتين وجدت المدينة المضيفة نفسها على حافّة الانهيار، أولاً لسوء الحالة الاقتصادية ، وثانياً لأن موارد المدينة كانت محدودة . فكانت عيون أهل المدينة تتطلع إلى القوافل المكية الراجعة من سورية حاملة البضائع ، وفي جيوب رجالها الدنانير . كانت القوافل المكية اغراء لم يتمكّن أهل المدينة من مقاومته . وانزال الضربة في القوافل بمثابة انزال الضربة في شرايين مكة الحيوية . وذات يوم من أيام رمضان (في منتصف شهر آذار من سنة ٦٢٤) ، وفي أثناء الشهر الحرام وقعت غزوة بدر . وإذا كان السيد المسيح برّر عمل تلاميذه يوم السبت ، على أساس أن السبت وجد للانسان ، لا الانسان للسبت ، فلماذا لا يبرّر النبي محمد غزوته هذه في الأشهر الحرم ؟ كانت الواقعة في مكان يسمّى بدر ، وهو مكان فيه ماء للسقاية يقع إلى الجنوب الغربي من المدينة . هناك أقام النبي ينتظر مقدم القافلة . وكانت القافلة تتألف من ألف جمل يقودها أبو سفيان ، زعيم بني أمية ، وهي عشيرة من قريش . وينبغي أن يكون أبو سفيان قد علم بأن القافلة قد تتعرّض للخطر عند ماء بدر ، فأرسل يطلب مدداً من مكة . ووصل المدد وقوامه تسع مئة رجل ترافقهم مغنّيات لتبعث الحماسة في قلوب المقاتلين . وجنّد النبي من المسلمين ٣١٤ مقاتلاً بحسب تقدير ابن هشام .

بدأ القتال، كالعادة ، بالمبارزة بين فارسين، ثم تلا ذلك التحام بين الجيشين. وكان النبي قد أصدر الأوامر إلى رجاله أن يحاربوا متراصّين، مستعملين السهام أولاً ، ومحتفظين بالسيوف إلى وقت لاحق في المعركة . وكانت قريش واثقة من النصر بحيث أن رجالها دخلوا المعركة بدون خطة وبدون تدريب ونظام . قريش حاربت دفاعاً عن أموالها والمسلمون حاربوا للابقاء على حياتهم ، وقاتلوا في سبيل الله . كان النصر الذي أحرزه المسلمون حاسماً ، وجاء فاجعة على المكيين . فانهم هربوا تاركين وراءهم حوالي سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً . واستشهد من المسلمين ثمانون رجلاً . وجاء الوحي : « واعلموا انما غنمتم من شيء

فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (سورة الانفال ، الآية ٤٢) . فوزعت الغنائم على هذا ، وأصبح سنّة فيما بعد .

ورضي الرسول أن يقبل فكّ الأسرى بفدية . وكان من بين الأسرى ختن الرسول ، زوج ابنته زينب . فقدّم فدية عن نفسه عقداً وخاتماً لزينب من أمها خديجة . وتذكر الرسول العقد في عنق زوجته خديجة ، وبعد ليلة قضاها ساهراً أمر بفك ختنه بدون فدية على أن يرجع زينب إلى أبيها .

لم تكن هذه المجابهة الأولى بين المسلمين والمشركين من وجهة حربية أمراً ذا بال ، إنما كانت نفسياً على جانب كبير من الخطورة . فقد فقدت قريش نفوذها، وفقدت ثقتها بعزّها وسلطانها ، بينما ازداد محمد وأتباعه نفوذاً بين القبائل، وثقة في نفوسهم . وقد فسّر المسلمون هذا النصر على أنه نصر من السماء جاء تأييداً لدين الله ، وعقاباً للمشركين . فقد اشتركت الملائكة – وعددهم ألف – بالمعركة تمدّ المسلمين بالعون (سورة الانفال ٩ – ١٢ ، ١٧) . نعم ، ثأر أبو سفيان ، في السنة التالية ، لنفسه ولقريش في موقعة أحد ، الموقعة التي جُرح فيها النبي ، ولكن موقعة أحد لم تستطع أن تحجب هالة النور التي كانت تجلّل هامة بدر . استعاد الإسلام بعدها قوة ونشاطاً ، وضمن لنفسه البقاء والانتشار. إلى هنا كان الإسلام ديناً يدخل ضمن الدولة ، ولكن بعد ذلك أصبح أكثر من دين الدولة ، إذ أصبحت الدولة ذاتها تُعرف به. ومنذ ذلك الحين أصبح الإسلام ، كما عرفه ويعرفه العالم ، ديناً ودولة وقوة جهادية .

بعد موقعة أُحد تشجعت قريش فأقدمت على مهاجمة المدينة ، يساندها في ذلك حلفاء من اليهود والبدو والمرتزقة (وهم الأحزاب التي تشير اليها سورة الأحزاب) . وصل المكيّون المدينة (سنة ٦٢٧) وعددهم عشرة آلاف مقاتل – وكان تحت إمرة النبي ثلاثة آلاف – فوجدوا المدينة محاطة بسلسلة من الخنادق ، وكانت هذه خطة حربية مبتكرة لا عهد للعرب بها من قبل . ويعزى

هذا الأمر إلى رجل فارسي من أتباع النبي اسمه سلمان الفارسي . وقد أزعج هذا الخندق البدو بصورة خاصة . وبعد انقضاء شهر على ضرب الحصار على المدينة عاد المكيّون إلى ديارهم مخلّفين وراءهم عشرين قتيلا . وقرّروا ألا يتحدّوا المسلمين بعد ذلك .

وجاء دور اليهود . لقد حاول الرسول طوال الفترة الأولى من دعوته أن يقيم بينه وبين اليهود نوعاً من التعايش السلمي يجمع بين أقدم ديانتين موحّدتين (سورة البقرة ١٢٧ – ١٣١) . فان بعض العقائد الجوهرية كانت مشتركة . ونبوّة محمد لا تختلف عن نبوة ابراهيم وعيسى . وكانت القبلة في الصلاة بيت المقدس . وأحلّ للمسلمين أن يؤاكلوا أهل الكتاب وأن يتزوجوا من نسائهم (سورة المائدة ٧) . ولكن ما إن لبث النبي مدة في المدينة حتى شعر بأنه كان على خطإ فيما ظنه بهم . فان اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وانهم الوحيدون من ذرية ابراهيم. فلم يبدوا استعداداً لأن يدمجوا أحداً في دينهم، ولا أبدوا استعداداً لأن يُدمَجوا في دين غيرهم . ونشبت حرب باردة بينه وبين اليهود . عند بدء السنة الثانية في المدينة أمر النبي أن تحوّل القبلة عن بيت المقدس إلى مكة (سورة البقرة ١٣٩ ، ١٤٤، ١٤٥) وصار المؤذن يدعو إلى الصلاة بعد أن كانوا يستعملون الناقوس . واتّهم أهل الكتاب بانهم أفسدوا الدين الصحيح ، وأخفوا الوحي وحوّروا فيه (سورة آل عمران ٥٧ – ٦٢ ، وسورة المائدة ١٧) . وقد وجدت الفئتان، اليهود والمسلمون، انهما على طرفي نقيض . وتحوّلَ التهجّم الكلامي إلى حرب حامية، وكان السبب المباشر انّ تاجراً يهودياً ، بعد بدر ، حاول أن يقوم بمزاح سمج مع امرأة مسلمة أتت تشتري منه حاجة ، فربط طرف ثوبها الخلفي بحيث عندما نهضت بانت ملابسها التحتانية . فقام رجل مسلم وقتل اليهودي المازح فثأر اليهود بقتل القاتل المسلم. فراح المسلمون يهاجمون القبيلة اليهودية باسرها . فهربت واستقرّت في سورية مخلّفة وراءها أسلحتها وأملاكها . وفي السنة الثالثة (٦٢٥) طُردت قبيلة

يهودية أخرى من المدينة مخلّفة وراءها مزارع النخيل التي وُزّعت على فقراء المهاجرين والأنصار . ولجأ بعض اليهود إلى خيبر ، وهي واحة يهودية خصبة على بعد مئة ميل شمالي المدينة . وكانت خيبر منيعة الحصون لا يقوى البدو على مهاجمتها ، ولذا أصبحت معقلاً للدسائس التي كانت تحاك ضدّ الإسلام . لا بل إن هذه المدينة أرسلت كتيبة لتساعد المكيين في ضربهم الحصار على المدينة . ولكن بعد هجوم على خيبر دام اسبوعين استسلمت المدينة في شهر حزيران سنة ٦٢٨ ، وقبلت أن تدفع نصف قيمة انتاج مزارعها وحقولها خراجاً للنبي محمد. وكان هذا الخراج مما خفّف عليه بعض الضائقة. واما خيبر فقد أصبحت بلداً ضعيفاً لا يصدر عنه ضرر أو أذية .

إن حياة النبي في المدينة كرجل سياسيّ، وكقائد حربي ، وكزعيم إداري ، يعكسها لنا الاختلاف الظاهر بين ما نزل عليه من الوحي في الفترة المكية وما نزل عليه في أثناء حياته في مكّة. فقد كانت السور المكية مقتضبة قصيرة ، ماضية قاطعة ، ذات إيقاع ووزن ، وغنية بالصور والرمز. والتوكيد في السور المكية إنما كان على وحدانية الله وعلى صفاته ، وعلى خضوع العبد له ، واعتماده الكلّي عليه . ففي سورة قديمة (سورة الاخلاص) يكلّم الله نبيّه محمداً بقوله :

قل هو الله أحد
الله الصمد
لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوءاً أحد .

وهنالك سورة مكية أخرى قديمة تُعرف بالفاتحة . هذه السورة البسيطة في كلماتها ، الغنية بمعانيها ، تُشبّه أحياناً بالصلاة الربّانية عند النصارى . ذلك انها أشبه بصلاة يردّدها المؤمن حوالي عشرين مرة في النهار ، مما يجعلها أعظم قطعة دينية تلاوة وتبرّكاً :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ،
مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم،
صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

على نقيض هذا كانت السور المدنيّة ، فانها سور طويلة نثرية في صياغتها ، وتعنى بشؤون الناس . وبالاضافة إلى الشرائع التي تحدّد الصلاة والصوم والحج وخلافها من الشعائر الدينية ، فان في السور المدنيّة وصايا وقوانين تعنى بالزواج والإرث والطلاق والربا والرّق والأكل والشراب وأسرى الحرب والمغانم والاسلاب . واغناها من هذا القبيل سورة البقرة ، وهي أقدم السور المدنية وأطولها (٢٨٦ آية) . وبعض التشريع في هذه السورة يعنى « بالقتال في سبيل الله » والدين والتجارة ، واليتيم ، والأرملة ، والحيض ، واتيان النساء والرضاعة . وإلى جانب هذا نجد قطعة رائعة في جلال الله ومجده :

الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض . من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ، إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم (سورة البقرة ٢٥٦) .

قبل الانتصار العسكري الذي أحرزه في خيبر (سنة ٦٢٨) كان النبي ، قبل ذلك بقليل ، قد أحرز انتصاراً سلمياً رائعاً في مكة . فانه بعد مفاوضات جرت بينه وبين أشراف قريش انتهى الأمر إلى توقيع صلح الحديبية (وهي بلدة صغيرة على بعد تسعة أميال إلى الشمال من مكة) وفيه اعتراف بالمسلمين وحقوقهم مما لا يترك مجالاً للتخوف والحذر . عندها أدرك النبي أن كل معارضة محلية قد قضي عليها . وتقول الرواية إنه بعث برسائل إلى رؤساء الدول المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام. وتضيف أن عدداً من الوفود كانت تفد

اليه من جميع أنحاء الجزيرة لتبايعه ولتسلّم اليه سلاحها . وفي شهر كانون الثاني سنة ٦٣٠ ، دخل النبي محمد مكة ، مسقط رأسه ، على رأس جماعة من أصحابه قوامها ألف رجل دخول الظافر المنتصر . ولم تبدِ قريش أية مقاومة . ودخل عدوه الأول ، أبو سفيان ، في الإسلام بعد أن قاومه طويلاً وبضراوة شديدة . وباستثناء عشرة رجال من المقاومة — وخلافاً لما أشار به عمر بن الخطاب وغيره من أصحابه — أبدى النبيّ العربي من ضبط النفس والشهامة ما يتناسب مع مقامه كرجل دولة . ولم يترك لنا التاريخ في سرد الأخبار عن دخول الظافرين إلى المدن المغلوبة على أمرها ما يشبه دخول محمد مكّة من حيث التسامح والنبل .

ثم ان النبي وجد سبيله إلى الكعبة وأخذ يحطّم الأصنام ، وعددها ثلاث مئة وستون وثناً ، وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل » . وهكذا طهّر الكعبة من الرجس وجعل منها حرماً إسلامياً . واعترافه بالكعبة وبالحجر الأسود وببئر زمزم ، وهي من بقايا الجاهلية العربية ، جعل الإسلام يبتعد عن الديانتين التوحيديتين اليهودية والنصرانية .

وبعد سنتين قام النبي بحجة الوداع إلى عاصمته الدينية . وفي هذه الحجة الأخيرة ألقى خطبة تعدّ القمّة في حياته الخطابية . منها :

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه . تعلّموا أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه .

وبعد شهرين من رجوعه إلى المدينة أصيب فجأة وتوفّي من ألم حادّ في رأسه . كان ذلك في الثامن من شهر حزيران سنة ٦٣٢ .

– ٥ –

لاقى النبيّ العربي ، والقرآن الكريم ، على يد المسيحيين في العصور الوسيطة من التشويه والتشنيع الشيء الكثير . وتبدو هذه الحقيقة مذهلة ، لأن الإسلام ، من جميع الأديان الأخرى ، أقرب دين إلى المسيحية . فإن المسيحي لا يلاقي في القرآن الكريم ما يخالف عقيدته سوى أمور طفيفة قد يبدي اعتراضاً عليها . ولكن الفرقة بين الإسلام والمسيحية ليس مردّها إلى الاختلافات اللاهوتية ، بل إلى التطورات السياسية . فإن الزردشتية ، والهندوكية ، والبوذية ، لم تكن تشكل خطراً على المسيحية . الإسلام كان يشكل خطراً بالنسبة اليها ، لأن الامبراطورية الاسلامية قامت على حساب الامبراطورية البيزنطية المسيحية . وجاء السلاجقة المسلمون ، بعد ذلك ، يهدّدون شرقي أوربا ، مما سبّب قيام الحروب الصليبية . واحتلت الجيوش العربية اسبانيا وصقلية وظلّت هناك قروناً غزت في أثنائها فرنسا وايطاليا . وآخر حماة للسلطة الاسلامية ، العثمانيون ، وقفوا مرتين عند أسوار فينا .

طوال هذه الفترة الطويلة من الصراع بين الإسلام والمسيحية كانت الصورة التي انطبعت في نفوس الغربيين عن النبي العربي وعن القرآن الكريم ، صورة بعيدة عن الانصاف والحق . ومن المؤسف أن يكون بعض الأدباء الغربيين في القرون الماضية قد اسرفوا في فاحش القول أمثال دانتي وفولتير . حتى إن الكاتب كارليل الذي اختار أن يكون محمد أحد أبطاله لم ينصف القرآن الكريم وقال فيه قول سوء .

ومما يؤسف له أيضاً أن يكون النبيّ العربي الذي أصرّ على التأكيد أنه بشر قد لاقى من محبّيه ومن أتباعه ضروباً أخرى من عدم التقدير الحقيقي . فقد جعله بعضهم يقوم بالعجائب والخوارق ، وراح آخرون يجعلون من مثاليته صنماً يقدّسونه ويعبدونه .

ولكننا إذا تناسينا ما ناله محمد على أيدي أصحاب التعصب الذميم ، وإذا جرّدنا محمداً الانسان عما ألصقه به غلاة محبّيه من قصص خيالية وأساطير ، فإنه يبرز لنا رجلاً وُجد ليكون زعيماً ، وقائداً ورجل دولة ، ومحارباً ظافراً ، وخطيباً مفوّهاً ، ومعلّماً ، وصاحب رسالة سماوية . فهو ألمع شخصية في تاريخ العرب ، ومن ألمع الشخصيات في تاريخ العالم .

عمر بن الخطّاب

مؤسّس الإمبراطورية الإسلامية

إنمـا مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائـده حيث يقوده ، فأما أنا فورب الكعبة لأحملنهـم على الطريق .

عمر بن الخطاب

في ذلك اليوم الحارّ الشديد الرطوبـة ، يوم الثامن من حزيران سنة ٦٣٢ ، عندمـا سجّي النبي على فراش الموت في منزل عائشة في المدينة ، استولى على المسلمين ذهول عظيم ، وأخذتهم حيرة أشاعت الفوضى بينهم. اما الذين أدركوا أن محمداً بشر ، والبشر يموتون ، فراحوا يبكونه . وامـا الآخرون الذين لم ينظروا اليه كبشر ، فأنكروا أن يكون قد مات . وآخرون غيرهم ممن صعقوا واستولى على عقولهـم شيء من ضباب الحيرة كانوا بين مصدّق ومكذّب . وفي أثناء هذا الاضطراب والصخب سمع صوت كالرعد يقول : « ان رجـالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفي وأن رسول الله مات، والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربّه .. فليُقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات».

وكان صاحب الصوت رجلاً كهلاً ، مديد القامة ، نحيفها ، خفيف العارضين ، وهو عمر بن الخطاب .

وبعد قليل سُمع صوت آخر هادئ مقنع يقول : « أيها الناس ، إن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . وكان صاحب الصوت رجلاً شيخاً نحيل الجسم وهو أبو بكر . قال هذا والدمع يتساقط من عينيه . فانه كان قد ذهب إلى بيت النبيّ فكشف الغطاء عنه وقبّله ثم ردّ الثوب على وجهه وخرج . فهدأت العاصفة ، ودفن النبيّ حيث كان مُسجّى . ونشأ بعد ذلك أمر أشدّ خطورة ، وأكثر واقعية : مَن سيخلفه ؟

كان النبيّ في حياته يجمع بين النبيّ والحاكم والمشترع والقاضي وقائد الجيش. وكانت المشكلة الحقيقية هي من سيخلفه في جميع هذه المهام باستثناء النبوة لأن الرسول كان خاتم النبيين .

انك إذا طرحت سؤالاً قابلاً للجدل وللأخذ والردّ على مجلس يضمّ عدداً من الناس فانك حالاً تفسح المجال لقيام شيع وأحزاب . وعندما طرحت قضية الخلافة للنقاش كان أوّل حزب ظهر حزب المهاجرين، وغالبيّته من قريش ممّن آمن به أول الأمر، وهاجر معه إلى المدينة. ودعواهم واضحة الأسباب. ثم قام حزب الأنصار ، وحجتهم أنهم نصروا النبي وآووه وصحبه ، وقدّموا له العون العسكري ، ولولا هذه الأمور لما قام للاسلام قائمة في بدء أمره . وأخيراً ظهر حزب « الشرعية » إذا جاز لنا أن نستعمل هذا المصطلح ، وكان حزب عليّ ابن أبي طالب . وحجتهم أن علياً هو ابن عم الرسول ، وختنه ، وأبو حفيديه الحسن والحسين ، ومن المؤمنين الأول ، فهو أولى شرعاً — وبناء على رغبة الرسول ذاته [1] — بالخلافة من غيره . وفي بيت علي تكون الإمامة ، وهذا أمر لا يترك للناس أن يتداولوه بل يجب أن يكون نصاً .

(١) تقول الشيعة إن محمداً في الخطبة التي ألقاها في حجة الوداع أوصى بالخلافة لعلي .

وفاز حزب المهاجرين . وكان لديه مرشحان لهذه الوظيفة السامية : أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وكلاهما ختنان للرسول ، وصديقان وفيّان له ، وصحابيان مقرّبان اليه ، ومستشاران يعتمد عليهما ، هذا إلى جانب مقامهما الرفيع في أعين المؤمنين . وكان الرجلان يختلفان الواحد عن الآخر اختلافاً ظاهراً في الشخصية وفي الهيأة الجسدية وفي التصرّف في العمل ، ولكنهما كانا يتفقان في شدة اخلاصهما وولائهما للإسلام، ولصاحب الرسالة الذي جاء بالإسلام. وكان عمر أكثر اقتداراً من أبي بكر ، والواقع أنه كان العقل المفكّر في الصحابة التي كانت تحيط بالنبي. ولكن أبا بكر كان يكبر عمر سناً. كان يكبره بإحدى عشرة سنة ، كما أن أبا بكر كان أسبق منه إلى الإسلام . وكان النبيّ في أثناء مرضه قد طلب اليه أن يقوم بالصلاة الجامعة . فوقع الخيار عليه ، وكان أول من بايعه عمر . وأُعلن أبو بكر خليفة للمسلمين ، وظلّت الخلافة قائمة — ولو بالاسم أحياناً — حتى سنة ١٩٢٤ عندما ألغاها الأتراك الكماليون . وقف عمر إلى جانب صديقه ورفيقه أبي بكر الذي أصبح سيّده ، وعمل معه مخلصاً وفيّاً مدة سنتين كمستشار له دون أن يبدي تذمّراً أو حسداً . ويقول لنا الرواة إنه كان يعمل قاضياً عند أبي بكر في أيام خلافته (٦٣٢ — ٦٣٤) ولكن أثر عمر ، في حياة الإسلام الأولى ، كان أبعد خطراً من كونه قاضياً . فإن عمر حاول أن يجمع القرآن الكريم ، وأن يقضي على حروب الردّة . ويعزى الفضل اليه في أنه كان أول من أوعز أن كلام الله يجب أن يجمع وأن يدوّن في كتاب ، لأن حفّاظ القرآن كانوا يستشهدون بكثرة في الحروب التي كانت قائمة آن ذاك . غير أن أبا بكر اعترض وتردّد قائلاً : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله عليه الصلاة والسلام؟» وكذلك اعترض على هذا الأمر زيد بن ثابت الذي كان كاتب الوحي عند النبي ، والرجل الذي يجب أن يناط به مثل هذا الأمر .

ويقال لنا إن حروب الردة كان سببها رفض القبائل في أنحاء الجزيرة العربية أن تدفع الزكاة ، بعد موت محمد ، وهي فريضة من فرائض القرآن . وأصرّ

الخليفة أبو بكر على قتالهم إلى أن يذعنوا ويستسلموا. والواقع أن هذه الحروب التي يسمونها حروب الردّة لم تكن حروباً لمحاربة المرتدين ، أي الذين قبلوا الإسلام ثم ارتدوا عنه إلى دينهم القديم ، بل كانت بالاحرى حروباً لادخال القبائل في الإسلام . ذلك لأن الجزيرة ، بأطرافها المترامية ، لم تكن بعد قد أسلمت جميعها في حياة النبيّ . فإن مكة ذاتها لم تسلم إلا قبل وفاة النبي بفترة قصيرة . كان لا بدّ أن تصبح الجزيرة العربية بأسرها اسلامية قبل أن تنشر الإسلام في غيرها من البلدان . كان على الجزيرة أن تتغلّب على ذاتها قبل أن تتغلّب على العالم .

كان بطل هذه الحروب جندياً شاباً من قريش اسمه خالد بن الوليد الذي لمع اسمه في تاريخ هذه الفترة ، واكتسب شهرة واسعة . وكان يلقب « بسيف الإسلام » وذلك بسبب قسوته في المعارك . وقسوته هذه أدّت إلى وقوع صدام بينه وبين عمر بن الخطاب انتهى أمره باذلال القائد العظيم في سهول سورية الشمالية .

وكان لعمر أثر بارز في مشوراته أيام النبي . يقال لنا إن من جملة الأمور التي أوعز بها تحريم الخمر (سورة المائدة، الآية ٩٢) وكان هو يدمن الخمرة. كذلك أشار على النبي عزل زوجاته وحجبهن (سورة الأحزاب ، الآية ٥٣) . وكذلك يقال إن عمر هو الذي اقترح اختيار قطعة من الأرض بجوار الكعبة ، حيث ، بحسب ما تقول الروايات ، صلّى ابراهيم ، وتعرف بمقام ابراهيم ، ليبنى عليها مسجد . وهو الذي اقترح أيضاً أن يكون صوت المؤذن لدعوة الناس إلى الصلاة بدلاً من استعمال البوق أو الناقوس ، كما كان يفعل النصارى واليهود . أما في أمور أخرى فان مشوراته كانت عرضة للرفض . وكانت يد عمر سريعة في امتشاقها السيف . فهو الذي بعد موقعة بدر اقترح قطع رؤوس الأسرى. وبعد ذلك عندما دخل النبي مكة ظافراً أوصى عمر أن يُقتل أبو سفيان ، زعيم قومه ، ووالد معاوية الذي أصبح خليفة فيما بعد. ومما يدل على المنزلة التي كانت

له عند النبي اللقب الذي لقّبه به النبي : الفاروق (الذي يفرّق بين الحق والباطل) . ومن أحاديث الرسول قوله : « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وقوله : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » . ومنذ ذلك الوقت حمل اسم « فاروق » كثيرون ، منهم فاروق ملك مصر السابق .

لم يكن لعمر أن يفاخر بأسبقيته إلى الدخول في الإسلام، فقد سبقه إلى ذلك أبو بكر وعلي. كان عمر في الخامسة والأربعين من عمره عندما دخل الإسلام. وقد ظلّ السنوات قبل ذلك من أشدّ أعداء الدعوة وخصومها . ولكن ما إن اعتنق الإسلام حتى اندفع اليه بالحماسة ذاتها ، وبالشعور نفسه ، اللذين ابداهما في عدائه له. ومن بين الذين انصبّ عليهم جام غضبه جاريتُه التي كانت قد اعتنقت الاسلام فكان يجلدها بالسوط ويقسو في جلدها . وفي ذات يوم من سنة ٦١٦ عندما كان النبي مع رهط من صحبه محاصَراً في حيّ ضيّق وأهل المدينة يقاطعونه ، هبّ عمر والسيف في يده لمهاجمة الحيّ . فقال له حارس الباب : « ولم لا تبدأ باختك وصهرك ؟ » فكان لكلام الحارس وقع السيف في نفسه . فارتد إلى بيت اخته وعندما دخل رآها تخبّىء شيئاً لم يستبنه ، ولكن ظن أنه كتاب له علاقة بالدين الجديد . فانهال عمر عليها وعلى زوجها بالضرب . فقالت له ، والدم يسيل من وجهها : « افعل ما تشاء ، فالإسلام لن يغادر قلوبنا » . وبعد أن فاهت بهذه العبارة سلّمته رقعة كتب عليها :

تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العُلَى
الرحمن على العرش استوى
له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى
وان تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى
....
إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلوة لذكري .
(سورة طه الآية ٣ ـ ١٤)

وكان هذا ما غيّر قلب عمر ، فراح يسعى إلى باب بيت الرسول ، وسمع صوتاً من الداخل يقول : « ادخله . فإن كان قادماً للسلام فسلاماً يلقى ، وان كان قادماً للقتال فسيُقتل بحدّ سيفه ». وكان السلام الذي سعى له عمر ووجده نقطة تغيّر في حياته الغنية بالأحداث الجسام ، وأسلم عمر .

ونحن إذا جرّدنا قصة اسلام عمر ، أعظم شخصية عربية بعد النبي ، من بعض عناصرها القصصية (فقد أكثر مؤرخو العرب ، مثل ابن هشام في السيرة وابن سعد في الطبقات ، من الاتيان على ذكرها بأشكال مختلفة) يبرز لنا عمر رجلاً ذا مضاء في العزيمة ، وحدّة في الطبع . وكان ، عند اسلامه ، في الرابعة والثلاثين من عمره . وقصة اسلامه وتحوّله عن دين الجاهلية إلى الإسلام يشبه في نظر النصارى تحوّل شاول اليهودي إلى بولس الرسول المسيحي . ولكن وجه الشبه يقف عند هذا الحدّ . إذ ان كلا الرجلين ، في جهادهما لدعم الدين الذي ينتمي اليه كل منهما ، كانا يختلفان اختلافاً كبيراً ، مما يجعل حياة عمر أقرب شبهاً بحياة القديس بطرس .

وجدير بالذكر أن معارضة عمر للدين الجديد الذي أتى به محمد كانت تصدر عن تخوّف عمر من إحداث انشقاق في قريش . فان العصبية القبلية المحببة إلى نفس كل عربي ، العصبية التي نسميها في لغتنا السياسية اليوم «القومية» ، كانت أمراً خطير الشأن بالنسبة إلى عمر . وكان عمر يعمل كسفير لقبيلته . ذلك أن قريشاً كانت إذا وقع نزاع بينها أو حرب مع غيرها من القبائل كانت تعهد اليه بالسفارة وهي من أجلّ المناصب في الجاهلية . كان يتميّز بموهبتين تؤهّلانه لهذا المنصب : قدرته الخطابية ، وقوة ملامحه الجسدية ، وقد نمت فيه هذه المواهب في سوق عكاظ .

في سوق عكاظ ، بالقرب من الطائف ، كانت تقام سوق سنوية يحضرها رجال القبائل ونساؤهم في الأشهر الحُرُم ومعهم من نتاج أنعامهم ، وغلال واحاتهم ، وصنع أيديهم سلع وبضائع للمقايضة . وكان يفد معهم أهل الفكر :

الشعراء والخطباء . وكان للرياضة الجسدية يومها في عكاظ . فكانت هذه السوق السنوية سوقاً تجمع بين التجارة والرياضة والأدب . فكان الشعراء يتبارون في القاء قصائدهم لنيل الجائزة ، وكانت الجائزة كتابة قصيدته بماء الذهب وتعليقها عند باب الكعبة ، وفي ذلك أكبر مكافأة يفخر بها الشاعر . وقد تحدّر الينا سبع قصائد من هذه المعلقات ، وهي من أحسن الأدب الجاهلي . وكان الشعر في ذلك الحين أحسن ما في حياتهم الفكرية .

وفي أيام شبابه كان عمر يرتاد هذه الأسواق ، وكان يميل إلى الشعر والخطابة . وينبغي أن يكون قد حفظ كثيراً مما سمعه . وقد كان لعكاظ والقرآن الكريم أثر ظاهر في أسلوب عمر الأدبي كما يبدو ذلك جلياً في خطبه ومراسلاته فيما بعد : الايجاز ، والتأثير ، والايقاع ، والوزن . وكان سوطه لاذعاً ككلمه أو لسانه حتى جرى ذلك مثلاً فقيل : « سوط عمر يؤلم كسيفه » . ونشأ عمر على أفضل ما كان ينشأ عليه أبناء قريش من البراعة في الفروسية وحفظ الأخبار والشعر . ويقال إنه كان يبرز في عكاظ للمبارزة . وفي ذات مرّة صرع إلى الأرض فارساً من فرسان البدو الصناديد . ويقال أيضاً أنه كان يستطيع أن يمتطي صهوة جواد وهو يجري وبدون عنان فيستوي على ظهره . وكانت نساء مكة تتغنى بهيبته وبفروسيته . وإذا انصرف عن هذه الأمور عاد إلى تجارته لأنه كان تاجراً .

ونحن نعلم أن مكة كانت فيما مضى أشبه بجمهورية تجارية . ويُظنّ أن تجارة عمر كانت الشعير وغيره من أصناف الحبوب . وكان له مصالح في تجارة القوافل التي كان مركزها مكة . وأما قول المسعودي صاحب مروج الذهب (وهو مؤرّخ متأخر في الزمن) ان عمر كان يزور سورية وإيران فأمر مشكوك فيه . والتجارة تتطلب معرفة القراءة والكتابة ، وكان عمر أول الذين كانوا يقرأون ويكتبون في قريش وعددهم سبعة عشر نفراً على ما ذكر البلاذري .

لم يُعنَ كتّاب السير المسلمون بحياة الناس العائلية للذين أرّخوا لهم ، ظناً منهم أن مثل هذا الموضوع لا قيمة له . ومن ملاحظات متفرّقة في بطون الكتب

نستنتج أنه كان لعمر أربع زوجات أو خمس قبل اسلامه . وكانت احداهن تسمّى عاصية ، فبدّل اسمها باسم آخر فسمّاها جميلة . وحرّم عليه الإسلام أحد أمرين كان يؤثرهما: الخمرة ، ولكن لم يحرّم عليه النساء، فانه ظلّ مغرماً بجميلات النساء. وقد تزوج من تسع نساء ثلاث منهن كنّ جواري فأصبحن من المحظيات. وطلّق ثلاثاً منهن ، واحدة لأنها رفضت أن تدخل في الإسلام . ثم بعد ذلك بزمن عندما راح يخطب إحدى بنات علي ، وذلك تبركاً وتقرباً من آل البيت ، وجد أن عليه أن يدفع مبلغ أربعين ألف درهم مهراً . وراح يخطب أخرى فرفض أهلوها أن يزوّجوه . واحدى بنات أبي بكر ، عندما أراد عمر أن يخطبها ، استشارت أختها عائشة فوجدت أنه « وعر الطبع ، شديد التقشف ، فظّ مع النساء » . وواضح أن بعض هذا الزواج كان لأسباب سياسية كما فعل النبي . واحدى زوجاته ، عاتكة ، ظلّت أمينة وفية إلى جانبه إلى أن توفي. وقد رثته بمرثاة حُفظت لنا .

كان عمر أباً لتسعة بنين وأربع بنات ، وأشهرهن حفصة التي تزوجها النبي في السنة الثالثة للهجرة . وكان عمر في المنازعات العائلية يقف دوماً إلى جانب الزوج . وعندما ولد لمارية القبطية صبي وراح النبي يخصها بعطفه غضبت حفصة وعائشة وكاد غضبها يؤدّي إلى الطلاق، فنزلت الآيات الكريمة في سورة الأحزاب ٢٨ – ٣٢ . وما كانت شؤون عمر كزوج ، وما كانت شؤونه كأب ، لتحول دون القيام بواجباته وبمهامّ وظيفته كخليفة للمسلمين على أتمّ وجه .

– ٢ –

بعد وفاة أبي بكر في شهر آب ٦٣٤ ، والنبي من قبله ، أفسح المجال لرجلين عصاميين هما عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ليقوما بتصريف شؤون المسلمين وبادارة الدولة الجديدة .

في أول خطبة لعمر بعد أن بويع خليفة قال :

يأيّها الناس، إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مُهمّ أموركم، ما توليت ذلك منكم .

غير أننا مقابل هذا نسمعه يقول :

اللهم إني شديد فليّني ، وإني ضعيف فقوّني ، وإني بخيل فسخّني .

هذه الأقوال التي قالها عمر تعكس لنا صورة عن حيوية هذا الرجل ، وعن قوة شكيمته ، وعن راسخ ايمانه بالله وبرسوله، وبنفسه . اما ايمانه بنفسه وثقته بها فمردّها الى قوته الجسدية ومواهبه العقلية . واما ايمانه بالله فمردّه إلى دخوله الإسلام مخلصاً ، واما ايمانه بمحمد فلأنه كان يؤمن أنه رسول الله . غير ان ايمانه بنفسه كان يضعف ويتلاشى إزاء ثقته بالله . اسمعه يناجي نفسه بعد فورة من الغضب ضرب فيها بدوياً بسوطه عندما جاءه هذا البدوي بظلامة . ندم عمر على عمله وطلب إلى البدوي أن يلطمه فأبى ، وانصرف الخليفة ، حتى دخل منزله فصلّى ركعتين وقال يناجي نفسه :

يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزّك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته . ما تقول غداً لربّك إذا اتيته ؟

عندما تولى عمر الخلافة كان الشغل الشاغل للناس في الجزيرة العربية الحرب والجهاد . وكانت هذه الحروب خارج الجزيرة ، لأن معظم الجزيرة العربية كان قد انضوى تحت لواء الإسلام بفضل الحروب التي شنها خالد بن الوليد تحت راية الإسلام . وقد بقيت بعض الخلايا الجاليات غير اسلامية . واتّباعاً لسياسة سلفه القومية طرد عمر النصارى من نجران ، بعد أن عوّض عليهم وسمح لهم بمغادرة الجزيرة إلى سورية .

كان على أولي الأمر ، بعد اخضاع الجزيرة العربية ، أن يوجّهوا الجيوش العربية الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة . وقد جعل الإسلام من المؤمنين إخوة ، حتى إن الغزو بين القبائل — والغزو قديم العهد في الحياة البدوية — لم يبقَ أمراً ترضى عنه السلطة . ولكن كان من الصعب كبح جماح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجّهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة . وجدير بالذكر أن الحروب الاسلامية الأولى خارج الجزيرة كانت تعرف أيضاً بالغزوات أو المغازي . وها هو الواقدي يسم مؤلَّفه عن هذه الحروب الأولى بكتاب المغازي . وكان من أهداف هذه الغزوات المغانم .

أما الخليفة عمر ، الذي أصبح يلقّب بأمير المؤمنين ، فإنه حذا حذو أبي بكر في غزو سورية والعراق ووسع نطاقه . وكان على رأس الجيش الموجّه إلى العراق خالد بن الوليد ، وعلى رأس الجيش في سورية أبو عبيدة بن الجرّاح. وكان أبو عبيدة من الأوائل الذين دخلوا في الإسلام ، وكان صحابياً ، كما أنه كان أحد الثلاثة الذين كان لهم القول الفصل في السياسة التي كان النبي يتبعها ، وفي الأحداث التي تلت وفاته : وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة . ومما سهّل على جيش خالد أن يصل الفرات بيسر وجود قبائل عربية كانت تتوطّن هذه المنطقة منذ عصور قديمة. وكان مركز قوتهم الحيرة في الفرات الأسفل التي كانت ايالة تابعة للفرس . وبالرغم من أنهم كانوا نصارى فان لغتهم كانت العربية . ولم تبدِ الحيرة مقاومة للغزو العربي (٦٣٣) وقبلت أن تدفع الجزية وأن تكون منطلقاً للجيوش العربية في غزواتها إلى المناطق المجاورة لمملكة الفرس .

تلقّى خالد أمر الخليفة من المدينة بأن يوقف زحفه ويرتدّ إلى سورية لمساندة الجيش العربي الذي كانت جيوش بيزنطة تشدّد عليه الخناق . وكان أول انتصار أحرزه فتح دمشق ، عاصمة البيزنطيين في سورية. وكانت مملكتهم السورية تمتد من طورس إلى سيناء . فتحت دمشق أبوابها للفاتحين العرب في شهر أيلول سنة ٦٣٥ ، بعد حصار دام ستة أشهر . وقد وجد العرب الذين

حاصروا دمشق تعاوناً جاءهم من داخل أسوار المدينة . وكان على رأس المتعاونين معهم أسقف المدينة وصاحب الخزينة . وكان صاحب الخزينة والد القديس يوحنا الدمشقي الذي اشتهر بلاهوته وبوضعه الصلوات والتراتيل الدينية للكنيسة السريانية الشرقية . وقد استقبل أهل دمشق الفاتحين بالترحاب وبالهتاف ، ذلك أن العرب كانوا أقرب لغة وعرقاً اليهم مما كان أسيادهم من البيزنطيين . فإن السريانية والعربية لغتان متقاربتان وتنتميان إلى عائلة لغوية واحدة : الساميّة .

وكما أن الحدود الغربية للعراق كانت موطناً لقبائل عربية كذلك كانت الحدود الشرقية لسورية حيث تسرّب اليها عدد من القبائل العربية واتخذت منها موطناً لها . وعلى رأس هذه القبائل كانت غسّان التي أسست ملكاً عاصمته الجابية . وهي على بعد خمسين ميلاً إلى الجنوب من دمشق . وبالرغم من أنهم كانوا، في هذه الحقبة التي نحن بصددها، قد تنصروا وأصبحوا سوريين يدورون في فلك البيزنطيين ، فانهم احتفظوا بلسانهم العربي وبتقاليدهم العربية وبشعورهم أنهم كانوا من أصل عربي .

وقد بدا الدين الجديد ، الإسلام ، لنصارى سورية والعراق وكأنّه فرقة دينية من فرق النصرانية . وبالرغم من أن سورية ظلّت قرابة ألف سنة خاضعة للحكم الاغريقي الروماني فان داخلية البلاد لم تتأثر بالحضارة الهلينية كما تأثرت مدن الساحل ومدن الناحية الشمالية منها التي كانت تشمل انطاكية وسلوقية واللاذقية وغيرها من المدن التي أسسها الاغريق . ولم يكن ترحاب دمشق بأسيادها الجدد ترحاباً فريداً من نوعه ، فان أهل شيزر ، وهي ضاحية بالقرب من حماة ، استقبلوهم استقبالاً حاراً ، وكان في عداد المستقبلين المغنّون وضاربو الطبول .

لم تنظر بيزنطة إلى الكنيسة السريانية في سورية بعين الرضى لأنها لم تعتبرها كنيسة مستقيمة الرأي (أرثوذكسية) لذا وجب على السوريين المسيحيين أن

يغيّروا في دينهم أو أن يلقوا الاضطهاد . وكان وجه الخلاف بين الكنيستين طبيعة السيد المسيح ، وكانت طقوس القداس والعبادة في الكنيستين مختلفة في نشأتها ولغتها وتطورها . وقـد كانت محافظة السوريين الشديدة على طقوس عبادتهم وتمسّكهم بكنيستهم نوعاً من التعبير عن احساسهم القومي بصفتهم أقلية مضطهدة . وبالإضافة إلى الاختلاف الديني بين نصارى سوريـة والبيزنطيين ، فقـد كان هناك اختلاف سياسي مردّه إلى الجفوة التي كانت قائمة بينهما بسبب الضرائب الفادحة التي كانت تُفرَض على السوريين . فكان السوريون يأملون أن يلقوا خيراً من الفاتحين الجدد .

أصبح الصلح الذي عقد بين خالد بن الوليد وأهل دمشق وما تضمّنه من بنود وشروط مثالاً لغيره من عقود الصلح بين العرب والشعوب التي تغلبوا عليها . واليك ما جاء فيه بحسب رواية البلاذري :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها . أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وسور مدينتهم لا يهدم ، ولا يسكن شيئاً من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية [1] .

لم يكن النصر التالي الذي أحرزه خالد نصراً يسيراً . كان ذلك في موقعة اليرموك ، أحد روافد نهر الاردن ، وعند التقاء أحد روافد اليرموك باليرموك نفسه عند سهل الواقوصة . كان عدد جيش المسلمين ٢٥ الف مقاتل ، وكان عدد جيش البيزنطيين ضعفي هذا العدد . غير أن نصف جيش البيزنطيين ، أو أكثر من نصفه ، كان يتألف من الأرمن ، ومن نصارى سورية المتعرّبين ، ومن مرتزقة

(١) البلاذري : فتوح البلدان (القاهرة ، ١٩٣٢) ص ١٢٨ .

لا تكنّ للقسطنطينية شيئاً من الولاء . اما الفئة التي كانت مصمّمة على النصر فقد كانت الفئة الثانية . وقد وعد الله المجاهدين الذين يُقتلون في ساحة الجهاد بدخول الجنة . وبعـد مناوشات ليست بذات بال التحم الجيشان . وكان اليوم أحد أيام حزيران الحارة في سنة ٦٣٦ . وكان يوم عاصفة رملية عنيفة لم تزعج أبناء الصحراء ، لأنهم كانوا يألفون مثل هذه العواصف . وقـد أفلحت القيادة العربية في مناورتها العدو إلى أن حشرته في مثلّث ضيّق بين واديَين ، ووجوه الأعداء تواجه العاصفة برملها الذي له وخز الإبر . ولم يكن لتراتيل الأساقفة الأثر الذي كان لتكبير العرب : « الله أكبر ! » ومن نجا من الجيش البيزنطي من حدّ السيف انتهى به الهرب إلى قاع الوادي . ولم ينج منهم إلا عـدد قليل . كانت معركة اليرموك حاسمة فاصلة بالنسبة إلى مستقبل سوريـة التي كان البيزنطيون يعتبرونها أحسن ولاياتهم . وأدرك هرقل الذي حشد أكبر قوة ، وعلّق عليها الآمال الجسام ، خطورة الهزيمة . وكانت آخر عبارة فاه بها وهو في طريقه إلى بلاده « عليك يا سورية السلام ، ونعم البلد هذا للعدو » .

كانت هزيمة هرقل النكراء ومغادرته سورية بالطريقة المخزية التي غادرها بها عاملاً في اشاعة الفوضى والهلع في شمالي سورية . اما في الجنوب فان بيت المقدس (ايلياء) — وهو من المقدسات الاسلامية بعد مكة والمدينة — سقط في أيدي المسلمين بعد حصار دام زمناً طويلا .

بعد أن بلغ خالد « سيف الإسلام » وبطل الفتوحات في سورية والعراق ، علياء مجده أذله عمر وألحق بـه الهوان . كان عمر يضمر لخالد بعض السوء في عهد الخليفة أبي بكر . وقد بلغ مسمع عمر أن خالداً يعيش عيش البذخ والترف ، ويغدق على أعوانـه والمعجبين به من العطايا الشيء الكثير . فاستاء عمر وهو الخليفة الزاهد المتقشف . وأخبر عمر أن شاعراً مدح خالداً بمناسبة انتصاراتـه العسكرية فنال منه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم . ويقال لنا إن عندما عمر سأل خالداً عن نفقاته وعن نصيب بيت مال المسلمين أجابه جواباً جافاً لا يخرج عن

القول إن الأمر لا يعنيك . وكان نصيب بيت المال من الفيء (سورة الحشر الآية ٦-١٠) الخمس .

ثم إن عمر أمر قائده أبا عبيدة أن يستوضح خالداً ، وإذا وجد أنه مذنب أن يعقله بعمته وأن ينزع عنه قلنسوته . وقد صعق الناس عندما بلغهم خبر اذلال خالد . ويبدو أن خالداً تنازل طوعاً عن مركزه في سورية وسلّم نفسه لأمير المؤمنين في المدينة . وأعاد إلى بيت المال مبلغ عشرين ألف درهم . عندها كتب عمر إلى الأمصار يقول : « اني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فخّموه وفتنوا به فخفت أن يوكّلوا اليه فأحببت أن يعلموا ان الله هو الصانع.. [1] » . والواقع أن هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يفصح عمّا كان يضمره من حسد . لا يمكن أن تلمع في فلك عمر شمسان .

وكان خالد أول بطل عسكري أذلّ في تاريخ العرب . توفي (حوالي ٦٤٢) في ضاحية من ضواحي حمص حيث لا يزال في المدينة جامع جميل حديث العهد يعرف باسمه .

بعد هذه الفتوحات الرائعة جاء دور التنظيم الإداري . كيف يتسنّى لحاكم لا عهد له بالشؤون الدولية أن ينظّم أمور بلدان كانت على كثير من التحضّر والتقدّم ؟ رأى عمر بثاقب بصره أن يجمع قوّاده للتداول والتشاور . فدعاهم إلى الاجتماع به في الجابية وكان مقرّ قيادة الجيش السوري . ووصلها الخليفة (سنة ٦٣٨) راكباً جملاً ولابساً ثياباً رثة يحيط به أعوانه وخواصّه . ولم يكن في استقباله شيء يدل على عظمة القادم اليهم ورفيع مقامه ، فلا أهازيج ولا قرع طبول . ثم قام بلال مؤذن النبي يدعو إلى الصلاة ، وكان بلال قد انقطع عن الأذان بعد وفاة النبي . وأول بادرة بدرت عن عمر شجبه قوّاده لقدومهم راكبين الجياد ولابسين الثياب السورية المزركشة المطرّزة .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) الجزء الثاني ص ٣٧٦ .

لم يحفظ لنا التاريخ سجلاً بما حدث أو بالمقررات التي اتخذت في ذلك المؤتمر الخطير الأول . ولكننا بناء على التطورات التي حدثت بعد ذلك نستطيع أن نتبيّن المخطّط الذي وضع والمقررات التي اتخذت . فقد أبقي على التنظيم الإداري البيزنطي ، ولم يطرأ تغيير على تقسيم الولاية إلى مقاطعات . ووضع نظام للضرائب . كما انه تقرر وضع الديوان . لذا قيل إن عمر كان أول من دوّن الدواوين لتسجيل الأموال التي تدخل بيت المال لتوزّع على المسلمين بحسب قرابتهم من آل البيت وبحسب اسبقيتهم إلى الإسلام . وفي ذلك المؤتمر أقرّ أبو عبيدة عاملاً على ولاية سورية .

وعندما كان عمر في سورية زار بيت المقدس . وكان لزيارته وقع في نفوس نصارى المدينة لا يقلّ شأناً عن وقعه في نفوس المسلمين . وقد ترك لنا ثيوفانس هذا الوصف :

> دخل المدينة المقدسة لابساً ثوباً رثّاً من وبر الجمل ، وعلى محياه دلائل التقوى والورع . ثم طلب إلى أعوانه أن يروه هيكل اليهود الذي بناه سليمان لكي يؤدّي صلاته فيه . وعندما رآه رئيس الأساقفة صفرونيوس صاح قائلاً : « هذا هو الرجس المخرّب الذي تكلّم عنه دانيال (١١ : ٣١) واقفاً في المكان المقدّس » .

ويذكر المؤرخون العرب الحادثة التالية التي وقعت أثناء زيارته بيت المقدس: عندما كان رئيس الأساقفة يطوّف بالخليفة ليرى كنيسة القيامة حان وقت الصلاة ، فقدّم له الأسقف سجّادة لكي يؤدي عليها صلاته . فأبى الخليفة أن يصلّي في الكنيسة ، خوفاً من أن يقوم أتباعه فيدّعوا ملكية المكان الذي صلى فيه . وخرج إلى باحة الكنيسة وصلّى . وعلى البقعة التي صلّى عليها عمر بني مسجد يُعرف بمسجد عمر .

بعد ذلك بزمن قصير تفشّى وبأ الطاعون في عمواس ، مقر جند المسلمين في

فلسطين ، وفتك بسكان الولاية فتكاً مريعاً . ولما وصل خبر الطاعون إلى عمر أذن لأبي عبيدة وللقواد الآخـرين أن يعودوا إلى المدينة ، ولكن أبا عبيدة أبى قائلاً : « افراراً من قدر الله ؟ » فأجاب عمر قائلاً : « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » . ومات أبو عبيدة مصاباً بالطاعون الذي قيل إنه فتك بخمسة وعشرين ألف نسمة . وأصبح قبره مزاراً يتبرّك به الناس .

وكانت سورية منطلقاً للمسلمين لمتابعة الفتوح في مصر وأرمينيا . وكان البطل الذي فتح مصر عمرو بن العاص قائد جند سورية . فكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في فتح مصر . وكان عمرو بن العاص قد دخل مصر في الجاهليـة وعرف مدنها وطرقها . ويبدو أن الخليفة بعد أن استشار عثمان وسواه تخوّف من الأمر فبعث بكتاب إلى عمرو بن العاص يقول فيه : « فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض بوجهك واستعن بالله واستنصره » . وسار عمرو دون أن يفضّ الكتاب خوفاً من أمر بالمنع ، وبعد أن دخل مصر فضّ الرسالة .

لم يكن لعمرو من ندّ في جرأته ودهائه العسكري سوى خالد بن الوليد . كان عمرو ، كما كان خالد ، قرشياً دخل الإسلام في وقت لاحق . سار عمرو على رأس قوة تتألف من أربعة آلاف مقاتل—ثم ارتفع العدد فيما بعد إلى عشرين ألفاً— واجتاز الحدود السورية المصرية . وكان فتح مصر من الشرق إلى الغرب أيسر من فتح سورية من الجنوب إلى الشمال . وكان الفتح يسيراً في مصر للأسباب ذاتها التي يسّرت للمسلمين الفتح في سورية . فإن أهل مصر كانوا يختلفون عن البيزنطيين عرقاً ولغة . وكان نصارى مصر ينتمون إلى طائفـة مسيحية غير الطائفة التي ينتمي اليها البيزنطيون . وكان حاكمهم المقوقس رئيس أساقفة الاسكندريـة يتّبع سياستين ، الأولى منها دينية تهدف إلى ردّ الأقباط عن فرقتهم إلى دين الدولة القويم ، وسياسة تستهدف ارهـاق الشعب بفرض الضرائب الباهظة . ذلك أن الاقباط كانوا في عقيدتهم بالمسيح يتّفقون مع السريان لا مع البيزنطيين.

فكان الاقباط ، كالسريان في سورية ، يعلّلون النفس بأن يكون الفاتح الجديد أرحم من الحاكم القديم .

وقد عرض عمرو على المقوقس الجزية أو الدخول في الإسلام أو السيف . فلم يكن من خيار لدى المقوقس سوى الحرب . وبعد حصار ضربه العرب حول حصن بابليون (وموقعه في ضاحيـة بالقرب من القاهرة) ودام سبعة أشهر ، سقط هذا الحصن في أيدي العرب ، الأمـر الذي مهّد الطرق نحو العاصمة ، الاسكندرية . ويذكر المؤرخون العرب الذين أرّخوا فتح مصر الانطباع الذي تركه المسلمون في نفوس أهل مصر . عندما رجع الوفد المفاوض إلى حاكم مصر سألهم : كيف رأيتم القوم ؟ فأجابوا :

رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب اليه من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ، ولا مهمة ، إنمـا جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهـم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد [١] .

كان في الاسكندرية حامية بلغ عددها خمسين ألف مقاتل . وكان لها سوران حصينان يحيطان بها ، واسطول قوي ، وخندق أمام حصونها مما جعلها مدينة لا يمكن لعدو أن ينفذ اليها . ولكن الاسكندرية لم تبدِ مقاومـة ، ذلك بسبب الأحزاب الداخلية في المدينة ، وبسبب ما تسرّب إلى الأهلين عن طريق القواد العائدين من ساحة الحرب من أخبار مخيفة أدخلت الرعب في قلوبهـم وافقدتهم ثقتهم بأنفسهم . وهكذا سقطت الاسكندرية في شهر أيلول سنة ٦٤٢ وجلا البيزنطيون عنها . فكتب عمرو رسالة مقتضبة إلى الخليفة يقول فيها :

أما بعد فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ، طبعة ثوري (نيوهافن ١٩٢٢) ص ٦٥ .

أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربع مئة ملهى للملوك (١) .

وكانت شروط الصلح الذي عقد بين المسلمين ومصر مثل الشروط التي فرضت على سورية وحافظ العرب على شؤون التنظيم القديم المتّبع في مصر ، وأبقوا الموظفين الاقباط في مراكزهم الادارية ، وفرضوا الجزية .

أما القصة التي تقول إن عمراً أحرق مكتبة الاسكندرية بإشارة من الخليفة وأحمى بها حمامات المدينة مدة ستة أشهر فإنها رواية مسلية لا تاريخ علمي رصين. تقول القصة ، التي تكرّر ذكرها في كتب التاريخ ، ان الخليفة أوعز إلى عمرو ما مفاده : إذا كانت الكتب في هذه المكتبة تطابق ما جاء في القرآن الكريم فانها عديمة الجدوى ، وإذا كانت لا تطابق ما جاء في القرآن الكريم يجب احراقها . ان هذه الرواية التي ذكرها عبد اللطيف البغدادي جاءت بعد هذه الحوادث بستة قرون . والكتب التي زعموا انها استعملت وقوداً يمكن أن تكون من البردي . ومهما يكن من أمر فإن زمن الفتح العربي لم يكن في الاسكندرية مكتبات كبيرة كالتي تشير اليها القصة .

كانت مصر بالنسبة إلى العرب الفاتحين ، من وجهة سياسية ، منطلقاً لفتوحات جديدة في شمالي افريقيا، ومن وجهة اقتصادية اهراء للجزيرة العربية كما كانت من قبل اهراء لروما . وراح عمرو يحكم مصر من مقرّ جنده ومن عاصمته الجديدة الفسطاط (بالقرب من بابليون) على انها ولاية مستقلة كما فعل من قبله خالد في سورية . ولكن عمرو كان سياسياً يفوق زميله خالداً في الدهاء والحنكة . وعندما أراد عثمان أن يكون عمرو على الحرب وآخر على الخراج احتج عمر على هذا الاجراء قائلاً :

« أنا ، إذن ، كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها » .

(١) ابن عبد الحكم : ص ٨٢ .

في هذه الأثناء لم يكن كل شيء هادئاً على الجبهة الشرقية : فقد خلف خالداً في القيادة سعد بن أبي وقّاص . ومن المرجح أن يكون الخليفة عمر قد فكر في التوقّف عن التوسّع شرقاً والاكتفاء بما حقّقته جنود المسلمين في سورية ، ذلك لأن بلاد فارس تختلف تاريخياً وحضارياً عن البلدان التي احتلها العرب ، ولم يكن هنالك من الروابط بين فارس والجزيرة العربية ما كان بينها وبين العرب المتنصّرة في سورية . ولكن كيف يستطيع الخليفة ان يحد من طموح قواده الذين أسكرهم النصر؟ وازدادت شاهية الجنود إلى المغانم والاسلاب، كما ان أهل المدينة ومكة أصابهم من خير الفيء والخراج ما لا عهد لهم به من قبل . فلم يكن مناص من حتميّة تطور الأمور ، وهو متابعة الفتوح . أضف إلى هذا الضعف الذي أصاب كلاً من بلاد فارس وبيزنطة من جرّاء الحروب المتواصلة بينهما مما أضعفها وأغرى المسلمين للايقاع بهما .

أرسل سعد من مقرّ جنده في الحيرة، على نهر الفرات، رسلاً إلى الامبراطور يزدجرد وهو في المدائن عاصمته . فاستقبلهم يزدجرد في قصره الامبراطوري . وراح يزدجرد وحاشيته من الوزراء والقواد يتفرّسون في وجوه هؤلاء البدو وينظرون إلى ملابسهم الرثة وإلى النعال البالية في أرجلهم ، وإلى الأسلحة البدوية الصحراوية على أكتافهم ، ولا شك أنهم راحوا يسائلون أنفسهم : أيتجرأ هؤلاء البدو على تحدّي فارس وعظمتها ؟

فلما سألهم يزدجرد عمّا جاء بهم ودعاهم إلى غزو فارس أجاب مقدّمهم (النعمان بن مقرن) وقال :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشرّ ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة ... فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرّ منه الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة .

هذه الدعوة – إلى الدخول في الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب – وان اختلفت عبارة فإنها كانت واحدة يعرضها رئيس الوفد المفاوض لدى الأعداء . وقد غضب يزدجرد من كلام مقدّمهم وقال : « لولا ان الرسل لا تُقتل لقتلتكم. لا شيء لكم عندي » .

غير ان سعداً لم يضع الوقت سدى ، بل توجه من الحيرة إلى القادسية وهي بمثابة البوابة التي تؤدّي إلى بلاد فارس . وهنا التحم الجيشان لأول مرّة . كان ذلك في ربيع سنة ٦٣٧ . وكان تحت امرة سعد عشرة آلاف مقاتـل وستة أضعاف هذا تحت امرة رستم . وكان لمرأى الفيلة في ساحة المعركة ما كان لمرأى الدبابات لأول مرة في الحرب العالمية الأولى . نظر العرب إلى هـذه الحيوانات الهائلة وعلى ظهورها جنود يحملون الرايات تزحف وكأنها قلاع متحركة . وقد نصح أحد الأسرى من الفرس أن يفقأوا عين الفيل فإنه يفقد قدرته على الحرب. وكان سعد يقول لرفيقَيه « اكفياني الأبيض » وكان فيلا هائلا يقود القطيع . ثم « اكفياني الأجرب » حتى إذا قُتلا شعر العرب بالارتيـاح قليلاً . ثم ان رستم وقع في الأسر وقتل ، فتفرّق الجيش الفارسي ، وتمّت الغلبة للعرب ، وأصبحت جميع المناطق الواقعة إلى شرقي دجلة تحت رحمة جيش المسلمين .

وصل خبر الهزيمة النكراء التي حلـّت بالفرس في القادسية إلى مسمع أهـل المدائن . ثم تلاه وصول خبر عبور المسلمين نهر دجلة وهو في فيضانـه . وكانوا يعتبرون دجلة خطـّاً دفاعياً حصيناً ضد أية هجمات على المدائن . ما إن وصلت هذه الأخبار السيئة حتى أسرع الامبراطور وحاشية بلاطه وقواده إلى الهرب ، مخلـّفين وراءهم الكنوز الثمينة التي تكدّست في ايوان كسرى في خلال قرون عديدة . لم يكن لديهم متسع من الوقت ليأخذوا معهم شيئاً. والذين ظلـّوا من حامية العاصمة لم يبدوا أية مقاومة . وهكذا وقعت أعظم مدينـة في غربي آسيا قوة وفخاراً ، المدينـة التي كانت وارثة نينوى وبابـل ، ومنافسة القسطنطينية . ذلك اليوم من شهر أيار سنة ٦٣٧ ، عندما أذّن المؤذّن من على

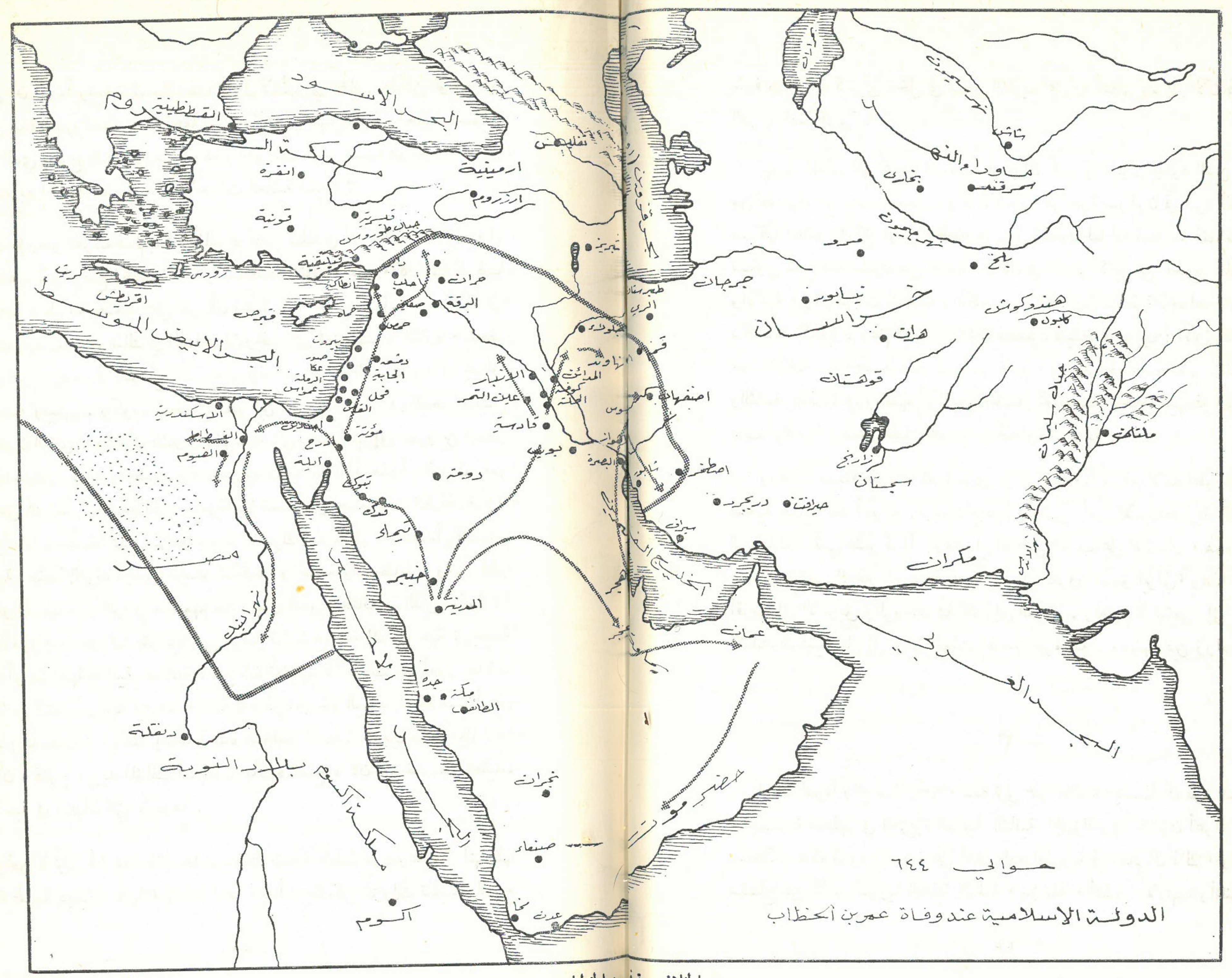
شرفات ايوان كسرى دخل في سجل التاريخ على أنه أعظم يوم إلى الآن في تاريخ العرب العسكريّ .

بهرت المغانم التي غنمها المسلمون في ايوان كسرى عيون الجنود الذين قدموا من الصحراء ، وسحرت خيال رواة الأخبار ، فراحوا يسرفون في سرد أقاصيص صدّقها أعظم مؤرّخ عربي : الطبري . يؤكـّدون لنا ان قيمة ما غنموه كانت تساوي تسع مئة مليون من الفضة . وكان في القصر كثير من الحرير المطرّز ، والآنية ، والمزهريات الذهبية والكراسي والطنافس المطعّمة بالجواهر ، وجميعها بكميات كبيرة . وغنم العرب كذلك قطعتين فنيتين فريدتين : الأولى تمثـال حصان كلـّه من ذهب وعليه سرج من فضة ، وجسم الحصان مطعّم بالفيروز ، والثانية سجّادة في وسطها بركة من الخضار تحيط بها أشجار عليها ثمر ، ونباتات ذات أزهار ، وطيور تلمع بالجواهر والحجارة الكريمة .

ووقعت مدينة فارسية تلو أخرى في يد المسلمين ، ووقع الامبراطور الهارب ضحية لجشع أحد أعوانه . وبموت يزدجرد انتهى أمر الامبراطورية الفارسية التي عاشت اثني عشر قرناً . وفتح ايران حمل العرب على الاتصال ، هذه المرّة ، بشعوب تنتمي إلى غير العرق السامي ، بل إلى العرق الهندو ايراني ، وهذا الشعب أقرب إلى الاغريق والرومان مما كانوا إلى العرب . ولغتهم لا تنتمي إلى عائلة اللغات الساميّة بل إلى عائلة اللغات الهندو جرمانية . ودينهم دين زرادشت .

– ٣ –

لو ان امرءاً راح سنة ٦٣٤ ، سنة تولي عمر الخلافة ، يتنبأ أن قوة عسكرية جديـدة ستظهر في الجزيرة العربية النائية المجهولة وفي غضون أعوام عشرة ستتغلـّب هذه القوة الجديدة على أعظم امبراطورية في العالم آن ذاك ، وانهـا ستسلخ عن الامبراطورية العالمية الثانية ، بيزنطة ، أفضل ولاياتهـا وأغناهـا ،



الخلافـة [illegible] بن الخطاب

أقول لو أن امرءاً راح يقول مثل هذا القول لاتُّهم في عقله . ولكن الواقع هو أن مثل هذا العمل العظيم قد تمّ فعلاً – وتمّ كله في عهد خليفة واحد. والسؤال الخطير الذي يطرح نفسه على متتبّع هذه الحوادث هو : مـــا هو الدور الخاص الذي قام به الخليفة عمر في هذه الأحداث العالمية المثيرة ؟

أما مؤرخو العرب فلم يكن يخامرهم أدنى شك في أن الخليفة الأول ، أبا بكر ، هو الذي وضع الخطط لها ، وان الخليفة الثاني ، عمر ، كان المنفـّذ لها بحذافيرها ، على انه يصعب على المرء أن يتقبّل هذا الرأي . فإننا ، بنـــاء على اشارات وردت هنا وهناك في المصادر التاريخية التي تعني بهـذه الفترة ، نلحظ تحفـّظ عمر وتردّده في التوسّع السريع . فإنه أمر قواده العسكريين ألا يجعلوا البحر بينه وبينهم . ركوب البحر في نظر ابن الصحراء خطر ، والبحر حائـل يحول دون الناس . ولنا أن نشير إلى الرسالة التي بعث بها إلى عمرو بن العاص عندما استشاره في غزو مصر . كان عمر في كتابه متردّداً حذراً . ثم ان عمر شدّد على أن تظلّ جيوش الفتح منعزلة فلا تنغمس في حياة المدن المترفة ، ولا تمتزج بأهلها . وهـذا مما يوفـّر لها سرعة التحرك والانتقال . وتنفيذاً لهـذه السياسة اختطّ القواد مراكز للجند كالكوفة والجابية والفسطاط . وقد نظر مؤرخو العرب – وكانوا في معظمهم من رجال الدين وعلمائه – الذين دوّنوا لنا هذه الأمور بعد حدوثها بقرنَين من الزمن نظرة خاطئة إن من جهة تاريخية زمنية أو من جهة مثالية عقائدية . لذا كان تعليلهم للأحداث أنها أمور حدثت بعناية من السماء ورعاية من الله ، تماماً كما فسّر مؤرخو اليهود احتلالهم أرض الميعاد (فلسطين) . وعند إعدادنا هذه الدراسة اعتمدنا كتابين موسومين بهذا العنوان « فتوح » يريد المؤلف أن يقول بأن « الفتح » كان مدخـلاً للعقيدة الإسلامية في البلدان التي فتحوها .

ونحن لا نرى أن هذه الفتوحات جاءت نتيجة لخطط موضوعة ، أو انها كلها نتيجة لحماسة دينية ، لأنها ، كما قلنا آنفاً ، بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح

الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل ، وخلقاً لمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان . ولكن هذا لا ينفي الحقيقة ان هـذه الحروب كانت تُشنّ باسم الخليفة وبأمره وباشرافه – من المدينة – وكامل مسؤوليته .

ومما أسرف فيه المؤرخون أمر الدور الذي قام به عمر في تنظيم الامبراطورية الجديدة تنظيماً إدارياً . حقاً ان عمر وضع الأسس العريضة لهـذا التنظيم ، ولكن هيكل الإدارة ونظامها العام لم يتـّخذا شكلها النهائي إلا بعد انقضاء فترة ليست بالقصيرة . فإن لغـة الديوان في سورية ، مثلاً ، ظلـّت اللغـة الاغريقية إلى أن بلغت الدولة الأموية ذروتهـا في القوة والتنظيم . وكذلك الأمر في بلاد فارس ، فإن اللغة الفارسية ظلـّت لغة الديوان زمناً طويـلاً . وكان الخليفة عمر يشدّد في أن يكون عمال الولايات مسؤولين عن تأدية الحساب عن آخر درهم يدخـل بيت المال . ويجب ألا ننسى أن الخليفة عمر كان تاجراً قبل أن يكون خليفة . وكان الحجّ السنوي يفسح له المجال لكي يلقى عمّاله فيسألهم عن تأدية الحساب . وكان شديد الحرص على انفاق مـال الدولة على الوجه الاتمّ . وعندما أعطى عاملهُ على البصرة مالاً لابنَي عمر ليقوما بتجارة في الحجاز لم يوافق عمر على هذا القرض إلا بعد أن توسّلا اليه ووعدا بردّ رأس المال إلى بيت المال ، والاحتفاظ بالربـح . غير أن الأموال التي كانت ترد إلى المدينة من الأمصار كانت تفوق حدّ التصور . يقال لنـا ان عمر أظهر بعض الشك في صدق عامله على البحرين الذي قدم المدينة ومعـه نصف مليون درهم لبيت المال . طلب الخليفة إلى عامله أن يعود اليه صباحاً ، وعندما سأله ثانيـة عن هذا المال كرّر العامل قوله . فوقف عمر يقول : « أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلناه كيلاً وان شئتم أن نعدّ عدّاً » .

وكما ان الروايات أسرفت في سرد أخبار التنظيم المالي الذي أحدثـه عمر فانها تسرف أيضاً في أخبار التنظيم القضائي . امـّا ان عمر فضل القضاء فعين قاضياً للبصرة وآخر للكوفة فأمر ثابت ، غير ان مـا يُعزى اليه من وصايا

وأوامر أصدرها لقضاته فهو مما أحدثته السنون اللاحقة والتطورات القضائية التي طرأت في حقب متأخرة في الزمن. كذلك أمر العهد الذي قطعه للنصارى فإن ما جاء فيه من قضايا ومشكلات لا يمكن أن يكون قد وقع في تلك الفترة . غير أننا لا ننكر ما كان لعمر من علم راسخ في أمور الشرع الإسلامي، كما أننا لا ننكر عدله في قضائه . ويتضح لنا عدله من قوله :

« انه والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منه » .

وقد ظهر عدله في قصة جبلة بن الأيهم ، آخر ملك من ملوك الغساسنة . عندما زال ملك الغساسنة دخل جبلة في الإسلام وسار في حجة إلى مكة . وعندما كان يطوف حول الكعبة وطىء اعرابي طرف ثوبه فلطمه جبلة. وعندما بلغ الخبر عمر أمر الأعرابي أن يلطم جبلة . فاستعظم جبلة هذا الأمر وارتدّ عائداً إلى القسطنطينية مؤثراً ارستقراطية البيزنطيين على ديمقراطية العرب .

وقصة عبد الرحمن بن عمر مأساة تظهر لنا ما كان عليه عمر من عدل في القضاء . أمسك عبد الرحمن مخموراً ، فلم يُنزل به عامل مصر ، عمرو ، الحدّ كما يجب أن يكون عليه الحد . فاستدعى الخليفة ابنه وجلده على مرأى من الناس ، وبالرغم من توسّل ابنه ومن طلب الرحمة لأنه مريض . وتوفّي عبد الرحمن. والغريب أن المؤرخين المعاصرين الذين يكتبون سيرة عمر يتغاضون عن عنصر القسوة في هذه الحادثة، تماماً كما أنهم يتغاضون عن قسوته في معاملته خالداً واذلاله بعد خدماته الجلّى . ولكن عبادة الأشخاص تحول دون رؤية الخطإ في من يعبدونه . ونحن نعلم ان عمر ندم مرّة على فعلته عندما ضرب بدوياً بدرّته عندما جاء يستعديه . غير ان الشيعة ليسوا في عداد الذين يرفعون عمر إلى مرتبة التقديس ، ذلك لأنهم يعتقدون بان عمر أفسد على عليّ أمر الخلافة بعد وفاة النبي ، وكذلك الصوفيون لأنهم كانوا يرون فيه الرجل الواقعي إلى أبعد حدود الواقعية .

- ٤ -

لم يأبه الناس الذين جاءوا لصلاة الظهر يوم الجمعة في الثالث من شهر تشرين الثاني سنة ٦٤٤ ، لرجل ملتفّ بعباءة سوداء متكىء على عمود عند مدخل المسجد. وعندما دخل الخليفة ، وقد عرفه القاتل من قامته المديدة، استلّ الرجل خنجراً أغمده في صدره . فسقط عمر إلى الأرض والدم يسيل منه بغزارة . فسقاه « طبيب جرّاح » حليباً ، وعندما رأى في الدم شيئاً أبيض قال انه ميت . دفن عمر في بيت عائشة إلى جانب قبري صديقيه محمد وأبي بكر . ولكن الاضطراب الذي ساد الجمع لم يحل دون الإمساك بالقاتل الذي كان نصرانياً ايرانياً وتقطيعه إرباً إرباً . وقيل ان القاتل، أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ، أتى عمر يشكو ظلم مولاه ، ولكن الخليفة لم ينصره. ويرى آخرون ان الجريمة جاءت نتيجة مؤامرة فارسية لأن العرب قضوا على ملكهم. ولكن ليس في الحجج التي يوردونها ما يقنع .

كان عمر أوّل خليفة مات قتلاً . وقد لاقى الخليفتان بعده المصير ذاته . وقد ظلّ حتى يومه الأخير رجلاً على غاية من البساطة والتقتير في عيشه ، وظلّ رجلاً أميناً وفياً لرسالته . ولم يفارقه إيمانه المثلث الذي أشرنا إليه آنفاً : إيمانه بالله ، وبمحمّد رسوله ، وبنفسه . ولم تكن السلطة التي تمتّع بها في حياته لتفسد من خلقه الكريم ، ولم يقو الزمن بموته أن يقلّل من شهرته . يقول رجل باكستاني ، شبلي نعماني ، في كتاب له عن سيرة حياته : « كان عمر يجمع في شخصه وفي آن واحد الاسكندر ، وأرسطو ، والمسيح المنتظر ، وسليمان الحكيم ، وتيمور وانوشروان ، والإمام أبا حنيفة وابراهيم أدهم الصوفي [1] » .

---

(١) Shibli, Nu'mani, Umar the Great, Tr. Muhammad Salem (Lahore, 1957), Vol. II, P. 351.

يحتل عمر بن الخطاب المرتبة الثانية في قائمة عظماء التاريخ العربي . فقد كان مؤمناً وقف حياته في سبيل الإسلام ، وقائداً يلتهب حماسة ، ومقوّضاً لاحدى أعظم الامبراطوريات في العالم ، ومؤسساً لمنصب الخلافة التي كانت قوة تربط العالم الإسلامي في مدى ثلاثة عشر قرناً .

مُعَاوِيَة

مؤسّس الإمبراطوريّة العربيّة

لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها ، إذا مدّوها خلّيتها وإذا خلّوها مددتها .

معاوية بن أبي سفيان

في سنة ٦٦١ انتهى عصر الراشدين في المدينة وبدأ عهد الأمويين في دمشق . وكان هذا التبدل في الحكم أكثر من مجرّد تغيير في السلالة المالكة وأكثر من مجرّد تغيير اقليمي . فإنه كان تبدّلاً تناول فلسفة الحكم ، والنظرة إلى الدين ، والاتجاه الحضاري . ولذا كاد عام ٦٦١ أن يكون أخطر عام من أعوام القرن الأول الإسلامي . وكان بطلا المشهد الأول من هذه الرواية علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

– ١ –

كان علي ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً ، ابن عمّ النبي ، وزوج ابنته فاطمة ، وأبا حفيدَيه : الحسن والحسين . وكان أبوه هو الذي آوى محمداً ووفّر له

العناية والحماية . وكان علي أول ، أو ثاني ، رجل آمن به . اما معاوية فقد كان أحد أبناء عشيرة قرشية من الأشراف . وكان أبوه أشدّ أعداء النبي عنفاً. دخل الإسلام في وقت لاحق، وكان ذلك في السنة التي دخل فيها محمد مكّة ظافراً . ولعلي سجلّ رائع في الأعمال البطولية في الحرب ، بدأ بموقعة بدر التي ابلى فيها بلاء حسناً، وأصبح بعدها حامل راية النبي. وكان سيفه « ذو الفقار » مضرب المثل . أما معاوية فلم يكن له مثل هذا السجلّ . كان بضربة سيفه يقطع الفارس، وهو على صهوة جواده ، إلى نصفين ، النصف الأسفل يبقى على الجواد ، ويتدحرج النصف الأعلى على الأرض . ولذا قال الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقار (م) ولا فتى إلا علي

ولم يكن إنسان مثل عليّ في ورعه وتقواه ، وحفاظه على الشعائر الاسلامية ، وفي تزهّده في عيشه وانصرافه عن ملاذّ الدنيا . اما إسلام معاوية فقد كان موضع شك وريبة . ويبدو ان اسلامه كان ذريعة ووسيلة ، أكثر مما كان إيماناً وعقيدة . غير ان الرجلين كانا يتفقان في أمر واحد هو انهما ولدا في مكة حوالي سنة ٦٠٠ م .

بدأ الصراع حول الخلافة بمقتل الخليفة الثالث ، عثمان ، في١٧ حزيران سنة ٦٥٦. وكان عثمان أُموياً. وقد اتّهمه خصومه بأنه كان رجلاً يشغل نفسه بأمور الدنيا . ونقم الناس عليه محابائه لذوي القربى ، كما أنهم اتّهموه بأنه لم يكن متشدّداً في تطبيق الشرع . وهو أول خليفة سفك مسلم دمه نتيجة لمؤامرة اشترك بها المسلمون بمن فيهم علي ، على ما يرجح . وكان مقتله سبباً في أول فتنة بين المسلمين . ولم تقتصر عواقب هذه المنازعات الخطيرة على تسميم الجوّ طوال خلافة عليّ (٦٥٦ – ٦٦١) بل تعدّتها إلى الأجيال اللاحقة .

أول مشكلة جابهت علياً عند تولّيه الخلافة قيام منافسَين له قويّين من مكة تعضّدهما عائشة ، أمّ المؤمنين. وكان النبي قد تزوّج منها وهي صغيرة

السن لا تزال تلهو بالدّمى التي جاءت بها من بيت أبيها أبي بكر . وكانت تضمر البغضاء لعلي بسبب حادثة جرت لها يوم تخلّفت عن الموكب عندما كانت في سفر مع النبي . فارتاب علي في سلوكها ونزل الوحي ببراءتها (سورة النور ١١ – ٢١) ولكنها لم تنس ذلك لعليّ . وكان عليّ ، بخلاف أسلافه وبخلاف الذين أتوا بعده ، يقود جنوده بنفسه ، فانطلق يقمع الفتنة ، وأحرز نصراً كبيراً على القائمين بها بالقرب من البصرة وذلك في ٩ كانون الأول سنة ٦٥٦. وتعرف هذه المعركة بيوم الجمل لأن عائشة كانت تبعث الحماسة في نفوس الثائرين وهي راكبة جملاً . وكان من نبل علي انه جزع على منافسَيه اللذين سقطا في المعركة، وبكاهما، ثم صلى عليهما. وأمر أن تُردّ عائشة أم المؤمنين إلى المدينة المنوَّرة يرافقها حرس يليق بمكانتها . وبعد أن استتب له الأمر راح يعزل أمراء الأمصار الذين استعملهم عثمان ، والعمال الذين كانوا يدينون لعثمان بالولاء ، واستعاض عنهم بغيرهم ممن بايعوه . ولكنه لم يصفّ حسابه مع معاوية والي سورية .

كان أبو بكر قد أرسل معاوية قائداً للجيش في سورية ، ثم ولاّه عمر عليها، وأقرّه عثمان على هذه الولاية . وإذا كان معاوية يطمع بالخلافة يوماً فإنه أخفى ما كان يضمره متحيّناً الفرصة . ولم يبدُ للناس كرجل قام يطالب بالثأر من قاتلي قريب له ، بل تظاهر لهم انه يناصر الشرعية في أمر الخلافة . وأفلح في إيقاع علي في حيرة كبرى ، فكان يرسل اليه قائلاً: سلّم قتلة عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمة أو لا فإنك شريك لهم في الجريمة . وفي القرآن الكريم ما يدعم وجهة نظره : « ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ، انه كان منصوراً » (سورة الإسراء ٣٥) . وكان معاوية يُخرج قميص عثمان الملوث بالدم ، وأصابع زوجته نائلة التي قطعت حين اتّقت ضربة السيف عنه وهو يقرأ القرآن الذي كان قد جمعه . وكان المصحف الذي جمعه عثمان القرآن

المعترف به . وقد سال دم عثمان فلطّخ صحائف القرآن الكريم ومنها الآية : « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » (سورة البقرة ١٣١) .

جيّش علي جيشاً يقال ان عدده كان خمسين ألفاً ، جلّهم من العراق حيث جعل من الكوفة مقراً له . وكان العراقيون يرغبون في محاربة السيطرة السورية . والتقى الجيشان في سهل صفيّن في الشمال من الرقّة على ضفة الفرات الغربية . واستمرّت المناوشات بين الجيشين أسابيع إلى أن كان السادس والعشرون من تموز سنة ٦٥٧ فزحف الجيش العراقي وأزال أهل الشام عن مراكزهم وظهرت أمارات النصر لعلي . فأشار قائد الفرسان الداهية ، عمرو بن العاص ، على معاوية برفع خمس مئة نسخة من المصاحف على أسنّة الرماح علامة على النزول عند « حكم الله » لا عند حكم السيف . ويبدو ان الحرب كانت قد أنهكت قوى الجيشَين . وقد أسرف المؤرخون في عدد القتلى الذين كما يقولون بلغ سبعين ألف قتيل . فحثه أعوانه على قبول التحكيم حقناً لدماء المسلمين . وينبغي أن تكون مشاغل الحكم ومشكلاته المتراكمة في تلك الفترة من عهده قد شلّت ارادته وفلّت عزمه . كان قد أشرف على الستين من عمره وله عائلة كبيرة تتألف من أربعة عشر ابناً وتسع بنات من زوجاته التسع ، هذا إلى جانب عدد من الإماء.

انتدب معاوية عمرو بن العاص ليكون ممثلاً له في التحكيم . وانتدب عليّ أبا موسى الأشعري ، بالرغم من ان علياً لم يكن راضياً كل الرضى عن اختيار هذا الرجل ، لا لأنه لم يكن رجلاً تقياً ورعاً ، بل لأنه كان فاتراً في ولائه للحزب العلوي . وجاء الحكمان يحمل كل منهما وثيقة تخوّله حقّ المفاوضة ، وبرفقته أربع مئة رجل ليكونوا شهوداً . وعقد الحكمان اجتماعاً علنياً في اذرع — وكانت محطة للقوافل بين معان والبتراء على طريق الحج — وكان ذلك في شهر كانون الثاني سنة ٦٥٩ . اما حقيقة ما دار بين الاثنين في ذلك المؤتمر التاريخي فيصعب استجلاؤه ، وذلك لاضطراب المصادر وتناقضها . ويبدو ان الحكمين اتفقا على خلع كل من علي ومعاوية ، وترك الأمر شورى بين الناس

ليختاروا . ومثل هذا القرار كان خسارة لعلي وربحاً لمعاوية . ذلك لأن قبول عليّ بالتحكيم رفع من شأن معاوية — وهو وال ثائر على السلطة — إلى مقام الخلافة ، وهو ليس بخليفة . كما انه أنزل من مقام عليّ الخليفة إلى مقام دعيّ يدّعي بالخلافة . وجاء قرار الحكمين ينزع عن عليّ حقه بالخلافة التي كان يتولاّها ، ويعطي معاوية ، ضمناً ، حقاً لم يكن قد أعلن عنه بعد .

ان السياسة المتردّدة المتقلّبة التي كان يمارسها الخليفة نفّرت عدداً كبيراً من أعوانه الذين أصبحوا يُعرَفون بالخوارج فثاروا عليه وحاربوه بقوة السلاح . فهاجمهم علي في معسكرهم على ضفة النهروان وكاد أن يبيدهم . ولكن ثمن انتصاره كلّفه حياته ، إذ كان مقتله على يد واحد منهم . ففي يوم جمعة من شهر كانون الثاني سنة ٦٦١ وهو في طريقه إلى مسجد الكوفة انقضّ عليه خارجيّ وطعنه بخنجر مسموم . ويقال إن القاتل ، عبد الرحمن بن ملجم ، كان قد علق امرأة جميلة جعلت من قتل علي شرطاً لقبولها التزوّج منه . وقد أكسب الموت علياً ما لم تكسبه إياه الحياة . وهو ان اعوزته مزايا الزعامة السياسية من بُعد نظر ، ويقظة ، وحنكة ، وحزم ، فإنه كان رجلاً غنياً بالمزايا والأخلاق التي جعلت منه مثالاً للخلق العربي . فإنه كان رجلاً سليم العقيدة ، شجاعاً باسلاً في الحرب ، فصيحاً بليغاً في اللسان ، وفياً لاصدقائه ، كريماً أبياً مع أعدائه ، مما جعله المثال الأعلى في النبل الإسلامي ، وفي الفتوة العربية . ولا يزال عليّ في الأدب الأخباري القصصي يحتل ما كان يحتله سليمان الحكيم من مكانة في الشعر والمثل والحكمة والموعظة . وهو زعيم فئة اسلامية كبيرة ، الشيعة التي تُعتبر أكبر وأهم أقلية في الإسلام . والشيعة تضيف إلى الشهادة : « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله « وعلي وليّ الله » . والواقع ان علياً في معتقدات العامة من الشيعة يحتل مرتبة أعلى من مرتبة محمد . وغلاتهم يؤلهونه ويضفون هالة من التقديس على خلفائه من بيته .

- ٢ -

قبل وفاة عليّ بأشهر أعلن أعوان معاوية وأتباعه خلافته في بيت المقدس سنة ٦٦١ . وكان معاوية في أثناء تولّيه ولاية سورية مدة عشرين سنة قد جعل منها أغنى ولاية بين ممتلكات الخلافة، واحسنها اقتصاداً وتقدّماً . وكان انطلاقه في الاصلاح وضع الجيش على اسس « حديثة » متبعاً في ذلك نظام البيزنطيين. لأن تنظيم الجيش، حتى ذلك الوقت، كان يقوم على الوحدة القبلية، أي أن كل قبيلة كانت وحدة يقودها شيخها، وهو نظام يصلح للحروب والغزوات الصحراوية . غير أن معاوية جعل من جيوشه السورية جيشاً واحداً حسن التدريب يخضع لنظام صارم ، مما جعله أقوى جيش في الخلافة . وكان يجنّد السوريين المسيحيين وعرب اليمن الجنوبيين الذين كانوا قد استقروا في سورية منذ زمن بعيد . وكان يؤثرهم على العرب الوافدين إليه من الحجاز . وضاعف رواتب الجنود ، وحرص على أن يكون دفع الرواتب في حينه، مما أكسبه ولاء الجيش وحبهم له . وفتح سورية وفتّر له دور الصناعات البيزنطية حيث كانت تُبنى السفن. فبنى اسطولاً هو الأول من نوعه في الإسلام. وأصبح معاوية أول مَن يجوز أن يطلق عليه لقب « أمير البحر » في التاريخ الإسلامي . وكان بحّارة اسطوله في بادىء الأمر من السوريين البيزنطيين ، إذ ان العرب لم يكن عندهم قبل ذلك خبرة في شؤون البحر .

وفي سورية وجد معاوية ، إلى جانب ما وجده من تنظيم عسكري ، مؤسسات ادارية فيها موظفون من ذوي الاختبار في الادارة يستطيع الانتفاع بخبرتهم وعلمهم . ولم يتردّد في استخدامهم لإنشاء ادارة حكومية مستقلة حسنة الكفاءة . ومن حيث الاهمية يأتي ، بعد التنظيم العسكري، التنظيم المالي . فاستعان معاوية بآل سرجون السوريين النصارى الذين تولوا شؤون بيت المال ، وظلّت هذه الوظيفة وراثية بينهم . وكان منصور بن سرجون قد ساهم في تسليم دمشق للعرب تحت إمرة خالد بن الوليد. وظلّت لغة الدواوين

الاغريقية حتى خلافة عبد الملك (٦٨٥ – ٧٠٥) وخلافة الوليد (٧٠٥ – ٧١٣) عندما تمّ للكتبة من العرب أن يستخدموا العربية في تدوين الدواوين . وقد رافق هذا الانتقال من الاغريقية إلى العربية انتقال آخر تمّ في العراق وايران حيث كانت لغة الدواوين الفارسية . وبتأثير من النظام البيزنطي طوّر معاوية انشاء الديوان الذي بدأه عمر بن الخطاب كما أسلفنا . كذلك انشأ معاوية البريد لأول مرة في الإسلام . وكانت الغاية من انشائه تسهيل المواصلات الادارية بين المناطق . وكان البريد يُنقل على ظهور الخيل مناوبة . وقد أكمل انشاءه وعمل على تطوّره خليفته العظيم عبد الملك . وكان من شأن البريد أن رَبَط بين أجزاء الامبراطورية المترامية الأطراف .

وقد رافق تغيير اللغة من الاغريقية والفارسية إلى العربية تغيير آخر في النقود . فقد كان الخلفاء الراشدون ، ومن بعدهم معاوية ، يقنعون باستخدام العملات الأجنبية ، البيزنطية والفارسية . وقد كانوا ، في حالات معينة ، ينقشون آيات أو عبارات قرآنية على النقود. وأول نقود عربية نحاسية سكّها عبد الملك في بعلبك تقليداً للنقود البيزنطية . وهكذا انقضى نصف قرن من الزمن قبل أن تمّ تعريب الدولة الاسلامية تعريباً تامّاً .

وقد أوتي معاوية قسطاً وافراً من الحنكة واللباقة السياسية وفتّر له ادارة ممتلكاته وعاصمته ادارة ممتازة . فقد أدرك معاوية بثاقب نظره أن الفتوحات قد نقلت مركز الثقل من الحجاز إلى الشمال ، فلم تعد الجزيرة العربية مركز الخلافة . ولم يكن العراق بعد مقرّاً لها . فكان على العراق أن ينتظر تسعين عاماً لكي تزول السيادة السورية . ولم يعد للحجاز شأن حتى مطلع القرن العشرين . وفي سورية كانت مدن الساحل معرّضة للهجوم البحري . وكانت دمشق عاصمة للآراميين من قبل ، فاستعاض عنها السلوقيون بانطاكية التي استقرّ فيها أيضاً الرومان . وفي هذه الأحوال كانت المدينة تمثل المحافظة على الأوضاع الراهنة ، بينما كانت دمشق الأموية تمثّل التجدّد . وفي سورية

أصبح الإسلام بعيداً عن الصحراء قريباً إلى الغرب ، بخلاف ما كان عليه في الحجاز .

وينبغي أن يكون معاوية قد أحسّ في قرارة نفسه ، وهو بعد والٍ على سورية ، ان الروم (البيزنطيين) يشكلون أعظم خطر على ملكه في سورية . فعلى بعد مئة ميل من الشاطىء السوري تقع جزيرة قبرس الرابضة في البحر كمدفع موجّه إلى ولايته . وكان للجزيرة ميناء صغير يُستخدم قاعدة بحرية . وكانت قاعدة الأسطول البيزنطي الرئيسية في الاسكندرية . فما ان أتمّ معاوية بناء اسطوله في عكّا حتى بعث يستأذن الخليفة عمر في غزو قبرس ، ولكن معاوية لم يرد أن يحول البحر بينه وبين قوّاده . غير ان عثمان أذن له بعد إلحاح شديد . وكان معاوية قد كتب إلى المدينة يقول : ان قرية في حمص تسمع نباح كلابهم وصياح دجاجهم . فاشترط عليه عثمان أن يصطحب معه زوجته . وفي سنة ٦٤٩ ، أو حوالي هذا التاريخ ، قام معاوية بعدد من الغزوات التي لم تسفر عن نتائج ايجابية ثابتة . وفي رواية البلاذري المضطربة يقول إن عدد المراكب الغازية كان خمس مئة مركب ، وان معاوية فرض عليها جزية كتلك التي كانوا يدفعونها إلى الروم . وكان خشب المراكب يؤتى به ، كما كان يؤتى به في الزمن القديم ، من أرز لبنان .

وكانت الجزيرة الثانية التي تقع على الطريق إلى القسطنطينية جزيرة رودس. وقد لاقى العرب في غزوة قاموا بها سنة ٦٥٣ بعض النجاح . ولم يتمّ الاستيلاء على الجزيرة إلا في زمن خليفة أموي لاحق. وكانت رودس تفاخر بنصَب هائل بلغ ارتفاعه مئة وخمسة أقدام للإله الشمس . وكان يعتبر إحدى « العجائب السبع » . وقد باع العرب ما تبقى منه من معدن لتاجر استعمل خمس مئة جمل لنقله . وكان العرب يقومون بغزوات متواصلة على جزيرة كريت وغيرها من جزر بحر إيجة وجزر البحر المتوسط الشرقية . وفي سنة ٦٤٤ بلغ العرب جزيرة صقلية التي أصبحت فيما بعد ولاية مزدهرة تابعة لدولة عربية في شمالي

افريقيا . وقد بعثت هذه الغزوات البحرية الشجاعة والاقدام في نفوس العرب حتى انهم جهّزوا اسطولاً سورياً مصرياً وراحوا يهاجمون القسطنطينية (٦٥٥) عاصمة البيزنطيين . فخرج قسطنطين الثاني ، حفيد هرقل ، لملاقاتهم في فينكس (فينيكا) على شاطىء ليسيا ، ولكنه هُزم شر هزيمة . فإن العرب ربطوا سفن اسطولهم بسفن اسطول البيزنطيين وحوّلوا المعركة إلى معركة بالسيوف ، وأحرزوا أول نصر بحريّ في تاريخ الإسلام .

في السنة التالية انتقل الحكم في مصر إلى أيدي العلويين . وعندما لحظ معاوية ان علياً منهمك بشؤون الحكم انفذ إلى مصر مساعده عمرو بن العاص ، فاتح مصر الأول ، ليعيد فتحها باسم الأمويين . ولم يلق عمرو جهداً في التغلب على عاملها ، محمد بن أبي بكر الصديق ، وقتله . ثم توجه عمرو (٦٥٨) ، بعد انتصاره على عامل مصر ، إلى اذرح فلم يلق مقاومة .

إثر مقتل علي نشأت مشكلات خطيرة في وجه معاوية . وأخطر مشكلة كانت بيعة الحسن بن علي الذي بايعه أهل العراق وأعلنوه الخليفة الشرعي نصاً وتعييناً . ولكن معاوية كان يعلم أن الحسن لم يكن يميل إلى الحكم بقدر ما كان يميل إلى أمور الدنيا . فكتب اليه يقول : « أما بعد فأنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقرابتك ، ولو علمت انك أضبط له واحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايعتك . فسل ما شئت ! » وكان معاوية قد أرسل اليه صحيفة بيضاء وكتب اليه : « ان اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك . » وبعد مساومات ومراسلات طلب الحسن أن يعطيه معاوية عطاء كبيراً بلغ الملايين من الدراهم ، وخراج الكوفة ، وخراج دارابجرد في فارس . ثم ارتحل الحسن إلى المدينة حيث انصرف إلى ملاذه . وتوفّي وهو في الخامسة والأربعين من عمره بعد أن تزوّج نساء كثيرات . ويقال انه مات مسموماً بسبب دسائس حريمه ، غير أن أتباعه قالوا ان معاوية هو الذي سمّم له . وأصبح الحسن في عداد شهداء الشيعة المكرّمين .

وبعد العراق ، مركز الشيعة ، أتى دور بلاد فارس . وكان عاملها زياد ابن أبيه . وكان من أحسن عمال الخلافة اقتداراً. وكان زياد قد رفض أن ينزل راية العلويين في فارس . وكان هناك شك في حقيقة أبيه ولذا سمّي بابن أبيه . وكانت أمه جارية ، اسمها سمية من الطائف عرفها رجال كثيرون من بينهم أبو سفيان . فاستلحقه معاوية ، أي انه اعترف به أخاً لأبيه . وأضاف البصرة والكوفة إلى ولايته ، وكانت هذه الولاية تعرف بالولاية العربية الشرقية . وهكذا أصبح زياد ينوب عن الخليفة في الجناح الشرقي للامبراطورية ، واحتفظ معاوية بالجناح الغربي لأنه كان يؤثره . فبدّل زياد ولاءه بعد أن اعترف به معاوية أخاً ، وراح يعمل بحماسة فائقة في سبيل تدعيم البيت الأموي . فأنشأ له حرساً قوامه أربعة آلاف رجل يعملون عنده جواسيس وشرطيين . وحكم ولايته بقبضة حديدية. وراح يتعقّب أتباع عليّ وأبنائه ، ويؤدّب من تسوّل له نفسه ذمّ معاوية أو سبّه . وضيّق الخناق على البدو الذين كان يهمّهم الغزو والنهب أكثر مما كانوا يبالون بأمور الحكم والخلافة . ويعدّ المؤرخون زياداً الثالث — بعد معاوية وعمرو بن العاص — من عباقرة الدهاة السياسيين الأربعة في الإسلام .

ولم يُبدِ أهل مكة والمدينة حماسة لخلافة معاوية كما كان منتظراً منهم ، لأنهم كانوا يميلون إلى عليّ وأبنائه لقرابتهم من الرسول . وبعد الحسن راحوا يعلّقون الآمال على أخيه الحسين . ولكنه لم يجرؤ ، ولا هم كانوا يجرؤون ، على الخروج على معاوية ، سيّد دمشق . ولكن بعد وفاة معاوية خرج الحسين على رأس جيش صغير العدد من الحجازيين والعراقيين يريد الكوفة ، ولكن جيشاً من الأمويين قوامه أربعة آلاف رجل لقيه في كربلاء التي تقع على بعد خمسة وعشرين ميلاً إلى الشمال الغربي من الكوفة . ووقعت بينهم معركة لقي الحسين فيها حتفه . وقُطع رأسه وبُعث به إلى دمشق . غير أن يزيد بن معاوية أمر بردّ الرأس مكرّماً إلى كربلاء ليدفن هناك كما يليق بحفيد رسول الله . وأصبح الحسين كأبيه وأخيه ، أحد الشهداء . ولا يزال الناس في ايران ، وفي

مراكز شيعية أخرى ، يحيون ذكرى مقتله كل سنة بإقامة التعازي التي تُعرف بالحسينية .

— ٣ —

ان سنة ٦٦١ تنصّف حياة معاوية السياسية إلى نصفين مدة كل نصف منهما عشرون سنة . ولا نعلم ان معاوية في حياته السياسية ، كعامل على سورية ، أو كخليفة للمسلمين ، أخفق في أمر أراده ، أو عجز عن بلوغ مرام قصد اليه . كان يتطلّع دوماً إلى الأمام ويستنكف عن النظر إلى الوراء مما جعله أقل حكام المسلمين محافظة ، وأكثرهم تحرّراً .

وكخليفة لم يقنع معاوية بتهدئة سياسية تقوم على تعديل الحدود الجغرافية ، بل أصرّ على أن يكون الاستقرار قائماً على تآلف الناس وتقاربهم . فكان يقول لأن يساس الناس باللسان أفضل من أن يحكموا بالسيف . اما الجماعة التي كانت عنيفة في معارضتها ومقاومتها لخلافته ، كآل البيت من العلويين والهاشميين ، فكان يستميلها بالأعطية والهبات . لأنه كان يعتقد أن نفقات الحرب وويلاتها أشدّ ضرراً من انفاق بعض المال . ويبدو ان الرسول كان يأخذ بهذا الرأي عندما جاء الوحي عن « المؤلّفة قلوبهم » (سورة التوبة ، ٦) . وكان حكيماً حذراً في أمر توظيف الأقرباء . فقد اعتبر بما لقيه عثمان من جراء ذلك . و « قطع ألسنة » الشعراء بالأعطية والجوائز . فقد كان الشاعر الهجّاء كمن يبتز المال بالتهديد والوعيد في يومنا هذا . غير ان معاوية كان يقول انه لا يبالي بالكلام إذا ظلّ الكلام كلاماً لا يؤدي إلى أمر . ولكنه لم يكن يتّخذ دوماً موقفاً سلبياً من الشعر والشعراء ، بل حاول أن ينتفع بالشعراء في توحيد الأمة ، وفي اثارة الروح الوطنية . إذ ان القبلية والفردية لم تفارقا طبائع الناس الذين انتقلوا من البداوة إلى عيش المدن. وهكذا استطاع معاوية أن يقود اليه الناقمين

والثائرين بقود من ذهب . فكان داهية ، وكان انتهازياً مكيافيلياً قبل أن يولد مكيافيلي . كانت سياسته تتلخص بقوله :

لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة مـا انقطعت ، إذا مدّوها خلّيتها ، وإذا خلوها مددتها .

ولهذا كان الناس يتكلمون عن « شعرة معاويـة » التي أصبحت عبـارة معروفة في التاريـخ العربي .

اما فيما يتعلّق بمعاملة الرعايا النصارى فقد كانت المعاملة ذاتها التي لجأ اليها العرب في اسبانيا . وظاهر ان معاوية كان يدرك أنه مدين لرعاياه النصارى في سورية . فقد كانت زوجته المفضّلة نصرانية عربية من أصل يمني اسمها ميسون. وكانت قبيلتها ، بجدل ، من جملة القبائل اليمنية التي هاجرت قبل الإسلام من جنوبي الجزيرة العربية لتستقرّ عند أطراف الصحراء السورية الغربية . ويبدو ان ميسون كانت تزدري حيـاة البلاط ، وتؤثر عليها عيش الصحراء الحرّ . واليها تعزى هذه الأبيات التي تنمّ على حنين إلى الحياة البدوية البسيطة :

لبيت تخفق الأرياح فيـه — أحب إليّ من قصر منيـف
ولبس عباءة وتقر عيني — أحب إليّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي — أحب إليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل واد — أحب إليّ من نقر الدفوف

وكان زوجهـا ، معاوية ، ذا كرش ناتىء . ولم تفته الإشارة في شعر زوجته ، فنزل عند رغبتها وردّها إلى أهلها . لكنه أوصى بالخلافة بعده لابنها يزيد . وقد وافق كبار دولته على هذا التعيين . وهذه البدعة ربما كانت أفضل من ترك الخلافة للأكبر سنّاً ومقاماً . إذ ان الخلافة الوراثية من شأنها ان تضمن الاستقرار والاستمرار . وكان شاعر البلاط نصرانياً ينتمي إلى طائفة اليعاقبة

السريان ، واسمه الأخطل . وكان يدخل على معاوية وفي عنقه صليب يتدلّى على صدره . وقد احتكم الموارنة – وهذه أول مرّة نسمع بهم في التاريـخ العربي – واليعاقبة إلى معاوية ليحكم في أمر خلافهـم الديني . وكان طبيب معاوية ، ابن أثال ، نصرانياً كذلك. وكان جزاؤه انه جُعل على بيت المال في حمص ، وهو أمر لا سابقة له في أخبار المسلمين الأولى. وكانت سياسة معاوية مع النصارى تحمل معها طابع المكافآت السياسية .

وأخيراً وجد معاوية نفسه متفرّغاً لمقارعة عدوه اللدود : الروم . وحروبه مع الروم تمثّل الحلقة الثانية في سلسلة حلقات الفتوح الإسلامية التوسعية . بدأت الفتوحات في عهد أبي بكر ، ووصلت ذروتها أيام عمر ، وانتهى أمرها بقيام النزاع بين علي ومعاوية .

أما في الشمال فقد كانت سلسلة جبال طورس ، والسلسلة المقابلة لهـا ، حاجزاً طبيعياً يفصل بين المنطقتين المتخاصمتين : منطقـة العرب ومنطقة الروم . كما ان المضيق عبر طورس ، وطوله ثمانية وثلاثون ميلاً ، الذي يعرف ببوابات قليقية كان يحول دون تحرّك الجيوش بحرية وأمن . ويحمي مدخل المضيق الجنوبي مدينة طرسوس ، حيث ولد القديس بولس ، وفي الوقت ذاته كانت قاعدة كبرى للعمليات الحربية ضدّ بلاد الروم . وكان العرب يقومون بغزوات على مستوى صغير كل صيف ، وذلك بغية الابقاء على الروح الحربية في الجنود . وقد استمرت هذه الغزوات في عهد معاوية وخلفائه . وكان الهدف الأساسي من هـذه الغزوات هو الهـدف التقليدي في كل غزوة من الغزوات البدوية : الاسلاب والمغانم . ولكن قد يكون الحـلم بالاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية على بعد ٤٥٠ ميلاً من القاعدة العربية قد دغدغ افئدة المسلمين . غير ان برد المناخ القاسي في برّ الأناضول كان رادعاً يردع أبنـاء الصحراء عن الاقدام على هذه المغامرة .

لم تبلغ الجيوش العربيـة القسطنطينية إلا في سنة ٦٦٨ . ولأول مرّة

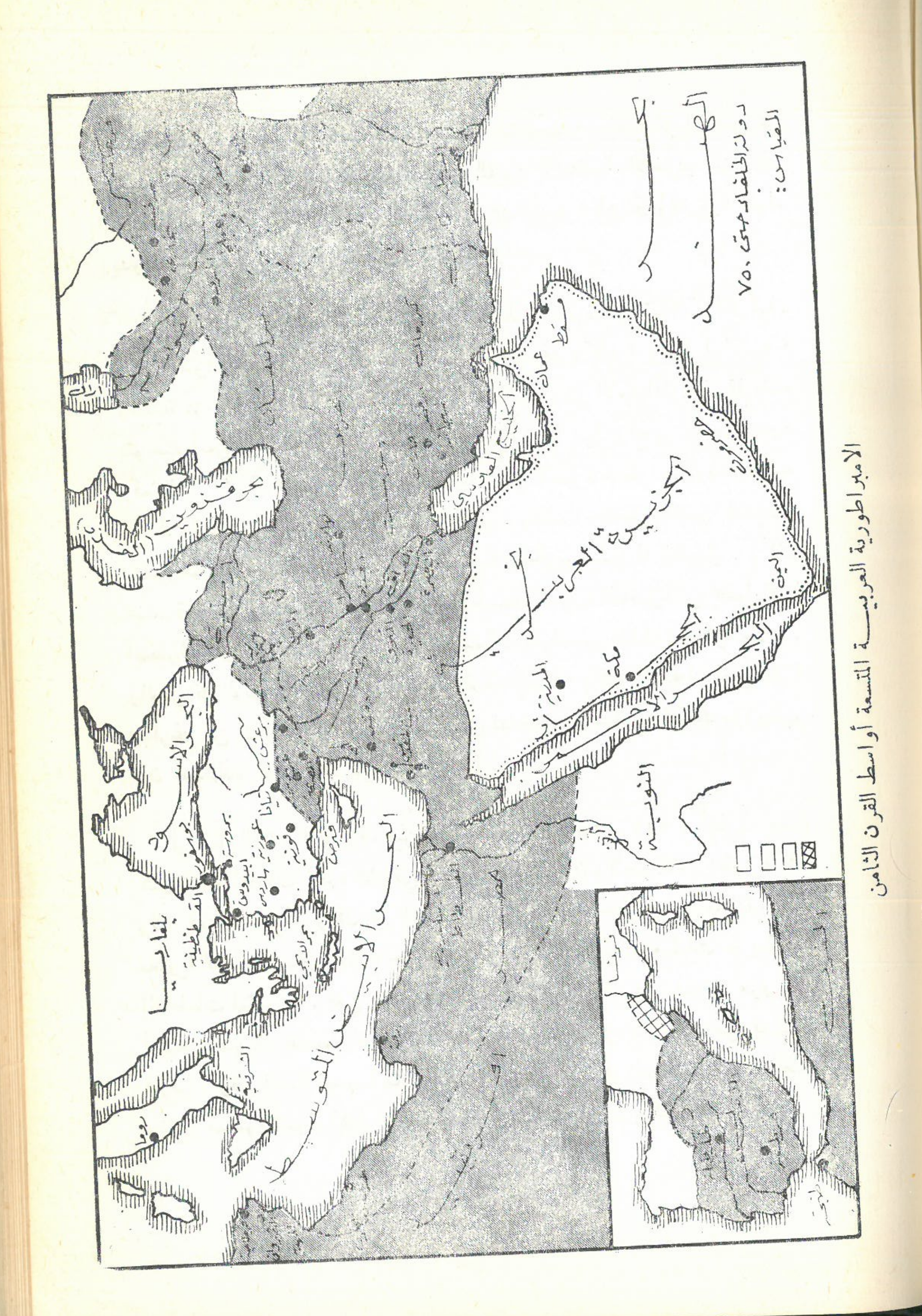
تفتّحت أبصار المقاتلين من المسلمين على عظمة عاصمة المسيحية الفخورة المنيعة .
كان ذلك في أواخر الشتاء. ولكن قسوة ذلك الشتاء، إلى جانب وبأ الجدري،
والمجاعة التي حلّت بهم ، جميع هذه العوامل انقصت من عدد الجيوش العربية
مما كان يستدعي طلب المدد . ووصل المدد وعلى رأسه يزيد بن معاوية ، الذي
كان أبوه يمرّسه بالمهام لاظهار كفاءته ولكي يتسلم الخلافة من بعده . وكان يزيد
قد انصرف ، حتى ذلك الحين ، إلى حياة اللهو والعبث . وتقدّم الجيش العربي
بقيادة يزيد من خلقيدونة ، حيث أقام مدّة الشتاء، وضرب الحصار على العاصمة.
ولكن عند أوائل الصيف شعر العرب ان محاولتهم الاستيلاء عليها ضرب من
المحال ، فكفّوا عن حصارها . وبحسب ما جاء في الروايات والأساطير يظهر
يزيد وكأنه بطل من أبطال الحرب . ويقال انه في أثناء الحصار نظر يزيد إلى
خبائين في محلة الروم ، فإذا كانت الحملة للمسلمين ارتفع من احدهما أصوات هتاف
الظفر ، وإذا كانت الحملة للروم ارتفعت الأصوات من الخباء الآخر . فسأل يزيد
عنهما فقيل له ان في أحدهما ابنة امبراطور الروم وفي الآخر ابنة جبلة بن الأيهم.
فطمع يزيد في أن يقبض على ابنة ملك غسّان ، فكان يتحمّس حماسة شديدة .
وأعجب من هذه الرواية قصة أبي أيوب الأنصاري الذي نزل محمد في بيته عند
الهجرة إلى المدينة . وقد اصطحبه يزيد على تقدّم سنه تبرّكاً لا انتفاعاً من
درايته الحربية . وكان ان أصيب أبو أيوب بزحار فمات ودفن قريباً من أسوار
القسطنطينية . فكان النصارى من اليونان يتبرّكون بزيارة قبره حتى أصبح
مزاراً مشهوراً . وبعد ذلك بقرون عديدة ، عندما حاصر العثمانيون
القسطنطينية ، عثروا على هذا القبر بفضل أشعة نور عجيب ينبثق من القبر .
وقد بُني مسجد في تلك البقعة فصار أبو أيوب قديساً تكرّمه ثلاثة شعوب :
العرب والروم والأتراك .

وفي سنة ٦٧٤ عادت جيوش الخليفة في دمشق تعاود الكرّة لبلوغ العاصمة
عبر الأراضي البيزنطية . وكانت الحرب هذه المرّة حرباً بريّة بحرية . وكان

الاسطول قد أفلح في انشاء قاعدة له على شبه جزيرة قزيكوس (توركابيداجي)
في بحر مرمرة . وكانت هذه القاعدة مشتى للجيش يتربص فيه مقدم الربيع .
وقد دام هذا الصراع سبع سنوات حتى عرف بـ « حرب السنين السبع » . ومن
الصعب التوفيق بين المصادر العربية والاغريقية التي عُنيت بأخبار هذه الحرب،
وذلك لشدة تضاربها . ولكن النتيجة كانت واضحة : سلمت القسطنطينية من
الوقوع في أيدي العرب ، وذلك بفضل مناعة حصونها وبفضل استخدام النار
اليونانية في الحرب . وقد كانت هذه النار مادة شديدة الاشتعال بحيث تلتهب
على سطح الماء وتحت الماء . وكان لاستخدام هذا السلاح الجديد في الحرب أثر
مريع ألحق ضرراً بالغاً بالاسطول العربي . وما تبقى منه تحطّم عند عودة
الجيوش العربية إلى قواعدها (سنة ٦٨٠) .

كذلك لم تفلح الغزوات التي تلت باشراف الخليفة في دمشق وبغداد في
الاستيلاء على عاصمة المسيحية . وبعد انقضاء قرون عديدة تمكن حماة الإسلام
الجدد العثمانيون من قهرها والاستيلاء عليها (سنة ١٤٥٣) .

غير ان العرب أفلحوا في فتوحاتهم في شمالي افريقيا التي كانت تابعة
للامبراطورية البيزنطية . وكان بطل هذه الحروب عقبة بن نافع ، وهو ابن أخي
عمرو بن العاص . وأول من عيّنه كان عمه ، عمرو بن العاص ، سنة ٦٦٣ .
فاجتاح أولاً برقة وسار بجيشه عبر ليبيا ، وفي سنة ٦٧٠ أسس مدينة القيروان
على بعد مئة واثني عشر ميلاً جنوبي مدينة تونس التي هي قرطاجة القديمة .
وينقل لنا ابن خلدون قول عقبة : « سأبني مدينة تكون قاعدة لسلاح المسلمين
وتبقى أبد الدهر » . ومن هذه القاعدة الحربية استطاع الجيش العربي بمعونة
البربر الذين انضووا تحت رايتهم ان يهزم البيزنطيين وأن يطردهم عن جزء كبير
من شمالي افريقيا . وتذكر الروايات ان عقبة ظلّ مندفعاً غرباً في فتوحاته حتى
اقتحم جواده أمواج المحيط الأطلسي . وفي عقود قليلة من السنين استطاع
الفاتحون العرب أن ينجزوا ما لم ينجزه أسياد افريقيا في قرون . فإنهم



الامبراطورية العربيـة المتسعة أواسط القرن الثامن

استطاعوا أن يعرّبوا شمالي افريقيا وأن يدخلوا أهله في الإسـلام بينما عجز الاغريق والرومـان أن يجعلوا من حضارة الأهلين حضارة هلينية أو لاتينية . فقد كان البربر يشعرون بقرابة النسب إلى العرب الساميّين ، وإلى حضارتهم ، أكثر مما كانوا يشعرون نحو الشعوب الهندو اوروبية . كما ان الموجـة الفينيقية الساميّة يجب أن تكون قـد تركت بعض الأثر في البلاد . وعندما بُني مسجد القيروان ، القاعـدة الإسلامية الجديدة ، أتوا بحجارة الأعمـدة من خرائب قرطاجة . وإلى حدّ ما نستطيع القول إن القيروان الإسلاميـة حلّت محل قرطاجة الفينيقية من حيث أثرها ومركزهـا . فقد ظلّت القيروان أكثر من قرن مقرّ عامـل الخليفة في شمالي افريقيا وعاصمة له . ومن القيروان كانت تخرج البعوث العسكرية التي استولت على مرّاكش واسبانيا . ولم تلبث أن أصبحت مركزاً دينياً وحضارياً وتجارياً . وعنـد المغاربة من المسلمين كانت القيروان رابع مدينة مقدسة بعد مكة والمدينة وبيت المقدس ، ورابـع باب يؤدّي إلى الجنّة .

وفي سنة ٦٨٣ وقع عقبة شهيداً في ساحـة المعركة بالقرب من بسكرا التي تقع في الجزء الشمالي الشرقي من الجزائر . وأصبح قبره مزاراً . وقـد بني عليه مسجد يعتبر أقدم بناء إسلامي في افريقيا . ويعرف المزار بسيدي عقبة . وشأن عقبة شأن غيره من القواد العظماء المجاهدين في سبيل الله . فإنه أصبح في نظر العامة شهيداً ووليّاً من الأولياء .

أما الوضع في الجزء الشرقي من الامبراطورية العربية فقـد كان يحتاج إلى السلم والاستقرار وتوحيد الاجزاء أكثر مما كان بحاجة إلى التوسع . فإن المنطقة لممتدّة من نهر جيحون (أمو داريا) ونهر السند إلى الخليج الفارسي كانت قد أخضعت في عهد عمر وعثمان ودخل أهلها في الإسلام ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. لكنها كانت منطقة يصعب حكمها وإدارة شؤونها ، وأصعب من ذلك ابقاؤها داخل حظيرة الامبراطورية . فإن العراق كان شيعياً . ولم تكن بلاد فارس ،

ذات الحضارة القديمة التي كانت تفاخر بها الشعوب ، راضية كل الرّضى عن العهد الجديد . وكانت الجزية وغيرها من القيود الاسلامية الأخرى التي كان يفرضها العرب مما يبعث النقمة والاستياء . وفي البلدين ، العراق وفارس، أقوام بدوية رحّلية لا تنتظم في نظام ولا تتقيّد بقوانين .

وإلى الشرق منهذه المنطقة الشاسعة تقع بلاد الشعوبالتي تتكلّم التركية . وكانوا بدواً وحضراً . غير أن عامل معاوية ، بتوقد ذكائه ، وقوة ارادته ، وأكيد عزمه ، كان أهلاً للمهمة الشاقة في هذا الجزء من الامبراطورية. فلم يقنع بتوحيد أجزائها المتفككة ، والامساك بزمام أمرها ، بل راح يوسّع حدود رقعتها إلى الشرق البعيد . وكان بلاط العامل في البصرة ، مقر حكومته، أشبه ببلاط ملوك الفرس من حيث الأبهة والجلال . وعند مدخل القصر كان يقف خمس مئة فارس كحرس له . وإذا خرج كان الحرس يشق له الطريق . وكان عنده قوة من الشرطة قوامها ألف رجل مسلح لتجوب المناطق التي يحصل فيها اضطراب أو شغب . وكان عنده أيضاً شبكة جواسيس منتشرة في كل مكان . والويل كل الويل لمن يرسب في امتحان الولاء للدولة، وكان الامتحان لعْن عليّ! وبالرغم من أن المصادر الشيعية تسرف في تضخيم عدد الذين قطعت رؤوسهم فإن عدد الذين قتلوا فعلاً كان كبيراً جدّاً .

في أثناء النزاع الذي وقع بين عليّ ومعاوية (٦٥٦ – ٦٦١) أعلنت مدن كثيرة عند أطراف الجزء الشرقي انفصالها ، ذلك لأن ولاءها للامبراطورية كان ولاء اسمياً لا فعلياً . وكان على الخليفة أن يردّها إلى حظيرته . وما إن أصبح معاوية السيّد غير المنازع حتى شرع قوّاده العسكريون بعمليات حربية ضد المقاطعات المتمرّدة . ففي سنة ٦٦١ هاجم الجيش العربي مدينة مرو التي أصبحت فيما بعد عاصمة خراسان الاسلامية ، وهي الجزء الشرقي من بلاد فارس . وفي السنة نفسها هاجموا هراة (وهي الآن في افغانستان) . وبعد سنتين هدّموا أسوار كابل بالمجانيق ، وسقطت بلخ (بكترا عند الاغريق)

وهي على الضفة الجنوبية من نهر جيحون ، في أيديهم . وفي سنة ٦٧٤ ، وبعد سنة واحدة لوفاة زياد ، توغل ابنه عبر البلاد الواقعة ما وراء نهر جيحون واستولى على بخارى وتابع زحفه إلى سمرقند (وهي الآن في جمهورية أزبك السوفياتية الاشتراكية) . وهذه المدن الثلاث كانت مراكز بوذية مزدهرة، وفي حضارتها شيء من الأثر الهليني بسبب وقوعها في يد لاسكندر المقدوني . غير ان هذه المدن ، وغيرها من مدن اواسط آسيا ، أصبحت فيما بعد مراكز بارزة للدين الاسلامي والأدب العربي . وفي هذه البقعة من الدنيا اتصل العرب اتصالاً أوثق بالعنصر التركي الذي يمتّ بدوره إلى العرق المغولي . وفي أزمنة لاحقة عندما أصاب الوهن والضعف الامبراطورية العربية أصبح الأتراك حماة الإسلام .

وكان على خلفاء معاوية أن يعيدوا فتح كثير من البلدان التي كانوا قد فتحوها من قبل. كما انه كان عليهم أن يحكموا تدبير شؤونها، وأن يوسّعوا رقعة حدودها . اما التوسّع في الجناح الغربي للامبراطورية فقد كان فتحاً باهراً . فإن العرب في سنة ٧٣٢ ، وهي السنة المئة لوفاة الرسول ، بلغوا مدينة تورز التي تقع في الشمال الغربي لفرنسا . وكان أمر الخليفة في دمشق إذا صدر عنه يصبح قانوناً في الجنوب الغربي من اوربا ، إلى افريقيا الشمالية ، إلى غربي آسيا وأواسطها ، وهي رقعة جغرافية تبزّ امبراطورية روما في إبان مجدها .

— ٤ —

لم يكن معاوية ، بطل قصتنا هذه، بطلا في نظر معظم المؤرخين العرب. ذلك ان الروايات في معظمها تحدّرت عن مصادر شيعية أو عباسية ، والروايات السورية المصدر التي تنصف الأمويين قليلة جداً ، وهي مبثوثة هنا وهناك في

ثنايا المصادر الأدبية . ولم يكن العداء الذي كان العباسيون يضمرونه نحو الأمويين بأقلّ من عداء الشيعة للبيت الأموي ، كما سيظهر لنا فيما بعد . اما المؤرّخون من السنّة فإنهم لا يقرّون الشيعة على رأيهم من أن معاوية لم يكن خليفة شرعياً لأنه اغتصب الخلافة ممن هو أحق منه بها ، غير انهم يسلّمون بان صفة الخلافة قد تغيّرت على يد معاوية . فقد أخذوا على معاوية تحويله الخلافة إلى مُلك . وكان معاوية ملكاً ، وليس للفظة « ملك » يومئذٍ وقع حسن على أذن العربي لأنهم كانوا يطلقونها على ملوك الفرس وأباطرة الروم . وأُخذ عليه أيضاً إحداثه « سرير الملك » في قصره ، ومقصورة في الجامع يصلي فيها ويخطب وهو جالس . وكان يدّعي انه لا يستطيع الوقوف بسبب ضخامة بطنه وهو عذر يصعب على الناس أن يأخذوا به . ومما أخذوا عليه تعيين يزيد ابنه خليفة له . وكان يزيد يشرب الخمرة حتى الثمالة ، وكان أول خليفة شرب الخمرة في الإسلام ، ولكن لم يكن الأخير . ويسمّيه بعض المؤرخين « يزيد الخمور[1] » .

عندما يتكلّم الذين أرّخوا سيرة معاوية عن خلقه يؤكّدون صفتين بارزتين من صفاته : الحلم والدهاء . والحلم يشمل ، من جملة ما يشمله ، التسامح ، والشهامة ، وضبط النفس (أو العفو عند المقدرة) . وفي سياق حديثنا عنه جئنا على ذكر أمثلة عديدة أظهر فيها معاوية حلماً ودهاء في تصريف شؤون الدولة . وأصبح معاوية في حلمه ودهائه مثالاً حاول خلفاؤه من بعده أن يحذوا حذوه ، ولكن واحداً منهم لم يستطع أن يكون صورة مطابقة لصورة معاوية في الحلم والدهاء .

---

(١) من المؤرخين الذين انصفوا في حكمهم على معاوية نذكر هنري لامنس اليسوعي في كتابيه : Etudes sur le règne du Calife Omayyade Mo'awia I (Beirut, Lebanon, 1908) ; Etudes sur le Siècle des Omayyades (Beirut, 1930).

معاوية ، المبتكر العظيم ، والأول بين العباقرة السياسيين المسلمين الأربعة ، وباني الامبراطورية العربية ، ومؤسس البيت الأموي الذي في عهد خلفائه بلغت سورية أوج مجدها ، والعالم الاسلامي أقصى حدّ في التوسّع ، هذا الخليفة ، معاوية ، يحتلّ المرتبة الثالثة – بعد الرسول وعمر – بين الذين صنعوا التاريخ العربي .

عبد الرحمن الأوّل

صانع التاريخ العربي على الأرض الأوربيّة

لا اشتغل بشيء من القلب والعين بمكان إلى أن
تصبح اسبانيا في قبضة يدي .

عبد الرحمن الأول

لم يكن في الأوامر السرية التي صدرت سنة ٧٥٠ في العراق لبس أو ابهام : يجب استئصال البيت الأموي . وكان صاحب هذه الأوامر التي صدرت بحق الأمويين الخليفة الجديد ، أبا العباس ، الذي هزم مروان الثاني في موقعة الزاب ، وقضى على البيت الأموي الذي حكم تسعين سنة ، وأسس خلافة جديدة . ولُقّب بالسفّاح. وكان أبو العباس قد تزعم تحالفاً ضمّ جماعة أقرب إلى الرسول من الأمويين، والشيعة الذين كانوا يتطلعون إلى الثأر من الأمويين، كما ضمّ ناقمين على الخلفاء الأمويين الذين لم يكونوا أهلاً للخلافة . وانتشرت عيون العباسيين في كل قطر يتعقبون أخبار الأمويين . وعندما ضاق وجه الأرض عن أن يحجب الأمويين عن أبصار العباسيين لجأوا إلى « بطن الأرض » كما يقول ابن خلدون . ولم يسلم الموتى من نقمة العباسيين فراحوا ينبشون القبور ويخرجون الجثث فيصلبونها أو ينثرونها على وجه الأرض. وأُخرجت جثة

هشام ، وهو ثالث الخلفاء الأمويين وآخـر خليفة أموي عظيم ، وجـُلد ثمانين جلدة ، وأحرق ، وذرّي رماده . وهكذا انتهى عهد حلم معاوية وانتهى عهد دهائه السياسي .

ثم صدر بيان لاحق فيه اعتراف بالتجاوز على الأمويين ودعوة لهـم أن يسلـّموا أنفسهم في مكان ما وإذا سلـّموا أنفسهم فإن العفو يشملهم . وقـد استجابت جماعة من الأمويين للدعوة وحضر سبعون أو ثمانون منهم إلى مأدبـة اقيمت لهم بالقرب من يافا . وفي أثناء المأدبـة أمر عبد الله بن علي أن تُضرب رؤوسهم فقتلوا جميعاً . ثم أمر فطُرحت عليهم بسط وهم بين موتى ومحتضرين. ودعا بالطعام فأكل هو وقواده وهم يسمعون أنـّات المحتضرين .

وقد نجا من هذا الفخّ الذي نصبه العباسيون للأسرة الأموية التاعسة شاب في التاسعة عشرة من عمره، واسمه عبد الرحمن، حفيد هشام بن عبد الملك. فبدلاً من أن يلبي الدعوة هرب إلى أرض له على الضفة اليسرى من أعـالي الفرات واختبأ هناك. وكان بصحبته أخ له أصغر منه سنـّاً، واختان وابن له اسمه سليمان له من العمر أربع سنوات . وذات يوم ، وبينما كان عبد الرحمن في غرفة عتمة يداوي عينه إذا بسليمان يدخل الغرفة مذعوراً باكياً . ذلك أنه رأى فرساناً يرفعون راية سوداء كالراية التي رآها يوم مقتل عمّه يحيى (يبدو أن راية النبي كانت سوداء ، وراية الشيعة خضراء) . فلم يخامر عبد الرحمن شك في أن أحد الناس قد أفشى أمر مخبئهم إلى العباسيين. فأوكل أمر ابنه إلى اختـَيه وأوصاهما أن تقولا لمولى له من أصل رومي اسمه بدر أن يلحق به في مكان سمّاه لهما . ثم أخذ بيد أخيه وقصدا الفرات . أما الأخ الأصغر فأحجم خوفاً من التيار ومن عمق الميـاه فرجع ، لا سيما وان الفرسان العباسيين أعطوه الأمان قائلين انهم لا يريدون به شرّاً ، امـا عبد الرحمن فإنه سبح إلى الضفة الثانية وتوارى في غيضة. والتفت إلى الضفة الثانية فرأى رأس أخيه يتدحرج على الأرض. فحمل

الفرسان الرأس وساروا به تاركين جسد الولد على وجه العراء [١] .

وسار عبـد الرحمن نحو الجنوب عابراً الصحراء السوريـة من الشمال إلى الجنوب . وفي فلسطين لقي خادمه الأمين ، بدراً ، الذي كان قد أحضر له مالاً ومجوهرات . ومن فلسطين سارا باتجاه مصر عبر سيناء قاصدين شمالي افريقيا . فلجّ عامل القيروان ، عبيد الله الفهري ، في طلبه ووضع جائزة لمن يلقي القبض عليه ، وكاد أحدهم أن يفوز بالجائزة ، ولكن عبد الرحمن نجا بنفسه . ويبدو ان عامل القيروان اغتنم سانحة انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين فراح يحاول تثبيت استقلاله . وكان من العسير على عبـد الرحمن أن يظلّ متنكراً لا يعرفه الناس وذلك لأنه ورث عن أمه البربرية (من قبيلة نفزة) شعره الأحمر وعينيه الزرقاوين . ويضيف المؤرخون عند ذكر سيرته ان كان له ذؤابتان من الشعر تتدلـّيان على فوديه ، وانه كان أعور وكان يشكو من ضعف في حاسة الشمّ . نعم، كان عبد الرحمن يأمل أن يلقى ترحاباً عند أبناء الخؤولة من البربر، وأمله هذا كان يبعث في نفسه البشر والعزم ، غير ان ما كان يحلم به من مجـد وعظمة سيلقاهما في اسبانيا التي احتلها أجداده كان يشغل باله ، ويملأ قلبه ، مما لم يترك معه مجالاً للشعور بالخوف أو التعب . وتقول الروايات إن أهـل بيته كانوا يتوقـّعون أن تنتهي الخلافة اليه في « الغرب » . ويقال لنا أيضاً إن عالماً بالفراسة توسّم ذلك في ملامح رآها في وجهه وعنقه . فراح جدّه هشام ، الذي نشأ عبد الرحمن في كنفه بعد موت أبيه ، يحسن تربيته ويعدّه لتسنّم هـذه الوظيفه السامية . حتى ان جـدّه اقطعه قطعة أرض في اقطاع له في الأندلس لكي يبني قصره العتيد عليها . وذات يوم وفدت إلى بـلاط هشام أميرة

(١) لقد وجدت قصة فرار صقر قريش مروية بضمير المتكلم في مخطوطة تاريخية عنوانهـا « أخبار مجموعة » وقد نشرها وترجمها Emilio Lafuentey Alcantara) مدريـد ١٨٦٧) وتجد أخبار صقر قريش في ابن الأثير ، الكامل في التاريـخ ، نشر Carolus J. Tornberg (Leyden, 1871) مجلد ٥ ص ٥٧٧ .

قوطية اسمها سارة القوطية لتشكو اليه من ظلم لحق بها وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة ، وكانت على جانب من الجمال . فقالت للفتى ، عبد الرحمن ، ان الأرض التي اعطيها تجاور أرضها في قرطبة .

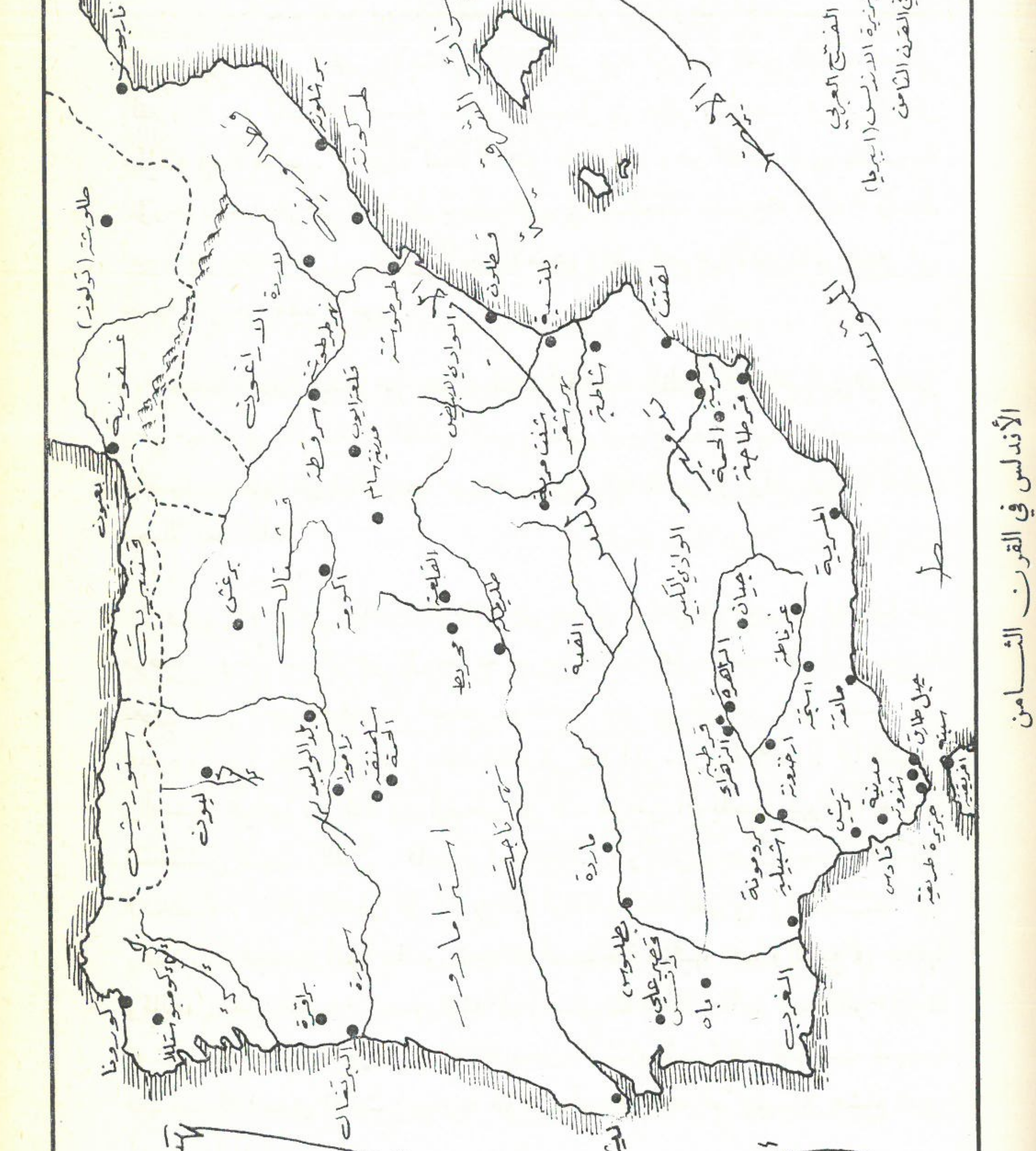
— ١ —

وبعد تسفار دام خمس سنوات وصل الشريد إلى بلاد أخواله عند شاطىء البحر الأبيض المتوسط المرّاكشي . ومن هنا ألقى أول نظرة على الأرض التي كان يحلم بها . ولكن الحلم انقلب إلى كابوس مزعج . فإن شبه جزيرة ايبيريا كانت من اقصاها إلى اقصاها في حالة غليان شديد . ذلك ان عرب الجنوب (اليمانيين) وعرب الشمال (القيسيين) لم يتناسوا ثاراتهم ولم يتخلوا عن منازعاتهم الجاهلية بل احتفظوا بها في أرضهم الجديدة . كان القيسيّون سنّيين شديدي التمسك بالسنّة ، وكان اليمانيون شيعيين. وكان البربر يعادون الفئتين. فإنهم لم يكونوا من السنّة ولا من الشيعة بل كانوا في أغلبهم من الخوارج . ونذكر ان الخوارج هم الذين خرجوا على عليّ لقبوله التحكيم ، فقتله واحد منهم . واما اليمانيون فكانوا يشعرون بخيبة أمل بسبب عدم المساواة والأخوّة التي بشّر بها الإسلام. فإنهم لم يشعروا أنهم على قدم المساواة اجتماعياً واقتصادياً مع عرب الشمال . وكانت شكواهم الرئيسية انهم بالرغم من تفوّقهم العددي في الجيش الذي افتتح الأندلس فإن عرب الشمال استولوا على السهول الخصبة وتركوا لهم المناطق الجبلية الجرداء. وكان في داخل كل حزب من هذه الأحزاب قبائل يصطرع شيوخها وزعماؤها على تولّي السلطة . وجميعهم انتقلوا إلى بلاد تختلف عن البلاد التي أتوا منها اختلافاً كليّاً . فإن جذورهم لم تكن بعد قد رسخت على عمق في البيئة الجديدة ، ولم يكونوا بعد قد توصلوا إلى اسلوب من التعايش السلمي مع سكان البلاد من الاسبان . وقد يكون أن الحكام العرب أظهروا براعة واقتداراً على ساحات المعارك ، اما في الادارة فإنهم أظهروا

عجزاً . فمن سنة ٧٣٢ — ٧٥٥ تعاقب على الحكم أكثر من ثلاثة وعشرين أميراً.

ظهر عبد الرحمن، أول ما ظهر ، كزعيم وسط السياسة الأندلسية المضطربة بين السوريين الذين اشتهروا بموالاتهم للبيت الأموي . وكان من بين السوريين النازحين إلى الأندلس جماعة من الموالي المخلصين في ولائهم لعائلة عبد الرحمن لا يزيد عددهم عن أربع أو خمس مئة مولى اعتمدهم عبد الرحمن كنواة لجيشه. وبحسب عرف الولاء عند العرب كان أبناء الموالي يوالون أبناء أسيادهم الأول الذين اعتقوهم والحقوهم بنسبهم برباط شبه مقدس ، مما كان يجعل المولى يهبّ إلى نجدة سيّده عند الشدّة . وكان قد دخل الأندلس سنة ٧٤١ قرابة تسعة آلاف جندي سوري معظمهم من الفرسان ، وذلك في عهد خلافة جدّه ، بقيادة بلج بن بشر القشري . واستولى بلج على قرطبة وأقام نفسه أميراً عليها . اما جند دمشق فاتخذ مقاطعة البيرة مقرّاً له، وجند حمص اتخذ اشبيلية، وجند فلسطين في مدينة عرفت بـ «مدينة شذونة »، وكان جنوبي اسبانيا ، من حيث المناخ وسطح الأرض والمنتوجات الزراعية ، يذكر السوريين بموطنهم الأم. وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى زعماء الأجناد بواسطة بدر رسالة يذكّرهم فيها أيادي سلفه من بني أمية ، ويعرّفهم مكانه من السلطان وسعيه لنيله إذ كان الأمر لجدّه هشام. فهو حقيق بوراثته. ويسألهم القيام بشأنه ، وملاقاته بمن يُوثق به من الموالي الأمويين وغيرهم . ويعدهم بإعلاء الدرجة . وكان من الطبيعي أن يختم رسالته بوعود قطعها على نفسه من انه سيوليهم المناصب الرفيعة في حال انتصاره .

لم يكن عبد الرحمن رجلاً متشدداً في دينه ، ولكنه كان يقوم بالشعائر المفروضة على المؤمن . وذات يوم ، بعد أن أتمّ صلاته رأى رجلاً يرمي بنفسه إلى البحر أمام سفينة مقبلة قبل أن ترسو . كان الرجل بدراً ، مولاه ، جاء يبشّره بقدم زعماء الموالي اليه ومعهم خمس مئة قطعة نقدية ذهبية . وكان اسم أول رجل تعرّف اليه « تمام أبو غالب » فاستبشر عبد الرحمن خيراً وقال :



الأندلس في القرن الثامن

« الله أكبر . الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته » .

فأسرع عبد الرحمن في التوجُّه إلى الأندلس ، وفي الرابع عشر من شهر آب ، سنة ٧٥٥ – وكان له من العمر ٢٥ سنة – نزل إلى البر بالقرب من مالقة . وكان ناصحه ومشيره عبيد الله بن عثمان قائد جند الشام ، وحفيد مولى اعتقه الخليفة عثمان . وكضيف مكرّم أهدوا اليه جارية شابة جميلة فنظر اليها وقال : « ان هذه من القلب والعين بمكان ، وان أنا اشتغلت عنها بهمّتي فيما أطلبه ظلمتها ، وان اشتغلت بها عما أطلبه ظلمت همتي ، ولا حاجة لي بها الآن [١] » . وردّها إلى صاحبها .

انتشر خبر مقدم أمير من سلالة الأمويين كما تنتشر النار في الهشيم ، فتوافدت الوفود اليه تقدّم له الطاعة والولاء . فالتفّ حول نواة جيشه من الموالي والموالين له اليمانيون والقيسيون والبربر تحدوهم رغائب شخصية ومنافع ذاتية أكثر مما كان يحدوهم الولاء للأمير الأموي . وكانت مدينة اشبيلية أول مدينة أشرعت أبوابها لاستقبال المطالب بالولاية (آذار سنة ٧٥٦) . وفي اشبيلية استعاد علاقاته مع الأميرة سارة القوطية التي كان يعرفها وهو بعد فتى في دمشق . وقد ولد لهذه الأميرة بنون وبنات ، مسلمون ونصارى ، واحدى بناتها (نصرانية) أصبحت فيما بعد أم عبد الرحمن الثالث المشهور .

– ٢ –

كانت اسبانيا في هذه الحقبة تابعة لشمالي افريقيا وعاصمتها القيروان التي أسسها عقبة بن نافع . وكان حاكم اسبانيا يوسف الفهري أحد أحفاد عقبة .

---

(١) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، طبعة رينهارت دوزي (ليدن ١٨٥٨ – ٦١) جزء ٢ ، ص ٢٩ .

وكانت عاصمة يوسف الفهري مدينة قرطبة. وكان يعوزه بُعد النظر والحنكة السياسية ليكيّف نفسه ورعاياه للعيش بانسجام في الموطن الجديد . ولكنه كان طموحاً يمنّي النفس بالاستقلال الذاتي في عهد ابن عمّه الذي كان قد استقل بالقيروان . وكان قائد جيشه صهره ، الصميل بن حاتم . وبعد تردّد التحق برئيسه في الأندلس. واغواءً لعبد الرحمن الداخل (وهو اللقب الذي يلقّب به المؤرخون عبد الرحمن) عرض يوسف الفهري استلحاقه وتزويجه ابنته ، وجعله أميراً على مقاطعتين . ولكن الأمير الأموي رفض العرض لأنه كان يطمع في غنيمة أثمن من هذه الأمور .

عندما زحف عبدالرحمن بجيشه قاصداً قرطبة لحظ أبو الصباح يحيى اليحصبي زعيم اليمانية في اشبيلية أن الأمير الأموي ليس له راية يعرف بها . فأخذ عِمته الخضراء ورفعها على قناة رمح ، وكانت أول راية للأمويين ترفع في الأندلس أجيالاً بعد ذلك .

وفي آخر الأمر اشتبك الفريقان على ضفتَي الوادي الكبير على مقربة من قرطبة . ولجأ عبد الرحمن إلى خدعة حربية عندما حمل خصمه على أن يسمح له بعبور النهر لاجراء مفاوضة للصلح . وعندما عبر عبد الرحمن النهر حمل على عدوه وأحرز نصراً حاسماً . كان ذلك في ١٥ أيار من سنة ٧٥٦ . نجا الفهري والصميل بحياتهما . وكان من الصعب على عبد الرحمن أن يلجم شهوات جنوده المتعطشين للنهب والقتل . فأصدر أماناً عامّاً ، وأعلن وجوب احترام الملكية الشخصية . وألقى القبض على ولدين من أولاد يوسف الفهري واحتفظ بهما رهينتين . فجاءت أمهما مذعورة خائفة مصطحبة ابنتيها معها والدمع في عينيها وقالت : يا ابن عمي ، أحسن الينا كما أحسن الله اليك . فأمر عبد الرحمن أن يحسنوا معاملة النساء وردّ إلى العائلة بعض الأشياء الثمينة التي تعرّضت للنهب. فقدّمت له احدى الابنتين جارية لها أصبحت فيما بعد أمّ ابنه هشام الذي أصبح خليفة بعده .

كان عبد الرحمن ، حتى ذلك الحين، أميراً اسمياً على الأندلس الاسلامية . إذ كان ينبغي أن يمرّ زمن طويل حتى تتوحّد البلاد تحت إمرته. وراح عدوّاه، الفهري في طليطلة ، والصميل في جيان ، يبثان الدعوة لشق عصا الطاعة واعلان الثورة على الأمير الأموي. وأخيراً قبض على الفهري وقطع رأسه وعلقه على جسر قرطبة . ومات الصميل خنقاً في سجنه في قرطبة .

وظلّت جماعة الفهري ، بعد وفاته ، تتحدّى الحكم الجديد . فكانت تقوم ثورات محلية هنا وهناك ، وعلى رأس بعض هذه الثورات زعماء من أصدقاء الأمير عبد الرحمن المقرّبين اليه . وجاء امويون من الشرق من اقرباء الأمير في أعقاب انتصاره يطالبون بحصتهم من الغنيمة . وكان أكثر الناقمين استياء جماعة اليمانيين والبربر الذين حال عبد الرحمن دون نهبهم قرطبة . ولم يكن عبد الرحمن يقمع ثورة حتى كانت تقوم محلها ثورات .

وقام من يتحدى سلطة عبد الرحمن على أرض بعيدة خارج الأندلس . ذلك ان أخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزها عبد الرحمن ، وصلت إلى مسامع حكام العراق . ولم يكن الخليفة المنصور ، أخو السفاح وخليفته ، ليرضى ان يقصّ الجناح الغربي للامبراطورية دون حرب وقتال. فأمدّ عامله على افريقيا، العلاء بن مغيث ، بالرجال وبالسلاح وعيّنه أيضاً أميراً على الأندلس، وطلب اليه أن يتوجّه اليها . فوصل إلى جنوبي الأندلس سنة ٧٦٣ ورفع الرايات السود . فناصره جمع من الشيعة ، ومن الموالين للعباسيين ، ومن الشيوخ والزعماء ، ومن القبائل الطامعة في الغنائم والاسلاب . واختار عبد الرحمن أن يلتقي بجيش العلاء بن مغيث في معقل حصين يُعرف بحصن قرمونة إلى الشمال من اشبيلية . وقد اشتهر هذا الحصن بمناعته على الأعداء . فضرب ابن مغيث الحصار على الحصن ، وبعد شهرين أدرك عبد الرحمن أن الزمن يعمل ضدّه . فوطّد العزم

على أن يقوم بمغامرة جريئة ، فانتقى سبع مئة مقاتل من أشد جنوده بأساً وشجاعة وسار في مقدمتهم إلى باب المدينة حيث كانت نار تشتعل وأخـذ غمد خنجره ورماه في النار وقال : لنرم جميعنا أغماد خناجرنا هنا في النار ولنقسم أيماناً ان فاتنا النصر فإننا نموت جنوداً شرفاء . فإما النصر وإما الموت .

أسفر هذا الهجوم المستميت عن مذبحة مريعة حلت بابن مغيث حتى انه يقال ان سبعة آلاف رجل من رجاله لاقوا حتفهم في هذه الموقعة . وأخذوا رأس ابن مغيث ورؤوس بعض الزعماء الآخرين وألصقوا وريقة تحمل اسم كل واحد منهم وحشوها بالمسك ولفوهـا بالسجلّ الذي أعطاه المنصور لمغيث وبالراية السوداء ووضعت في سفط وعهد به إلى تاجر قرطبي كان في طريقه إلى القيروان ليقضي بعض شأنـه ومن ثمّ إلى مكة . وكان المنصور في طريقه إلى مكة . فتركوا له السفط ليلاً في الطريق التي سيمرّ بها الخليفة صباحاً . وعندما فتحوا السفط قال المنصور : « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً » .

وقال أبو جعفر المنصور يومـاً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش من هو ؟ قالوا : أمـير المؤمنين الذي راض الملك وسكّـن الزلازل وحسم الأدواء ، وأباد الأعداء . قال : مـا صنعتم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : عبد الرحمن ابن معاوية الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخـل بلداً أعجميّاً مفرداً ، فمصَّر الأمصار ، وجنَّـد الأجناد ودوّن الدواوين ، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . ان معاويـة نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلل صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب غـيره واجتماع شيعته ،

وعبد الرحمن منفرد برأيه ، مستصحب لعزمه [١] .

ويبدو ان المنصور اتعظ بالاهانـة التي لحقت بأعوانه في الأندلس . أمـا خلفاؤه من بعده فلم يتعظوا . فقد ظلّ عملاؤهم السريّون وجواسيسهم يعملون على بث الشقاق وشق عصا الطاعة . فراح هارون الرشيد ، حفيـد المنصور ، الذي بلغ البوسفور عندما كان وليّاً للعهد ، وعقد مع الروم معاهدة مخزيـة ، يتطلّـع ناحية الغرب علّه يحرز نصراً يغطّـي ما مُني به من هزيمة في الشرق . وحاول أن يدخل في عهد مع شارلمان ، ملك الفرنجة وامبراطور الامبراطورية الرومانية . وكان شارلمان عدوّاً طبيعيّاً لجيرانه الأمويين في الجنوب ، كما أن هارون كان عدوّاً لبيزنطة منافسته . وفي سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب في الشمال الشرقي من الأندلس ، وألـّفوا حلفاً قوياً يرئسه زعيم فهري وراحوا يراسلون عدو الإسلام الأكبر ، شارلمان ، ليخفّ إلى مساعدتهم وقطعوا له عهداً انهـم يعترفون بسلطته . وكان شارلمان يطمح ، أول ما كان يطمح ، إلى توحيد أوربا تحت صولجانه . فقطـع جبال البرنه على رأس جيوشه ، وقطع تخوم الأندلس متّجهاً نحو المدينة الثائرة ، سرقسطة . غير ان أهل سرقسطة عدلوا عن فكرتهم الأولى ، وأغلقوا أبواب مدينتهم بوجه هذا العدو الذي يظهر بمظهر الصديق . وبلغت شارلمان أنباء عن اضطرابات وقعت في بلاده مما اضطره إلى الانسحاب فالرجوع فوراً . وفي طريق عودته عبر مضايق جبال البرنه هاجمت قبائـل الباسك (البشكنش) وغيرها من القبائل الجبلية جيوشه المنهكة وألحقت بهـم خسارة فادحة في الأرواح . وكان من جملة القواد الذين هلكوا هناك رولاند الشاعر . وقد خُلـّد دفاعه المجيد بشكل تاريخي اسطوري في قصائد رائعـة

---

(١) يرد هذا النص بأشكال مختلفة . قابـل المقري مجلد ١ ص ٢١٣ ، ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب (نشر دوزي ، ليدن، ١٨٤٩) مجلد ٢ ص ٥٤ ، ٦١-٦٢ ، والعقد الفريد (القاهرة ، ١٩٤٤) جزء ٤ ص ٤٨٨ .
راجع أيضاً : Dozy, Spanish Islam, P. 207.
وقد نظم عبد الرحمن نفسه في ذلك شعراً .

تعرف بـ « أغنية رولاند » التي تعتبر من بواكير الكنوز الأدبيـة الفرنسية ، وملحمة من ملاحم العصور الوسيطة .

خرج عبد الرحمن من هذه المعركة منتصراً ظافراً دون أن يقاتل . ولكن جاء دور سرقسطة في الانتقام . بعد ان استولى على المدينـة ألقى القبض على أميرها وقطـّع يدَيه وساقـَيه وجلده حتى الموت . وبعد هذه الحوادث لم يقم في البلاد من تحدّى سلطة عبد الرحمن في خلال الاثنتين والثلاثين سنة بعد استسلام قرطبة . وكان عبد الرحمن يقود الجيوش إلى المعارك بنفسه ، ولا نعلم انه خاض معركة خسر فيها القتال . وأصبح أمير الأندلس ، كما كان يسمّى في هذه الحقبة ، أميراً بالفعل ، لا بالاسم فقط . ويصرّ المؤرّخون على أن عبد الرحمن في زمن شارلمان كان يعدّ العدّة لبناء اسطول يغزو به سوريا لينتزعها من سلطة بني العباس .

— ٣ —

لم تكن منجزات عبد الرحمن في حقل السلم مما يتناسب مع منجزاته في ساحات الحرب ، ولكنها كانت منجزات ذات شأن . لم يكن عبد الرحمن مجرّد أمير من الأمراء (وكان عددهم ٢٣) الذين كانوا يستمدون السلطة من القيروان أو دمشق ، بل كان السيد المطلق الذي يتولى شؤون دولة مستقلة . وقد وضع لهذه الدولة أُسساً في التنظيم والادارة دامت قرنين ونصف القرن باستثناء بعض التعديلات التي أدخلها عليها عبد الرحمن الثالث . وليس هذا فقط بل انها دامت واستمرّت طوال هذه الحقبة الطويلة في وجه معارضة داخلية عربية اسلامية يعمل زعماؤها كقوة نافذة وفي وجه مقاومة مسيحية تضغط من الداخل والخارج . وعبر الحدود الشمالية عند سفوح جبال البرنه كانت هناك ممالك صغيرة : اراغون ونافار وليون وقشتالة تصلّي وتتحيّن

الفرص ليوم الخلاص ، يوم انتزاع البلاد من أيدي فاتحيها .

كان عبد الرحمن في وضعه الأسس الادارية يتّبع النظام الذي كان متبعاً في دمشق . كانت السلطة — المدنية منها والعسكرية والقضائية — في يد الأمير . وكان بوسعه أن يفوض أحد أعوانه بعض هذه السلطة ، وبالفعل لجأ إلى مثل هذا التفويض في حالات معيّنة . وكان يعاونه في تصريف مهام الحكم «حاجب» وكان أولَ « حاجب » رفيقه في السلاح تمّام أبو غالب . اما الوزارة وهي مؤسسة عباسية أكثر منها أموية ، فلم تكن معروفة في الأندلس حتى زمن عبد الرحمن الثالث (توفي ٩٦١) . وكان تحت إمرة الحاجب جماعة الكتّاب: كاتب المال ، والجيش ، والداخلية ، وغيرهم في مختلف دوائر الحكم . وكان هناك مجلس استشاري ، أو مجلس شورى ، أعضاؤه من النبلاء والأشراف ، ومن علماء الدين ، ومن كبار موظفي البلاط . وكان أول من ترأس هذا المجلس عبيد الله بن عثمان ، وكان من أوائل الناس الذين عضدوا عبد الرحمن . وكان عبيد الله يتولى إمارة العاصمة في غياب عبد الرحمن . وعُين أبو الصبّاح والياً على اشبيلية . وتقول الرواية إن عبد الرحمن نقش على خاتمه « الواثق بالله » .

في تقسيم البلاد إلى ولايات احتفظ عبد الرحمن بالتقسيم الذي وضعه القوط، ولكنه رفع عدد الولايات إلى ست . وكان لكل ولاية والٍ وقاض . وكان لبعض المدن الكبيرة الرئيسية ولاتها. وكان قاضي قرطبة يُعتبر قاضي القضاة، بمعنى أنه كان المرجع القضائي الأخير . وكان القاضي عن علماء الدين عالماً بالعلوم القرآنية والشرعية . اما الجرائم وغيرها مما تتناوله الشرطة من قضايا فكان يفصل فيها ويحكم موظّف خاص .

اما الجيش العربي في الأندلس ، كما وجده عبد الرحمن ، فقد كان منظّماً حسب الطريقة العربية القبلية البدائية . فقد كانت كل قبيلة ، سواء أكانت عربية أم بربرية ، تقطع أرضاً تقيم فيها ويرئسها شيخ القبيلة الذي يصبح زمن الحرب قائدها . ولكن الأمير عبد الرحمن ، على مرّ الأيام، أنشأ جيشاً نظامياً

من المرتزقة المجنّدة، معظمها من قبائل البربر في شمالي افريقيا. وقد بلغ عدد هذا الجيش النظامي أربعين ألف مقاتل. وكانت فرق الفرسان تستخدم البغال المتوفرة في الأندلس أكثر من الخيل، والتي تلائم طبيعة البلاد أكثر مما تلائمها الجياد. وكان لعبد الرحمن حرس من الجنود الزنوج المجنّدين من إفريقيا. وكان على هذا الجيش أن يحمي الثغور في الشمال، وان يقمع بدون رحمة أو شفقة الثورات الداخلية. وبقدر ما كان الجيش موالياً للأمير كان الناس يمقتونه. وهذا يذكرنا بجيش الانكشارية عند العثمانيين.

وكانت شبه جزيرة اسبانيا معرّضة من ثلاث جهات لغزوات من البحر. وهذا مما دفع بعبد الرحمن لانشاء نواة اسطول بحري، الأول من نوعه في الأندلس الاسلامية. وقد بنيت سفنه حسب النماذج البيزنطية، وكانت قاعدته المريّة. وعين عبد الرحمن حاجبه تماماً أميراً للبحر، فكان أول أميرالمسلم في أوربا. وفي عهد عبد الرحمن الثالث أصبح الأسطول العربي الأندلسي أقوى أسطول في غربي البحر الأبيض المتوسط.

كانت معاملة النصارى في اسبانيا لا تختلف عن معاملتهم في أي قطر آخر. وترتكز معاملة المسلمين للنصارى على ما جاء في القرآن الكريم وعلى ما جاء بعد ذلك في الحديث وفي التآليف الفقهية. فقد كان اليهود والنصارى من أهل الذمة، وبصفتهم هذه كان لهم حقوق وعليهم واجبات. ومن حقوقهم حماية الدولة لهم، ومن واجباتهم نحو الدولة دفع الجزية، وجاء في الوحي:

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون
ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب
حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. (سورة التوبة ٢٩).

كانت الضريبة تفرض على الذكور البالغين المتمتعين بكامل قواهم الجسدية والعقلية. أما الأولاد والنساء والعبيد والرهبان والمرضى وأصحاب العاهات فكانوا يعفون من دفع الضرائب. وكانت الضريبة تدفع نقداً أو عيناً. وكانت

الضريبة تصاعدية من دينار إلى أربعة بناء على قدرة المرء المالية ووضعه الاقتصادي. وضريبة الأعناق تضاف إلى ضريبة الخراج. وكان الخراج يفرض بحسب ما كان عليه قبيل الفتح الإسلامي، ومعدله خمس الانتاج. وكانت الجزية تُرفع عن كاهل صاحبها إذا اعتنق الإسلام. وأما أملاك النبلاء من أهل البلاد الذين نزحوا عنها إبان الفتح فكانت تُصادر وتُوزع على المقاتلين من المسلمين. وكانوا يحتفظون بالعبيد الذين كانوا يحرثون الأرض ويزرعونها على أن يدفعوا أربعة أخماس الإنتاج.

أما النصارى واليهود في الأندلس فقد سمح لهم، كما كانت الحال في بلدان أخرى فتحها المسلمون، أن يظلوا خاضعين في مسائل القضاء لرؤسائهم الروحيين ينظرون في قضاياهم، إلا إذا كان في القضية مساس بحق المسلم، فإن مثل هذه القضايا كانت تردّ إلى المحاكم الاسلامية. ويرى معظم المؤرخين الغربيين ان الاحتلال العربي وانتزاع السلطة من القوط لم يكن مجحفاً بحق الأهلين الأصليين. بل الأمر كان على نقيض هذا، فإنه أفاد طبقة الأرقاء واليهود الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد القوطي في كثير من الأحيان. وكان النصارى يبدون النفرة من حكامهم القوط. كان القوط من برابرة التيوتون (سكان الشمال)، وقبل أن ينضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية كانوا هراطقة من أتباع آريوس. كذلك قضى الفتح العربي على سطوة طبقة النبلاء والاكليروس المتمتعين بالامتيازات على حساب الشعب. وسمح عبد الرحمن للنصارى بترميم كنائسهم القديمة وبناء أخرى جديدة. ولم يفرض عليهم أيّاً من الشروط الصعبة التي فرضها الخليفة عمر الثاني (٧١٧ – ٧٢٠). نعم، يأسف بعض الكتبة الإسبان على أن الفتح الإسلامي للأندلس كان سبباً في انقطاع التقليد المسيحي وحشره بين فترتين: المسيحية في العصور المتوسطة والمسيحية في العصور الحديثة. ولكن الواقع أن الأندلس بلغت في العهد الإسلامي الذروة في النمو الاقتصادي والرقي الحضاري، وعرفت عصوراً من الازدهار لم تعرفها من قبل. وكانت عاصمة

الأندلس تباهي القسطنطينية وتفاخر بغداد على انها مركز عالمي للأبهة والوفر والعلم. وكان الكتّاب العرب يسمّون قرطبة «عروس الأندلس»، وسمّتها راهبة انكلوسكسونية «جوهرة الدنيا».

كانت قرطبة التي خلّفها عبد الرحمن بعد مماته تختلف كليّاً عن قرطبة التي عرفها عند استيلائه عليها. إلى قرطبة كانت تفد جموع المسلمين من شمالي افريقيا وغربي آسيا ليجرّبوا حظهم من العيش والثروة. وكان اللاجئون من الأمويين يأتون اليها للحماية سواء أكانوا يتلقون دعوة للذهاب اليها أم لم يتلقّوا. وكان من العرف أن يحيط الخليفة نفسه بجماعة من أقربائه المقرّبين، وأن يعهد اليهم بالمراكز والمناصب العالية في الدولة. وقد سنحت آنذاك أمام صقر قريش سانحة لاعادة الاعتبار لأهله وذويه. كان عبد الرحمن يقول إن أعظم نعمة أسبغها الله عليه بعد الخلافة، تمكينه من توفير وطن لأهله يقيمون فيه آمنين، ومن الانتفاع بهم. وكان يتمنّى أن يرحّب بعودة ابنه سليمان الذي خلّص حياته من القتل عندما كان في الرابعة من عمره ورأى الرايات السود مقبلة إلى مكمن أبيه. كانت النجاة من يد العباسيين نعمة ورحمة ولكن العمّتين اللتين عهد اليهما بأمر الصبي لم تريا من الحكمة المجازفة بركوب البحر. وكان سكان العاصمة يزدادون يوماً بعد يوم بسبب ازدياد عدد المسلمين الجدد الذين كانوا يُعرفون بالمولّدين. أما سكان الريف فكان شأنهم شأن سكان الريف في كل مكان، كانوا شديدي الحفاظ على أسلوب عيش آبائهم وأجدادهم. وفي مدى حياة عبد الرحمن لا بد أن غالبية السكان صاروا من المسلمين.

لذا توجّب عليه أن يكبّر مسجد قرطبة، وكان التوسيع على حساب كنيسة للنصارى. وقبل أن توفي بثلاثة أعوام شرع عبد الرحمن بتنفيذ مشروع أكبر: اعادة بناء المسجد وتوسيعه وجعله مسجداً يليق بعاصمته، وفي الوقت ذاته يضاهي كنائس النصارى الكبيرة من حيث فخامة البناء. وبنى حول المسجد سوراً سماكته سماكة سور القلاع وحسّنه بفضاء للمعبد يقوم سقفه على

غابة كثيفة من الأعمدة الفخمة (١٢٩٣ عموداً). وأنفق على بنائه في خلال سنة مئة ألف دينار على ما يقال. وأصبح مسجد قرطبة كعبة المسلمين في بلاد الغرب. وعندما استعاد الإسبان بلاد الأندلس تحوّل المسجد إلى كنيسة باسم عذراء الصعود. ولا يزال البناء قائماً ويعرف بـ «المزكيتا» أي المسجد. وبعد الحمراء يعدّ أكثر الأمكنة الأثرية اجتذاباً للسياح.

وبالإضافة إلى مسجد قرطبة، يعزو المؤرخون الفضل لعبد الرحمن في إنشاء أبنية عامة في العاصمة، دينية وغير دينية. كذلك جدّد الحصون القديمة التي كان قد انقضى نصف قرن على إنشائها (٧٦٦). وكبّر الجسر الممتد فوق الوادي الكبير، وحسّن قناة الماء لا لزيادة الماء للسكان الذين زاد عددهم فحسب بل لكي لا تعطش المدينة في حال الحصار أو انحباس المطر. وبنى لنفسه داراً بالقرب من المسجد الكبير، عُرفت ببيت الإمارة، لكي تحلّ محل الدار القديمة التي كانت مقرّ الحكومة منذ عهد القوط. وعلى بعد ميلين خارج قرطبة ابتنى لنفسه دارة فخمة وأحاطها بحديقة زرع فيها مختلف الأزهار النادرة الغريبة وأنواعاً كثيرة من الشجر، وسمّاها الرصافة على اسم الرصافة في بغداد، وهي ضاحية على الفرات ابتنى فيها جدّه دارة جميلة نشأ وترعرع فيها عبد الرحمن نفسه. وكان من عادة الخلفاء الأمويين أن ينشئوا دوراً في الريف للصيد وللاستجمام والراحة مما يشبع فيهم الحنين الى عيش الصحراء. وقد نظم عبد الرحمن أبياتاً رقيقة في نخلة وحيدة في حديقته:

يا نخل أنت فريدة مثلي	في الأرض نائية عن الأهلِ
تبكي وهل تبكي مكمّمة	عجماء لم تجبل على جبل
ولو أنها عقلت إذن لبكت	ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت واخرجني	بغضي بني العباس عن أهلي

كان الشعر، كالخطابة، من الشروط الأساسية التي يجب أن يتحلّى بها رئيس الدولة، وعبد الرحمن كان شاعراً وخطيباً. وقد يكون من الإسراف أن

نعزو اليه إدخال النخيل إلى الأندلس ، إذ ان الفينيقيين هم الذين أدخلوه إلى البلاد بزرعهم نوى التمر أولاً . غير أن العرب في الأندلس يجب أن يكونوا قد أدخلوا أنواعاً منه من شمالي افريقيا ، كما انهم أدخلوا زراعة الأرز والمشمش والدراقن والرمان والبرتقال (المرّ منه أو النوع الذي يعرف بالإشبيلي) وقصب السكر والزعفران ، وغيرها من النبات والفاكهة ، كما يدل على ذلك بقاء اسمائها العربية في البرتغالية والاسبانية . وأسفرت الجهود الزراعية التي بذلها العرب في الأندلس عن ازدياد في انتاج الأرض . ولم يكن عطاء العرب في حقل الصناعة بأقل منه في حقل الزراعة ، فانهم أدخلوا صناعة تطعيم المعادن بالذهب والفضة من دمشق التي اشتهرت به . وقد ازدهرت هذه الصناعة في عدد من المدن الاسبانية ، ومنها انتقلت إلى فرنسا ودول أوربية أخرى كما يدل على ذلك بقاء كلمات مثل لفظة danacene و damaskeen، في اللغات الاوربية . ولا يزال السياح الذين يفدون إلى طُليطلة يبتاعون سكاكين ومقصّات مصنوعة على أنماط دمشقية كالتي كانت تصنع في العصور الوسيطة .

كان بطل قصتنا ، عبد الرحمن صقر قريش ، هو الذي شقّ طريق المجد لعاصمة الأندلس الإسلامية ، غير انها لم تصل إلى ذروة مجدها وعزّها إلا في عهد خلفه الثالث وسميّه ، وخلف سميّه الحكم (٩٦١ - ٩٧٦) . وكان الحكم رجلاً محبّاً للكتب . في سنة ٩٢٩ ، أي بعد تسنّمه الإمارة بسبعة أعوام ، أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه أمير المؤمنين ، في الوقت الذي وصلت فيه الخلافة العباسية إلى الحضيض . وقد عاشت هذه الخلافة الأموية الجديدة في الأندلس حتى سنة ١٠٣١ . وكان عبد الرحمن الأول قد أوصى قبل وفاته بالامارة لولده هشام متبعاً بذلك ما فعله معاوية عندما عيّن يزيد خليفة بعده . فيكون عبد الرحمن قد حرم ابنه الأكبر سليمان، الذي كان أكبر من أخيه هشام بإحدى عشرة سنة . وكان هشام ، كما كان يزيد بن معاوية ، ابناً لأمّ نصرانية . وجعل الامارة أو الخلافة وراثية من شأنها أن تبقي على الاستقرار والاستمرار في حياة

الدولة . وفي الذكرى السنوية الأولى لامارته ذكر عبد الرحمن في خطبة الجمعة اسم الخليفة العباسي . وقد احتفظ بذكر الخليفة العباسي في الأندلس زمناً كما تدل على ذلك الكتابة التي كانوا ينقشونها على النقود والتي وصلنا منها بعض النماذج .

- ٤ -

بدأ عبد الرحمن حياته السياسية متحلّياً بحلم معاوية ولكنه أنهاها متبعاً خطى السفاح العباسي . نذكر من حلمه ما أبداه نحو الأهلين في قرطبة عندما تمّ له الاستيلاء عليها . ثم انه حاول بعد ذلك أن يستميل اليه ألد عدوين : الفهري والصُّميل. ولكن الأحداث التي اختبرها فيما بعد بعثت في نفسه اليأس والقنوط من تصرف الناس الذين أحسن اليهم . فراح يظهر من القسوة ضروباً ، فكان الصلب ، بعد قطع الرأس ، قصاصاً مفضّلاً عنده ، وأصبح مع أصدقائه عنيداً متصلباً بقدر ما كان قاسياً ظالماً مع أعدائه . لم يظهر من الرحمة ما يبرّر تسميته بعبد الرحمن ، والرحمن صفة من صفات الله . ولم يمض زمن حتى نشأت في نفسه عقدة العصمة . كان يعتبر ذاته معصوماً عن الخطأ . ومن لا يشاركه الرأي يصبح متّهماً في ولائه . ولم يعد عبد الرحمن ذلك الأمير الذي كان يتجوّل في شوارع عاصمته يكلّم الناس ويعاشرهم، بل أصبح الآن كئيباً نكيد المزاج يؤثر العزلة وراء أسوار تحرسها أسنة الحراس ، وانقلبت بهجة الحياة ولذتها إلى كآبة ومرارة .

وجرؤ يوماً فقيه عالم أن يتحدى إرادة عبد الرحمن . كان عبد الرحمن قد طلب اليه أن يتولى القضاء في قرطبة فرفض الفقيه أن يقضي لحاكم يعتبر نفسه فوق حكم الله وشرعه . أخذ عبد الرحمن يفتل شاربيه ، وكان هذا من دلائل الغضب . وعندما رآه حرّاسه في هذه الحالة العصبية أوجسوا خيفة وترقبوا

أن يحكم عليه بالإعدام . ولكن الله سبحانه دفع الشرّ عن الفقيه ، وصاح به عبد الرحمن : اخرج من هنا ، لعنة الله على من سمّاك لي قاضياً . وكان الذي أوصى به قاضياً ولديه سليمان وهشام .

وهكذا تفرّق عنه أصدقاؤه الذين كان يأتمنهم ويثق بهم ، الواحد تلو الآخر . وكان أولَ من غضب عليه عبد الرحمن صديقه ومعاونه أبو الصّباح الذي رفع عمامته على قناة لتكون راية خضراء . بعد أن فقد عمامته فقد رأسه . أمر عبد الرحمن بقطع رأسه بعد أن عزله عن ولاية قرطبة . تزعم أبو الصباح ثورة قام بها اليمانيون الناقمون. وكاد عبيد الله الذي كان عبد الرحمن مديناً له بالامارة أن يلقى المصير الذي لقيه أبو الصباح ، ولكن عبد الرحمن استعاض عن قطع رأسه باهماله ونبذه كليّاً . ولم يسلم مولاه الوفي الودود ، بدر ، من شرّه . ذلك أن بدراً لم يعد ذلك العبد الذليل الخنوع لأوامر سيده . فصادر أمواله وممتلكاته ونفاه إلى مدينة عند الحدود . ولكن أقسى ما أنزله من عقوبات صارمة كانت تلك التي أنزلها بأقربائه وأنسبائه . وكان أوّلهم أميران أمويان كانا يأتمران على عبد الرحمن عندما أفشى أمرهما فأمر بقطع رأسيهما . وأمرّ من قتل الاميرين الأمويين كان قتل ابن أخ له ، المغيرة ابن الوليد ، الذي راح يدبّر مؤامرة مع ابن الصُّميل ، ولكن افتضاح الأمر أدّى إلى قطع رأس المغيرة بأمر من عبد الرحمن . وفي ساعة كآبة ووجوم راح عبد الرحمن يعبّر عن الألم النفسي الذي ألمّ به من جرّاء هذه الحوادث . يقول :

أعظم ما أنعم الله به عليّ ، بعد تمكني من هذا الأمر ، القدرة على إيواء من يصل إليّ من أقاربي ، والتوسّع في الاحسان اليهم ، وكبري في أعينهم واسماعهم ونفوسهم ، بما منحني الله من هذا السلطان الذي لا منّة عليّ فيه لاحدٍ غيره .. ما عجبي إلا من هؤلاء القوم. سعينا فيما يضجعهم فيمهاد الأمن والنعمة ، وخاطرنا فيه بحياتنا . حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا ، ويسّر الله أسبابه ، أقبلوا علينا أمام السيوف . ولما آويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله به ، حتى أمنوا ، ودرّت

عليهم أخلاف النعم ، هزّوا أعطافهم ، وشمخوا بآنافهم ، وسموا إلى العظمى . فنازعونا فيما منحهم الله ، فخذلهم بكفرهم النعم ، إذ اطلعنا على عوراتهم ، فعاجلناهم قبل أن يعالجونا ، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم . وساء أيضاً ظنه فينا . وصار يتوقّع من تغيرنا عليه ما نتوقّع نحن منه . وان أشدّ ما عليّ في ذلك أخي ، والدُ هذا المخذول ، كيف تطيب لي نفس بمجاورته ، بعد قتل ولده وقطع رحمه ؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره [1] ؟

بعد ذلك دفع بصرة من المال فيها خمسة آلاف دينار ، إلى أحد أعوانه وأمره بالتوجّه إلى أخيه الوليد ليعتذر عن مقتل ابنه . وطلب إلى الرسول أن يقول لأخيه إنه يجب عليه مغادرة الأندلس إلى حيث يشاء .

في الثلاثين من شهر أيلول ، سنة ٧٨٨ توفي الأمير الحزين ودفن في عاصمة ملكه .

طريداً من سورية ، ومتشرّداً في شمالي إفريقيا ، ومطالباً بإمارة الأندلس، ومؤسس الدولة الأموية المجيدة الثانية، ومناهض أقوى وأعظم سلطانين حاكمين في الغرب والشرق ، هذا ما كانه عبد الرحمن ، أول عربي خلّد اسمه في سجلّ التاريخ الأوربي .

---

(١) المقري مجلد ٢ ص ٣٢ .

المأمون

الخليفة الثائر، وباعث الفكر في الإسلام

فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وأحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبتعيينه.

المأمون

كثيرون من الخلفاء بزّوا المأمون في المآتي العسكرية، وبزّه غيرهم في الحنكة السياسية، وفي القدرة على التنظيم والادارة، ولكن خليفة واحداً لم يضاهه في عقلانيته، وفي رعايته للعلوم الدخيلة. فإن الحركة الفكرية التي عرفتها بغداد في عهده وما اليها من النشاط في حركة الترجمة من اليونانية والسريانية، كانت الأولى من نوعها في التاريخ الإسلامي، وكانت إلى جانب هذا من أروع الحركات وأخطرها في تاريخ الفكر. وبعد أن تمّ للإسلام أن يضمّ تحت لوائه مساحات شاسعة من العالم المتمدّن برزت شخصية هذا الخليفة،

وكأنها جزيرة صغيرة ثابتة منعزلة في بحر خضمّ من شخصيات أخرى يمثلها خلفاء لم يكونوا سوى حماة للايمان القويم . كان الخلفاء الراشدون في المدينة من الصحابة الذين رأوا الرسول وعرفوه وعايشوه ، فكان من الطبيعي أن يكونوا من أصحاب العقيدة السنيّة الصحيحة. وكان الخلفاء الأمويون في دمشق على اتصال بالروم وحضارتهم ، ولكن عنايتهم لم تتجه هذه الناحية بل كان همّهم الأول الفتوحات العسكرية . غير أن عهد الأمويين كان عهد تكوين لنشأة الفكر الأولى، ذلك الفكر الذي بلغ كامل نموّه في عهد الخليفة العباسي السابع في بغداد — تلك المدينة التي جمعت بين الحضارة السورية والفارسية واليونانية — عهد المأمون الذي قُيّض له أن يكتب فصلاً رائعاً في سجل التاريخ الإسلامي، الديني منه والحضاري .

— ١ —

كانت سنة ٧٨٦ السنة التي تولّى فيها الخلافة أشهر خليفة : هارون الرشيد ، والتي وُلد له فيها ولدان أصبحا فيما بعد خليفتين : محمد — ويعرف بلقبه الأمين — وعبد الله ، ولقبه المأمون . أما هارون الرشيد فقد فاق ابنه الثاني ، المأمون ، شهرة ، ولكن في الأقاصيص والروايات . ولكنه لم يبلغ ما بلغه المأمون من مكانة في التاريخ. وقد اشتهر هارون الرشيد وذاع صيته بفضل ما حاكه قصّاصو ألف ليلة وليلة من حوادث وطرائف ، حتى دخل اسمه في التراث الحضاري العالمي .

عندما بلغ الأمين الخامسة من عمره أوصى له أبوه بالخلافة بالرغم من أنه كان يصغر أخاه المأمون بستة أشهر . فقد كانت أم الأمين زبيدة ، التي كانت على جانب من الذكاء والجمال . وكانت حفيدة الخليفة المنصور . وقد شاركت زوجها — وابن عمها في الوقت ذاته — هارون الرشيد في حياة البلاط ، تلك الحياة التي أضفت حولها الأجيال التالية هالة من المجد والجلال . اما المأمون فقد

كان ابن زوجة جارية من الفرس اسمها مراجل . والأمين كان الخليفة العباسي الوحيد من أبوين قرشيين .

وبينما كان الولدان يكبران في السن يجب أن يكون الأب قد لحظ تفوّق ابن المرأة الفارسية في الذكاء والأخلاق الكريمة ، مما حمله على إعادة النظر في وصايته بالخلافة للأمين . وأما زبيدة ، الأمّ العربية ، فلم يخامرها أدنى شك في الأمر من أن الخلافة للأمين لا للمأمون . وكان اخوتها يشاركونها الرأي ويعضّدونها ، فزاد ذلك من مكانتها وهيبتها .

في سنة ٧٩٩ أوصى هارون بالخلافة للمأمون بعد خلافة الأمين . وكان الرشيد يدرك جيداً ما كانت تجره الخلافة على الإسلام والمسلمين من نزاع وخصام منذ وفاة الرسول . فقطع بذلك عهدين الأول منهما على الأمين ويشترط فيه أن يتنازل عن الخلافة إذا عارض يوماً أن يكون خليفتَه أخوه المأمون . والعهد الثاني على المأمون وفيه يشترط عليه أن يؤدّي الطاعة والولاء إلى أخيه الأمين . ويبدو أن الوثيقتين بعد توقيع الأمين والمأمون والشهود عليهما اودعتا الكعبة ، وذلك بمناسبة وجود هارون الرشيد في مكة للقيام بفريضة الحج (٨٠٢) . وفي هذا الوقت قسّم الرشيد الدولة بين ابنيه ، فجعل المأمون على الجزء الشرقي من خراسان إلى نهر السند ، وأبقى الأمين في بغداد يعاونه في تصريف الأمور. هذا والولدان لم يكونا قد بلغا بعد العقد الثاني من العمر. فأقام المأمون في مرو عاصمة خراسان . ولنا ان نقول ان هذا التدبير جزأ الامبراطورية ادارياً إلى جزأين .

توفي الخليفة هارون الرشيد في مدينة طوس في شهر آذار من سنة ٨٠٩، عندما توجّه إلى الشرق لقمع ثورة داخلية . وبوفاته بدأ النزاع بين الأخوين حول الخلافة ، وهو نزاع حاول هارون الرشيد أن يتدارك شرّه في حياته ، وفي الظاهر كان الخلاف يبدو وكأنه خلاف بين خليفة عابث يشرب الخمرة ، ويعشق النساء ، ويميل إلى السماع ، وبين رجل حادّ الذكاء ، طموح إلى

الخلافة . والواقع أن كلا الرجلين وقعا في قبضة وزيريها : الفضل بن الربيع وزير الأمين ، والفضل بن سهل وزير المأمون . وكان الفضل بن الربيع ينتسب إلى عبد سوري أعتقه الخليفة عثمان ، ولكنه كان عربياً في روحه أكثر من العرب أنفسهم . أما الفضل بن سهل فقد كان فارسياً مجوسياً اعتنق الإسلام . وكان الوزيران من دهاة السياسيين في ذلك الزمن . وتعريف ابن سهل للسعادة يعكس لنا الكثير من خلق الرجل وطبعه . يقول : « السعادة هي أن تصدر حكماً فينفـّذ الحكم » . وكان الفضل بن الربيع من هذا الرأي أيضاً .

غير أن هذا الخلاف لم يكن خلافاً بين شخصين يتنازعان الخلافة أو بين وزيرين. نعم انه كان خلافاً يقع مثله في السلالات المالكة، ولكنه كان ينطوي، إلى جانب هذا ، على عوامل قومية ودينية وسياسية واجتماعية واقتصادية متشابكة متداخلة . انه كان خلافاً بين المستجدّين في الإسلام — وغالبيتهم من الفرس الذين كانوا يفخرون بتراثهم الحضاري الفني وبقوميتهم الفارسية — والمسلمين القدامى ونواتهم من العرب الخلّص . وكان النزاع أيضاً نزاعاً بين الشيعة من جهة ، وكانوا في غالبيتهم من الفرس ، ومن العرب العلويين واليمانيين ، وبين السنـّة وغالبيتهم من القيسيين (عرب الشمال) . وكان الأمين يمثل الفئة الثانية : السنـّة العربية القيسية . وكان المأمون على رأس الفئة الثانية : الشيعة الفارسية اليمانية .

عندما كان هارون على فراش مرضه في طوس أمر الجند أن يلتحقوا بالمأمون ، إذ ان الخليفة وجنوده كانوا في هذا الجزء من الامبراطورية ، لقمع ثورة نشبت هناك . ولكن الأمين طلب إلى الجند أن يعود إلى بغداد . وكان وزير الأمين في طوس فأوعز إلى قواد الجنود أن يعودوا إلى بغداد ، إذ انه من الأفضل لهم أن يكونوا في خدمة من سيتولى الخلافة من أن يكونوا في خدمة من لا يتولاها . وقد أشار ابن سهل على المأمون أن يتغاضى عن هذه الاثارة ، لأنه لم يكن في وضع يؤهله لاستخدام القوة . فأظهر المأمون ولاءه للخليفة الأمين

ودعا له في خطبة صلاة الجمعة ، وبعث اليه بهدايا : انسجة غالية الثمن ، ومصنوعات معدنية من خراسان. ولكن المأمون احتفظ ببيت المال في ولايته، وبالجند ، وبالقضاء . وقد رأى ابن سهل بثاقب نظره أن هذه الاثارة كانت نذيراً من شأنها أن تزيد في حدة الخلاف بين الرجلين . إذ ان جميع عناصر الفتنة كانت متوافرة : فهنا خليفة فتى يلعب ويلهو ، وهناك خليفة له يفضله قدرةً وكفاءة يترقب دوره . يضاف إلى هذا طموح وزيرين لا يُعرف لطموحها حدّ ، كل منهما يتفانى في خدمة سيّده ، وبالتالي في خدمة مصالحها الشخصية . وكان المأمون قد أنشأ شبكة واسعة من الجواسيس والعيون وأرسلهم إلى كل مكان حتى إلى داخل بلاط أخيه ، أما أخوه الأمين فقد كان ينفق من بيت المال دون حساب لاكتساب الأعوان له ولاجتذاب أعداء المأمون .

انطلقت الشرارة الأولى عندما أوصى الأمين ، سنة ٨١٠ ، بالخلافة لابنه موسى ، وذلك في خطبة الجمعة ، وبإيعاز من وزيره الفضل بن الربيع. وبالرغم من أن هذه الوصاية لم تلغ خلافة المأمون ، فإن الغاية البعيدة منها كانت واضحة عند من يهمهم الأمر . وكان الأمين قبل ذلك قد بعث برسل إلى أخيه المأمون يطلب منه الطاعة والخضوع . استقبل المأمون رسل أخيه بما يليق بهم من الاحترام . أما جوابه فقد كان لطيفاً ، ولكن لا لبس فيه ولا ابهام: ان وصاية الأمين لابنه موسى نقض لوصية أبيهما هارون الرشيد . في هذه الأثناء كان الفضل بن الربيع ، وزير الأمين ، قد أرسل إلى الكعبة من جاء بالوثيقة ومزّقها على أنها ورقة لا قيمة لها. لم يكن أمام الخليفة سوى عزل أخيه وتجنيد الجنود لمحاربته .

جند الأمين جيشاً من أربعين ألف مقاتل ، معظمهم من العرب العراقيين والسوريين، وأمّر عليهم قائداً غير كفؤ للمهمة اسمه علي بن عيسى . وتوجه الجيش شرقاً . فالتقاهم (أيار سنة ٨١١) في الريّ (على مقربة من طهران) جيش المأمون، وقوامه أربعة آلاف مقاتل من الخراسانيين والفرس وعلى رأسهم

القائد الشجاع المقدام طاهر بن الحسين الذي لم يكن يعرف العربية ، بل كان فارسي اللسان. وهُزم جيش الخليفة شرّ هزيمة وقُتل قائده. ويقال ان طاهراً كان يمسك سيفه بيديه الاثنتين ليضرب بـه ، فسمّاه المأمون « ذا اليمينين » . كان ولاة الأمر في بغداد واثقين من الأمر وثوقاً أكيداً ، حتى إذا جاء الرسول من ساحة المعركة ليعلن الخبر المفجع وجدوا الخليفة يصطاد السمك في دجلة مع جارية محبّبة اليه اسمها كوثر . ويقول الذين أرّخوا لنا سيرة الأمين إن الخليفة أبى أن يعكّر أحد عليه صيده ، لأن فتاته كانت قد اصطادت سمكتين بينما هو لم يكن قد اصطاد سوى واحدة .

كانت معركة الرّي بداية زوال سلطة الأمين . فقد وجد أنه لا يواجه عدوّاً ظافراً من الشرق وحسب، بل أعداء جدداً في الجزء الذي كان يحكمه . وكان أخطرهم عداء له أحد العلويين في بغداد ذاتها. وفي سنة ٨١٢ ضرب طاهر الحصار على بغداد . وفي شهر أيلول من السنة التالية تلاشت كل مقاومة وراح الخليفة الأمين يطلب الصلح . وعندما حاول الهرب لحق بـه رجال طاهر ، فألقوا القبض عليه عند دجلة ، حيث كان له مراكب عديدة للهو والعبث ، وقتلوه . يقول المؤرخ العراقي الشهير ، ابن الأثير ، انه لم يجد في سيرة الأمين ما يستحق الذكر ، وهو قول ينطوي على الحقيقة .

لم يجد المأمون نفسه ، بعد موت الأمين ، المطالب الوحيد بالخلافة ، بل كان هناك من ينازعه هذا المطلب . وكان عليه أن ينتظر ستة أعوام قبل أن دخل بغداد . وظاهر أنه لم يكن محبّباً إلى قلوب الناس في الجزء الغربي من الامبراطورية . فقامت ثورات عديدة تناولت العالم العربي كله . وكان أخطرها ثورة قام بها علوي يطالب بالخلافة في الكوفة ، واسمه ابن طباطبا . وكان من أمره أنه سكّ نقوداً باسمه (٨١٥) . وقد قمع ثورة العراق قائد كان جزاؤه ، بايعاز من الوزير الحاسد ابن سهل ، أن يسجنه المأمون في سجن قضى فيه نحبه . ولكن الثورة امتدّت شرقاً واتخذت شكلاً خطيراً . واقتنع المأمون أن

العقدة في النزاع العباسي العلوي لا يمكن حلّها بالقوة بل بنوع من التوفيق بين وجهات النظر . فاستدعى أحد حُفداء الخليفة علي بن أبي طالب ، واسمه علي الرضى ، من المدينة إلى مرو — وكان علي الرضى يكبر المأمون سنّاً بأربعة عشر عاماً — وعيّنه الخليفة الحقيقي ، مما أثار استياء السنّة في كل مكان ، لأنها كانت بدعة لم يسبق اليها . وكان هذا الخليفة يلبس الثياب الخضراء، وهو اللون الذي عُرف به العلويون، وأمر أن تستبدل الرايات العباسية السوداء، والملابس السوداء في الامبراطورية كلها ، بالرايات الخضراء والملابس الخضراء . وعُرف الرضى بتقواه وورعه أكثر مما عُرف بذكائه وحنكته السياسية. وفي شهر تموز سنة ٨١٧ سارع البغداديون لإعلان ابراهيم بن المهدي خليفة للمؤمنين ، وهو عم المأمون . أما الرضى فتُوفّي فجأة عندما كان يقوم بجولة مع المأمون . وتقول الشيعة إنه مات مسموماً من شراب رمان دسّ فيه السم . ودفن إلى جانب قبر هارون الرشيد في قرية بالقرب من طوس أصبحت فيما بعد مزاراً مقدّساً، أو مشهداً . وسمّيت القرية فيما بعد بالمشهد. وهي من المزارات المقدّسة في ايران التي تزورها الشيعة تبرّكاً أكثر من غيرها من المزارات .

كان لموت الرضى المفاجىء ، ولاغتيال الوزير الفضل بن سهل على أيدي بعض العرب الناقمين ، أثر في بغداد حمل الناس على الهدوء والارتياح . وظهر عدم كفاءة ابراهيم خليفة شيئاً فشيئاً ، فراح قوّاده يتخلّون عنه الواحد تلو الآخر . وفي شهر آب سنة ٨١٩ دخل المأمون بغداد دخول الظافر إلى عاصمته. وأسرع إلى تغيير الرايات الخضر إلى الرايات العباسية السود .

ولكن السلام لم يخيّم على الامبراطورية باستيلاء المأمون على بغداد . فقد ظلّ بابك الخُرّمي (نسبة إلى قرية في ايران) ، وهو من الخوارج ، يعيث في الجزء الشرقي فساداً ، مروعاً الأهلين . وكان من بين أعوانه بعض الأرمن وربما بعض الروم . ولم تقمع ثورة بابك إلا في زمن المعتصم ، أخي المأمون وخليفته . ومن الثورات التي لم تقمع حتى ذلك الحين ثورة الزُّط ، وهم قوم من

الهند استولوا على المستنقعات في جنوبي العراق وكانوا يعيشون على تجارة الملح . وقد قوي أمرهم حتى إنهم استطاعوا آخر الأمر أن يفرضوا ضرائب على الملاحة في النهر ، وأن يقطعوا المؤن عن بغداد . وأخيراً حاربهم أحد قواد المعتصم وفرّق جموعهم فانتشروا في الأرض وبلغ بعضهم أوربا عبر آسيا الصغرى كجماعة من النور . كذلك في مصر ، فإن النزاع القيسي اليمني عاد فنشب في البلاد سنة ٨٢٥ ، ولم ينطفىء اندلاع الثورة فيها حتى زمن المستعصم . وزاد الأمر تعقداً بسبب نقمة الاقباط . وأخيراً مشكلة المسلمين الأندلسيين الذين نفاهم خليفة عبد الرحمن الثالث ، فإن هؤلاء المنفيين وجدوا طريقهم إلى الاسكندرية واستولوا على المدينة فكان على السلطة أن تنتزعها من قبضتهم بقوة السلاح .

كذلك أصدقاء الخليفة وأعوانه فانهم سبّبوا له مشكلات جديدة . فإن قائده طاهر بن الحسين والي خراسان الذي كان يثق به ويعتمد على ولائه له اغتنم فرصة بعده عن بغداد ليعلن خروجه عن الطاعة للخليفة . وأمر (٨٢٢) أن تُستبدل عبارة « نصر الخليفة الحاكم » بعبارة « نصر الدين » في خطبة صلاة الجمعة . ثم إن طاهراً أوصى بالولاية من بعده لابنه محدثاً بذلك إمارة شبه مستقلة كانت الأولى من نوعها . وهذه كانت بداية تجزؤ الامبراطورية إلى ولايات مستقلة بدءاً من أطرافها الشرقية .

- ٢ -

لم تكن بغداد عندما دخلها المأمون (٨١٩) تلك المدينة التي عرفها من قبل . كانت أجزاء فيها خربة . فإن المدينة المدوّرة التي ابتناها جده الأكبر المنصور (٧٦٢) ، ومن سخرية القدر سمّاها مدينة السلام ، لم تعد تلك المدينة التي عرفها الناس من قبل . وقد استغرق بناؤها أربع سنوات وأنفق عليها أربع مئة مليون وثماني مئة وثلاثة وثمانين ألف درهم وأحاطها بسورين

بينهما خندق عميق ، وابتنى حائطاً ثالثاً داخل السور علوه تسعون قدماً وهو يحيط بأبنية المدينة . واختار المأمون داراً له قصر وزير أبيه جعفر البرمكي ، وهو قصر قائم على الضفة الشرقية من النهر . ولكن لم تلبث بغداد طويلاً حتى أخذت تستعيد سيرها التقدّمي الذي بدأه هارون ليتوقف في عهد الأمين . ويُجمع المؤرخون على أن عهد هارون وابنه المأمون كان العصر الذهبي في القرون الخمسة التي عاشتها الخلافة العباسية لا بل العصر الذهبي في جميع قرون الخلافة العربية . ولم يطل الوقت حتى احتلت بغداد عاصمة المأمون مرتبة عالية في التجارة والصناعة والحياة الفكرية ، مرتبة تليق بها كوارثة لعدد من المدن العظيمة التي قامت في العراق القديم بدءاً بأور فبابل فالمدائن . وموقعها الجغرافي الممتاز على دجلة عند أقرب نقطة فيه إلى الفرات ، وقربها من الخليج الفارسي ، جعلا من بغداد مدينة يسهل الوصول اليها ، بحراً ان لم يكن برّاً ، من جميع أنحاء الدنيا المعروفة في ذلك الحين . كذلك استعادت بغداد شهرتها على أنها مدينة اللهو والبذخ ، تلك الشهرة التي اكسبتها إياها قصص ألف ليلة وليلة .

وازدهرت أسواق بغداد ، أكثر من ذي قبل ، من جراء ما كان يرد اليها من الضرائب نقداً وعيناً ، وبسبب وفرة السلع والبضائع التي كانت تردها على سبيل التجارة من ولايات عديدة . فكان الكتّان الممتاز يردها من مصر ، والمصنوعات المعدنية من سورية ، والزجاج من لبنان ، واللؤلؤ من البحرين ، والبخور والبهارات من اليمن ، والمصنوعات الذهبية والفضية والرخامية الممتازة من خراسان . وقد ترك لنا مؤرخ متأخر في الزمن ثبتاً بالضرائب العينية السنوية التي كانت تصل إلى بغداد من الولايات والمقاطعات . ويشمل هذا الثبت ، من جملة ما يشمله ، عدد الأثواب النسائية والرجالية والسجاد والمطايا والماشية والعبيد ، ومقادير الحنطة والشعير والتمور وزيت الزيتون والعسل والسكر وماء الورد . ويضيف ثبتاً مفصّلاً بالدراهم التي كانت

تصل بيت المال والتي تبلغ أرقاماً خيالية : ٢٧،٠٣٧،٠٠٠ درهم .

ومن خارج ولايات الامبراطورية كانت الهند تورّد البهارات والمعادن والأصباغ . وكانت أواسط آسيا تبعث بالياقوت والأنسجة والعبيد ، والصين بالخزف وبالحرير وبالمسك . وكانت روسيا والبلاد الاسكندينافية تورّد عسلها وفراءها والرقيق الأبيض. وكانت إفريقيا تبعث بالعاج والتبر والرقيق الأسود. فوجد تجار بغداد أنفسهم يتعاطون ، إلى جانب تعاطيهم التجارة المحلية من نتاج زراعي وصناعي ، التجارة بالبضائع والسلع الدخيلة . فجمعوا بذلك ثروات كبيرة وأسهموا في الحياة الاجتماعية . وأخذت جماعة من أهل الصناعة المحلية تُدخل أساليب جديدة مقتبسة عن الفرس الذين اشتهروا بصناعتهم منذ القدم . وينبغي أن يكون لاقامة المأمون في بلاد فارس وخراسان واتصاله الوثيق بهذين البلدين أثر ظاهر في توسيع حدود التجارة والصناعة اللتين اتخذتا طابعاً دولياً لا عهد للناس به من قبل . يدلك على هذا النشاط التجاري أعداد كبيرة من النقود القديمة عثر عليها في بلدان نائية في أقاصي الشمال كروسيا وفنلندا. ولم تكن المغامرات الشهيرة للسندباد البحري الذي ترد قصته في ألف ليلة وليلة كلها من نسج الخيال بل يجب أن يكون فيها شيء من الحقيقة كما تنعكس لنا في أخبار التجار العرب . وكان لأصحاب الحرف والصنائع كما كان للتجار أسواق خاصة بهم كما هي الحال في بعض المدن العربية في يومنا هذا . وكانت أسواق بغداد تشهد من وقت إلى آخر مرور موكب صاخب احتفالاً بعرس، أو ختان ، أو بحفظ القرآن ، فكانت هذه المواكب مما يضفي شيئاً من مرح الحياة على الرتابة المملة التي كانت تتميّز بها أسواق المدينة .

وكانت مدينة البصرة التي أسسها الخليفة عمر (٦٣٦) تأتي في المرتبة الثانية بعد بغداد في سعيها لاكتساب مكانة تجارية . وكانت قد بدأت سيرها في التقدّم والعمران في عهد هارون . وموقعها عند ملتقى دجلة والفرات (عند رأس شط العرب) الذي يجعلها أقرب مسافة إلى الخليج الفارسي من بغداد

وفرّ لها امتيازات وفضائل خاصّة . وفضلاً عن موقعها هذا فانها كانت تقع في وسط المناطق التي يزرع فيها الأرز والذرة والدخن والشعير والحنطة . ولا تزال إلى يومنا هذا الميناء الرئيسي الذي تصدّر منه التمور التي تعرف بالتمور البصرية . وقد نشأت قصص أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة عن الثروات التي جناها تجار بغداد والبصرة وملوك المال فيهما . ويقال إن تاجراً بصرياً من أصحاب التجارة البحرية كان له دخل سنوي قدره مليون درهم في السنة ، وان تاجراً آخر طحاناً كان بوسعه أن يوزّع كل يوم ألف دينار على الفقراء .

وكان لمدينة البصرة مدينة أخرى تنافسها التجارة البحرية ، وهي مدينة سيراف على الشاطىء الشرقي من الخليج الفارسي . فقد كان أصحاب التجارة البحرية في هذه المدينة يحملون اللؤلؤ والحرير والأقمشة المقلّمة والبهارات الهندية إلى أماكن بعيدة عبر البحار كشبه جزيرة الملايو وكانتون في الصين . وكانت هذه السفرة البحرية تستغرق قرابة شهر . وكانوا ينعمون بالثراء العظيم . وتقول الروايات إن ثروة بعضهم كانت تبلغ أربعة ملايين دينار ، وكان الواحد منهم يسكن داراً تبلغ نفقات بنائها ثلاثين ألف دينار. وقد اشتهر أهل سيراف بعيشهم المترف الشهواني . وعندما أخذت الامبراطورية بالانحطاط ، وكان ذلك بعد المأمون بوقت قصير ، شرعت المدينتان بالتأخر والانحطاط .

أما فيما يتعلق بحياة الرجل العادي — العامل الزراعي في المناطق النائية والعامل غير الحاذق في المدن — فان المصادر التاريخية لا تنبئنا شيئاً عنه . انه الرجل المنسيّ . ولكن لنا أن نقول ، وبشيء من التأكّد، ان نصيبه من الدنيا في ذلك المجتمع الذي كانت تحتكر فيه الثروة فئة قليلة من الطبقة العليا، لم يكن ليتناسب مع حاجاته الضرورية . ونرجّح أن أجره كان زهيداً وأنه كان يعيش على حافة المجاعة ويسكن بيتاً يفتقر إلى أبسط الوسائل الصحية .

بدأت عملية الدمج العنصري بين العرب وغيرهم من الأجناس البشرية في وقت مبكر عند قيام الدولة العباسية ، وازدادت نشاطاً وحدّة في عهد المأمون.

وكاد القضاء على العصبية القبلية أن يكون قضاء تاماً ، وضاقت شقّة الخلاف بين المسلمين القدامى والمستجدّين منهم في الإسلام . ومن العوامل التي قرّبت بين مختلف الأقوام كان الزواج المختلط ، وتعدّد الزوجات ، واقتناء الجواري والرقيق . وزالت الارستقراطية العسكرية العربية التي كانت نواتها قريش، تلك الارستقراطية التي كانت تقوم على شرف النسب، وهو الميزة الوحيدة التي تؤهل المرء الذي يبغي الانتساب اليها . وأخذت الطبقة الجديدة من التجار والمعلمين والكتّاب والأدباء والأطباء تشقّ طريقها صعوداً شيئاً فشيئاً في عهد المأمون . ان التطور الاقتصادي ترك أثره البالغ في تنظيم المجتمع اجتماعياً وسياسياً .

وكان من وسائل جمع الثروة ، إلى جانب التجارة ، دخول المعترك السياسي أو الدخول في الجيش . كانت الثروات التي جناها الوزراء ثروات ضخمة مما حمل الخلفاء ، بدءاً بهارون الرشيد، على مصادرة أموالهم لصالح بيت المال ، أو أقل ما في الأمر أن تكون المصادرة لصالح الخليفة نفسه. وعندما قضى هارون الرشيد على البرامكة صادر ، على ما يُقال ، بالإضافة إلى قصورهم ودورهم وقراهم ، لا أقلّ من ٣٬٣٧٨٬٥٠٠ دينار . وعندما توفّي قائد المأمون ، طاهر ، وجدوا في خزانة ثيابه ١٣٠٠ سروال دبيقي . وكانت دبيق قرية مصرية اشتهرت بأقمشتها ، حتى إن بلاد فارس كانت تقلّدها في حياكة الأقمشة . وقد دفع ابن طاهر وخليفته مبلغ مئتي ألف دينار فدية افتدى بها بعض رجاله من الأسر عندما وقعوا في أيدي الأتراك في أواسط آسيا. كذلك ينبغي أن تكون ثروة الحسن بن سهل ، وزير المال عند المأمون وحاكم واسط فيما بعد ، ضخمة جدّاً . وقد جنى هذه الثروة بعد أن دخل في الإسلام سنة ٨١٢ . ولم يكن كلا الرجلين ، طاهر والحسن ، من أصل عربي .

كان للحسن ابنة اسمها بوران . خُطبت للخليفة وهي بعد في العاشرة من عمرها . أما حفلات الزفاف فلم تتمّ إلا في سنة ٨٢٥ ، بعد انقضاء ثمانية أعوام على الخطبة . اقيمت حفلة الزفاف في قصر أبيها خارج واسط التي كانت تقع

عند اتصال قناة بنهر دجلة . ودامت الاحتفالات سبعة عشر يوماً على مستوى رفيع من البذخ والترف حتى إن مؤرخين مثل الطبري والمسعودي وابن الأثير حرصوا على أن يدونوا للأجيال التالية ما أنفق في هذا العرس . وقد حضرت سيدات البلاط بثياب العرس وعلى رأسهن رابته (زوجة أبيه) زبيدة التي كانت تضع الطراز للأزياء ، فكانت نساء الطبقة الراقية في بغداد يقلّدنها . وكانت زبيدة أوّل امرأة اتخذت الخفاف المرصعة بالجواهر الثمينة . ولم تكن تسمح بأن توضع على مائدتها آنية ليست مصنوعة من الذهب أو الفضة ومطعّمة بالجواهر . وقد دعي الشعراء إلى حفلة الزفاف — وكانوا أشبه بمراسلي الصحف في يومنا هذا — ليتغنوا بجمال النساء وليخلّدوا بأشعارهم ذكرى هذا العرس . وفي مقصورة العروس أقاموا شمعداناً من الذهب فيه شمعة زنتها مئتا رطل من العنبر حوّل نورها ظلام الليل إلى بهاء النهار . وفي الحفلة الأخيرة ، وبينما كان العريس والعروس جالسين على حصير مرصّع بالياقوت الأزرق ، جاءت جدّة العروس فنثرت على رأسيهما من طبق من الذهب ألف لؤلؤة من ذوات الحجم الكبير . وبينما كان الأمراء والقواد والأعيان ينصرفون ، نثر المأمون عليهم بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع أو عبيد رق أو خيل . فكان أحدهم يقرأ ما في الرقعة ويمضي لتسلّم الهدية . وأما الباقون فأعطاهم نقوداً من ذهب أو فضة أو صرراً من العنبر . ولكي يعوّض على حميه ما أنفقه في حفلة الزفاف أمر له بخراج ولايتين فارسيتين لمدة سنة . وبفضل ما أوتيت بوران من جمال وفطنة كان لها أثر بالغ في حياة البلاط ، كما أنه كان لها أثر في السياسة التي كان يتبعها زوجها في الأعوام الثمانية قبل وفاته . وعاشت بوران بعد مماته خمسين سنة فقيّض لها أن تشهد بدء الانحطاط الذي ألمّ بالامبراطورية ، بعد أن كانت قد شهدتها وهي في ذروة مجدها .

لم يكن البذخ والترف ولا السعة في الانفاق من العوامل التي اكسبت عصر المأمون شهرته ، وإنما كان رعايته للعلوم وللنشاط الفكري . وكانت

الحركة الفكرية التي دفع بها من أعظم الحركات الفكرية في الإسلام ان لم نقل في تاريخ الفكر عامة .

- ٣ -

بدأ التوجيه الفكري بنشاط حركة الترجمة . كانت الترجمة قد بدأت قبل هذا الحين . بدأها المنصور الذي استضاف عالماً هندياً سائحاً كان بحوزته مخطوطتان إحداهما في العلوم الرياضية ، والثانية في علم الفلك . أما المخطوطة في علم الفلك والتي كانت موسومة بسدذانتا (وعربيها السند هند) فقد ترجمها إلى العربية محمد بن ابراهيم الفزاري ، وأصبحت النموذج للتآليف العلمية التي تلت في علوم الفلك . أما عناية العرب في الجاهلية بالنجوم فترجع أولاً إلى اهتمامهم بمعرفة الجهات في الصحراء الخالية من الطرق ذات المعالم ، وثانياً لاعتقادهم بأن للأجرام السماوية أثراً في شؤون الناس ومصائرهم ، كما أنها توفّر لهم التكهّن بالأحداث التي قد تحدث على الأرض. فكان للمنصور منجّمه كما كان لهارون والمأمون . وقد كان من بعض مراسم الإسلام باعث آخر على الاهتمام بالنجوم وذلك أمر تعيين جهة القبلة في الصلاة . وأصبح الفزاري من أوائل علماء الفلك في الإسلام .

وحوالي هذا الزمن ذاته نُقلت المخطوطة الهندية في الرياضيات إلى العربية . ولم تنفصل العلوم الرياضية قط عن العلوم الفلكية بل ظلّ العلمان توأمين . ومن جرّاء ترجمة هاتين المخطوطتين انتقلت الأعداد الهندية إلى العربية. والعرب يسمّون هذه الأرقام «الأرقام الهندية» وأهل اوربا يسمونها «الأرقام العربية» . وقبل دخول الأرقام الهندية كان أهل الشرق كما كان أهل الغرب أيضاً يستخدمون حروف الهجاء كأرقام، على مثل ما هو معروف في حساب الجمّل. واستخدام الأرقام مهّد لتقدّم العلوم الرياضية والفلكية وتطوّرهما . وكان إدخال الصفر (cipher, zero في اللغات الأوربية) على غاية من الأهمية . فوضع الأصفار

يساعدنا على حفظ المراتب في المواضع التي ليس فيها اعداد ، أي في مراتب الآحاد والعشرات والمئات إلى آخره . وقد عرف العرب الصفر قبل أن يعرفه الغرب بقرنين ونصف القرن .

وإذا كانت الهند قد وفّرت للعرب والمسلمين أول حافز لدرس العلوم ، فإن بلاد فارس وفّرت لهم النماذج الأدبية في النثر . كان للمنصور كاتب اسمه عبد الله بن المقفّع ، وكان من أتباع زرادشت ثم اعتنق الإسلام . وقد أوكل اليه المنصور ترجمة الكتب الفارسية. وتعتبر القطعة الأدبية النثرية التي خلّفها لنا ابن المقفّع من أقدم نماذج الأدب العربي الذي لا يزال إلى يومنا هذا. والقطعة هذه مجموعة قصص طريفة ممتعة وضعت على ألسنة الحيوانات بشكل حوار يعالجون فيه شؤونهم واختباراتهم ، والقصد منها تثقيف الناس وتلقينهم الآداب . والقاصّ في هذه المجموعة فيلسوف هندي اسمه بيدبا ، وله مثيله في شخصية ايسوب الاوربية . وهذه الخرافات تُردّ في أصلها إلى البانشاتانترا السنسكريتية ، وهي ملحمة هندية مشهورة . وأصبحت ترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب ، بلغة عربية جزلة مؤنّقة ، من الأدب الكلاسيكي الذي احتفظ بمكانة رفيعة حتى يومنا هذا . أما ابن المقفع فقد كان مصيره مفجعاً . اتّهم بأنه كان يزوّر في وثيقة سياسية عُهد بها اليه ، كما أنه اتهم بالزندقة ، فأمر المنصور ببتر أطرافه واحداً واحداً ، ثم رمي به إلى النار .

نشطت حركة الترجمة التي بدأها المنصور في عهد حفيده هارون يعاونه في ذلك وزراؤه الفرس من آل برمك . وكان العرب قد أخذوا في التعرّف إلى الفكر الاغريقي في عصر سابق ، أما في هذه الفترة فقد أصبح الاتصال على أوثقه ، وكان على مدى أوسع .

عرف سكان منطقة الشرق الأدنى الهلّينية — أي تعلّم الاغريقية وتبنّي الفكر الاغريقي — في عهد الاسكندر المقدوني وخلفائه من السلوقيين . وعند الفتح العربي كان التراث الاغريقي الفكري من أثمن ما كان يحتفظ به أهل المنطقة

ويجلّونه . وكانت المنطقة معرّضة لمختلف التيارات الفكرية الأجنبية ، غير أن الهلينية كانت أقوى عامل فكري . وكان من شارات الرجل المثقّف ثقافة عالية في المجتمعات التي تتكلم السريانية اتقانه اللغة الاغريقية ، كما هي الحال في يومنا ، وفي المنطقة ذاتها ، بالنسبة إلى من يتقن الفرنسية أو الانكليزية . فكان السوريون هم المؤهّلين لنقل الفكر الاغريقي إلى أسيادهم الجدد ، العرب . وكانت حرّان والرّها (ادسّا) في الشمال الشرقي من سورية ، ونصيبين على بعد منهما إلى الشرق ، مراكز ثقافية تنبعث منها المعرفة الهلّينية . وكانت حرّان مركزاً للصابئة ، وكانت انطاكية إحدى المستعمرات اليونانية القديمة . كذلك كانت الاسكندرية حيث التقت الفلسفة الشرقية بالفلسفة الغربية .

لم يقتصر النشاط الفكري في هذه المستعمرات العديدة، التي كانت فيما مضى مراكز اغريقية في سورية والعراق ، على الدراسات الدينية اللاهوتية ، بل كان يتعداها إلى الدراسات العلمية والفلسفية . كان الجدل العنيف الذي قام حول طبيعة السيد المسيح في الكنيسة ، والذي كان الشاغل الفكري الأساسي عند أقطاب الكنيسة ، في جوهره نزاعاً ميتافيزيقياً ، وجدلاً ينطوي على أمور سيكولوجية . وقد وجد الارثوذكس (أصحاب الرأي القويم) ، والهراطقة من أتباع آريوس ، والنساطرة ، واليعاقبة ، في الفلسفة الارسطوطاليسية وفي الافلاطونية المستحدثة ذخيرة شديدة الانفجار ليستعملوها في الحرب الكلامية التي نشبت بينهم . وقد لجأ الجدليون منهم إلى المنطق الاغريقي لدعم حججهم . واعتمدوا كتاب أرسطو في الميتافيزيقا ، وكتاب الايساغوجي لبرفيروس ، الذي اعتبره السريان والعرب كتاباً مرجعاً في المنطق ومدخلاً لكتاب أرسطو الاورغانون . ولد برفيروس (ومعنى اسمه لابس الارجوان) ، مؤسس مذهب الافلاطونية المستحدثة ، في سورية ، وكان اسمه ملكاً . وهذان الكتابان ، كتاب الايساغوجي وكتاب الاورغانون (وترجمته العربية تتضمن كتابي ارسطو في علم البيان والشعر) ، احتلا مكانتهما إلى جانب الصرف والنحو في اللغة العربية .

ومجموعة هذه الكتب معاً أصبحت عند العرب نواة الثقافة العربية الانسانية .

كان التراجمة من السوريين يستطيعون أن ينقلوا ما يريدون ترجمته إلى العربية إما عن الترجمات السريانية للكتب الاغريقية ، أو عن الكتب الاغريقية بنصّها الاغريقي الأصيل . وكان بعض المترجمين الذين لمع اسمهم في عهدي هارون الرشيد والمأمون يلجأون إلى النصّين السرياني والاغريقي . وهكذا فعل الحجاج ابن مطر (توفي ٨٣٣) الذي كان ينتمي إلى المدرسة الحرّانية . وقد نقل الحجاج (٨٢٨) عن السريانية كتاب المجسطي لبطليموس . وكتاب المجسطي هذا الذي ألفه عالم من الاسكندرية عند منتصف القرن الثاني للميلاد يجمع بين دفتَيه خلاصة ما توصل اليه علماء القديم من نظريات وملاحظات حول علم الفلك وعلم هيأة الأرض. وقد حفظ لنا النص الاغريقي في ترجمة عربية عنوانها « الأعظم ». وإلى الحجاج تنسب أقدم ترجمة لاصول الهندسة لاقليدس. ويبدو أنه نقله مرتين ، مرة للرشيد ، وأخرى للمأمون . وعاش اقليدس واشتهر في الاسكندرية ، وذلك قبل بطليموس بأربعة قرون ونصف القرن . وكتاب اقليدس في مبادىء الهندسة يعتبر الأساس الذي قامت عليه العلوم الهندسية فيما بعد ، وظلّ كتاباً شائعاً بين الناس إلى الأزمنة الحديثة .

ويذكر بين المترجمين الأول المشهورين الذين ينتمون إلى هذه الحقبة يوحنا (يحيى) ابن ماسويه (وفي اللاتينية Mesue توفي ٨٥٧) وكانت مهنته الطب . وقد ترجم للخليفة الرشيد كتباً في الطب والفلسفة حملها الرشيد معه في إحدى غزواته إلى آسيا الصغرى . ولم تكن هذه الترجمات التي قام بها ابن ماسويه في الطب والفلسفة الوحيدة من نوعها، فقد عني بالترجمة خلفاء بني العباس الأوّلون. ولم يكن الجمع بين الطب والفلسفة أمراً نادراً تفرّد به ابن ماسويه ، فإن ما نعتبره نحن اليوم علوماً مستقلة كان العربي في العصور الوسيطة يعتبرها وجوهاً مختلفة لعلم واحد . وتدل لفظة « حكيم » في العربية والتي تطلق على الطبيب وعلى الحكيم ، أي الفيلسوف ، على نظرة العربي إلى هذين العلمين . وتقسيم

العلوم إلى قسمين : علوم طبيعية وعلوم انسانية اجتماعية ، أمر لم يكن ليخطر ببال علماء العصور الوسيطة . هذا ، ويقال إن المأمون كان يعقد حلقة اسبوعية في قصره يجتمع فيها العلماء للمناظرة والمناقشة وللتوفيق بين الآراء المتضاربة إذا وجدت .

بعد علم الفلك أصبح الطبّ العلم الذي يطلبه الناس . درس ابن ماسويه الطب على استاذ نصراني سوري اسمه جبريل بن بختيشوع ، طبيب البلاط عند الرشيد والمأمون . وقد اشتهر آل بختيشوع بالطب ، وظهر من بينهم أطباء تمتّعوا بشهرة واسعة على مدى ستة أجيال أو سبعة . وكان جدّ العائلة الأعلى استاذاً في مدرسة جنديسابور . وكان اساتذة هذه المدرسة الفارسية في معظمهم من السريان يستعملون لغتهم ، السريانية ، لغة للتدريس .

يتبوّأ الرشيد وابنه المأمون المرتبة الأولى في رعايتهما العلوم وتعهدهما العلماء والأدباء . غير ان المأمون بزّ أباه في هذا المضمار . فقد كان الرشيد يعنى بأمر الشعر والموسيقى والغناء أكثر مما كان يعنى بالعلم ، والشعر والموسيقى والغناء تخلق في القصر جوّاً من الفتنة والسحر لا يخلقه العلم . وكان للمأمون أسباب خاصة تدفعه إلى الاهتمام أولاً بالفلسفة وبالعلوم ، إذ انه كان يأمل أن يجد فيها ما يعضّد به آراءه الدينية التي خالف بها السنّة .

ينبغي أن يكون الخليفة المأمون قد شعر أنه غريب في مجتمعه . بدأ حياته منشقاً غير ملتزم بالعقيدة ، وأنهى حياته ثائراً يطلب التغيير الجذري في أمور الدين . وينبغي أن تكون هذه الحالة النفسية ، أو العقدة النفسية ، قد نشأت معه تحت تأثير أمه وزوجته ومعلمه ومستشاريه ووزرائه — وجميعهم من غير العرب . وقضى معظم شبابه في خراسان وبلاد فارس . وحاول في يوم أن يجد الراحة من القلق الداخلي الذي كان ينتابه في مبادىء الشيعة وعقائدها ، ولكنه لم يظفر بها . أما في بغداد فقد وجد جوّاً فكرياً تنسجم معه روحه . هذا الجوّ خلقته فرقة أو مدرسة فكرية ثورية في نزعتها ، منشقة عن السنّة

في عقائدها : المعتزلة . وكانت المعتزلة لا تأخذ بالعقيدة التي تقول ان القرآن أزلي ، لأن هذا يتعارض مع وحدانية الله . كانوا يتساءلون : كيف يتسنّى لنا أن نؤمن بأن الله هو الكائن الوحيد الأزلي ، خالق كل الأشياء ، ثم نضع إلى جانبه كلمة غير مخلوقة ؟ وكانوا يفاخرون بأنهم « أهل التوحيد والعدل » .

كانت المعتزلة تنهل من معين حركة فكرية سبقتها : القدَرية التي ظهرت في أواخر عهد الأمويين . وكان علماء القدَرية يقولون إن للانسان قدرة على أعماله، وفي هذا مناقضة مباشرة لقدرة الله التي يقول بها القرآن الكريم . ففي الآية الكريمة (سورة آل عمران ٢٥): قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . وفي القرآن الكريم آيات أخرى (سورة النمل آية ٧٧ ، سورة الحديد آية ٢٢) تعلم الناس أنه مهما أصاب الانسان ، مهما يحدث في السماء أو الأرض فبقضاء من الله، ومحفوظ في كتاب (ومنه المكتوب) فلم يستطع أصحاب هذه الفرق أن يوفّقوا بين هذه المعتقدات وبين مسؤولية الإنسان والزامه الأدبي . كانوا يقولون : ان الله قادر ولكنه عادل ، والله العادل لا يجازي الانسان على عمل قام به ، ما دام هذا العمل مكتوباً أو مقدّراً له . ومثل هذه القضايا الدينية أزعجت عقول اللاهوتيين المسيحيين زمناً طويلا . وقد بدا وقع هذا الجدل على الإسلام في دمشق ، ففي هذه المدينة ، ولأول مرّة ، أُفسح للعقل أن يدخل في أمور العقيدة المنزّلة . أما في المدينة فإن علماء الدين كانوا يعملون بعيدين عن التيارات الفكرية ، وفي مجتمع لم يكن قد تمرّس بعد بأمور العلم والمعرفة . ولا ينطبق هذا القول على دمشق. فقد كان القديس يوحنا فم الذهب (توفي ٧٤٨) يُعتبر بمثابة العامل الرئيسي في نقل المعارف المسيحية والفكر الاغريقي إلى المجتمع الاسلامي . فمن جملة مؤلّفاته كتاب في حوار قام بينه وبين عربي حول الوهية المسيح وحرية الارادة الانسانية . وكان الغرض من وضع هذا الكتاب أن يكون دليلا يهتدي به المسيحي عند قيام جدل أو حوار بينه وبين المسلم .

اتخذ المأمون سنة ٨٢٧ إجراء على غاية من الخطورة والثورية . ذلك أنه جعل الاعتزال دين الدولة . وفي رسالة خطيرة بعث بها إلى عمال الولايات أعلن رأيه في أن القرآن مخلوق، وجعل الأخذ بهذا الرأي محكّاً لمعرفة سلامة العقيدة من فسادها . ثم ألحق هذا بأمر أصدره يقول فيه إن كل قاض لا يأخذ بهذا الرأي لا يمكن أن يحتفظ بمنصبه ولا يمكن أن يعين في القضاء . واليك الجزء الهام في هذا الأمر :

فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك . فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه . وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده وبتعيينه [1] .

ولكي يضع أوامره هذه موضع التنفيذ انشأ محكمة تفتيش كانت الأولى من نوعها في الإسلام . ومن مهازل القدر أن حركته هذه التي كانت تستهدف تحرير الفكر أصبحت أداة مميتة للقضاء على حرية الفكر .

واستمرّت المحنة ، كما كانوا يسمّونها، في عهد خلافة أخيه المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢) غير أن المتوكل ، ابن المعتصم وخليفته ، انقلب عليها وقضى عليها سنة ٨٤٨ . وكان في رأس قائمة الضحايا الذين لاقوا حتفهم في المحنة إمام بغداد أحمد بن حنبل ، صاحب المذهب السني الحنبلي . فقد وقف أحمد بن حنبل الذي اشتهر بمحافظته الشديدة وبتزمّته في عقيدته في وجه بدعة المعتزلة . فشدّ المأمون بالحديد وألقى به في السجن مدّة سنتين . واستمرّ اضطهاده في زمن المعتصم . وكان يُجلد ، غير أنه أبى أن يعود عن رأيه . وكان يرفض أن يرى حرفاً واحداً يسقط من مذهب السلف الصالح . عندما توفي سنة ٨٥٥ مشى في

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (طبعة ليدن) ٣ ص ١١٥ - ١١٦ .

جنازته ٨٦٠ ألف نسمة يبكونه ويترحمون عليه ، فكان موكب جنازته شاهداً على تعلّق الناس بهذا الزعيم الديني الذي كان يمثل العقيدة السليمة ، عقيدة السلف . وعدد الذين يزورون قبره في بغداد تبرّكاً يفوق عدد الذين مشوا في جنازته أضعافاً وأضعافاً ، مما يدل على مكانته في نفوس الناس إلى يومنا هذا . والوهابيون يشكلون القسم الأكبر من أتباع مذهبه .

كان المأمون ، تحقيقاً لرغبته في نشر المعرفة الاغريقية ، يبعث بالرسل إلى القسطنطينية وصقلية للحصول على المخطوطات . وقد تردد الامبراطور ثيوفيل في الاستجابة إلى طلب المأمون والتعاون معه في بادىء الأمر . كان يقول إن هذه المعرفة التي رفعت من شأن الروم وأحلتهم مرتبة عالية مرموقة ينبغي ألا تنتقل إلى رجل من البرابرة . وكان على رأس البعوث التي كان المأمون يوفدها للتفتيش عن المخطوطات الجديدة ابن ماسويه وحنين بن اسحق . وبنى المأمون في عاصمته ، سنة ٨٣٠ ، بناء أو معهداً جمع فيه العلماء والمترجمين وسمّاه بيت الحكمة ، فكان يجمع بين المدرسة والمكتبة وديوان الترجمة . وبنى إلى جانب بيت الحكمة مرصداً فلكياً ، الأول من نوعه . وكان المأمون في ذلك يقلّد المعاهد السريانية والفارسية . وأول من رأس معهد بغداد ، أي بيت الحكمة ، كان حنين بن اسحق (٨٠٩ – ٨٧٩) وكان قد تتلمذ لابن ماسويه وابن بختيشوع . ولكنه بزّ استاذَيه في الذكاء وفي الإنتاج الفكري . ويقال إن حنيناً كان يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمس مئة دينار ، هذا بالاضافة إلى وزن كل كتاب يترجمه إلى العربية ذهباً .

وكان يعاون شيخ المترجمين ، حنين بن اسحق ، في عمله ابنه اسحق وابن اخته حبيش بن الحسن . وكان حنين ثقة في الاغريقية والسريانية ، أما معاوناه فقد كانا يعرفان العربية معرفة جيدة . ويبدو أن حنيناً كان ينقل أولاً النص الاغريقي إلى السريانية — هذا إذا لم يكن النصّ الاغريقي قد تُرجم قبلاً إلى السريانية — وكان المعاونان ينقلان النص السرياني إلى العربية . وكان من نتاج

هذه المدرسة أنها ترجمت إلى العربية جميع كتب ابقراط ، أبي الطب ، وكتب جالينوس الذي ظلّ قروناً بعد مماته (حوالي ٢٠٠) المرجع الأول في العلوم الطبية ، وكتب ارخميدس (توفي ٢١٢ ق. م.) وكان أشهر عالم رياضي في العالم القديم ، وكتب ابولونيوس من برجا وهو رياضي آخر يوناني عاش في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكتب اقليدس ، ابي الهندسة . كما أنهم نقلوا كتب أرسطو في المقولات والطبيعة والإلهيات والخلقيات ، وكتاب افلاطون الموسوم بتمّاوس ، وكتاب السياسة والجمهورية . وكان بعض هذه الكتب قد تُرجم من قبل ، غير أن الترجمة الثانية لها تُعتبر ترجمة أفضل .

وكان ابن اسحق في حياته ، كمترجم وكطبيب ، يمثل أحسن ما في الكنيسة السريانية الشرقية (الكنيسة النسطورية) من خلق وفضيلة . وقد امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدوّاً . فحبسه المتوكل سنة كاملة. ثم احضر وأعاد عليه القول . وكان قد احضر سيفا وضعه بالقرب منه . ولكن حنيناً رفض أن ينزل عند طلبه . فقال له المتوكل : « طب نفساً . فإنّا اردنا امتحانك » . ثم سأله : « ما الذي منعك من الاجابة ؟ » فأجاب حنين : « شيئان هما : الدين والصناعة . أما الدين فيأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنّك بالأصدقاء ؟ واما الصناعة فانها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجاتهم ، ومع هذا فقد جعل في رقاب الأطباء عهد مؤكّد بأيمان مغلّظة أن لا يعطوا دواء قتالاً لأحد »[1] .

لم يلتفت العرب ، على شغفهم بالفكر الاغريقي ، إلى الأدب الاغريقي. فان التمثيلية الاغريقية ، والملحمة الاغريقية ، لم تستأثرا باهتمام القارىء المسلم. ذلك أن الأدب الاغريقي في جوهره لصيق الصلة بآلهة غريبة وبخرافات واساطير

(١) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، نشر انطون صالحاني (بيروت ١٨٩٠) ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

كان العربي المسلم ينفر منها . فقد ترجم نصراني ماروني للرشيد أجزاء من الياذة هوميروس ولكن شيئاً منها لم يصلنا . وعصر الترجمة انتهى بعد وفاة المأمون بوقت قصير . في ذلك الحين كان في متناول القرّاء العرب — الذين لم يكن أجدادهم يستطيعون أن يتصوّروا أرقاماً تزيد على عشرة آلاف ، عند فتحهم المدائن — أحسن ما انتجته بواكير العقل الاوربي . وبينما كان الحكام العرب يناقشون في قضايا الفلسفة الاغريقية كان نبلاء شارلمان وامراؤه يحاولون أن يتعلموا كتابة أسمائهم بالحرف .

بالنسبة إلى تطوّر الحضارة وتقدمها لا يقلّ نشر الفكر أهمية عن خلقه وابداعه . فلو أن الوصايا العشر التي انزلت على موسى ، والعظة الرائعة على الجبل التي ألقاها السيد المسيح ، وسورة الفاتحة في القرآن الكريم ، ولو أن أدب هوميروس ودانتي وشكسبير ، نقول لو أن هذه الروائع لم يقيّض لها أن تنتشر وأن تذيع بين الناس ، فهل كان انتفع بها سوى قلائل من الناس ، وهل كانت انتشرت أم بقيت محصورة في بقعة صغيرة ؟ أما المفكرون العرب في القرن التاسع فلم يكونوا مجرّد تراجمة وناشرين للفكر فحسب ، فقد كان للذخيرة الفكرية العلمية عندهم مخارج ينفذ منها الفكر بقدر ما كان لها من روافد تصب فيها الفِكر ، وكان ما ينشرونه من فكر يتضمّن كثيراً من ابداعهم الخاصّ ومن عطائهم الفكري . فإن كتاب كليلة ودمنة الذي فقد أصله الفارسي تحدّر الينا بترجمته العربية التي أصبحت المصدر الذي ترجم عنه إلى أكثر من أربعين لغة من ايسلندا إلى ماليزيا . وزيجات الخوارزمي التي عدّلت وصحّحت في الأندلس العربية ترجمت إلى اللاتينية في طليطلة ، وأصبحت فيما بعد نموذجاً للزيجات الفلكية في الغرب وفي الشرق ايضاً. وترك لنا ابن ماسويه دراسة طبية عن الحمّيات ترجمت إلى العبرية واللاتينية . ويعزى الفضل إلى حنين بن اسحق في وضع أول كتاب في طبّ العيون ، لا يزال منه نسخ إلى يومنا هذا . وقام فلكيو المأمون ، وعلى رأسهم أبناء موسى

ابن شاكر ، في سهل تدمر بعملية دقيقة تستهدف التثبت من طول الدرجة الأرضية . وقد وجدوا أن طولها ٥٦ ميلاً عربياً وثلثا الميل ، وهو عدد يزيد عن طولها الصحيح أقل من ثلاثة آلاف قدم .

كان الخوارزمي صاحب أعظم عقل علمي في عصره . فانه بالاضافة إلى اهتمامه بالعلوم الفلكية – ومن ضمنها الانضمام إلى فرقة بني شاكر – ألّف أقدم كتاب في الحساب وصنّف كتاباً آخر سمّاه حساب الجبر والمقابلة وهو أول كتاب في الجبر . وقد تُرجم هذا الكتاب في القرن الثاني عشر إلى اللاتينية في مدينة طليطلة . وظلّ طوال قرون أربعة كتاباً مدرسياً يدرّس في جامعات أوربا . وكان هذا الكتاب ، بالاضافة إلى مصنّفات الخوارزمي في الفلك ، السبب في دخول الأرقام العربية إلى اوربا ، والتي كانت تسمّى باسم مؤلّفها : اللوغارثمات . وبفضل النشاط الفكري الذي أبداه هذا العالم وغيره من علماء العرب أضحت بغداد عاصمة العلم في ذلك العهد كما كانت اثينا عاصمة للفلسفة ، وروما عاصمة للشرائع ، وبيت المقدس عاصمة للدين .

كان المترجمون العرب وأصحاب البحوث العلمية منهم واسطة في نقل معرفة الشرق والفلسفة الاغريقية إلى الغرب . وكان آخر حلقة اتصال بين الشرق والغرب ابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨ وسنخصص له فصلاً في هذا الكتاب) الذي عاد فأدخل أرسطو من باب خلفي إلى القارّة التي كانت مسقط رأسه .

ان اشتغال المأمون بأمور العقل لم يحل دون غزو الروم وخوض القتال إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وغزا الروم مرتين : سنة ٨٣٠ وسنة ٨٣٣ . وذات يوم من أيام آب من سنة ٨٣٣ خرج المأمون خارج معسكره في طرسوس إلى ساقية ماء متحدّرة من الجبال وجلس مع أخيه الأصغر ، ابي اسحق ، ورفيق لهما إلى جانب الساقية . وكان يوماً حارّاً ، وكانوا منهكي القوى فجلسوا يتحدّثون وأرجلهم مُدلّاة في الماء البارد . فقال الخليفة : « أي شيء

يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء ؟ » فقال الرجل الذي بصحبته – وهو الذي روى الخبر[1] – « أمير المؤمنين أعلم » . فقال المأمون : « رطب الآزاذ » . وما إن قال الخليفة هذا حتى رأوا بغلاً محمّلاً تمراً يقترب منهم . فأكل الثلاثة حتى التخمة ، غير حاسبين للماء الصافي البارد حساباً . فما قام منهم أحد إلا وهو محموم . وساءت حالة الخليفة . وكان قد كتب إلى ولاته يعلمهم بأنه أوصى بالخلافة من بعده إلى أبي اسحق ، وهو المعتصم . وعندما أحسّ بدنو أجله كتب وصيّته ووقّع عليها بحضور الأمراء والقضاة ، وفيها يطلب المأمون إلى خليفته أن يعدل في حكمه ، وأن يأخذ بدينه ، وان يشدّد في الحفاظ على عقيدة خلق القرآن . وينهي وصيّته باصدار تعليمات مفصّلة تتعلّق بجنازته والصلاة عليه ودفنه ، موصياً أن لا يسير الناس باكين نائحين وراء نعشه . ودفن المأمون في طرسوس ، وكان له من العمر ٤٨ سنة ، بعد أن حكم مدة اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً .

ابن جارية اعجمية ، والفائز بالخلافة في الصراع الذي نشب بينه وبين الأمين العربي الصافي النسب ، والثائر الديني في عصر تميّز بالتزمّت والمحافظة ، ومؤسس أعظم وأخطر حركة في تاريخ الفكر ، والدافع بأمته لتشترك معه في الحياة العقلية الروحية للتراث الكلاسيكي في بلاد الغرب ، الرافع أمته من طور التزمّت والمحافظة – عبر طور التقليد والنسخ – إلى طور الإبداع والخلق ، الجاعل عاصمته بغداد مركزاً عالمياً للحياة العقلية – هذا بعض ما كانه المأمون .

---

(١) يروي الطبري خبر وفاته ووصيته في الجزء الثالث ص ١١٣٣ – ١١٤٠ . وأفضل كتاب في سيرة المأمون كتاب أحمد رفاعي (في ٣ مجلدات) وعنوانه عصر المأمون (القاهرة ١٩٢٧) .

عُبَيدُاللهِ المهديّ
مؤسّس الإمبراطورية الفاطمية في إفريقيا

أما بعد ، فقد علمتم محلّ أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام ، فاستزلّتهما الشيطان ، فطهرتهما بالسيف ، والسلام .

عبيد الله المهدي

آن للشيعة أخيراً أن ينجحوا في دعوتهم . فانهم عملوا وجاهدوا ، طوال قرنين ونصف القرن ، في سبيل الوصول إلى خلافة اسلامية يتولّاها رجل من نسل علي وفاطمة ، ولكن الحظّ كان يخونهم مرة تلو أخرى . لم ينتصروا في المعارك التي خاضوها ولكنهم أظهروا فيها ضروباً من البطولة والشجاعة . كانوا في صلواتهم يدعون لعليّ وآله من الائمة الصالحين، ويلعنون الأمويين والعباسيين المغتصبين . ولكن الصلوات لم تجدهم نفعاً . تآمروا ، وحاكوا الدسائس ، وخاضوا المعارك ، وسعوا وراء الخلافة التي تولاها مؤسس الشيعة على مدة خمس سنوات (٦٥١ – ٦٥٦) ولكن الخلافة كانت أشبه بسراب في الصحراء . وما كان الخلفاء في دمشق ، ولا الخلفاء في بغداد ، ليعفّوا عن قتل كل طالب يطالب بالخلافة إذا ظفروا به . فإن الحسين، ابن علي، قتله يزيد بن معاوية في كربلاء (٦٨٠) ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . وأربعة أئمة من نسل الحسين لاقوا

حتفهم بالسمّ على أيدي العمال العباسيين ودسُّ السم لهم أمر أكيد في بعض الحالات ومرجّح في غيرها . واحد منهم مات في المدينة ، واثنان في بغداد ، وواحد في طوس (في بلاد فارس) .

عندما تحالفت الشيعة مع بني العباس ضد البيت الأموي ، كانت تأمل بعودة الخلافة إلى « أهل البيت » . ولكن شدّ ما كانت خيبة أملهم عندما اكتشفوا أن بني العباس كانوا يعتبرون أنفسهم أحقّ بالخلافة لقربهم من آل النبيّ . وعندما عيّن المأمون شيعياً من نسل علي وارثاً له في حياته ، شعرت الشيعة أن الحظ قد ابتسم لهم ، ولكنها كانت سحابة صيف . كانت عقيدتهم في أن الوصاية انتقلت من النبي إلى آله بواسطة عليّ ، إلى جانب استشهاد الحسين وما تركه في نفوس أتباعه ، مبعث أمل باسم وثقة عميقة طوال ليلهم الطويل ، وصراعهم المرير ضدّ المغتصبين . ومن مهازل القدر المريرة أنه أخيراً ، عندما لاحت في الأفق بارقة أمل (سنة ٩٠٩) باحراز نصر ، كان الرجل الذي أحرز هذا النصر رجلاً غامضاً لا يُعرف له نسب صريح ولا يجري في عروقه ، كما يقول بعض المؤرخين، نقطة دم من سلالة العلويين أو من العرب . ولا نعلم على وجه اليقين اسمه الحقيقي، فقد سمّى نفسه عبيد الله المهدي (٩٠٩ – ٩٣٤) وأصبح مؤسس أول دولة شيعية عربية عظيمة .

ولم يكن عبيد الله يمثّل الغالبية في الجناح الشيعي . كانت الغالبية تسمّي نفسها الاثني عشرية ، بينما كان عبيد الله من الشيعة الذين يُعرفون بالسبعية . والاثنا عشرية تتبع اثني عشر إماماً من نسل الحسين ، آخرهم محمد المنتظَر . وفي سنة ٨٧٨ دخل محمد المنتظَر ، وهو بعد صبيّ في العاشرة من عمره ، كهفاً أو مغارة في جامع سامرّا ، ولم يعد إلى أمه التي كانت تنتظره . وشُيّد مسجد عظيم فخم فوق الأرض التي وقعت فيها هذه الحادثة . وقد فسّر أتباعه أنه في الغيبة ، وانه سيعود في الوقت المناسب ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً . وهكذا فإن الإمام المنتظر لم يذق الموت . وبالرغم من انه إمام

مكتوم أو مستتر فانه لا يزال قائم الزمان. تقول الشيعة ان من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية . وعندما يظهر المهدي فانه سيردّ الإسلام إلى سيرته الأولى ، ويملك الأرض بأسرها ، ويكون ملكه فاتحة عهد سلام ورخاء إلى مدة ألف سنة ، تكون من بعدها نهاية العالم . وظاهر ان العنصر الأساسي في العقيدة المهدية كما في العقيدة المسيحية – بمعنى انتظار مسيح مخلّص للبشر – هو التوق العميق عند الأقليات المغلوبة على أمرها والمضطهدة إلى ظهور مخلّص (مهدي أو مسيح منتظَر) يفرّج عنها كربتها ويعيد اليها كرامتها .

وعلى هذا تحتلّ العقيدة الإمامية ، أو المهدية ، مركزاً أساسياً عند الشيعة. فالإمامة عند الشيعة تختلف عن الخلافة في رأي السنّة . ذلك ان الإمامة عند الشيعة وظيفة دينية في جوهرها ، وتنحصر في آل علي وفاطمة ، ويحيط بالإمام هالة من علماء الدين . وهذا لا يعني أن الإمام عندهم لا يصرّف جميع الشؤون الدنيوية . وحتى يومنا هذا نجد أن الفارق الرئيسي بين الشيعة والسنّة هو عقيدة الشيعة في الإمام المهدي . وكان تخوّف الأقلية من أن تقضي عليها غالبية سنية ساحقة تمارس مختلف ضروب الاضطهاد والضغط عليها باعثاً على ظهور معتقدات وتقاليد غريبة في اوساط هذه الأقليات . منها زواج بعقد قصير ، أو زواج المتعة ، ويرخّص بموجبه للمسافرين وللتجار وغيرهم ممن تضطرهم أعمالهم للتغيّب عن زوجاتهم أن يتزوّجوا . ومنها أيضاً التقيّة ، ويرخّص بموجبها للمؤمن الشيعي أن يتقي الضرّ . ان المؤمن إذا وجد نفسه في مأزق يخشى منه الشرّ على نفسه لزم عليه وجوباً لا جوازاً أن يعلن أنه يأخذ بالمذهب السائد ، وقاية لنفسه وأبناء عشيرته . ولكن الشيعة بفرقتيها الكبيرتين ، الاثني عشرية والسبعية ، استطاعت أن تحافظ على كيانها . فإن في إيران والعراق واليمن جماعات كبيرة من الشيعة ، هذا إلى جانب جاليات صغيرة منتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي . وفي سورية ولبنان يُعرفون بالمتاولة (والكلمة تعني أصحاب الولاء لعلي) .

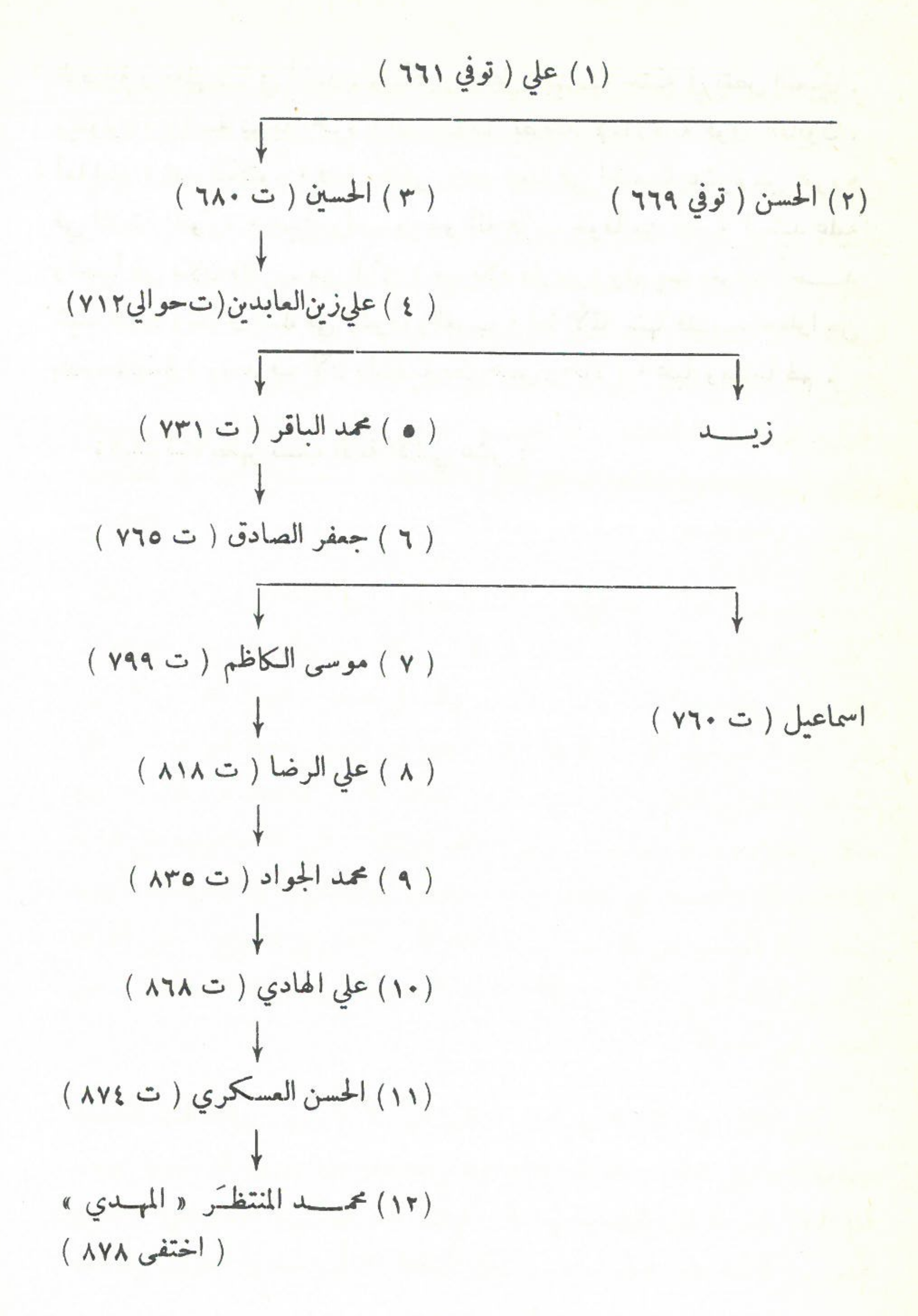
كان العرب في معظمهم يميلون إلى الشيعة ، فقد كانوا يجدون فيها متنفّساً عن آمالهم القومية . وأصبحت القضية العلوية قضية تَجمَّع حولها الناقمون الثائرون سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، لا سيما في اوساط المسلمين المستجدّين في الإسلام . وفي الفرق الخارجة التي انشقت عن السنّة كان أصحاب الفكر يجدون جوّاً يوفّر لهم الانسجام مع ما تصبو اليه عقولهم من نشاط . أما السنّة ، أو السلفية ، فقد كانت تفرض على أتباعها نوعاً واحداً في التفكير لا تميل اليه نفوس العلماء . وكل بدعة في نظر السنّة هي نوع من الهرطقة أو الخروج على العقيدة السليمة . لذا نجد أعداداً كبيرة من العلماء والفلاسفة والكتّاب بين جموع الشيعة أو بين الفرق المنشقة . وهذا ابن سينا الطبيب العظيم — وسنخصص له فصلاً في هذا الكتاب — ينتمي إلى فرقة الاسماعيلية .

نشأت فرقة عن الاسماعيلية ُعرفت باسم مؤسسها حمدان قرمط : القرامطة . وكان حمدان في ابتداء أمره فلاحاً عراقياً . وكان في تعاليمه ميول شيوعية . فكان يقول بشيوعية الملك والزوجات . وقُبيل منصرم القرن العاشر كان القرامطة ، شيوعيّو الإسلام قديماً ، قد نجحوا في تأسيس دولة لهم مستقلة على الشاطىء الغربي للخليج الفارسي . ومن هناك كانوا ينطلقون في غزوات إلى مكة وبغداد ومدن خراسان . وفرقة أخرى نشأت عن الاسماعيلية هي فرقة الحشاشين التي تأسست في ألموت من بلاد فارس . ويدّعي آل آغا خان أنهم يتحدّرون بالنسب من مؤسس هذه الفرقة : الحسن بن الصباح . ومن الفرق الأخرى الباقية التي نشأت عن الاسماعيلية النصيرية في سورية ، والدروز في لبنان وفي سورية .

تتفق الاثنا عشرية والسبعية على الأئمة السبعة الأول . واعترفت السبعية بإمامة اسماعيل ، ابن جعفر الصادق الإمام السادس، واعتبروا انه خليفة أبيه . أما الاثنا عشرية فلم تعترف به إماماً وآثرت أخاه موسى . فقد رؤي اسماعيل مخموراً ، كما أنه مات قبل أبيه . وينكر أتباعه أن أباه جعفراً الصادق حرمه

الوصاية وجعلها في أخيه . وينكرون على أبيه حقّه في نقض التعيين . ويقولون، بمناسبة شربه الخمرة ، ان اسماعيل بصفته الإمام فانه فوق القانون . أما ابنه ، محمد المكتوم ، فانه اختفى وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره ، في المدينة المنوّرة ، حيث ولد . ويبدو أنه هرب خوفاً من غضبة الرشيد عليه واختبأ في مكان بالقرب من الرَّي (في بلاد فارس) ولم يعد يعرف أحد شيئاً عنه . وتفرّق نسله في الشرق والغرب ، اما الأئمة منها فقد جعلوا من بلدة سلَمْية (وتُعرف الآن بالسلميّة بين حمص وحماة) ، مخبأ ومقاماً لهم .

واليك ثبتاً يظهر نسب الأئمة الاثني عشر :



وأصبح الرقم سبعة عند الاسماعيلية رقماً مقدّساً له صفة دينية ، كما اعتبره الفيثاغوريون عدداً مقدّساً في القديم . وكانوا إذا قسّموا الزمن كونياً أو تاريخياً إلى أدوار أو فترات لجأوا إلى العدد سبعة .

في سياق تطوّرها أخذت الاسماعيلية عن الافلاطونية المستحدثة بعض الآراء الفلسفية والمعتقدات الكونية التي لم تحسن تمثّلها ، ولم تدرك أغراضها ، وراحت تضيف اليها نظريات باطنية من مذهب العرفان . وجعلت من هذه الآراء مدرسة فكرية سياسية دينية . وكان الانبثاق أو التجلي عندهم على سبع درجات ، وعلى رأس درجات الانبثاق أو التجلي الله ، ثم العقل الكوني ، فالنفس الكونية . وقد أرسل الله إلى خلقه سبعة أنبياء مشترعين . كل واحد منهم أتى بشريعة بدءاً بآدم فإلى عيسى ومحمد النبي وآخرهم محمد المكتوم . وبين كل نبيين أرسل الله سبعة أنبياء آخرين صامتين ، كان منهم اسماعيل بن ابراهيم من هاجر وعلي بن أبي طالب . وتعتقد الباطنية أن لكلمات القرآن معنى باطنياً ، وان المعنى الظاهر للقرآن ليس سوى حجاب أو غطاء يخفي تحته المعنى الباطني . والمذهب الباطني ليس جديداً فإن أتباع مذهب العرفان واليهود والمسيحيين عرفوه وطوروه قبل الإسلام . فإن المسيحيين مثلاً يفسّرون سفر نشيد الأناشيد تفسيراً باطنياً أو رمزياً . وكان الغرض من الباطنية إبقاء أسرار الحقيقة خفية على الجماعة التي لم تدخل بعد حظيرة الأسرار . كانوا يقولون بابقاء الحقيقة في متناول فئة قليلة . ولكن إذا دفع بالباطنية إلى أيدي زعماء لا علم لهم ولا ضمير فانها تصبح مذهباً خطراً يعير نفسه إلى شق التفاسير ، وإلى استغلاله عند العامة من الناس .

وتنفيذاً لخطتهم بطريقة عملية نظّمت الاسماعيلية دعاية سياسية دينية سرية محكمة التنظيم ، لا عهد للعالم الإسلامي بمثلها . كانوا يختارون الداعي ويحجبونه عن الأنظار ويدربونه تدريباً صارماً . وكان على الداعي أن يتميز بحبه للتخفي والتستّر كما أنه يجب أن يكون ذا مواهب تؤهله أن يكون خطيباً

واعظاً ورجلاً قوي الحجة في الجدل الفلسفي . كما أن عليه أن يكون ذا اقتدار وحنكة ، حتى إذا حانت الفرصة الحاسمة تصرّف تصرّفاً سياسياً حسناً. وبعد أن يقطع المبتدىء أو المريد على نفسه عهداً بأيمان مغلظة أن يحفظ السرّ يُعطى أسرار المذهب الباطني على درجات من التكريس عددها سبع أو تسع . وكانوا يرسلون إلى كل بلد داعياً متخفياً . وكان على رأس الدعاة رجل يسمّونه الحجة وهو أقرب انسان إلى المهدي ويتكلّم بلسانه . وفي الوقت الذي يكون فيه المهدي محتجباً أو في الغيبة فان الحجة يتبوّأ مرتبة سامية أعلى من مرتبته في وقت الظهور .

هذا النظام الباطني الاسماعيلي وصل غايته من الدقة والإحكام في التنظيم على يدَي رجل مغمور اسمه عبد الله بن ميمون القدّاح من أتباع الدين الزرادشتي . ويبدو ان أباه ميموناً القدّاح كان من الأتباع المقربين الذين صاحبوا محمداً المكتوم . وقد بدأ الدعوة وهو يمارس مهنته ، تطبيب العيون ، في الاهواز ، ثم انتقل إلى البصرة – والمدينتان الاهواز والبصرة ليستا ببعيدتين عن بغداد مما قد يفضح أمر الدعوة – ومن بعدها إلى سلمية التي أصبحت – ولا تزال إلى يومنا – مركزاً للاسماعيلية . وأقام عبد الله في سلمية بصفته حجة الإمام المكتوم . وهنا بدأ هو بتدريب الدعاة السريين ، ثم بارسالهم إلى أنحاء العالم الإسلامي . وكانت توصياته لهم أن يبدأوا باستمالة الناقمين على النظام السائد ، وبثّ روح الشك فيمن يريدون حملهم على قبول دعوتهم ، وأخيراً تشويقهم لانتظار المهدي الذي كان على وشك الظهور لخلاصهم . وقد حرص عبد الله على أن يفيد من الوضع الذي وجد نفسه فيه – وهو انه كان على رأس نظام قويّ يدير أموره باسم الإمام المكتوم – فيحصل على منافع ومصالح ذات أهداف سياسية تعود على شخصه بالنفع . توفي عبد الله سنة ٨٧٤ بعد أن كان قد أوصى لابنه أحمد مؤمّلاً أن أحداً من ذريته يستطيع يوماً أن يتسلّم زمام الخلافة . وراح ابن القداح الفارسي الوضيع يضع مخططاً ينطوي على كثير من الجرأة

والإقدام لتوحيد العرب الفاتحين والشعوب التي اخضعوها في جمعية سرية تستغلّ الدين أداة للقضاء على الخلافة العربية واعطائها لواحد من ذريته . وهو مخطط رائع في تصميمه كما كان مذهلاً في سرعة تنفيذه . وقد أسفر هذا المخطط عن انتصار أحرزه عبيد الله في شمالي افريقيا أدّى إلى مولد الدولة الفاطمية وقيامها في تونس ومصر .

– ١ –

لا نجد من بين الشخصيات الغامضة في التاريخ العربي شخصية أشد غموضاً من عبيد الله. كان يدّعي أن نسبه ونسب بعض أتباعه يعود إلى الإمام السابع، اسماعيل . ويقول آخرون انه من ذرية عبد الله بن ميمون القداح . والمؤرخون المحدثون يختلفون كثيراً فيما بينهم حول نسبه . فقضيّته غامضة لم تحلّ العقدة فيها منذ ألف سنة .

ولد هذا الرجل الغامض ، الذي سمّى نفسه عبيد الله ، في سلَمية سنة ٨٧٣ ، وهذا أمر ثابت تاريخياً . أما الذين يقولون بنسبه الفاطمي فيدّعون أنه يعود بنسبه إلى الإمام المكتوم ابن اسماعيل الذي اختفى قبل مولد عبيد الله بمئة سنة . ويظهر ضعف دعواهم بعدم اتفاقهم على نسب واحد إذ ان هناك أكثر من ثماني نظريات حول نسبه الصريح. وعبيد الله ذاته، بحسب إحدى الروايات، له رأي آخر يختلف عن سائر الآراء . وليس جميع الذين يقولون بنسبه الفاطمي من الشيعة الموالين لهذه الفرقة ، إذ ان بينهم اثنين من المؤرخين السنيين المشهورين ، وهما ابن الأثير وابن خلدون . ولكن معظم المؤرخين السنّيين ينكرون، أو يشكّون في نسبه الفاطمي، ويقولون إن هذا الرجل الذي يلقّب نفسه عبيد الله المهدي ليس سوى دعيّ ، وانه هو سعيد الحفيد الأكبر لعبد الله بن ميمون القدّاح . ويصرون على تسمية السلالة هذه العبيدية لا الفاطمية . وأما

الزعيم القائل إن عبيد الله من أصل يهودي فلنا أن ننفي صحته على أساس أن
مثل هذه التهمة كانت كثيراً ما تلصق بنسب الشخصيات الغامضة التي كانت
تخرج على سنّة السلف . وتحسن الاشارة إلى أن هذا الخلاف حول نسبه لم ينشأ
حتى سنة ١٠١١ ، وذلك عندما كتب ببغداد محضر بأمر القادر تضمّن القدح
بنسب الخلفاء الفاطميين في مصر . وقد وقع على المحضر جماعة من أعيان السنّة
والشيعة . وفي ذلك الحين كان الفاطميون قد انتزعوا من يد العباسيين في
بغداد جميع ممتلكاتهم في شمالي افريقيا وأجزاء كثيرة في غربي آسيا، وأصبحوا
يشكلون خطراً مداهماً على الخلافة السنية [١] .

لا نعلم سوى القليل عن سيرة عبيد الله . وأول شيء ثابت يذكر عن سيرته
هو انه، سنة ٩٠٢، غادر سلمية مع زوجته وابنه القاسم وبعض أتباعه وأعوانه
حاملاً الكنوز التي كان قد جمعها واتجه نحو مصر عبر فلسطين . وكانت هذه
الخطوة التي خطاها عبيد الله استجابة لدعوة تلقّاها من أحد الدعاة الاسماعيليين
في شمالي افريقيا ، واسمه أبو عبد الله الشيعي . وفي هذا الوقت ذاته كانت
الدعاية الاسماعيلية قد نفذت إلى كل من مصر واليمن ، وبشكلها القرمطي
كانت الدعاية أيضاً قد عمّت جميع الأرجاء الشرقية في الجزيرة العربية ، وفي
بعض الأجزاء الغربية من بلاد فارس ، مع العلم أن القرامطة كانوا ثائرين ضد
الزعامة الاسماعيلية في سلمية ، وعلى رأسهم الحجّة ، لأنهم كانوا يرون أن
الاسماعيليين قد اغتصبوا المهام التي يقوم بها الإمام . وكان أبو عبد الله الشيعي
في أول أمره شيعياً من الاثني عشرية لا من السبعية . ولد أبو عبد الله في
صنعاء ، عاصمة اليمن ، وكان ذا مواهب وخصائص جعلت منه داعية اسماعيلياً
ممتازاً . وقد بدأ دعوته في أوائل سنة ٨٩٠ بين القبائل البربرية الحاجّة إلى

(١) من أوسع الدراسات حول الدولة الفاطمية هي الدراسة التي وضعها حسن ابراهيم حسن بعنوان تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٤٦) . وهناك كتاب حول عبيد الله وضعه المؤلفان حسن وطه أحمد شرف بعنوان عبيد الله المهدي (القاهرة ١٩٤٧) .

مكة المكرّمة . وقد سحرهم بقوة شخصيته وبورعه وعلمه الغزير ، حتى انهم
ألحوا في الطلب اليه أن يرافقهم في طريق عودتهم إلى شمالي افريقيا .

ان شمالي افريقيا التي عرفها أبو عبدالله الشيعي كان مجزّأً سياسياً إلى دويلات
مستقلة وشبه مستقلة . وبينها ، هنا وهناك ، وحدات قبلية لا تدين بالولاء
لأحد سوى شيوخها وزعمائها. وكان سبب هذا التجزؤ ضعف الادارة الحكومية
المركزية في بغداد . وأما من ناحية دينية فقد كان شمالي افريقيا مجزّأً أيضاً بين
السنّة والشيعة والخوارج . وكان الحكام من العرب الساميين ، بينما كان
المحكومون من البربر ، وهم ينتمون إلى العراق الحامي . وواضح ان هذا الوضع
السياسي والانقسام الديني لم يكن من شأنه أن يضمن الاستقرار الاجتماعي
والازدهار الاقتصادي . وكان الجزء الشرقي من افريقيا الشمالية تحت حكم
الطولونيين (٨٦٨ – ٩٠٥) . وكانت عاصمتهم الفسطاط. وكان مؤسس الدولة
الطولونية ابن مولى تركي أعطي هبة للخليفة فأرسله فيما بعد والياً على مصر . وفي
مصر أبى أن يدفع الخراج والضرائب إلى بغداد ، وأضاف إلى ملكه سورية ،
وأقام أول دولة إسلامية مستقلة في وادي النيل . وكان الطولونيون سنّيين
وظلوا يعترفون بسلطة الخليفة العباسي الدينية ، وذلك بذكر اسمه والدعاء له
في صلاة الجمعة . ثم تجزأت الدولة الطولونية إلى دويلات مصرية مستقلة دامت
حتى الفتح العثماني (١٥١٧). وكانت هذه الدويلات، بوجه عام، تبسط سلطانها
على كل من الحجاز وسورية .

كان شمالي افريقيا الأوسط – ويشمل تونس والجزء الغربي من ليبيا والجزء
الشرقي من الجزائر – تحت سيطرة الاغالبة (٨٠٠ – ٩٠٩) . وكانت عاصمتهم
القيروان . ولم يكن شأن الاغالبة في حكمهم شمالي افريقيا يختلف عن شأن
الطولونيين . فقد كان مؤسس دولة الاغالبة عاملاً ثم أعلن استقلاله . غير ان
الاغالبة أبعدوا في تثبيت استقلالهم أكثر مما فعله الطولونيون في مصر . فانهم
كفّوا عن نقش اسم الخليفة العباسي على نقودهم كما جرت العادة بذلك . وكان

نقش اسم الخليفة اعترافاً له بسلطته الدينية . وقد فعلوا هـذا بالرغم من أن الاغالبة كانوا عرباً سنـّيين . كان ابن الاغلب (٨٠٠ – ٨١١) عاملاً للرشيد على افريقيا . وقد بنى خلفاؤه اسطولاً بحرياً لا يستهان بقوته ، ووسّعوا حـدود مملكتهم حتى شملت صقلية . وظل اسطولهم يسيطر على اواسط البحر الأبيض المتوسط أكثر من قرن من الزمن . وفي عهد حكمهم بدأ السكان النصارى الذين كانوا يتكلمون اللاتينية يدخلون في الإسـلام وراحوا يتعلمون العربية ويتكلـّمونها .

أما الجزء الغربي من شمالي افريقيا (المغرب ، وكان يضمّ معظم مراكش) فقد ظهر قبل هـذا الحين (٧٨٨) كدولة مستقلة حتى سنة ٩٧٤ . وكان مؤسس هـذه الدولة ، ادريس (٧٨٨ – ٧٩٣) ، من ذرية عليّ . وكان قد قام بثورة في المدينة المنوّرة لم يكتب لها النجاح ، فهرب إلى أقصى الغرب. وأقام الادارسة في مدينـة فاس كمركز رئيسي لهم . وكانوا شيعيين ، أمـا رعاياهم من البربر فقد كانوا أبداً على استعداد أن ينضموا تحت لواء أية حركة انشقاقية .

خرج أبو عبد الله الشيعي من صنعاء وحيداً واتجه نحو افريقيا ليدعوها إلى الانضمام إلى دعوته متسلحاً بايمانه الراسخ في العقيدة الاسماعيلية . وطموحه هذا يشبه ما كان يتأجج في قلب بولس الرسول من اندفاع وحماسة دينية دفعته إلى الذهاب إلى اوربا ليدعوها إلى المسيح . وكان أول اتصال له بقبيلة كُتامة التي كان قد تعرّف إلى بعض أفرادها في مكة . وكانت مضارب قبيلة كتامـة المنطقة الشمالية الشرقية من الجزائر الواقعة تحت سيطرة الاغالبة . وإلى غربي منطقة كتامة تقع مضارب قبيلة صَنْهاجة ، والى الجنوب منهم قبيلة زَناتة . وكان استقبالهم له حاراً بقدر ما كان فورياً وحماسياً. والأمر الذي كان يستهوي عقول أتباعه الجدد تعاليمه فيما يتعلق بظهور المهدي القريب المفاجىء واستيلاء أتباعه على العالم بأسره . ولكي يرسّخ في أذهان أتباعه ايمانـه بظهور المهدي

راح أبو عبد الله ودعاته يردّدون نبوءة ، بحسب زعمهـم ، وردت في « كتاب التواريخ القديمة » وتقول ان شمس المهديـة ستشرق من المغرب . ولكن قبيلة كُتامة ، في نظر أبي عبد الله الشيعي ، تستحق من الإكرام والتجلـّة أكثر من مجرّد نبوءة تقول إن شمس المهدي ستشرق من المغرب. فراح عن طريق الشعوذة يردّد على مسمعهم قولاً آخر نسبه إلى كتابه المزعوم جاء فيه ما معناه أن المهدي سيظهر في بلاد نائية عن بلاده وسيعضّده قوم من الصالحـين ، قوم اشتقّ اسم المهدي (المكتوم) من اسم قبيلتهم (كتامة) . وأكـّد لهم أن المهدي المنتظر يجترح العجائب حتى إنه يستطيع احياء الموتى . وكان يقول انه الرجل الذي يبشر بـه ويهيّىء له الطريق . ويبدو من نجاح الدعوة وانتشارها بهـذه السرعة أن بذورها كانت قد زرعت على أيدي دعاة سبقوا أبا عبد الله الشيعي .

عند منقلب القرن كان أبو عبد الله الشيعي على أتمّ استعداد ليطرح جانباً التبشير بالاسماعيلية والدعوة لها ويتقلـّد السيف في سبيل تثبيت دعائم الملك لها . وأصبح زعماء كُتامة قوّاده ، وعامة القبائل التابعة لها جنوده المحاربين . واستخدام الدين وسيلة لغايات سياسية لم يكن بدعة في الإسـلام. فاستحال الداعي الديني إلى محارب مجاهد. وشعر أنه في وضع الآن يمكـّنه من أن يتحدّى أعظم قوة عسكرية في القارة الافريقية ولها من العمر مئة سنة ، كما أنه كان لها اسطول وجند حسن الاستعداد والتدريب . وأخـيراً رأى الشيعي أن الوقت حان فاستدعى عبيدالله اليه ليكون الزعيم الديني فيُكسب الحركة قوة معنوية .

دخل عبيد الله مصر متخفياً بزيّ تاجر . ولكن لم يطل الوقت حتى راح جواسيس العباسيين يتعقبونه . وعندما ذهب أحدهم إلى منزل الرجل المصري الذي استضاف عبيد الله يسأل عنه لم ينكر الرجل استضافة رجل تاجر نبيل من الهاشميين مشهور بعلمه وثروته وكرم خلقه، ولكن الضيف عاد إلى الجزيرة العربية . ونذكر أن هاشماً كان الجدّ الأعلى للنبي . وراح عبيد الله يتـّجه غرباً مع أهله وأعوانه ولكن بحذر شديد لئلا يقـع في الفخاخ التي كان ينصبها له

عملاء العباسيين . واسنا نشك في أن الرشوة كانت تلعب دورها في نجاته . وفي الوقت الذي وصل فيه عبيد الله مدينة طرابلس الغرب كان الملك الأغلبي ، زيادة الله الثالث (٩٠٣ - ٩٠٩) ، قد حصل على جميع المعلومات التي كان من شأنها أن تسعفه في التعرف إلى شخصية « هذا التاجر » وجماعته . غير أن عبيد الله التقى قافلة في طريقها إلى سِجلماسة في اقصى الجنوب من مراكش فذهب معها ، فأصبح بينه وبين الأعداء الذين كانوا بانتظاره مئات الأميال من أرض قفراء . ويبدو أن الشيعي ، الذي ظلّ على اتصال بعبيد الله طوال سفرته من الشرق إلى الغرب ، كان يؤثر ، لأغراض أنانية في نفسه ، أن يظلّ رئيسه عبيد الله بعيداً عنه . أما والي سجلماسة ، ابن مِدرار ، فقد كان خارجياً ، فرحّب به أحسن ترحيب وانزله ضيفاً في داره نسبة لعلو نسبه وعيّن له ولصحبه جناحاً في قصره . وأظهر الضيف كرماً في اغداق الهدايا على ابن مدرار . ولم يطل الوقت حتى أتته أخبار عن حقيقة ضيفه وعن شخصيته الحقيقية . فألقى به في غياهب السجن وعزّز المراقبة عليه . وقد جلده مراراً ولكن عبيد الله لم يبح بشيء . وأما ابنه فقد سجن في زنزانة أخرى .

لم يكن نجاح أبي عبد الله الشيعي في ساحات المعارك ليقلّ عن نجاحه داعية . يقول ابن الأثير انه جمع جيشاً قوامه مئتا ألف مقاتل بين فارس وراجل . والقبائل التي لم تلبّ الدعوة عن طريق الاقناع والاغراء انضمّت تحت لوائه قسراً بقوة السلاح . وسقطت حصون الاغالبة في قبضة الشيعي الواحد تلو الآخر . وكان أبو عبد الله يرسل بأخبار هذه الانتصارات إلى سجين سجلماسة . وذات مرّة أرسل اليه رسالة بواسطة رجل تخفى بزي قصّاب يبيع اللحم . وأسفر الأمر عن افتضاح الهالة الكاذبة التي احيطت بها أخبار القوة التي كانت للاغالبة ، فما كان يبدو حصناً منيعاً أصبح وكأنه تمثال من طين جافّ . في هذه الأثناء كانت الأخبار السيئة تصل إلى مسمع زيادة الله الاغلبي الذي راح ، بناء على نصيحة نديمه ، يخدّر أعصابه بمزيد من الشراب

والسماع . وفي سنة ٩٠٩ وقف جيش الاسماعيلية على مشارف مداخل رقّادة التي كانت مقرّ سكن ملوك الاغالبة على بعد تسعة أميال إلى الجنوب من القيروان . وأرسلت القيروان ، وكانت أمنع حصن في القارة الافريقية ، رسلاً لطلب الاستسلام . أما زيادة الله فقد هرب إلى مصر دون أن يحارب . وبسقوط القيروان سقطت الدولة الاغلبية ، آخر معقل من معاقل السنّة في افريقيا .

ظل الجيش الذي دخل المدينة ستة أيام وست ليالٍ ينعم بلذاذات من طعام وشراب ونساء لم ينعم بها من قبل ، ناهيك بالكنوز والمغانم التي تقاسمها . أما الشيعي فاتخذ القصر الملكي مقاماً له وتصرّف تصرّف الملوك . وسكّ نقوداً نقش على وجهها « بلغت حجة الله » وعلى قفاها « تشتّت أعداء الله » . ونقش على خاتمه « فتوكّل على الله انك على الحق المبين » (سورة النمل الآية ٨١) . وأما على رايته فقد كتب « سيهزم الجمع ويولّون الدُّبر » (سورة القمر الآية ٤٥) . وعلى أفخاذ خيله طبعت عبارة « الحكم لله » . وعندما كان يركب كان المنادي يصيح قائلاً : اركبوا يا جنود الله ، ولم يذكر في صلاة الجمعة أسماء الخلفاء ، وإنما كان يذكر النبي محمد والحسين وفاطمة . وبعد انقضاء ثلاثة أشهر توجّه الشيعي جنوباً لاخراج عبيد الله من سجنه ، مخلّفاً وراءه أخاه أبا العباس ليصرّف الشؤون في غيابه . هل كان في هذه الأثناء يفكّر بان يحلّ محلّه ؟ ألم يداخله طمع في أن تصبح القوة التي خلقها أداةً للتخلّص من عبيد الله ؟

وبينما الشيعي في طريقه إلى الجنوب كانت القبائل والمدن تقدّم له عصا الطاعة . غير أن سجلماسة أبدت شيئاً من المقاومة الرمزية . ولم ينجُ أميرها من القتل . يقول ابن خلّكان صاحب الوفيات إن الشيعي عندما دخل زنزانة عبيد الله وجده ميتاً ، كما أنه وجد في الزنزانة مولى له يهودياً . فأخذ الشيعي اليهودي وادعى أنه المهدي . ولكن ليس هناك ما يثبت صحة هذا الخبر . وكان يوم خروج عبيد الله من السجن يوماً رائعاً مشهوداً خفقت فيه رايات الفاطميين . وانتهى عهد التستر الطويل . فألبسوا عبيد الله الثياب الحريرية ،

وضعوا على رأسه عمامة تليق بمقامه . وأركبوه مع ابنه جوادين وساروا
بهما إلى سرادق أقيم لهذه الغاية . وكان أبو عبد الله الشيعي الظافر يتقدّم
الموكب وينادي بأعلى صوته : هذا هو مولاكم الذي كنت أدعوكم إلى طاعته .
كان الدمع يُرى أحياناً في عينيه ، وهو يكرّر هذا النداء . وفي السرادق
أنشىء « عرش السماء » ليجلس عليه السيد والمولى الجديد ، واستمرت
الاحتفالات في سجلماسة أربعين يوماً استراح القوم خلالها من عناء الحرب
والجهاد .

— ٢ —

في مطلع سنة ٩٠٩ دخلت جماعة المهدي الرقادة دخول الظافرين .
وأسرع شيوخ القبائل العربية والبربرية والزعماء والموظفون إلى اعلان الطاعة
والولاء . وأسكن المهدي أفراد عائلته في قصر الاغالبة . وأما الحريم الذي
كان في القصر فقد اختار منهن اللواتي مال اليهن ، وأعطى الباقيات لولده .
وفي أول صلاة جمعة ذكر اسمه في الدعاء ولقبه الجديد ، المهدي أمير المؤمنين،
في جميع مساجد الرقادة والقيروان العاصمة الرسمية . ولاول مرّة في التاريخ
يذكر اسم خليفتين آخرين معاديين له . وهكذا تمّ مولد خلافة من غلاة
الشيعة لتنافس الخلافة السنّية . وأعلن عبيد الله وصايته لابنه أبي القاسم ،
ولقبّهُ القائم . ان انتصار الفاطمية كان من جهة انتصاراً للعنصر غير العربي
على العنصر العربي ، وانتصاراً للبربر على العرب ، كما انه كان انتصاراً
للمستجدّين في الإسلام على أولئك الذين سبق اسلامهم .

ثم إن عبيد الله أخذ يحذو حذو الاغالبة في الحكم وتصريف الشؤون غير
العائلية . كان عليه أن يحكم ملكاً شاسع المسافات يمتدّ ، ولو اسمياً، من برقة إلى
مشارف فاس . ولكن كانت تعوزه الخبرة في شؤون ادارة الحكم، فضلاً عن

انه كان يشعر بثقل منصبه الديني وما يفرضه عليه من واجبات . وأول أمر
ملحّ كان يواجهه احلال السلام ، وتقوية الأواصر بين مختلف العناصر ليخلق
منها وحدة قوية . ولا نستطيع القول إن الدور الذي لعبه في بادىء أمره
كرجل متآمر مغامر أكسبه المؤهّلات ليقوم بدوره الجديد . لكنه وجد لديه
التنظيمات الاغلبية وعلى رأسها اداريون فنيّون ، وموظفون مدرّبون من الدرجة
الثانية ، فكان بوسعه أن ينتفع بهم . أما في المراكز العليا الحسّاسة فانه أقام
عليها اسماعيليين من جماعته . وبعث إلى الولايات ، بما فيها صقلية ، عمالاً من
قبيلة كتامة . وكان القضاة من الاسماعيليين .

وأبدى عبيد الله المنشق حكمة في انه لم يصر على الأهلين أن يعتنقوا المذهب
الشيعي الاسماعيلي . كان معظم العرب ومعظم سكان المدن من السنّة . ولم تكن
الاسماعيلية سوى مذهب مغلّف بغشاء رقيق من السنة ومن مذاهب شيعية
أخرى . وبدأ العنصر الديني في الدعوة ينحسر ليحل محله العنصر العلماني ،
واستحال عبيد الله المهدي ، الزعيم الديني ، شيئاً فشيئاً إلى حاكم اداري .
والغريب أن الاسماعيليين ، بعد حكم دام قرابة قرنين ونصف القرن ، لم يتركوا
أثراً يذكر في افريقيا ، بخلاف ما كان عليه الأمر في آسيا حيث لم يتقلّدوا
الحكم . فإن بقاياهم وآثارهم منتشرة في أكثر من بلد واحد . أما الجند فقد
احتفظ عبيد الله به ، وجعله في أيدي قوّاد من أهله . ولذا عيّن ابنه قائداً
للجيش ، يعاونه في ذلك قواد آخرون تمرّسوا في المذهب الاسماعيلي . اما أبو
عبد الله الشيعي فقد أوكل اليه أمر اخضاع القبائل الناقمة في المناطق الغربية .

كانت المكانة العالية التي احتلتها قبيلة كتامة في هذا العهد الجديد مما أثار
ضغينة التحالف القبلي القائم بين أقوى قبيلتين بربريتين في المنطقة : صَنْهاجة
وزَناتة . وكانت قبيلة صنهاجة سنّية . وكانت مضاربهم تمتد إلى الجنوب
الغربي من مضارب كتامة عبر الصحراء حتى حدود السنغال . ويتميّز الذكور
من ذريتهم ، وهم الطوارق في الجزء الجنوبي من الجزائر ، بلبسهم شملة على

رؤوسهم يقنعون بها وجوههم من تحت العيون. اما قبيلة زَنَاتة فقد كانت بدوية رحلية تعيش كما يعيش الأعراب . وكانوا يميلون إلى الخوارج .

ومما يدل على أن عبيد الله كان حكيماً ثاقب النظر في اختيار عمّاله ، بالرغم من أنه كان حديث العهد في شؤون الحكم ، الأعمال العظيمة التي كانوا يقومون بها في خدمة الدولة الجديدة. لم تقتصر أعمال ولاته في طرابلس — وهي المدخل إلى أيّ توسّع مرتقب في الشرق — على قمع الحركات الانفصالية والقبض على زمام الأمور ، بل انهم بدأوا يتحرّشون بمصر متخذين موقفاً عدائياً منها . وكانت مصر آنذاك تتخبط في حالة من الفوضى السياسية. وأفلح عمال عبيدالله في صقلية في فترة الانتقال من حكم الاغالبة إلى حكم الفاطميين ، إما عن طريق المصالحة أحياناً ، أو عن طريق القوة العسكرية أحياناً أخرى . وكانت مهمة الاسطول ، كما كانت أيام الاغالبة ، أن يقوم بغزوات على شواطىء ايطاليا الجنوبية وغيرها من البلدان الاوربية بقصد ازعاجها ، وان يحمي شواطىء افريقيا الشمالية ضد غزوات الروم . ومن المرجّح أن بحارة الاسطول ، آنذاك ، كانوا لا يزالون من مرتزقة الروم .

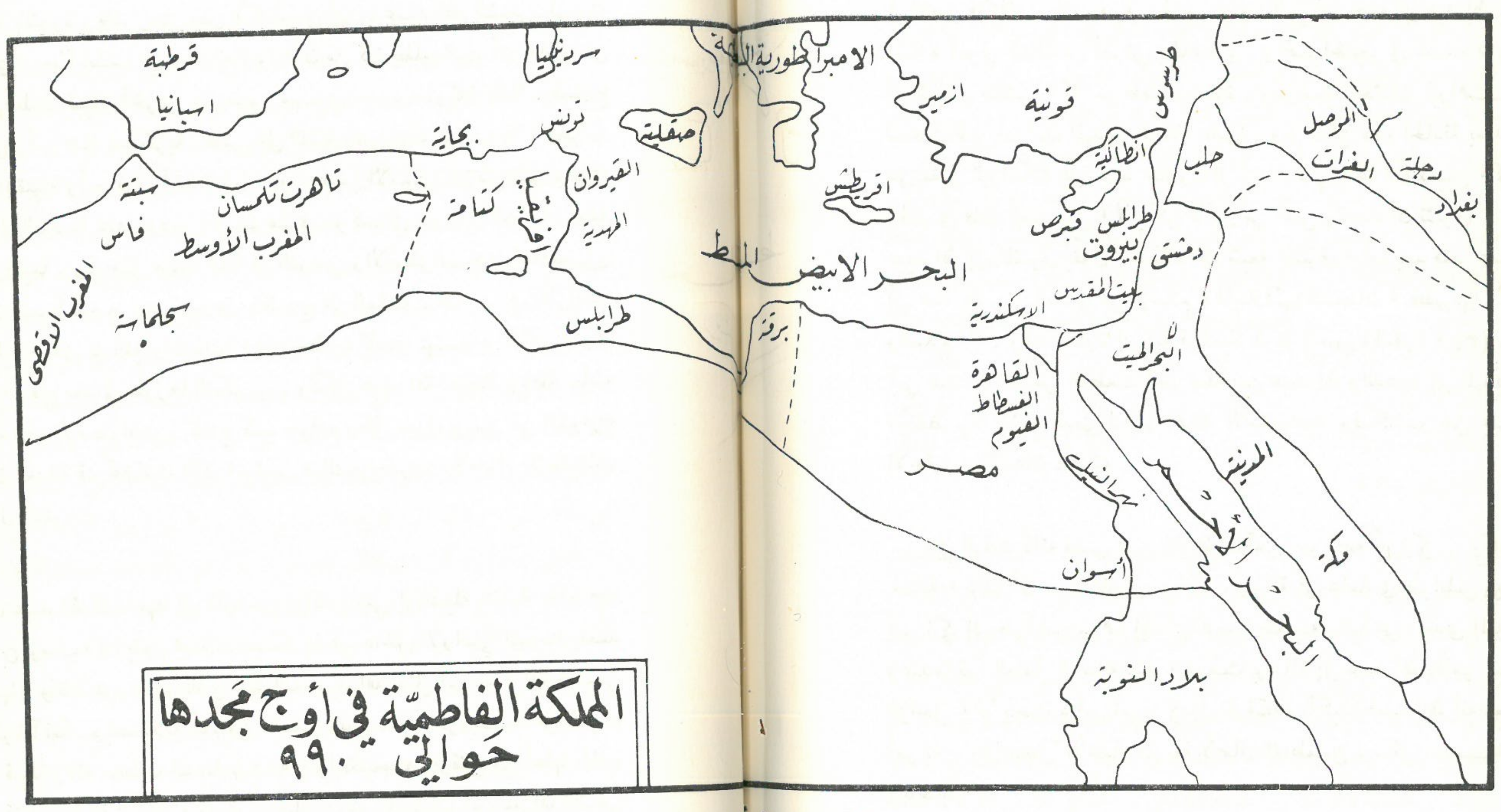
لم يطل الوقت حتى وجد عبيد الله المهدي نفسه (٩١٠) أمام مشكلات خطيرة في داخل بلاطه ، مشكلات كان حلّها محكّاً لقدرته في الحكم ، ولسرعته في التنفيذ . بدأت المشكلات بالرجل الذي بمعونته ارتقى عبيد الله المهدي إلى المكانة التي وصل اليها ، نعني أبا عبد الله الشيعي الذي لعب الدور الأول في تمهيد الطريق لقيام دولة الفاطميين . وبين ليلة وضحاها وجد أبو عبد الله الشيعي نفسه رجلاً محروماً لا مكانة له ولا مقام . فراح مع أخيه يشيعان بين الناس الشك والريبة في حقيقة المهدي . وأصغى الناس إلى الاشاعات وصدّقوها ، لأن التناقض كان واضحاً بين ما وعد به المهدي أتباعه وما صنعه بعد تولّيه الحكم . وذات يوم تجرّأ شيخ من شيوخ قبائل كتامة أن يمثل أمام المهدي ويسأله عن « العجائب » التي يجترحها والتي وعد بعملها . فقطع رأسه

للحال . ولم يكن بالعسير على المهدي أن يعرف مصدر هذه الاشاعات المقلقة : كان المروّجين لها أبو عبد الله الشيعي وأخوه أبو العباس، اللذان دُعيا إلى وليمة في القصر فقُتلا . وعندما برق الخنجر في يد السيّاف سمعه أبو عبد الله يهمس في أذنه « أمرني بقتلك من أمرتني بطاعته » . وأغمد الخنجر في جسده فمات . اما أبو العباس فتلقّى أكثر من طعنة واحدة . وعرضت الجثتان ليراهما الناس ساعات قبل أن أذن المهدي بالصلاة عليهما . ولم تكن هذه الحادثة بعيدة الشبه عن مقتل البرامكة على يد هارون الرشيد . ففي فلك الفاطميين ، كما كانت الحال في فلك العباسيين ، لا يمكن لاكثر من شمس واحدة أن تشرق . وكتب عبيد الله إلى المشرق يقول : السلام على شيعة المشرق ، اما بعد فقد علمتم محلّ أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام ، فاستزلّتهما الشيطان ، فطهرتهما بالسيف ، والسلام [1] . وفيه إشارة إلى آية قرآنية كريمة (سورة البقرة ، ٣٤) . وبمقتل أبي عبد الله الشيعي انقطعت آخر صلة بين عبيد الله والدعوة إلى المهدية . إنما احتفظ بهذا الشبح الديني ليبرّر أعماله الاستبدادية وليكسب عن طريقه الاحترام والاذعان لمشيئته .

وفي الوقت ذاته قضى عبيد الله على متآمر آخر اسمه أبو زكي . وكان مقتله خدعة ، ذلك أن عبيد الله المهدي كتب رسالة إلى عامله في طرابلس وبعثها مع أبي زكي إلى طرابلس موهماً إياه أنها توصية بتعيينه والياً على احدى المقاطعات. وعندما قرأ العامل الرسالة قتله ، وبَعَث برسالة إلى عبيد الله بالأمر مع الحمام الزاجل ، ثمّ بَعَث برأس أبي زكي إلى الرقّادة تأكيداً لعبيد الله أنه فعل ما أمر به . وفي سجلّ الأخبار المريعة لأعمال الفاطميين وسائل عديدة للقتل والتعذيب .

---

(١) ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، طبعة دوزي (ليدن ١٨٤٩) مجلد أول ص ١٦٤ .



المملكة الفاطميّة في أوج مجدها
حوالي ٩٩٠

المملكة الفاطمية في أوجها حوالي ٩٤٠ م.

كانت ردّة الفعل العنيفة لأعمال القمع والإرهاب التي قام بها الفاطميون في بلاد البربر أشد عنفاً مما كان يترقبه عبيد الله . وكانت قبيلة كتامة أول من عبّر عن النقمة بالثورة . فقد زعم بعض الكتاميين أن أبا عبد الله الشيعي لم يمت وانه لا يزال حيّاً يطلب اليهم أن يحاربوا الآن من كان يطلب اليهم أن يحاربوا من أجله . وأعلنت قبيلة أخرى عن ظهور مهدي جديد — وكان طفلاً . فسارع القائم على رأس حملة عسكرية وقضى على الفتنة وهي بعد في مهدها . فخرّب مضارب القبيلة وأحرقها وأخذ الطفل مع عدد من الأسرى ليزيّن بهم دخوله الظافر إلى العاصمة عند عودته . وسيّرهم في موكب في شوارع القيروان ومن ثم قتلهم جميعاً . وفي مثل هذه الحالة من الفوضى والاضطراب يجد الناقمون الثائرون متسعاً للتعبير عن شعورهم بالخروج على السلطة . فقامت في طرابلس وفي صقلية ، حتى في القيروان ذاتها ، فتن خطيرة كانت تهدّد كيان الدولة الجديدة ، وهي بعد في طورها التكويني . ولكن عبيد الله احتفظ برباطة جأشه في أثناء هذه الاضطرابات . كان يركب جواده بكل جرأة ويسير في الشوارع معلناً أن العدالة قد تحقّقت الآن ، وليس هناك من ضرورة لاجراء التحقيقات أو لانزال العقوبات .

كان عبيد الله قد عهد إلى قائد من قواده ينتمي إلى قبيلة كتامة ، واسمه عروبة بن يوسف ، ان يقوم بحملات عسكرية في داخل الأراضي المغربية بقصد اخضاعها . وكان عروبة هو الذي عهد اليه عبيد الله بقتل أبي عبد الله الشيعي كما ذكرنا آنفاً . وبعد ثلاثة أيام من الحصار الذي ضربه عروبة على تاهرت عاصمة قبيلة زناتة سقطت المدينة (٩١١) واستبيحت ، وقتل من أهلها ثمانية آلاف قتيل . وكانت المدينة قد ثارت قبل ذلك فأخضعها أبو عبد الله الشيعي قبل هذا الحين بسنتين . وأصبحت آنذاك مركز بني رستم . وكان بنو رستم وبنو مدرار من سجلماسة أقوى قبيلتين من الخوارج . ودخلت فرقة الخوارج إلى افريقيا على أيدي القبائل البدوية التي فرّت من غضب الأمويين وبطشهم .

ولم يكن الخوارج سنّيين ، كما أنهم لم يكونوا شيعيين ، بل كانوا معادين للفرقتين ويعتبرونها من الخارجين عن الدين. وعندما سقطت تاهرت بيد عروبة ابن يوسف جعلها مقراً له ومنطلقاً لحملات عسكرية في أقصى الغرب . وقد لاقى عروبة حتفه على يد عبيد الله، كما لاقى حتفه من قبل أبو عبد الله الشيعي. غير أن خلفاء عروبة استمروا في غزواتهم فبلغوا شمالاً مدينة سبتة ، ولم يبقَ أمامهم لكي يبلغوا المحيط الأطلسي سوى الادارسة . وذكرنا سابقاً أن الادارسة كانوا شيعيين ولكن لم يكونوا من الامامية السبعيّة كالاسماعيليين . فأغار الجيش على معظم بلادهم ، غير أن فاس بقيت تحت إمرة أمير ادريسي . وأوقف زحف هذا الجيش عندما أطلّ من الشمال جيش عبد الرحمن الثالث الذي كان يحاول الاستيلاء على المناطق المحيطة بجبل طارق من على جانبيه .

تسنّم عبد الرحمن الثالث سميّ عبد الرحمن الداخل عرش قرطبة بعد ظهور عبيد الله بوقت قصير . وفي سنة ٩٢٩ أعلن نفسه خليفة مستغلاً سوء الحالة الداخلية في الدولة العباسية ، وبُعده عن مركز الخلافة في بغداد . وهكذا انقسم العالم الاسلامي إلى ثلاث خلافات متعادية : خلافة في بغداد ، وخلافة في الأندلس ، وثالثة في افريقيا . وهي ظاهرة فريدة من نوعها في التاريخ الاسلامي . ولم يكن من مجال للدولة الناشئة في الأندلس سوى الاتجاه جنوباً في حال التوسّع ، وهذا ما يجرّها إلى صدام مع الدولة الفاطمية . واستعمل الأمويون في الأندلس قبيلة صنهاجة السنّيّة لتكون بمثابة رأس حربة لهم في افريقيا تزرع الدمار وتثير الفتن . اما عبيد الله المهدي فكان اتجاهه في التوسّع منذ البدء نحو الشرق . كانت مصر الغنيمة التي كان يتطلّع اليها بشوق ، ووراء مصر إلى الشرق عدوه اللدود : العباسيون .

كان الحكم في مصر، في هذه الفترة ، عباسياً. وكان حكماً يسوده الفوضى والقلق إذ كانت فترة انتقال السيادة من أيدي الطولونيين (٩٠٥) إلى الإخشيديين (٩٣٥) . وكانت البلاد خاضعة اسمياً للخليفة العباسي في بغداد، الذي لم يكن بدوره مستقلاً بل خاضعاً لرئيس حرس البلاط ، وكان

قائداً تركياً خصياً . لم يكن عبيد الله يشعر بالاطمئنان ، فالأعداء كثر في الداخل والخارج . وفي سنة ٩١٢ شرع ببناء عاصمة جديدة منيعة الحصون . فاختار لها موقعاً على شبه جزيرة على بعد ستة عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي من القيروان وسمّاها المهدية . وقد وصفها لنا جغرافيون ، من جملتهم ياقوت ، وأسهبوا في ذكر التفاصيل الوافية عن سورها العالي العريض الذي يستطيع فارسان أن يسيرا عليه جنباً إلى جنب. وكان للسور بوابتان من المعدن الصلب، وزن الواحدة منهما ألف قنطار ، وتؤدّيان إلى دهليز فسيح يتّسع لخمس مئة فارس . وحفر حوله خنادق عميقة ، وأنشأ مكاناً مسقوفاً لبناء السفن يتسع لمئتي سفينة ، وحفر في الصخر ميناء يتسع لايواء ثلاثين سفينة . ويبدو أن المهدية تطورت حتى أصبحت أمنع ميناء بحري في شمالي افريقيا ، وظلت حتى العهد العثماني عندما كان القرصان التونسيون يستعملونها قاعدة لقرصنتهم . وكانت هذه المدينة الجديدة أشبه بحربة موجّهة إلى قلب مصر .

في صيف سنة ٩١٤ جرت أول محاولة عسكرية برّية ضد مصر . وكان القائم على رأس الحملة . فاحتلوا برقة وتابعوا المسيرة شرقاً فاحتلوا الاسكندرية ونهبوها ، ومن ثمّ اتّجهوا جنوباً إلى الفيُّوم . وفي السنة التالية قام الجيش المصري ، بعد أن كانت بغداد قد أرسلت اليه مدداً ، بهجوم استطاع معه ارغام جيش عبيد الله على الانسحاب . ولكن عبيد الله لم يقنط بل كان على اقتناع بان فتح مصر ليس بالأمر المستحيل عليه . وبعد سنتين أعاد عبيد الله الكرّة على مصر يعضّده اسطول بحري مؤلف من خمسة وثمانين مركباً. أحرز عبيد الله انتصاراً بحرياً في الاسكندرية ، تلاه انتصار برّي في الفيُّوم مما جعل مصر العليا تحت رحمته . ويبدو انه كان له بين الأهلين في مصر عدد من المناصرين ، هذا إذا لم يكونوا من الأتباع الحقيقيين . فقد كانت مصر منذ زمن بعيد مقراً للدعاية الاسماعيلية ، أولاً على أيدي دعاة من سلمية ، ثم على أيدي دعاة من القيروان . أضف إلى هذا تنافس الأمراء فيما بينهم وتنابذهم مما

كان عاملاً في يد عبيد الله لخلق حالة من الاضطراب الداخلي . وكان للفاطميين خبرة قديمة في خلق الفوضى والتهديم واستعمال الرشوة لاستمالة الناس . وبعد انقضاء أربع سنوات على احتلال مصر (٩١٧ ـ ٩٢١) استطاعت بغداد أن تعزّز قوتها العسكرية للقيام بهجوم مضادّ . وفي معركة وقعت على مقربة من الأهرام أنزل الجيش العباسي هزيمة نكراء بالجيش الاسماعيلي المحتلّ . وفي الوقت ذاته دمّرت قوة بحرية عبّاسية ، قوامها خمسة وعشرون مركباً حربياً، مجهّزة ببحارة من الروم من طرسوس ، ومن غيرها من مدن الروم ، الاسطول الفاطمي . فكان على الفاطميين أن ينتظروا نصف قرن من الزمن لتصبح ملكاً لهم .

فقد كانت الأربعون سنة التي حكم فيها عبيد الله فترة تتميّز بالمنازعات التي نشأت حول العرش ، وبسلسلة من الثورات والحروب الأهلية . وبالرغم من أن البلاد التي أنشأ فيها دولة كانت من أكثر البلدان الاسلامية تخلّفاً وفقراً ، وبالرغم من أن سكانها كانوا من القبائل الثائرة المتمرّدة فإن مؤسس الدولة الفاطمية أفلح في خلق دولة قوية ذات نظام واستقرار مكّنا لها البقاء طويلاً. وقد تولّى خلفاؤه حكم امبراطورية مترامية الأطراف لم يحلم بها فرعون أو بطليموس ، ووفّروا لوادي النيل فترة ذهبية لا عهد له بها من قبل . واستطاع ابن عبيد الله وحفيده أن يجعلا من أواسط البحر الأبيض المتوسط ، ومن غربيّه ، بحيرة فاطمية . كان اسطولهم يغزو شواطىء ايطاليا الجنوبية ، وشواطىء فرنسا ، حتى شواطىء الأندلس الإسلامية . وغزا قائد اسطولهم مرة مدينة جنوى ، وأرسل قائد جيشهم إلى المهدية في جرار سمكاً حيّاً من المحيط الأطلسي . ولكن ذروة هذه الفتوحات كانت فتح مصر سنة ٩٦٩ . افتتحها المعز ، حفيد عبيد الله الأعلى . كانت مصر آنذاك تحت امرة ملك من الاخشيديين ، وكان الملك صبيّاً . كان محمد الاخشيد (٩٣٥ ـ ٩٤٦) مؤسس الدولة الاخشيدية في مصر رجلاً من الأتراك . أُرسل من قبل بغداد إلى مصر

عاملاً فأعاد سيرة ابن طولون . أي انه أعلن استقلاله وضمّ فلسطين وجنوبي سورية والحجاز إلى ملكه . غير أنه استمرّ في ذكر اسم الخليفة في صلاة الجمعة . كان قائد المعزّ جوهر وكان عبداً مولى من صقلية . وبنى جوهر عاصمة جديدة بالقرب من الفسطاط وسمّاها القاهرة ، ووفر لها مسجداً أصبح فيما بعد جامعة ، وسمّاه الأزهر ، وهو أقدم جامعة لا تزال قائمة للآن والقاهرة التي بناها جوهر من أكبر مدن القارة الافريقية من جهة عدد السكان .

بلغت الامبراطورية الفاطمية ذروة مجدها في عهد المعز بن العزيز (٩٧٥ – ٩٩٦) . وكان اسم الخليفة الفاطمي يُذكر في صلاة الجمعة من الموصل على دجلة إلى المحيط الأطلسي ، ومن حلب إلى السودان وكان العزيز راسخ الثقة في انه سيتغلّب يوماً على منافسه في بغداد إلى حد دفعه إلى بناء « بيت ضيافة » في القاهرة أنفق عليه مليوني دينار ليكون يوماً مقرّاً للأسرى الذين سيقعون في قبضته في بغداد . وأسس ابن العزيز ، الحاكم بأمر الله (٩٩٦ – ١٠٢١)، معهداً علمياً ممتازاً سمّاه « دار الحكمة » وقد انتهج في ذلك نهج المأمون عند تأسيسه بيت الحكمة في بغداد . وكانت عناية الفاطميين بأمور التربية ورعايتهم للمعرفة تصدر عن رغباتهم في نشر الدعوة الشيعية المتطرّفة . وتهديم كنيسة القيامة في بيت المقدس بأمر من الحاكم كان من الأسباب غير المباشرة لقيام الحروب الصليبية . ولكن هذا الحاكم اشتهر لعلاقته بالمذهب الدرزي .

لم يختلف سير الدولة الفاطمية التي أسسها عبيد الله عن سير سائر الدول الإسلامية : مؤسس قويّ نشيط ، يتبعه خلفاء مقتدرون ، فيبلغون السمت ثم يأخذون بالانحدار إلى الحضيض. أما الدولة الفاطمية فقد بلغت الحضيض في عهد العاضد (١١٦٠ – ١١٧١) . وعندما خلع صلاح الدين – الذي سيكون موضوع دراستنا في الفصل التالي – العاضد وأعاد سلطة العباسيين وذكر الخليفة العباسي في صلاة الجمعة ، لم يتصد مصري واحد للدفاع عن الفاطميين لا قولاً ولا فعلاً .

– ٣ –

توفّي عبيد الله في الحادية والستين من عمره (٩٣٤) في المدينة التي ابتناها لنفسه بعد حكم دام خمساً وعشرين سنة . وكانت أخريات أيامه غامضة تكتنفها حجب من الأسرار ، كما كانت أولى سنوات حياته . وما كان لأحد من الناس أن يتسلق أسوار مدينته العالية ليتلقّط أخباره ، وما كان لأحد أن يتلصص على أبوابه ليطّلع على أسرار حياته العائلية . نعرف له زوجة واحدة هي أم القائم ، التي رافقته من سورية . وكانت ابنة عمّه . ومن سراريه نعرف واحدة فقط اسمها لاعب التي قُتلت في الهجوم الذي شنه القرامطة على سلمية ، وكان ذلك قبيل مغادرته سورية إلى المغرب . والقائم هو الابن الحقيقي الوحيد الذي نعرفه له . ونقرأ في كتب التواريخ عن ابنتين له رافقتاه أيضاً من سورية. ولا نعرف شيئاً عن ملامح عبيد الله ولا عن هيأته . أما الذين كتبوا سيرة حياته من الاسماعيليين فيصرون في روايتهم على أن وجه المهدي – على ما تنبأ المتنبئون – كان يشعّ نوراً مثل كوكب منير . وكان كل جليس له يشعر بتأثير شخصيته الفذّة . وكانت قوته الجسدية تعادل قوة عشرة من الرجال . وكان مديد القامة إذا وقف إلى جانبه طويل بدا قزماً ، وكل رجل ضخم الجثة كان يشعر ازاءه انه رجل نحيف هزيل . غير اننا نعرف على وجه اليقين كثيراً من ملامحه الخلقية وصفاته الروحية . وملامحه هذه تعكسها لنا منجزاته ومآتيه أكثر مما تعكسها ملامح وجهه . مما لا شك فيه انه صُنع من المادة الصلبة التي صنعت الزعماء والقادة المغامرين : العزم ، والمثابرة ، والشجاعة والاقدام . أما العرفان بالجميل فأمر لا شأن له في تكوين هذا الرجل . وكانت القوة الدافعة والحافز الشديد حبه للقوة والسيطرة ، السيطرة التي هي غاية تبرّر كل وسيلة في سبيل الوصول اليها .

رجل لا يُعرف نسبه ، وربما كان من أصل غير عربي ، وأحد أفراد فرقة منشقّة لم يؤبه بها ، هذا ما كانه عبيد الله المهدي الذي أفلح في تسلّم صولجان عليّ بن أبي طالب بعد خمسة عشر جيلاً كان فيها العلويون يحاولون الحصول على السيطرة فيعجزون . فأسس في منطقة متخلّفة ثائرة امبراطورية عربية تُعتبر الثالثة من حيث العظمة ، والثانية من حيث بقاؤها ودوام سلطانها .

صلاح الدين

بطل الحروب الصليبية

في نفسي متى ما يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسّمت البلاد، وأوصيت، وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت .

صلاح الدين الأيوبي

بدأت ردود الفعل بين الشرق الأدنى والغرب في عصور مبكّرة واستمرت زمناً طويلاً . ولا يسعنا القول انها انتهت .

بدأت سلسلة المنازعات بين الشرق والغرب في عهد داريوس واحشويرش عندما هاجما موطن الاغريق على الأرض الاوربية . وأعاد الزيارة لهما الاسكندر المقدوني ، ومن بعد خلفائه جاء الرومان ، الغربيون منهم والشرقيون (الروم). ثم بدأت السلسلة الثانية من المنازعات بين الشرق والغرب بظهور الإسلام ، وشعاره نشر الدين الجديد . وقد قضى الإسلام على السيطرة الغربية التي دامت ألف سنة في هذه المنطقة ، وراح يهدّد أوربا في مؤخّرتها من الأندلس العربية ، وفي اواسطها من صقلية ، وفي مقدمتها بواسطة السلاجقة الذين كانوا يطمعون

بالاستيلاء على القسطنطينية . فكانت ردّة الفعل حروباً قام بها أناس من أوربا يحملون صلباناً خيطت إلى ملابسهم .

وإذا كان الصليبيون قد أحرزوا بعض النصر واستولوا على مقاطعات فقد كان ذلك في المرحلة الأولى من سنة ١٠٩٧ – ١١٤٤ . في هذا النصف من القرن أسس الصليبيون امارة ايدسّا وهي الرها (اورفا الحديثة) وانطاكية ، وطرابلس ، وأهمها مملكة القدس اللاتينية . وقد جاء الانتصار الذي أحرزه الصليبيون نتيجة لضعف المقاومة التي لاقوها أكثر مما كان نتيجة لقوة الغازين ومهارتهم . فقد كانت منطقة الشرق الأدنى مجزّأة بين السلاجقة والأتراك والعرب ، يحكمهم سلاطين وأمراء وزعماء يهتمّون ، أول ما يهتمّون به ، مصالحهم الشخصية ، لا مصالح العامة من الناس . ولم تكن نهاية الصليبيين على يدي عربي ، ولا على يدي أحد من الخليفتين آنذاك : الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الفاطمي في القاهرة . بل جاء النصر على يدي زنكي التركي أتابك الموصل ، ذي العينين الزرقاوين . تحت وطأة ضرباته الشديدة راحت تلك الامارات الدخيلة التي أنشأها الصليبيون تتفكك وتسقط الواحدة تلو الأخرى. وقد وجّه أولى ضرباته إلى الرها فسقطت سنة ١١٤٤ ، فكانت أول امارة صليبية انشئت وأول امارة صليبية استردّت . وتابع نور الدين بن زنكي انتصارات أبيه التي أحرزها للمسلمين . فانتزع دمشق من أيدي السلاجقة (١١٥٤) وأسس له ملكاً مستقلاً من دمشق عبر حلب إلى الموصل . وكانت هذه الدولة مستقلة بالفعل ، ولكنها كانت تعترف بسلطة العباسيين الاسمية . وبسقوط دمشق زال آخر حاجز كان يحول بين المنطقة الزنكية وبين المملكة اللاتينية في بيت المقدس .

وخلف صلاحُ الدين نورَ الدين في الزعامة والدفاع عن الإسلام . وينبغي اعتبار صلاح الدين ، من جميع الوجوه ، أعظم الأبطال الذين حاربوا الصليبيين بمن فيهم بيبرس أحد المماليك ، مع العلم أنه ظهر على المسرح في الطور الثالث من

الحملات التي شنّها المسلمون . إن تفوّقه ونبله كرجل وكبطل ، سواء أكان ذلك في الحرب أم في السلم ، أمر يشهد له به الأصدقاء والأعداء . لقد عفّى النسيان ذكرى عدد كبير من أبطال المسلمين ، ولوّث البحث التاريخي الهالة التي كانت تجلّل هامات أبطال آخرين ، ولكن الزمن والبحث التاريخي قد أضفى على ذكرى صلاح الدين شرفاً على شرف ونبلاً على نبل . في أثناء صراع عرب فلسطين ضد الدولة المنتدبة كانوا يلقبون الزعيم الوطني منهم بـ « صلاح الدين » . والمصريون يلقبون زعيمهم بـ « صلاح الدين » وكثير من الذين كتبوا سيرة حياته يلقبونه بالبطل الخالد . وكاتب فرنسي يصفه :

Le plus pur héros de l'Islam . وقبره إلى جانب المسجد الأموي في دمشق قبلة أنظار السياح لتلك المدينة .

— ١ —

ولد يوسف — وقد اشتهر بلقبه صلاح الدين — في تكريت ، وهي حصن على دجلة بين الموصل وسامرا ، سنة ١١٣٨ من أبوين كرديين . وكان أبوه نجم الدين أيوب قائد حامية القلعة . وكان عمه أسد الدين شيركوه قائداً في جند نور الدين. وبعد مولد صلاح الدين بوقت قصير انتقلت العائلة إلى بعلبك (١١٣٩) إذ ان زنكي كان قد عيّن أيوب ، أبا صلاح الدين ، والياً على المدينة وقائداً للحامية في القلعة . وهذه القلعة كانت في الأصل هيكلاً رومانياً بناه الأباطرة الرومان السوريون في القرن الثالث للميلاد. وكانت المدينة غنية بالمياه والجنائن، حتى انها كانت تشبّه بدمشق . وبعد انقضاء خمس سنوات ، عندما استولى نور الدين على دمشق ، عيّن أيوب والياً عليها ، وشيركوه قائداً للجند . فأصبح الرجلان من المقرّبين كثيراً إلى السلطان .

في سنة ١١٦٤ قدم إلى دمشق وزير فاطمي كان قد جُرّد من وظيفته في

مصر ، واسمه شاور ، فجاء يطلب العون من حكام دمشق. وقد عرض على ولاة
الأمر أن يدفع لهم ثلث خراج البلاد بعد دفع نفقات الجيش . فاستجاب
السلطان السنّي إلى طلب الوزير الفاطمي ، لأنه كان يرحّب بمثل هذه البادرة
التي توفّر له موطىء قدم في بلاد كان يعتبرها خارجة منشقة يتنازعها جماعة من
الوزراء المتآمرين على السلطة ، كل يحاول أن يصل إلى الخلافة ، التي كان عليها
آنذاك ، خليفة صبيّ يلقّب بالعاضد. هذا فضلاً عن أن احتلال مصر الفاطمية
يقوّي مركز نور الدين إزاء بيت المقدس الذي كان بيد الصليبيين . فبعث بجند
على رأسه شيركوه . وأفلح شيركوه في اقناع ابن أخيه صلاح الدين – وكان له
من العمر ست وعشرون سنة – أن ينضمّ إلى قوّاده . لأن صلاح الدين كان
متردداً في الأمر . وتبيّن أن الاستيلاء على مصر الفاطمية كان يتطلّب أكثر من
حملة عسكرية واحدة . فإن شيركوه جرّد ثلاث تجريدات ، وفي الثالثة أبدى
صلاح الدين ، البطل الإسلامي العتيد ، إعراضاً عن الحرب أشد من إعراضه في
المرة الأولى . ولكن نزولاً عند أمر السلطان انضمّ صلاح الدين إلى الجند ،
وكان يشعر كأنه يسير إلى مقتله . كان بالإمكان أن يظل صلاح الدين كمية مهملة
في حسابات التاريخ فلا يعرف فيما بعد في تواريخ أوربا باسمه اللاتيني الشكل
المشهور Saladin .

يقول لنا المؤرخون ان السبب في تردد صلاح الدين انغماسه الكلي في
الدراسات الدينية . ولكن من بعض الملاحظات التي وردت عن لسان الرجل
الذي كتب لنا سيرة حياته ، ابن شدّاد ، لنا أن نستنتج أن سبب تردده في
الاشتراك بالحرب كان انغماسه بأمور أخرى كالخمرة ، والعيش الهانىء . الواقع
ان البحوث التاريخية لم تسفر عن اختراق الحجب الكثيفة التي تغلّف سيرة
حياته الأولى ، وما نعرف عنها ليس سوى لمحات خاطفة . ولقد نكون في مأمن
من الزلل التاريخي إذا قلنا ان صلاح الدين في نشأته الأولى كان يدرس ما يمكن
تسميته بالدروس الكلاسيكية التقليدية في ذلك الزمان : القرآن الكريم ،

والحديث ، واللغة العربية ، والبلاغة والشعر . وكشابّ نشأ في عائلة بارزة
المكانة يجب أن يكون قد مارس الطراد وركوب الخيل ولعب الشطرنج
والكرة .

بعد أن أتمّ شيركوه المهمة العسكرية التي انيطت به عاد إلى دمشق ومعه
ابن أخيه صلاح الدين الذي اقتنع ، في أثناء اقامته بمصر ، أن فتح هذه البلاد
أمر يسير ، لأنها معرّضة للسقوط من الداخل . وبعد انقضاء ثلاثة أعوام عندما
تحالف شاور الخائن مع أمَلْرِك الأول ، ملك مملكة بيت المقدس ، بعث
نور الدين للمرة الثالثة بجيش إلى مصر وأمّر عليه شيركوه وصلاح الدين . وكان
أمَلْرِك ، المولود في فلسطين ، الملك الثاني على عرش بيت المقدس . وكان
أحد الحكام القلائل المقتدرين الذين تولّوا شؤون المملكة . كان أملرك يدرك
أهمية مصر من الناحيتين السياسية والجغرافية بالنسبة إلى سلامة مملكته . هذا
فضلاً عن أنه كان يطمع بخيرات مصر ذات الاقتصاد المزدهر . وهكذا بدأ
الصراع بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس حول الاستيلاء على الامبراطورية
الفاطمية المتداعية . ولم تسفر المعركة الأولى بين الجيشين عن أمر حاسم. ولكن
في المعركة الثانية التي نشبت في مكان يدعى البابَين على بعد عشرة أميال من
المنية ، في شهر نيسان سنة ١١٦٧ ، ذاق صلاح الدين طعم الانتصار . فإنه
أنزل في جيش الفرنج والمصريين هزيمة نكراء تشتّت الجيش بعدها وهرب .
فسرّ به شيركوه سروراً عظيماً وأمره أن يتوجّه للحال ، على رأس قوة ،
لاحتلال الاسكندرية . وكانت هذه المرة الأولى التي يتسلّم بها القيادة مستقلاً
منفرداً . وفي الاسكندرية أيضاً برهن عن اقتدار في الحرب . ولكن جيش
الفرنج راح يضايقه بمدفعيته وبأعمال حربية أخرى كان يقوم بها الاسطول الذي
كان يعضّد الفرنج من ناحية البحر ، حتى أرغم شيركوه ، آخر الأمر ، على أن
يوقّع صلحاً ، وأن يتبادل الأسرى معهم . وبعد ذلك انسحب من البلاد . وقد
ادّعى الفريقان انهما أحرزا نصراً .

بعد ذلك أسرع أملرك في التوجّه إلى القاهرة متظاهراً بأنه يريد جمع الخراج . وينبغي أن يكون قد اقتنع في ذلك الحين بضرورة إبقاء مصر في قبضته حفاظاً على فلسطين التي كانت بيد الصليبيين . ثم ان تحالفاً يضمّ مصر وسورية من شأنه أن يضرب حصاراً حول المملكة اللاتينية ، وأن يتمكن في الموانىء من قطع الامدادات العسكرية والمؤن القادمة اليهم من الغرب . وحياة هذه المملكة اللاتينية تتوقّف على الغرب . في هذه الأثناء أرسل العاضد رسولاً إلى نور الدين يتوسّل اليه أن يهبّ إلى نجدته . وقد لبّى نور الدين الطلب وأوكل أمر الحملة العسكرية إلى شيركوه وصلاح الدين . وفي هذه المرّة (١١٦٨) كان أسد الإسلام شيركوه قد وطّد العزم على أن يقضي القضاء المبرم على عدوه . أما شاور فقد قُتل . وفي مطلع شهر كانون الثاني سنة ١١٦٩ ، تولّى شيركوه الوزارة ، ولكن بعد شهرين من توليه الوزارة توفّي ، فأوصى بها إلى ابن أخيه صلاح الدين . وكان مشهد أقرب إلى التمثيلية الايمائية منه إلى أي شيء آخر عندما ألقى العاضد على كتفَي صلاح الدين وشاح الوزارة ولقّبه بالملك الناصر.

ولكن صلاح الدين، الملك الناصر ، كان بحاجة إلى من ينصره ويشدّ أزره. فإن وضعه كان محفوفاً بالمشكلات والصعاب. فهو قائد جيش عند سلطان سنّي في سورية ، وفي الوقت ذاته رئيس وزارة في خلافة شيعية فاطمية . وكان حرس البلاط جنوداً من السودان على أتمّ استعداد ليعضدوا أيّاً من المتنافسين على السلطة شريطة أن يغدق عليهم العطاء . ولكنهم رأوا في شخص صلاح الدين رجلاً من غير طينة هؤلاء الذين يخدمونهم . وأخيراً فإن رفاقه في السلاح لم يهبوا جميعاً إلى نصرته ، بل راح بعضهم يبدي شيئاً من التنكر له والحسد على النعمة التي لاقاها . وكان من اليسير عليه أن يعالج أمرهم . فإنه أرضى فريقاً منهم بالمال والاعطيات والاقطاعات ، وردّ بعضهم إلى دمشق . ثم إن صلاح الدين استدعى أباه وعائلته من دمشق وجعل أباه قيّماً على بيت المال . وكانت المهمة الأولى التي كان عليه أن يعالجها الجيش. كان الجيش المصري

يتألف ، عدا الثلاثين ألف سوداني ، من عدد من الفرسان تحت امرة ضباط مصريين . فلم يتردد صلاح الدين ، بل أسرع في انشاء جيش له من السوريين ، والأكراد ، والمصريين الذين عاهدوه على الولاء ، ووضع اخوته قواداً على هذا الجيش الجديد. ومما تجدر الاشارة اليه أن غالبية المصريين كانوا سنّيين يعتبرون أسيادهم الفاطميين من الخوارج المغتصبين .

وآن أوان القيام بعمل حاسم عندما ألقي القبض على رسول كان قد بعث به الخصي مؤتمن الخلافة وهو في طريقه إلى أملرك . وقد لحظ أحد حرّاس الحدود أن هذا الرسول يلبس حذاء نعله طبقتان ، فشكّ في أمره ، وكانت الرسالة السرية التي يحملها بين النعلين. وللحال أمر صلاح الدين بقطع رأس الخصيّ القهرمان . وعندما ثار أعوان الخصي هاجمهم رجال صلاح الدين وتعقبّوهم في جميع أنحاء القاهرة ، وهدّموا حيّهم وأحرقوه وأنشأوا حديقة مكانه . ثم إنهم وضعوا قصر الخليفة بحراسة جنود جدد على رأس خصيّ أبيض اسمه قراقوش . وفي أثناء السنوات الخمس التي تلت كان اخوة صلاح الدين يلاحقون من تبقّى من الخونة إلى مصر العليا حتى إلى النوبة . وألحقوا شمالي السودان بممتلكاتهم الجديدة . وكان صلاح الدين في هذه الأثناء يعيد تنظيم الاسطول ، يعاونه في ذلك رجال من القسطنطينية ومن مدن ايطالية. ذلك لأن صلاح الدين أدرك مبلغ العون الذي يمكن للاسطول أن يؤدّيه في انزال جنود لمهاجمة الموانىء التي كانت بيد الصليبيين .

واستمرت حرب الأعصاب بين الحكم السنّي الجديد والحكم الاسماعيلي القديم . فعُزل القضاة والمعلمون الاسماعيليون، ونُصّب مكانهم قضاة ومعلمون من السنّة . وأُسست مدارس جديدة لترسيخ العقيدة السنية . وانشئت دائرة للجواسيس والدعاة. ولم يولّ على المقاطعات سوى الأقارب والأصدقاء المؤتمنين. واقطع صلاح الدين اقطاعات صغيرة للجماعات الصغيرة في حاشيته التي تنتمي إلى أعراق بشرية مختلفة ، وذلك للابقاء على شيء من التوازن بينها .

في صيف سنة ١١٧١ وقع الخليفة الفاطمي الحبيس في مرض خطير ، مما دعا صلاح الدين لاتخاذ الخطوة الحاسمة التي كانت دمشق ، ومن ورائها بغداد ، تطلبان اليه أن يتخذها : الغاء الخلافة الفاطمية ، والخطبة في صلاة الجمعة للخليفة العباسي . وفي نهار الجمعة الثاني من شهر ايلول قام الخطيب في الجامع وبدلاً من أن يذكر في الخطبة اسم العاضد ذكر المستضيء بالله . فلم يصدق المصلون ما سمعته آذانهم . وكان المستضيء هو الخليفة العباسي في بغداد .

توفّي العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام ولم يكن قد عرف ماذا حدث وقيل لمن في القصر : « ان سَلِم فهو يعلم ، وان توفي فلا ينبغي أن تنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله » . ثمّ ان صلاح الدين وضع العائلة الفاطمية تحت اشراف ومراقبة دقيقين ، وفصل بين الذكور والإناث ليتأكد من القضاء على الذرية . وكان الانتقال من الفاطمية إلى العباسية يسيراً حتى إن ابن الأثير يقول « لم ينتطح فيه عنزان » .

أما بغداد فقد تلقّت الأخبار بفرح عظيم ، ودامت الاحتفالات أياماً . وبعث الخليفة المستضيء إلى نور الدين بخلعة ، وإلى صلاح الدين بعث بخلعة وبراية سوداء ، وهي شعار العباسيين . وكانت راية صلاح الدين صفراء . في الواقع أن صلاح الدين كان قد أصبح سلطاناً ، وإن لم يكن بصورة رسمية . فالعامة كانت تعتبره سلطاناً . اما القيروان والحجاز فكانتا تابعتين لمصر ، مما زاد في مقام صلاح الدين عند المسلمين بصفته حارساً للحرمين الشريفين ، ورفعَ من شأن القاهرة ومكانتها الجديدة . أما اليمن فقد كانت شيعية فلم يلق توران شاه ، أخو صلاح الدين ، صعوبة في ضمها إلى الامبراطورية الجديدة . وإلى الغرب وسّع الحدود إلى مشارف طرابلس الغرب .

كانت مصر التي ورثها صلاح الدين عن الفاطميين ضعيفة وهنة سياسياً ، ولكن مزدهرة ناجحة اقتصادياً . فانها ، بعد العراق ، كانت أغنى بلد في الشرق الأدنى بمواردها . وكان المورد الأول تجارة الترانزيت بين الشرق

والغرب ، وبصورة خاصة بين الهند والجمهوريات الثلاث في المدن الايطالية الثلاث : جنوى وبيزا والبندقية . ومما كان يدل على الثراء والرخاء في مصر بلاط الخليفة ، الذي ظل أجيالاً موضع دهشة وإعجاب عند الذين كانوا يفدون على القصر من سيّاح ومبعوثين سياسيين . يقول لنا المؤرخون العرب إنه كان للقصر أربعة آلاف غرفة ، وكان له بوابة من ذهب تفتح على قاعة مذهّبة وبَهْو فخم حيث كان عرش الخليفة المصنوع من الذهب . ثم كان هناك قاعة الزمرد ذات الأعمدة الرخامية الجميلة . وكان الأثاث والزخرف من الآبنوس والعاج المطعّم بالحجارة الكريمة . وكانت الألبسة الحريرية والسّجف والأقمشة المقصّبة جميعها مطرزة بالذهب . وأصبحت جواهر الفاطميين مضرب المثل في الأدب العربي ، وما تبقّى منها محفوظاً في دار الآثار المصرية يشهد على صحة الخبر .

كان على الداخل إلى شقة الخليفة أن يمرّ في دهاليز مخيفة يحرسها جنود من الزنوج إلى أن يأتي إلى دور فسيحة لا سقف لها ، ومنها إلى ممرّ ذي أعمدة من على الجانبين ، وله سقف مغشى بالذهب ، وعلى جانبي الممر حدائق نبات وحيوان على غاية من الجمال . وقد ترك لنا وليم الصوري ، وهو من المؤرخين اللاتين الأول للحروب الصليبية ، وصفاً رائعاً للاستقبال الذي لقيه وفد أملرك إلى الخليفة العاضد . وكان وليم الصوري مواطناً ، وُلد في المنطقة هذه ، وكان يجيد العربية ، وكان ملحقاً بقصر أملرك ، وينبغي أن يكون ما ذكره وليم مستنداً إلى تقرير أدلى به اليه رئيس الوفد . يقول :

> تقدم الوفد فأدخلوه إلى القسم الداخلي من القصر فأدّى السلطان (وكان آنذاك شاور) التحية حسب التقليد المتعارف : سجد إلى الأرض مرتين بكل وقار واحترام كأنه يقدّم السجود لإله . ثم سجد ثالثة ونزع السيف المعلّق بكتفه وألقاه على الأرض . عندها ازيحت الستائر المطرزة باللؤلؤ والذهب ، التي

كانت تحجب وراءها عرش السلطان، بسرعة فائقة، وظهر الخليفة غير مقنّع . كان يجلس على عرش من ذهب يحيط به بعض مستشاريه وحرّاسه من الخصيان، فكانت له هيأة وهيبة أكثر من هيأة ملك أو سلطان .

تقدم السلطان شاور من العرش بكل وقار وقبّل قدمي الخليفة وعرض عليه القصد من مجيء الوفد اليه (١) .

ويذكر لنا ابن الأثير شيئاً عن الكنوز التي وجدت في بلاط العاضد فحملها قراقوش وقدّمها لصلاح الدين ، يقول :

وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم . فمنه الجبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً . أنا لا أشك فانني رأيته ووزنته ، واللؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير (٢) .

وزّع صلاح الدين كنوز العاضد وخزائنه على قوّاده، وأرسل إلى نور الدين نصيبه منها ، ولكنه لم يأخذ هو نفسه شيئاً ، وهو أمر نادر الوقوع ، ويدل على حكمة في السياسة . وبيع بعض الكنوز وأرسل الثمن إلى بيت المال . وقد استغرق أمر تصفية هذه الثروة الكبيرة عشر سنوات . أما المكتبة ، أو خزانة الكتب كما كانوا يسمونها ، وتحتوي على ١٢٠ ألف كتاب ، فقد وهبها

---

(١) William of Tyre, A History of Deeds done beyond the Sea, tr. Emily A. Babcock & A. C. Krey (New York, 1943) vol. III, pp. 320 - 21.

(٢) ابن الأثير ، الكامل (طبعة طورنبرغ) مجلد ١١ ص ٢٤٢ .

صلاح الدين إلى كاتبه ومستشاره الوفي القاضي الفاضل . واحتفظ السلطان صلاح الدين بقصر الوزير مكاناً لسكناه ، حيث كان يعيش عيشة المعتدل في مأكله ومشربه ، على خلاف ما كان يفعله عمّه الذي مات من تخمة أصابته .

كان صلاح الدين السلطان رجلاً يختلف كل الاختلاف عن صلاح الدين الجندي عندما التحق بالجيش . يقول ابن شدّاد ، الذي كتب سيرته ، انه في هذا الحين انقطع عن الخمرة وعن التمتّع بلذائذ الدنيا ، وانصرف كلياً إلى العمل وتصريف الشؤون . ويقول وليم الصوري إن صلاح الدين كان رجلاً نشيطاً ذكياً شجاعاً في الحرب كريماً إلى أبعد حدود الكرم . وراحت شهرته تنتشر في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، وأخذ الناس ينظرون اليه كما ينظرون إلى زعيم جديد .

لم يطل الوقت حتى توتّرت العلاقات بين القاهرة ودمشق . وكان السبب المباشر لقيام سوء التفاهم هذا عدم الرضى الذي أبداه نور الدين عن حصته في خراج مصر . غير أن صلاح الدين سهّل مهمة محاسب قدم من دمشق للاطلاع على الحسابات . وظلّ صلاح الدين يذكر في خطبة الجمعة اسم نور الدين واسم الخليفة ، هذا إلى جانب نقش اسم الخليفة على النقود الجديدة . وربما كان السبب الحقيقي هو تخوّف نور الدين من ازدياد قوة صلاح الدين في مصر . والواقع أن صلاح الدين كان أقوى من نور الدين اقتصادياً وعسكرياً . فإن المعاهدة التجارية التي عقدها مع جمهورية مدينة بيزا التي أتبعها بمعاهدتين مماثلتين مع جنوى والبندقية، زادت في موارد مصر ، وفي الوقت ذاته حدّت من الاتجار مع فلسطين. ولكي يمتحن ولاء صلاح الدين له وجّه نور الدين اليه رسالة يطلب فيها اليه أن يتوجّه إلى الكرك، وهي قلعة من قلاع الصليبيين عند الطرف الجنوبي الشرقي للبحر الميت وعلى طريق القوافل . وامتثل صلاح الدين للأمر. ولكن وصلته أخبار عن تقدم جيوش نور الدين نحو مصر . فخشي أن يكون في الأمر مكيدة، فقفل راجعاً بحجة أن أباه مريض .

حال موت نور الدين في السنة التالية وقعت حرب بين صلاح الدين وبين

دمشق . غير ان خلافة نور الدين أفضت إلى ابنه ، وكان في الحادية عشرة من عمره ويعرف بالملك الصالح ، الأمر الذي عقّد الأمور كثيراً . وكان صلاح الدين يعترف بالسلطة للملك الصبيّ ، الملك الصالح ، وأمر أن يُدعى له في خطبة الجمعة ، وضرب السكة باسمه . غير أن ابن عمّ للملك الصالح أعلن استقلاله في الموصل ، وتوجه بجيوشه إلى الرها في شمالي سورية ليضمها إلى ملكه . وكان قواد الملك الصالح يتنافسون فيما بينهم ويتنازعون الوصاية على الصبيّ . فراحوا يستميلون حكام بيت المقدس لعقد صلح معهم على أن يدفعوا لهم جزية ، وتنازلوا عن حقهم في حلب ، حيث راح واليها الخصي كمشتكين يتخلّص من منافسيه بالقائهم في غياهب السجون ، ويعلن نفسه وصياً على الملك . فانتشرت الفوضى في البلاد كلها وأصبحت يتهدّدها التجزؤ والانقسام . وكان صلاح الدين في هذه الأثناء يجابه مشكلة حرجة : ولاءه لبيت نور الدين مولاه الذي أوصله إلى هذه المكانة ، واخلاصه للقضية الكبرى ، الوحدة الاسلامية ضدّ العدوان المسيحي على الأراضي المقدّسة . وراح يفكر لنفسه في الأمر ، فإنه بصفته أعلى قائد في جيش نور الدين ، وبصفته عاملاً على مصر ، فإن حقه بالوصاية على الملك الصبي أمر يجب إلا ينازعه فيه منازع . وكان له أن يبعد في تفكيره الصامت فيعتبر نفسه القائد المؤهّل لتنفيذ خطة السلطان الراحل ، وبهذا يكون المؤهّل أيضاً أن يكون وارثه الروحي . ولكن هذا التفكير الصامت لدى صلاح الدين ، لو ترجم إلى كلمات لكانت كلمات لا يفهمها منافسوه وخصومه ، لأنهم كانوا يرون فيه قائداً آخر من جملة القواد الذين يتنافسون ويصطرعون على السلطة لمآرب شخصية .

لم يتردّد صلاح الدين في تدبير الأمر ، لأن الوقت من ذهب . اختار لنفسه سبع مئة فارس من الجنود المدرّبين وعبر بهم الصحراء متحاشياً قلاع الصليبيين إلى غربي الطريق التي سلكها ، وفي ٢٤ تشرين الأول من سنة ١١٧٤ دخل دمشق عاصمة سورية دون أية مقاومة . واتّخذ قلعة دمشق مقراً له . فتوافد

عليه زعماء المدينة ، على اختلاف طبقاتهم ، ليرحّبوا به على انه أتى ليحمي ملكهم . وبعد زمن تزوّج أرملة نور الدين، وهو أمر مألوف، وله منافع سياسية في مثل هذه الحالة . خلّف صلاح الدين أخاه طغتكين على دمشق وغادر على رأس جيش جنّده من الشام قاصداً حلب . فعبر أولاً لبنان من ناحيته الشرقية وسار في البقاع إلى أن وصل بعلبك مسقط رأسه . ولكنه لم يدخلها بل تابع سيره نحو حمص ، موطن الأمّ التي ولدت قياصرة تولوا عرش روما . لم تحارب مدينة حمص ، إنما أبدت قلعتها مقاومة . فترك حامية صغيرة لتحاصرها وتابع سيره في وادي نهر العاصي الشهير بنواعيره إلى أن أتى حماة . وكانت حماة كسائر المدن السورية محاطة بسور وتحميها قلعة . غير أن حماة لم تقاوم بل استسلمت مع حامية القلعة فيها. وكانت حمص وحماة تابعتين لحلب ولكنهما كانتا شبه مستقلتين . كان هدف صلاح الدين حلب ، العاصمة السورية الموقّتة . وفي آخر يومين من أيام كانون الأول البارد ضرب خيامه حول سور المدينة وألقى الحصار عليها .

كان كمشتكين قد استعدّ للمعركة فأعاد تحصين خطوطه . وركب الملك الصالح جواداً ، وسار يطوّف في شوارع المدينة ، برعاية كمشتكين وحراسته ، طالباً إلى الناس ألا يسلموه إلى عدوه الذي يتظاهر بأنه قادم لحمايته . وكان للدور الذي مثله الملك الصبي أثر في نفوس الناس عندما رأوا الدموع تسيل على خدّيه عندما كان يخاطبهم . في الوقت ذاته كان كمشتكين قد استعان باثنين من أعداء صلاح الدين ، الأول راشد الدين سنان ، زعيم فرقة الحشاشين من مصياف في سورية ، والثاني ريموند الثالث كونت طرابلس . وكانت حصون الحشاشين في جبال اللاذقية ، لذا كان زعيمهم يسمى شيخ الجبل . وتقع قلعة مصياف على السفح الشرقي لجبال النصيرية . وكان سنان العراقي المولد قد قدم اليها من ألموت في ايران التي كانت مركزاً لهذه الفرقة. وقد جاء لنشر الدعوة في سورية. ولعب دوراً بارزاً في السياسة في سورية وفي مصر منذ ١١٦٣ ، وكان يُنظر

اليه أنه أشبه بسلطة مستقلة . ويحسن بنا أن نتذكر أن الحشاشين اسماعيليون ، فكان صلاح الدين الذي قوّض سلطتهم في مصر يُعتبر العدو الأول لهم . وكان فرع الحشاشين في سورية في هذه الفترة نشيطاً قوياً فلم يسلم من شرّه زعيم ، نصرانياً كان أم مسلماً. وكان من ضحاياهم ريموند الثاني كونت طرابلس (حوالي ١١٥٢) ، وملك بيت المقدس المنتخب كونراد ده مونتفرات الذي سنأتي على ذكره فيما بعد . وذات يوم اكتشف نور الدين خنجراً لأحد الحشاشين تحت مخدّته . وكان من أبرز ضحاياهم في بلاد فارس الوزير السلجوقي والعالم المفكر نظام الملك ، مؤسس المدرسة النظامية التي علّم فيها الغزالي .

كان الرجلان ، سِنان وريموند ، على اتمّ استعداد ، باغراء من المال والرشوة ، أن يعتبرا صلاح الدين ، عدوهما الطبيعي ، عدواً حقيقياً . فأرسل سنان بعض الفدائيين واستطاعوا الدخول إلى خيمة صلاح الدين وكادوا أن يغمدوا خناجرهم في جسده لولا يقظة حرسه الذين أمسكوهم وقطعوهم إرباً إرباً . وسار جيش طرابلس متجهاً نحو حمص في محاولة لقطع الطرق على جيش صلاح الدين . فكان من الحكمة أن ينسحب ، وأسرع في العودة إلى حمص فأخضع حامية قلعتها واستولى على المدينة ثم اتجه إلى بعلبك واستولى عليها . ومن هناك توجه شمالاً إلى حماة حيث وجد أن جيشاً يتألف من جند حلب والموصل كان في أعقابه .

كان غازي ، ملك الموصل ، يأخذ بالقول العربي المأثور : أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب . لذا أرسل جيوشه لحماية الملك الصالح . واستعد صلاح الدين للمعركة فاحتلّ مركزاً ستراتيجياً ممتازاً يقع على هضبتين تعرفان بقرون حماة ، أملاً أن يعوّض هذا المكان الذي احتلّه على قلة عدد جيشه ، وحدث ما كان يترقبه . ومما كان عاملاً في هذه المعركة هو أن جنوده كانوا ممن قد خبر الحروب وتمرّس في فنونها . وكانت الهزيمة هزيمة شنعاء (١١٧٥) . وكان النصر الذي حالف صلاح الدين نصراً حاسماً مما قرّر مصير

سورية . فأمر بقطع خطبة الملك الصالح ، وألغى النقود التي تحمل اسمه ، إنما أبقاه والياً يتولى شؤون حلب . واستعيض في الخطبة عن اسم الملك الصالح باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد ذكر اسم الخليفة العباسي في بغداد. وقد أرسل الخليفة ، بناء على طلب صلاح الدين . تقليداً يولّيه بموجبه مصر والنوبة والمغرب والجزء الغربي من الجزيرة العربية وفلسطين وأواسط سورية . أي أن الخليفة العباسي وهب صلاح الدين ممتلكات ليس له سلطة عليها ، إنما فعل ذلك غروراً وكبرياء .

عندما كان صلاح الدين يحاصر قلعة إعزاز إلى الشمال من حلب ، دخل ذات يوم خيمته يريد الاستراحة ، وفجأة شعر بضربة على رأسه . ولولا الدرع الواقي الذي كان يلبسه تحت عمامته لتحطّمت جمجمته . فدخل الحرس وألقوا القبض على ثلاثة من رجال سِنان كانوا قد نجحوا في الانضمام إلى الحرس . ويقال لنا إن صلاح الدين خاف خوفاً شديداً لم يلق مثله حتى في المعارك الرهيبة التي خاضها. ويبدو أن كمشتكين كان يحاول أن ينال عن طريق المؤامرة والدسيسة ما لم يستطع نيله بقوة السيف . وفرّق صلاح الدين جميع الغنائم والاسلاب التي غنمها في هذه الحملة على جنده .

عندما عاد صلاح الدين إلى مقربة من حلب مثلت أمامه أخت صغرى للملك الصالح ، فأكرمها وقرّبها اليه . فطلبت اليه أن يردّ قلعة إعزاز اليها فلم يردّ طلبها ، وحمّلها هدايا وردّها إلى أهلها مكرّمة . وفي ٢٩ تموز عقد صلاح الدين معاهدة مع الملك الصالح يعترف فيها الملك الصالح بسيادة صلاح الدين على جميع الأراضي التي احتلها بقوة السلاح . وظلّ الصالح أميراً على حلب . ولم يدخل صلاح الدين مدينة حلب حتى سنة ١١٨٣ . بعد هذا ، تفرّغ صلاح الدين لمقاتلة الحشاشين . في منتصف تلك السنة جرّد حملة يريد مهاجمة ديارهم . وكانوا يستولون على تسع قلاع . وقد خربها كلها باستثناء مقرّهم الأول مصياف ، إذ ان القلعة كانت مبنية على رأس قمة يصعب الوصول اليها . فنصب عليها

المجانيق وأرسل فوجاً بعد فوج من الجنود لمهاجمتها ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها لمناعة بنائها ، وللاستبسال الذي استبسله المدافعون عنها .

ولكن المحاولتين لاغتياله ولّدتا في نفس صلاح الدين خوفاً شديداً ، وظلّ شبح الاغتيال يراوده فلم يستطع النوم . أمر بذرّ الرماد حول خيمته لاكتشاف آثار أقدام من يحاول الاقتراب منه ، وأقام حرساً يحملون أنواراً كاشفة ، كما أنه كان يطلب تغيير الحرس مراراً . كل هذا لم يُزل مخاوفه . وأخيراً قبل بفك الحصار عن القلعة مقابل عهد قطعه له سِنان بأنــه لن يحاول اغتياله . وانتهى الأمر بين الرجلين على أساس أن ليس هناك من غالب ومغلوب . وظلّ أمــر اخضاع هذه القلعة إلى أن جاء أحد خلفاء صلاح الدين ، بيبرس ، بعد انقضاء مئة سنة فقضى على فرقة الحشاشين في سورية .

— ٢ —

كان لصلاح الدين في هذا الحين أن يفاخر بأمرين انجزهما : أولاً القضاء على الدولة الفاطمية ، وهذه عظمة فرضت عليه فرضاً ، ثانياً الاستيلاء على سورية ، الأمر الذي تمّ بمبادرته الشخصية . وكان توحيد القطرين ، مصر وسورية ، خطوة لا بدّ منها لانجاز مهمته الثالثة الخطيرة التي أصبحت الشغل الشاغل له : تحرير البلاد من سيطرة الصليبيين . ويبدو أن الجزء الأول من حياتــه لم يكن سوى فترة تحضير واستعداد لإتمام هذا العمل العظيم .

أما متى بــدأ يحلم بوضع مملكة بيت المقدس بين كلابتي القاهرة ودمشق ليسحقها فلا نعلم على وجه اليقين ، إنما نعلم انه كان حلماً قديماً يدغدغ طموحه العسكري . وقد فكّر نور الدين بهذا الأمر ولكن تفكيره لم يتعدّ حيّز التمنّي . كان بالإمكان أن يركّز على محاربة الصليبيين ، لكن أباه وجد بعد

سقوط الرها أن عليه أن يحارب الدويلات الإسلامية أولاً . وفي المنشور الذي أصدره العاضد عندما ولاّه الوزارة سنة ١١٦٩ يقول :

والجهــاد أنت رضيع درّه ، وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفي ظلمات قساطله تجلى محاسنك ، وفي أعقاب نوازله تتلى مناقبك ، فشمّر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحراً من الظّبى ، واحلل في عقد كلمة الله وثيقات الحبى ، وأسل الوهاد بدم العدا ، وارفع برؤوسهم الرُّبى ، حتى يأتي الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك [1] » .

أما النصّ فقد أملاه كاتب صلاح الدين القاضي الفاضل الذي اشتهر ببليغ اسلوبه حتى صار يُعرف في الأدب العربي « بالانشاء الفاضلي » .

كان بيت المقدس عند المسلمين المدينة المقدّسة الثالثة بعد مكة والمدينة ، فانها المدينة التي أسرى اليها النبي . هذه المدينة ، بعــد أن كانت قبلة أنظار الصليبيين وهدفهم الأخير ، أصبحت الآن الهدف الرئيسي الذي كان المسلمون يسعون للوصول اليه . وفي الحالتين كان الدافع في الحروب الصليبية والجهاد الإسلامي واحداً : الدافع الدينيّ . وكان الهدف واحداً : الاستيلاء على بيت المقدس . وكان كل فريق في نظر الفريق الآخر مغتصباً كافراً .

شعر صلاح الدين في هذه الفترة أن بامكانــه أن يتفرغ لمعالجة الأمور في فلسطين . وكان جزؤها الجنوبي مفتوحاً أمام مصر . وبعد غياب سنتين قضاهما في سورية في محاربة الدويلات الإسلامية شعر أيضاً أنه ينبغي له أن يزور مقرّه في القاهرة . فخلّف أخاه توران شاه الذي كان قــد أخضع اليمن ، ليصرّف الشؤون في سورية ، واتجه نحو مصر بطريقة لا تثير الشكوك ودخل

(١) ابو شامــة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، مجــلد أول (القاهرة ١٩٦٢) ص ٤٠٩ .

القاهرة في سنة ١١٧٦ . وأقام في القاهرة زمناً يصرّف شؤون الملك ، ويرمّم أسوار المدينة ، ويضع الخطط لبناء قلعة لها . فاختار لها موقعاً هضبة في جبل المقطّم حيث لا تزال قائمة للآن وتُعرف بقلعة الجبل . وهي تشرف على المدينة كحارس يحرس المدينة التي أصبحت من أكبر مدن افريقيا في السكان . أنهي العمل في بنائها ، كما هو منقوش على أحد أبوابها ، سنة ٥٧٠ هجرية . فكانت القلعة بمثابة تحذير لمن تسوّل له نفسه التفكير في الثورة والخروج على السلطان .

أما الوضع في فلسطين فإنه كان يغري من يتطلّع إلى غزوها . ذلك أن مملكة بيت المقدس كانت ، خلافاً لبنود هدنة السلام ، تقوم بغزوات إلى جهة الشمال وإلى أبعد من حلب دون أن تترك جيشاً يتولّى أمر الدفاع عن فلسطين. ولم يكن المسلمون قد تعلموا بعد أن أية معاهدة يبرمها النصارى مع «الكفار» أو أي عهد يقطعونه على أنفسهم ، يمكن الغاؤه فوراً عند موافقة رئيس ديني لهم . كان يتسنم عرش مملكة بيت المقدس في ذلك الزمان ابن أملرك ، وكان في السادسة عشرة من عمره ، واسمه بلدوين الرابع. وكان يلقّب بالأبرص لأنه كان مصاباً بالبرص. وفضلاً عن هذا فإن ذراعه اليمنى كانت مشلولة لأنهم دقّوا فيها مسماراً، وهي عادة مستحبة كان يمارسها الفرسان دلالة على قوة التحمّل والجلد. وكان بلدوين الرابع قد ورث مملكة أبيه ، ولكنه لم يرث شيئاً من خلقه . ولم يكن خصمه ، صلاح الدين ، قد أتمّ استعداده لخوض المعركة الحاسمة معه . لأن صلاح الدين لم يكن يدخل حرباً دون استعداد ، ودون أن يكون قد استشار امراءه . ولكنه كان يقوم بمناوشة الأعداء في معارك ليست بذات بال لكي يبقي جنوده في حالة تأهّب وتدرب ، ولكي لا ينسوا أن أمامهم غنائم إذا هم خاضوا غمار الحرب . في العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١١٧٧ دخل صلاح الدين جنوبي فلسطين .

كانت مدينة عسقلان ذات مركز حيوي بين المملكتين ، مصر وفلسطين .

ولم يكن بالعسير على صلاح الدين أن يستولي عليها وأن ينهب المناطق المحيطة بها . فقد كان فتحها أشبه بنزهة قام بها جنوده البالغ عددهم ستة وعشرين ألف مقاتل . وتابع الجيش زحفه شمالاً على ساحل البحر إلى الرملة مخلّفاً بيت المقدس وراءه. في هذه الأثناء جمع الفرنج جيوشهم من بيت المقدس وعلى رأسهم الداوية ، ومن صيدا وعلى رأسهم ريجنالد ، ومن الكرك وعلى رأسهم ريجنالد شانتيّون (أرناط) . وكان جيش الداوية يعرف أيضاً بالهيكليين، نسبة لهيكل سليمان في القدس حيث تأسست فرقتهم (١١١٨) لحماية الحجّاج ، وليحاربوا إلى جانب أي جيش من جيوش الصليبيين. وكان هنالك طائفة أخرى منهم تعرف بالاسبتارية أو جنود القديس يوحنا ، وقد تأسست هذه الأخوية العسكرية الدينية لتقوم بايواء الحجاج وتقديم الطعام والمأوى لهم . وظهر في ساحة المعركة في الرملة اسقف بيت لحم يحمل « الصليب الحقيقي » وينفث في جنوده روح الحماسة. ولا ندري ماذا حدث لصلاح الدين إذ وجد نفسه على حين غرّة عندما كان بجوار الرملة بعيداً عن القسم الرئيسي من جيشه ، فتمزّق حرسه شرّ ممزّق. وأما هو فإنه نجا من الموت باعجوبة، وعندما أسدل الظلام ركب ذلولاً يتبعه من تبقى من أفراد حرسه ، وتراجعوا تاركين الجرحى وراءهم . وكان يوم الرملة (٢٥ تشرين الثاني) من أسوإ ما عرفه في حياته العسكرية .

في السنة التالية شرع بلدوين ببناء قلعة في أحد الممرات المؤدّية إلى نهر الاردن في مكان يعرف ببنات يعقوب ، وهو المكان الذي تقول التوراة إن يعقوب صارع فيه ملاك الرب . وكان هذا الممر يصل مملكة بيت المقدس بدمشق ، ويفتح السبيل نحو سهل بانياس الغني بمياه نبع الاردن وبالخضار . وكانت دمشق تعتمد في تموينها على قسم كبير من انتاج هذه المنطقة من قمح وأرز وقطن . وقد رأى صلاح الدين في بناء هذه القلعة خطراً يهدّد سلامة المواصلات . فحاول أن يرشو بلدوين بعشرة آلاف درهم ذهباً ليعدل عن بنائها ولكن الملك أبى . فراح صلاح الدين يعيد تنظيم جيشه بتقويته بجنود من القاهرة ودمشق .

وفي ٢٥ آب سنة ١١٧٩ بدأ الحصار على قلعة بنات يعقوب . وقد دافع عنها جنود الداوية ببسالة على أمل أن تأتيهم النجدة . وصمدت أسوار القلعة ، وثخانتها ثلاثة عشر قدماً ، مدة خمسة أيام كان النقابون واللغامون في اثنائها يحاولون نقبها . ثم انهم حفروا حفراً عميقة خارج الأسوار اشعلوا فيها النار أياماً ، وحفراً أخرى ملأوها ماء . وأخيراً نجحوا في احداث ثغرة في الأسوار فتدفقت الجيوش منها وهاجموا حاميتها . فقتلوا عدداً منهم ورموا بجثثهم من على الأسوار ، وأسر منهم سبع مئة فارس . وبالرغم من شدة حرّ شهر آب ، وبالرغم من الرائحة الخبيثة المنبعثة من تفسخ الجثث ، فإن صلاح الدين أبى أن يغادر المكان قبل أن يرى تهديم القلعة التي بناها بلدوين . تقول الروايات الاسلامية إن يعقوب بكى ابنه يوسف في هذا المكان، ولذلك سمّي فيما بعد «بيت الأحزان » ، وأصبح « بيت الأحزان » الآن مكان حزن وبكاء عند النصارى .

في أثر هذه الأمور طلب بلدوين ، الذي كان مرضه يزداد سوءاً ، عقد هدنة لمدة سنتين . فقبل صلاح الدين بالأمر لأن مملكته كانت مهدّدة بالقحط والمجاعة في تلك السنة . وعند مطلع سنة ١١٨١ عاد صلاح الدين إلى مصر . وبموت الملك الصالح في شهر كانون الأول من تلك السنة في حلب نشأت مشكلات جديدة . فكتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي مراراً يقول له إن من حقه ، بحسب التقليد الذي منحه إياه ، أن يكون وارث الملك الصالح في حلب ، وان الموصل بلد ينبغي له أن يتولّى أمره إذا ما أراد أن يقوم بالمهمة التي عهد بها اليه ، أي محاربة قوى الشرك . وبالرغم من أن الناصر كان أقوى الخلفاء العباسيين المتأخرين فانه لم يجد سبيلاً للرفض .

عندما وصل صلاح الدين إلى عاصمته السورية ، دمشق ، وجد أن عماد الدين ، أخا عزّ الدين ملك الموصل ، نصّب نفسه ملكاً وارثاً لابن عمّه في حلب . ذلك ان الملك الصالح وهو يحتضر طلب إلى قواده أن يقطعوا عهداً أمامه بأيمان مغلظة أن يكونوا أوفياء موالين لقريبه في حلب . وأدرك صلاح الدين كما لم

يدرك من قبل انه إذا لم يستول على حلب والموصل فإنه قد يربح معارك ولكنه سيخسر الحرب حتماً .

تحاشى صلاح الدين الاصطدام مع حلب ، لأنها كانت مركزاً من المراكز الشديدة الولاء لآل زنكي . ثم انها مدينة كبيرة كثيرة السكان وافرة الخيرات ، وقلاعها وحصونها أفضل من قلاع وحصون دمشق أو أية مدينة أخرى في سورية . وكان في وسطها قلعة ظلت قروناً لا يستطيع فاتح أن يستولي عليها . وكانت هذه القلعة مبنية على قمة تلّة جوانبها مبلّطة صقيلة بحيث يصعب على الجنود تسلّقها . فأدرك صلاح الدين أن الاستيلاء أولاً على شمال العراق هو السبيل الأفضل لاحراز النصر . وكان قد سبق له أن راسل بعض أمراء المقاطعات واستجاب له واحد منهم .

عبر صلاح الدين نهر الفرات على رأس جيش في شهر أيلول من سنة ١١٨٢ ولم يلبث طويلاً حتى كان أمام مداخل مدينة الموصل . وراحت مدن شمال العراق تستسلم له المدينة تلو الأخرى من الرها إلى نصيبين على دجلة ، إما عن طريق الرشوة ، أو خوفاً من الحرب ، أو لأنها كانت ناقمة على الحكم القائم . لكن الموصل لم تستسلم . كان صلاح الدين يقول لخصمه : إما الموصل أو حلب ، فكان جواب عز الدين: لا الموصل ولا حلب. فضرب صلاح الدين الحصار عليها في العاشر من شهر تشرين الثاني. وانقضى شهر ولم يحدث ما ينبىء عن سقوطها. أدرك الجيش الدمشقي عندها ان ليس في وسائل الدفاع التي اقامتها المدينة أية نقطة ضعيفة يمكن النفاذ منها . فإن العاصمة الزنكية كانت محاطة بسورين يحميها جنود شجعان مدرّبون على الحرب ، ناهيك بأن مؤونتها وافرة وسلاحها ومعدات الحرب فيها كثيرة . فكان على جيش صلاح الدين أن يلجأ إلى خطط حربية أخرى ، فراح يخرّب المناطق المحيطة بالموصل .

ثم جاء دور حلب . وصل جيش صلاح الدين إلى مداخل حلب في الحادي عشر من شهر حزيران (١١٨٣) . ولم يطل الوقت حتى استسلمت ، ذلك ان

أميرها وسكانها كانوا في حالة نفسية تختلف عن تلك التي كانوا عليها من قبل . فقد نُقِل عماد الدين إلى سنجار والمقاطعات التابعة لها حيث كان قبلاً . ورحّب سكان حلب بملكها الجديد ترحاباً حاراً . فقد بلغت مسامعهم أخبار فروسيته ونبله وعدله وكرمه لأن اسمه كان يردّد في جميع أنحاء العالم الاسلامي .

وتوصل صلاح الدين إلى تسوية موقتة مع عماد الدين وأخيه عز الدين ، يعترف بموجبها صلاح الدين بسلطة عز الدين على الموصل وجوارها ، على أن يقطع عز الدين عهداً على نفسه بمساعدة صلاح الدين عسكرياً ضدّ العدو المشترك . وهكذا أصبح صلاح الدين ، سلطان مصر وسورية ، في وضع يضيف إلى لقبه لقباً آخر : سلطان شمال العراق . ولكنه كان يؤثر أن يلقّب بلقب جامع : سلطان الإسلام والمسلمين .

— ٣ —

راح سلطان الإسلام والمسلمين يتطلّع الآن، بعد انتصاراته الحربية الرائعة، إلى المستقبل بثقة وإيمان يحدوه طموح لا يعرف حداً ، وولاء لهدف لا يعرف تردداً . وهذا القول لا ينطبق على حالة أعدائه الصليبيين . فإن ما تبقى في أيديهم الآن كان ينحصر في كونتيّة طرابلس وكونتية انطاكية ، وفي مملكة بيت المقدس . وكانت الصلات بينها تقوم على روابط اقطاعية غير واضحة المعالم . وكانت أرض الأعداء تضم قطعة ضيقة طولها أربع مئة ميل على محاذاة الشاطىء ووراءها كتلة اسلامية متراصة . وكانت كونتية طرابلس وانطاكية تعترف بأولوية بيت المقدس، لأنها كانت مملكة واسعة تضمّ الشاطىء من بيروت إلى العريش في سيناء . هذا فضلا عن انها كانت أغنى من حليفتيها، لوقوعها على طرق التجارة الهامة . أضف إلى هذا أن مكانة القدس ، وما يحمله هذا الاسم من معنى روحي ، لا تقلّ عن مكانة روما . وكان يحكم هذه المقاطعات الواقعة

تحت سيطرة الصليبيين اقطاعيون من الأمراء . وفي مسائل الدفاع كانوا يعتمدون على الأجراء الذين يعملون على اقطاعاتهم ، كما هي العادة في البلدان الاوروبية التي جاءوا منها . هذا إلى جانب اعتمادهم على الداوية والاسبتارية .

أما فيما يتعلق بتركيب السكان في المنطقة فقد كان الاوروبيون أقلية ضئيلة تسيطر على طبقات عديدة من السكان الأصليين : مسلمين ونصارى . وكان النصارى من الأرمن واليعاقبة في الجزء الشمالي ، والموارنة والكاثوليك (من الملكيين) والروم الارثوذكس في الجزء الأوسط من البلاد ، وفي الجنوب . ولضمان سلامتهم كان الصليبيون يعتمدون على العون الذي يقدّمه لهم الحجاج إلى بيت المقدس . ولكن الحاجّ كان يعتقد أن حجّه ينتهي بزيارة بيت المقدس ، ثم يأخذ بالتفكير في العودة إلى وطنه . فكان الحجاج كالطيور القاطعة، تمرّ مرّاً. فلا يمكن ، والحالة هذه ، أن يعتمد عليهم كعنصر في الدفاع عن الممتلكات الصليبية . ثم كان هناك جاليات من جنوى والبندقية وبيزا ولكنهم كانوا تجاراً همّهم الربح والمصالح الخاصة أولاً . وكان لهذه الجاليات أحياء معينة يقيمون فيها ، وكان لهم امتيازات يتمتعون بها . إن روح الصليبية الأولى في اوروبا ، وما كانت تنطوي عليه من مغامرة، كانت في هذا الحين قد زالت . ولم يعد الناس ينظرون اليها نظرتهم اليها في بادىء الأمر . وحلّ محلها اهتمام بامور التجارة ، ونظرة جديدة إلى الحياة . فإننا ننظر الآن إلى تلك المغامرة انها كانت مغامرة حمقاء، كما ستنظر الأجيال القادمة إلى هذا الصراع المرير بين الرأسمالية والشيوعية انه صراع على كثير من الحماقة . ومنذ البدء كانت هذه الممالك الصليبية ممالك دخيلة مصطنعة . وقد وجد الصليبيون أنفسهم انهم يتيهون في مهمه لا يعرفون له مخرجاً . وبينما كانت البلدان الاسلامية المحيطة بهم تتّحد كان الصليبيون يجدون أنفسهم ضعافاً غير متحدين .

كانت القدس تشكو من عجز في ولاتها. كانوا حكاماً من الدرجة الثانية في مؤهلاتهم . كانت طرابلس تفضلها من هذه الناحية إنما كانت تشكو من الفقر

لأنها دويلة صغيرة الحجم . وبعد أن تقاعد بلدوين الرابع (١١٨٣) عن الحكم بسبب تفاقم مرض البرص ، نشأت مشكلة خلفه . فاستولى على العرش صهره ، غي ده لوزينان ، بعد ثلاث سنوات . وكان ريموند الثالث ، أمير طرابلس ، وصياً ، وبصفته هذه ادّعى انه وارث للعرش . فعقد معاهدة مع صلاح الدين ضدّ سيّده في بيت المقدس المرتبط معه بالولاء . ويقول بعضهم انه زار صلاح الدين خصمه في دمشق واعتنق الإسلام . وهكذا بلغ التنابذ حدّه في صفوف الصليبيين ، فكان صاحب الاقطاع يثور ضدّ سيّده ويتصرف تصرّف المستقلّ ، وفي أحيان كثيرة كان الصليبيون يحالفون المسلمين ضدّ خصومهم من النصارى . وأصبحوا يشكون من العلل ذاتها التي كان يشكو منها المسلمون عند مقدم الصليبيين : الانقسام والتحاسد .

كانت قلعة الكرك مصدر ازعاج دائم . كان صاحبها الفرنسي ، ريجنالد الذي استولى عليها بسبب زواج عقده ، يعيش — في نظر المؤرخين الغربيين — عيشة الملوك في اوربا ، لا بل كان يفوقهم في بذخه وانفاقه . وقد توفر له المال عن طريق مداهمة القوافل التجارية ، وقوافل الحجاج التي كانت تمرّ قبالة أسوار قلعته فينهب أموالها . وهذا كان خرقاً للاتفاقية المعقودة مع المسلمين . ومما زاد في ثرائه أعمال القرصنة التي كان يقوم بها أسطوله من أيلة (العقبة) على شواطىء افريقيا وشواطىء الجزيرة العربية . وكان الرجل طائشاً بقدر ما كان مغامراً . وقد نزل ذات مرّة على شواطىء الحجاز بقصد تدنيس المكان .

حاول صلاح الدين اقتحام القلعة أربع مرات ، ولكن لم يوفّق إلى الاستيلاء عليها . وذات مرّة وهو يهاجم القلعة بعث أحد القواد الصليبيين بكعكة هدية لصلاح الدين بمناسبة عرسه . فما كان من السلطان إلا أن أمر بعدم التعرّض للبرج الذي كان فيه العروسان . وفي سنة ١١٨٧ وقعت قافلة فيها أخت السلطان صلاح الدين في الأسر ، ولكي يضيف ريجنالد أذية إلى أذية قال مخاطباً الأسرى : « دعوا الآن نبيّكم ينجيكم من يدي » . فأقسم

صلاح الدين ، وكان ذلك للمرة الثانية (في المرّة الأولى كان بمناسبة دخول ريجنالد أرض الحجاز) ، انه سيقطع رأس ريجنالد بيده .

وحانت ساعة المعركة الحاسمة . خرج صلاح الدين على رأس جيشه من مدينة دمشق في يوم الجمعة — وهو يوم مفضّل لدى صلاح الدين — في السادس والعشرين من حزيران سنة ١١٨٧ . وكان جيش السلطان يتألف من اثني عشر ألف فارس من دمشق والقاهرة وحلب والموصل وجميعهم كانوا من أصحاب الاقطاعات والمخصصات ، ومن ستة آلاف متطوّع معظمهم من المشاة . وكان هدف الجيش الأول مدينة طبرية . وبعد حصار دام ستة أيام استسلمت المدينة. في هذه الأثناء حشد الملك غي جيشاً قوامه ألف ومئتا فارس مدجّجين بالسلاح الثقيل ، وثلاثة آلاف وخمسمئة من الخيالة ذوي الأسلحة الخفيفة وثمانية عشر ألف رجل من المشاة . ونزل هذا الجيش عند نبع صفّورية إلى الشمال من الناصرة على الطريق المؤدي إلى طبرية . كان سلاح الفارس الصليبي يشتمل على سترة جلدية فوقها درع ، وعلى خوذة ثقيلة ، وسيف طويل ، ورمح ، وترس يتقي به . وكان يتوسط الجيشين قمة جبلية كانت فيما مضى فوهة بركان في بقعة جديبة لا ماء فيها . وكانت قرون حطّين تعلو ألفاً وسبع مئة قدم عن سطح بحيرة طبرية . وكان سقوط طبرية في أيدي المسلمين مما أغرى الصليبيين بالمبادرة بالهجوم وهو الأمر الذي كان يتمناه جيش المسلمين .

كان ريموند — اشجع القواد بينهم — بعد أن سوّى الخلاف بينه وبين غي ، يقود الجيش في المقدمة ، ولكن جاء من ينصح له ألا يقدم على مثل هذا الأمر ، بالرغم من أن زوجته كانت أسيرة في قلعة طبرية . وقد اتهمه ريجنالد بالخيانة والجبن . فصاح ريموند قائلاً : لله منكم ، لقد انتهت الحرب ، وقضي علينا ، وفقدنا البلاد . فنزلت العساكر المنهوكة القوى في مضاربها (نهار الجمعة في ٣ تموز) والخيل عطاش والفرسان ينضحون عرقاً ، والمشاة يعانون من التعب والارهاق . فقد نفد الماء ، وحال العدو بينهم وبينه على بعد خمسة أميال من

بحيرة طبرية . وكانت كتائب صغيرة من جيش المسلمين تهاجمهم على طول الطريق لازعاجهم بينما كان معظم الجيش يعدّ العدّة للفتك بهم . وكان الملك الصليبي قد نصب خيمته على تلّ يستطيع منه أن يدير المعركة . وكان معسكر الجيش منتشراً على السفح وممتداً حتى السهل . غير أن الوضع ازداد سوءاً ، فإن المسلمين أضافوا ناراً إلى نار . فانهم في صباح السبت ، وكانت أشعة الشمس تلهب أجسادهم ، أحرقوا هشيماً كان يحيط بالمعسكر ، وكان العطش قد أخذ منهم ، فاندفعت جموع غفيرة من المشاة تريد الماء بالرغم من صدور الأوامر اليهم ألا يفعلوا هذا . وكان المسلمون يراقبونهم ، فانقضوا عليهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وبموت الرماة من الجيش أصبح الفرسان عرضة لهجمات الجنود المسلمين الراكبين على الخيول العربية الخفيفة النشيطة . وما إن كبّر الجيش حتى كان الصليب الذي يحمله اسقف عكا قد سقط من يده ، فالتقطه جندي واحتفظ به غنيمة من أثمن غنائم المعركة .

ووقف أمام خيمة صلاح الدين صفّ طويل من الأسرى في مقدّمته الملك غي وريجنالد . اما ريموند فإنه هرب ، وكذلك فعل بعض الفرسان . وغيرهم نجا بالتخلّي عن دينه واعتناق الإسلام . أما الداوية والاسبتارية فلم يكن لهم سوى السيف . وكان غي يرتجف ، فأجلسه السلطان إلى جانبه وأمر له بشراب ماء الورد المثلج ، وهمس في اذنه لكي يخفف من رعدته « ان الملك لا يقتل ملكاً » . اما ريجنالد فإن صلاح الدين قتله بيده ، وتمّ له بذلك وفاءُ نذره .

كانت خسارة الصليبيين خسارة لا يمكن التعويض عنها . وإذا كانت موقعة قرون حماة حاسمة فيما يتعلّق بالاستيلاء على سورية فإن موقعة حطّين كانت حاسمة بالنسبة إلى بيت المقدس وفلسطين كلها . وظلّت حطين ، حيث ألقى السيد المسيح عظته الشهيرة على الجبل (على قول الروايات) ، أعواماً عديدة مكاناً قفراً تنتشر على وجه العراء فيه عظام وجماجم بشرية تشير إلى أفظع وقعة دموية وقعت بين النصارى والمسلمين .

ولأن مدينة القدس مدينة لها قدسيتها ارتأى صلاح الدين أن يتخطّاهما ؤثراً احتلال المدن الساحلية أولاً ، وذلك لأن حامياتها كانت قد ضعفت بسبب الجنود الذين كانوا قد ذهبوا للدفاع عن المملكة في موقعة حطين . وكان الغرض من الاستيلاء عليها منع وصول المدد من اوربا . وفي زحفه شمالاً ، وفي خلال شهرين ، سقطت جميع المدن على الشاطىء في يده باستثناء صور المدينة التي وقفت في وجه الاسكندر مدة سبعة أشهر ، وقبل ذلك وقفت في وجه الغزاة من العراق القديم . ولم تكن صور الآن لتستسلم إلى قائد عربي . وسبب مقاومتها الجريئة ، بعد أن كانت على شفا الاستسلام ، يعود إلى المدد الذي أتاها عن طريق حملة صليبية جديدة على رأسها كونراد ده مونتفرات ، القائد الذي خاض حروباً عديدة في اوربا . كان وصول هذه الحملة الجديدة سبباً في تقوية معنويات أهل صور . أضف إلى هذا أن عدد سكانها كان قد ازداد بسبب تدفّق اللاجئين اليها من المدن المجاورة .

في العشرين من شهر أيلول ظهر صلاح الدين أمام بوابات بيت المقدس ، وعرض عليها شروطاً للاستسلام . ولكن ولاة الأمر فيها رفضوها بازدراء . وبعد أيام قليلة استطاع بواسطة مجانيقه أن يثقب ثغرة في السور الشرقي ونصب رايته التي عليها النسر على جبل الزيتون . واستسلمت المدينة في ٢٩ أيلول وأخذ سكانها أسرى حرب يجب افتداؤهم . وكانت فدية الرجل عشرة دنانير ، وفدية المرأة خمسة دنانير ، والولد ديناراً . وأما الفقراء فكانت فديتهم مبلغاً معيناً تدفعه الخزينة الملكية . ومن أراد منهم أن يغادر المدينة كان يُعطي إذناً بذلك وأماناً على نفسه . وقد تصرف صلاح الدين عند استيلائه على المدينة التي تُقرن ببشارة السيد المسيح فيها ، بحلم ونبل أرفع مما تصرّف به أتباع السيد المسيح سنة ١٠٩٩ ، عندما غاصت ركبهم في الدم كما يقول مؤرخوهم . ويقول ستانلي بول « لو أن الاستيلاء على بيت المقدس كان الحقيقة الوحيدة التي نعرفها عن السلطان صلاح الدين لكانت حقيقة تكفي للدلالة على أن هذا

السلطان كان من أنبل الفاتحين وأكرمهم في عصره ، وربما في أي عصر آخر » .

واحتفاء بالنصر الذي أحرزه صلاح الدين حوّل عدداً من الأديرة والفنادق التي انشأتها الاسبتارية إلى مستشفيات ومدارس للمدينة . وأصبح دير القديسة حنّة للراهبات مدرسة تعرف بالمدرسة الصالحية ، وهي الآن مدرسة للروم الكاثوليك (الملكيين) تعلّم العلوم اللاهوتية . وكانت المدارس التي انشأها صلاح الدين مدارس دينية شبيهة بالمدارس التي انشأها في كل من القاهرة ودمشق والغرض منها تعليم الدين والشرع على مذهب السنّة .

في هذه الفترة يجب أن يكون صلاح الدين قد افضى إلى كاتبه ومؤلّف سيرته ، ابن شداد ، بما كان يجول في فكره من أمر غزو اوربا متابعة للحرب وهو ما اقتبسناه في صدر هذا الفصل [1] . لكن صلاح الدين لم يكن يعلم ما يخبّئه له القدر .

أحدث سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين فرحاً وابتهاجاً في العالم الاسلامي بقدر ما أحدث من حزن وكمد في العالم المسيحي . كان من شأنه أن يبعث الروح الصليبية في اوربا من جديد . فحمل الصليب ثلاثة ملوك من أعظم ملوك غربي اوربا : فردريك بربروسا من المانيا ، وفيليب اوغست من فرنسا ، وريتشرد (ريكاردوس) الملقب بقلب الأسد ، من انكلترا . وتمّ الاتفاق بينهم على أن يلتقوا في عكا لأنها أقرب من صور إلى فلسطين ، وموقع أفضل من غيره للقيام بهجوم على القدس . وكانت عكا في يد المسلمين ، وكان صلاح الدين يتوقّع مقدم مدد من اوربا ، فأرسل إلى مملوكه قراقوش الذي بنى له القلعة في القاهرة ليحضر إلى عكا ويقوّي حصونها ، وأقامه والياً عليها . في السابع والعشرين من شهر آب سنة ١١٨٩ خرج الملك غي ثانية للحرب بعد أن كان صلاح الدين قد أطلقه من الأسر بعد أن استحلفه ألا يعود إلى مقاتلة

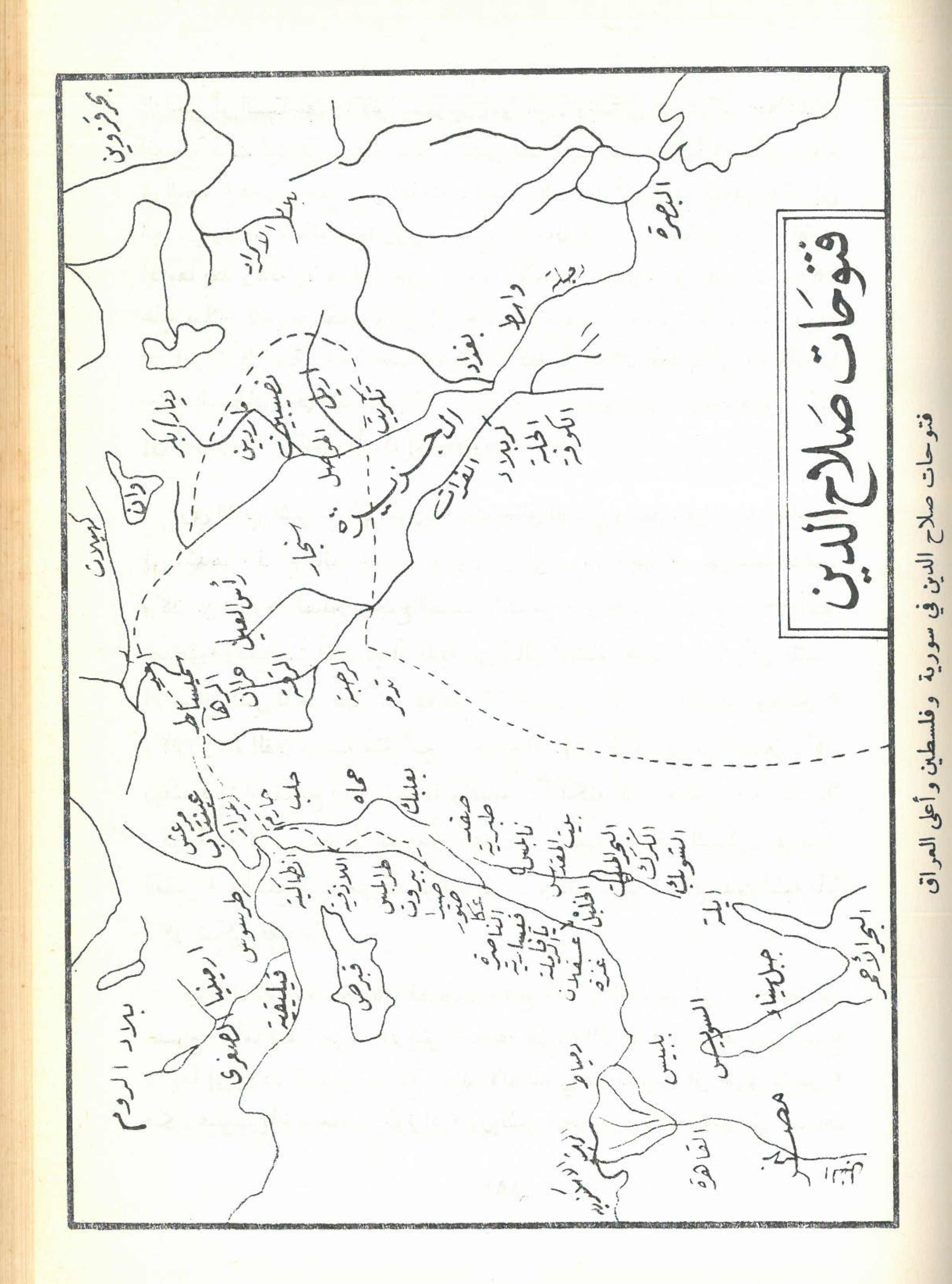
(١) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٣١٧) ص ١٧ .

المسلمين . وقد تجمّع حول غي فلول الصليبيين في المشرق ، وأصبح في الوقت ذاته قوة مركزية للوافدين منهم من بلاد الغرب ، ومعظمهم من الفرنسيين والانكليز والايطاليين. وكان بينهم جنود منهولندا وفريزيا ومن أمم أخرى. فكان عدد جيشه واحداً وعشرين ألف مقاتل . ضرب الحصار حول عكا ، وكان هناك اسطول صغير من جمهورية بيزا الايطالية لمحاصرتها من البحر . فتوجّه صلاح الدين لمساعدة المدينة المحاصرة ، ومعه أخوه العادل وابناه المظفر والأفضل . حاول صلاح الدين أن يضرب حصاراً حول المحاصرين ، ولكنه لم يفلح في فك الحصار عن عكا كما أن غي لم ينجح في الاستيلاء عليها . وعندما ترامى إلى مسمع صلاح الدين مقدم عدد كبير جداً من المحاربين الصليبيين من اوربا أرسل كاتبه ومؤلّف سيرته ، ابن شدّاد ، إلى بغداد ، ووفداً آخر إلى الموحّد ، سلطان مرّاكش ، يطلب العون منهما . ولكنهما لم يستجيبا . وكان قد سبق لصلاح الدين أن سرّح بعض جنوده وقوّاده المدرّبين على الحرب ، لأنهم كانوا قد تعبوا من القتال وسئموا خوضه. فلم يبق عنده سوى جماعات غير متجانسة : عرب من الاسكندرية إلى حلب ، وسنجار والموصل وديار بكر ، واكراد وتركان من الشرق، ومماليك من مختلف الجنسيّات. وكانهمّ مثل هؤلاء الجنود الاسلاب والغنائم . وكانت رابطة ولائهم للسلطان واهية العرى . وطال الحصار ، وبدا ان المسلمين قد فقدوا الأمل بالنصر ، وان السانحة أفلتت من يدهم . ولم يكن صلاح الدين يميل إلى إطالة الحصار ، وقد نفد صبره، وكذلك كان جيشه . ولم يكن الملك غي يثق بتعاون كونراد الخالص ، إذ انه أصبح الآن ، وبعد زواجه من ابنة أملرك الصغرى ، يطالب بالعرش على انه الوارث له .

وأول كتيبة صليبية وصلت إلى ساحة المعركة كانت بقايا الجيش الكبير الذي كان يقوده فردريك بربروسا الألماني (في شهر تشرين الأول ١١٩٠) . وكان عددهم يكاد يقارب الألف عدّاً . ذلك ان قائدهم فردريك ، وكان له

من العمر سبعون سنة ، كان قد غرق في نهر في قليقية . وكان قد آثر أن يأتي إلى فلسطين بطريق البرّ . وفي الثامن من شهر حزيران ١١٩١ وصل ريتشرد على رأس جيش من الفرسان قوامه ثمانية آلاف رجل . وكان قد سبقه قبـل ذلك بشهرين فيليب على رأس جيش صغير ، غير أن كتيبةً أكبر كانت قد سبقته إلى فلسطين . وكان لمقدم أعظم محارب في انكلترا ، وربما في أوربا ، أثر عميق في نفوس الصليبيين في فلسطين كان من شأنه أن يرفع من معنوياتهم . وراح مهندسو جيشه يعملون بنشاط فاقاموا آلات حصار ضخمة قوية لا عهد للبلاد بهـا من قبل ، وعمقوا الخنادق ، وقوّوا الأبراج . وطال الحصار قرابـة سنتين كانت تدور في أثنائها المعارك ضارية .

حول هذه المدينة الفلسطينية الصغيرة القابعة على رأس داخل في البحر إلى جهة الجنوب تجمّعت شعوب للحرب كما لم تتجمّع قبلاً في أي مـكان من الدنيا . وتعتبر معركة عكا من المعارك الكبرى في العصور الوسيطة . وأصبحت عكا في عالم الأساطير والقصص طروادة العرب ، وقد امدّت الاسطورة والروايـة التاريخية خيال الكتّاب ، فنسجوا حول التقاء أعظم بطلين ، واحد من الشرق والآخر من الغرب ، ملحمة مليئة بالأعمال العسكرية البطولية . كان ريتشرد قد نقل معه من صقلية حجراً كبيراً رمي به من منجنيق ، فقتل ثلاثـة عشر رجلا من عكا . غير أن المسلمين استولوا عليـه وأخذوه إلى صلاح الدين ليعرضه على الناس . وكان رجال ريتشرد يستطيعون ان يتسلقوا جدران السور بواسطة آلة جديدة مستحدثة سمّوها « الهرّ » . وكان لديه مجانيـق تستطيع رمي الحجارة الضخمة التي تزعزع الجدران وتحدث الهزات حيث تقع في المدينـة . ولكي يهرّب صلاح الدين طعاماً وميرة للمحاصرين في عكا لجـأ إلى استخدام بحارة من بيروت كانوا يلبسون لباس الفرنج ومعهم الخنازير . واكتشف رجل من دمشق مادة للمفرقعات فرح بها السلطان فأراد أن يكافئه ، فأبى قائلاً : إنما فعلته لله ولا أريد جزاء . وكانت وسيلة الاتصال بالمحاصرين داخل المدينة الحمام



فتوحات صلاح الدين في سورية وفلسطين وأعلى العراق

الزاجل أو السبّاحين، وكانوا يسمونهم العوّامين. ويحكى عن عوّام اسمه عيسى انه شدّ ذات ليلة على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتباً للعسكر وعام في البحر، فجرى عليه أمر أهلكه. فلما كان بعد أيام قذف البحر بجثته إلى البر. يقول ابن شدّاد «ما رؤي من ادّى الأمانة في حال حياته وقدّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل». ومن الأخبار المؤثّرة التي تظهر لنا ما كان عليه صلاح الدين من لطف ونبل إلى جانب الشدة والقسوة في الحرب ما يروونه عن امرأة فرنسية دخلت خيمته باكية شاكية من فقدان طفلتها التي احتملها جنود السلطان. فما كان منه إلا أن أمر باجراء تفتيش عنها. وبعد قليل ردّت إلى أمها وسيّر الاثنتين بأمان إلى خطوط الأعداء.

وفي الثاني عشر من شهر تموز وصلت حالة التردّي والشقاء في المدينة المحاصرة إلى اشدها، فراح قائد الحامية، ودون رضى مولاه، يفاوض على عقد الصلح. وكان من شروط الصلح ارجاع الصليب المقدس، واطلاق سراح ١٦٠٠ أسير نصراني، ودفع مئتي ألف دينار فدية عن سائر أعضاء الحامية. ولما رأى ريتشرد ان صلاح الدين تأخر شهراً عن دفع المال أمر بالأسرى فجُمعوا وقُتلوا، وكانوا زهاء ألفين وسبع مئة أسير، خارج الأسوار على مرأى من المسلمين. كان ريتشرد يشابه صلاح الدين شجاعة واقداماً لكنه كان يختلف عنه نبلاً وكرماً. وكان سقوط عكا يعتبر أعظم انتصار تاريخي للنصارى في ذلك العصر، وأشنع هزيمة مني بها المسلمون. وكان حزن صلاح الدين أشبه بأمّ ثكلى تبكي فقيدها.

في أثناء معركة عكا كان السلطان صلاح الدين والملك غي أبرز شخصين على المسرح، وأما بعد المعركة فلم يبق أحد غيرهما. ذلك أن فيليب الفرنسي أسرع راجعاً إلى بلاده. كان فيليب مع زميله الانكليزي، ريتشرد، على طرفي نقيض، فكان فيليب يأخذ جانب كونراد، وريتشرد جانب غي. وللتوفيق بين

الأطراف رضي غي أن يقيم لنفسه ملكاً في قبرس التي كان قد أخضعها ريتشرد وهو في طريقه إلى فلسطين. واما كونراد فقد انتخب ملكاً. وذات يوم وهو يتمشّى في أحد شوارع صور تقدّم منه رجل وسلّمه ما يشبه أن يكون رسالة. وفي اللحظة ذاتها انقضّ عليه رجلان وأغمد كل منهما خنجره في صدره. وكان الرجلان القاتلان من جماعة الحشاشين. غير ان اشاعات انتشرت تقول إن صلاح الدين اغتاله، وآخرون قالوا ان الملك غي اغتاله ولكن ليس هناك ما يثبت صحة الروايتين.

خاض الخصمان — الانكليز والعرب — معارك في فترات من الزمن، وفي فترات إخرى تعايشا معاً بسلام، وفي أوقات أخرى كانا يتبادلان الهدايا. ولم تسفر المعارك عن نتائج حاسمة. فإن يافا مثلاً كانت تنتقل من يد الانكليز إلى العرب، ومن يد العرب إلى الانكليز في خلال أيام. واقتنع ريتشرد ان استرداد بيت المقدس ضرب من المحال. وكان صلاح الدين قد تقدّم في السن وبعد خمس سنوات من المعارك المتواصلة بدأ يشعر بشيء من الوهن في عزيمته. وأدرك أخيراً أن الاحتفاظ بالساحل كله أمر بعيد المنال. وكان مستشاروه يشاركونه هذا الرأي. وكان الصليبيون يسيطرون على البحر. اما رجاله، فبعد سنتين من حروب متواصلة أخذوا يتململون. وثار ضدّه ابن أخ له يحكم مقاطعة في الموصل. وعندما راح ريتشرد يشدّد الضغط على صلاح الدين لعقد الصلح أخذ صلاح الدين يبدي شيئاً من عدم التصلّب. فطلب إلى أخيه العادل، الملقّب بسيف الدين، ان يقوم بدور الوسيط. وكان الملك ريتشرد قد أقام صلات مودة وتقارب بينه وبين العادل. فدعاه ذات يوم إلى خيمته وقلّد ابن العادل، الملك الكامل، امارات الفروسية ورتبتها. وتذكر المصادر الغربية أن صلاح الدين نفسه قُلّد الفروسية على يد صديق من الصليبيين، غير ان المصادر العربية لا تذكر شيئاً عن هذا الأمر. وتقدّم ريتشرد باقتراح غريب من نوعه: ان يتزوج العادل من

أخت ريتشرد ، واسمها جوان ، وتكون هدية الزوجين عكا ويافا وعسقلان والقدس . وقد قبل العادل هذا العرض غير ان السلطان صلاح الدين وامراءه ظنوا أن في الأمر مزاحاً مستهجناً . وفي الثاني من شهر ايلول سنة ١١٩٢ تم الوصول إلى توقيع معاهدة صلح لمدة ثلاث سنوات يُمنح بموجبها الملك ريتشرد كل الشاطىء من صور إلى يافا ، وتبقى داخلية البلاد تحت حكم المسلمين ، على أن لا يتعرّض أحد بأذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . وعندما ركب ريتشرد المركب في عكا قاصداً بلاده أرسل إلى صلاح الدين رسالة يقول فيها انه سيعود بعد ثلاث سنوات عند انتهاء زمن المعاهدة ليستردّ بيت المقدس إلى ممتلكات التاج . فكان جواب صلاح الدين انه إذا كان سيفقد بيت المقدس فإنه يؤثر أن يكون خصمه رجلاً كريتشرد .

وسرّح صلاح الدين جيشه . وفي اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني دخل دمشق فتلقاه الناس بالهتاف والترحاب أكثر من أي وقت مضى. وكانت أمنيته الأخيرة أن يحجّ إلى بيت الله الحرام . وكان قد أجّل اتمام فريضة الحج مراراً ، ولكن وجد الآن انه بحاجة إلى الراحة قبل ان يقدم على هذا الأمر على ما فيه من مشقّة. ولكن حتّى الملاريا لم تمهله كثيراً، وكان يعاني منها منذ زمن طويل. وفي العشرين من شهر شباط لازم فراشه . وكان أطباء ذلك العصر لا يعرفون لهذا المرض دواء ، فكانوا يعالجونه بماء الشعير . وفي الرابع من شهر آذار بينما كان الشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، وعندما انتهى إلى قوله تعالى « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة » استفاق صلاح الدين استفاقته الأخيرة وقال « صحيح » وهي آخر كلمة تلفّظ بها . توفّي وله من العمر ٥٥ سنة ، وقد وجد في خزانته دينار صوري واحد ، وسبعة وأربعون درهماً ، وهي لا تكفي لنفقات جنازته . ولم يكن عنده ملك خاص به ، وإنما بنى امبراطورية كانت تمتدّ من دجلة إلى بلاد المغرب وجنوباً إلى السودان .

عندما بدأ صلاح الدين عهد حكمه كانت المنطقة مجزّأة إلى دويلات ، وعند

وفاته عادت إلى ما كانت عليه من التجزؤ . تقاسمها ابناؤه واخوته وأبناء اخوته . ولم يمض وقت طويل حتى استعاد العادل سلطته على مصر وسورية . ومن ذرية صلاح الدين نشأت فروع أيوبية عديدة . وفي سنة ١٢٥٠ استطاع المماليك أن ينتزعوا الحكم من أسيادهم واستولوا على المنطقة كلها إلى أن انتزعها منهم العثمانيون الأتراك (١٥١٧) . وكان على الملوك الخامس منهم ، بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) ، ان ينهي المهمة التي كانت ملقاة على كاهل صلاح الدين : طرد الصليبيين ، وتحرير الأرض المقدسة . وقد بدأ بيبرس حيث انتهى سلفه صلاح الدين ، وكاد أن ينهي الحرب ضد الصليبيين باحرازه نصراً حاسماً .

— ٤ —

من حسن طالع صلاح الدين أن كان له صديقان يودّانه ويخلصان له النصح والمشورة ، وهما بهاء الدين بن شداد وعماد الدين الأصفهاني[1] ، اللذان ترك كل منهما لنا سيرة حياته مع أوسع التفاصيل . أما صاحب الاسلوب الأدبي الرفيع فكان عماد الدين . كان يهتم أولاً بالعبارة الأنيقة. وكان إلى جانب هذين الرجلين مؤرخ من الموصل، مركز الزنكية، ابن الأثير، الذي لم يكن يتملّق أو يسرف في المديح. ونحن إذا نظرنا فيما تركه لنا هؤلاء الثلاثة وغيرهم من المؤرخين عن سيرة صلاح الدين فاننا لا نستطيع أن ننفذ إلى حياة السلطان الخاصة . في الواقع أن مسكنه كان « الخيام » على حدّ قول العاضد في منشوره الذي أشرنا اليه . ولا نعرف له زوجة سوى أرملة نور الدين التي تزوجها سنة ١١٧٦ . غير انه كان له سبعة عشر ولداً وابنة صغيرة. والصورة التي تركها لنا مؤرخو حياته

(١) الفتح القسي في الفتح القدسي ، طبعة كارلو دي لاندبرغ (ليدن ١٨٨٨) .

تشير إلى انه كان معتدل القامة ، ذا بشرة مشرقة ، وذا ملامح ناعمة . وكان يخفف لحيته ، ويلبس ثوباً ذا كمّين طويلين وعمة من القماش الثمين ، ويتقلّد خنجراً مطعّماً بالجواهر . وقد هجاه شاعر دمشقي ، يبدو انه لم يرض عن عطائه ، فقال ما مؤدّاه انه كان أعرج ، وكاتبه أحول ، ووزيره أحمق . وكان صلاح الدين على خلق كريم . كان دمثاً ، لطيفاً ، متواضعاً ، غير نهم . ولا يذكر لنا المؤرخون انه كان يغضب ، أو يثور ، أو يفقد توازنه . وكان يجمع بين المقدرة والعفو عند المقدرة . وإذا حاولنا أن نجد كلمة واحدة تصف خلقه فإننا لا نعرف كلمة أفضل من كلمة المروءة . ولكن قد يسأل بعضهم : كيف توفّق بين مروءته وبين قتله الداوية والاسبتارية ، وماذا تقول عن اصدار الأمر لابنه بقتل الصوفي الشهير السُّهْرَوردي في حلب ؟ فصلاح الدين كان ينظر إلى الداوية والاسبتارية انهم يجسّدون روح الصليبية التي كانت ترمي إلى القضاء على الإسلام كدين ، وهو من المخلصين لاسلامهم . وبقتله السهروردي قتل مسلماً خرج على الإسلام وانشقّ عنه . ويبدو أن تسامحه لم يكن يشمل أية قضية لها مساس بالاسلام .

تكرّم دانتي ، الشاعر الايطالي ، ووضع صلاح الدين في كتابه الجحيم في موطن الاهمال والنسيان ، وهو الموطن الذي تسكنه الأرواح التي اقترفت ذنباً لا يد لها فيه . وكان من حق دانتي الكاثوليكي أن يضع صلاح الدين في مرتبة أشدّ حرارة من المرتبة التي وضعه فيها . وصوّر لنا ولتر سكوت ، وهو من الروائيين المحدثين ، نبل صلاح الدين وكرمه وعدله ، ولكنه ، في روايته هذه ، يزوّجه أخت ريتشرد وهو خطأ تاريخي . وقبل سكوت راح شاعر الماني يتغنى بخلق القائد العربي وبنبل عواطفه في تمثيليته « ناثان الحكيم » وهي أقرب إلى أن تكون عظة في وجوب التسامح والتعاطف الديني بين البشر . وهكذا تختلف الأحكام الصادرة بحق هذا الرجل العظيم .

كان صلاح الدين مثال الفروسية العربية ، وناصر السنّة ، وزعيمها الأكبر ، وقاهر الخلافة التي اعتبرها منشقّة عن السنّة ، وموحّد القطرين المصري والسوري ، وخاضد شوكة الصليبيين في الأرض المقدّسة ، وصاحب الاسم الخالد في التاريخ العربي ، بطل لا ينازعه في البطولة منازع .

الكتابُ الثاني

في

ميْدانِ الفِكْرْ

الغَزاليّ

أعظم عالم ديني في الإسلام

ولم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق.. واتوغل في كل مظلمة ... واستكشف أسرار مذهب كل طائفة .. لا اغادر باطنياً إلا واحب أن اطـّلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلـّماً إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطـّلا إلا واتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأتـه في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى ادراك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي لا باختياري وحيلتي .

الغزالي

لم يكن جميع الذين صنعوا التاريـخ العربي – أو أيّ تاريخ آخر – فقط

أناساً عملوا بأيديهم ، وبقوة سلاحهم ، فخاضوا المعارك ، وبنوا الامبراطوريات ، وانشأوا الممالك ، بل كان بينهم أصحاب الفكر : علماء دين ، وفلاسفة وأدباء . وسواء أكانوا من أصحاب السيف أو أصحاب القلم ، فإنهم كانوا من نتاج الحركات السياسية والاجتماعية والفكرية أو الروحية . واعتلوا قمم أمواج هذه الحركات لتوجيه سيرها أو تعديله . كان مجرى التاريخ وتياره يؤثّران في القادة ، والقادة بدورهم يؤثّرون في تحديد مجرى التاريخ . وبدراستنا العالم الديني ، الغزالي ، نكون قد انتقلنا إلى بحث الفئة الثانية من صانعي التاريخ : أصحاب الفكر .

ان العالم الاسلامي الذي وجد الغزالي نفسه فيه كان عالماً مضطرباً قلقاً في قطاعيه : قطاع أصحاب السيف ، وقطاع أصحاب الفكر . كان العالم الاسلامي ، سياسياً ، مجزّأً بين الخلافة الأموية في الأندلس ، والخلافة الفاطمية في شمالي افريقيا ، والخلافة العباسية في بغداد . أما خلفاء بغداد فكانوا حكاماً بالاسم لا بالفعل . وقبل ان يولد الغزالي بثلاثة أعوام كانت بغداد قد سقطت في أيدي السلاجقة الأتراك الذين كانوا في بادىء أمرهم بدواً رحّلاً في أواسط آسيا ، ثم اجتاحت جموعهم الجزء الشرقي من الامبراطورية الاسلامية . وأخيراً أفلحوا في تأسيس سلطنة لهم في بغداد . وقبْل عهد السلاجقة كان البويهيّون ، وهم من نبلاء الفرس ، يدّعون النسب بكسرى ، وقد حكموا بغداد قرابة قرن من الزمن . وكان السلاجقة من السنّة ، بينما كان البويهيون من الشيعة . وفي كلا العهدين ظلّ الخليفة العباسي خليفة يعترفون بمقامه الديني . وفي هذا الحين كانت جماعة من الدخلاء الغرباء تقتطع أجزاء من ممتلكات السلاجقة ومن ممتلكات الخليفة العباسي في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين . ذلك أن العصر الذهبي للدولة العربية كان قد ولّى . وولى الزمن الذي كانت فيه كلمة تخرج من فم أحد خلفائه تصبح قانوناً وشرعاً من اواسط آسيا إلى جنوبي غربي اوربا . وأصبح ملك الخليفة عمر بن الخطاب الذي بناه على خرائب مملكة فارس ومملكة الروم خبراً من أخبار التاريخ البعيد . ولكن النسيان لم يكن بعد قد نسج خيوطه على جلال بغداد وعلى

عظمتها التي كانت تتمتع بها منذ قرن ونصف قرن في عهد المأمون .

كان الجانب الروحي للعصر الذي عاش فيه الغزالي كالجانب السياسي مضطرباً قلقاً . وكان أبرز الناس في هذا الحقل الفكري علماء الدين ، والفقهاء الذين كانوا ينتمون إلى مدارس مختلفة ، منها المحافظة التي كانت تقنع بالقرآن الكريم وبالحديث ، ومنها العصرية المتقدّمة التي كان أصحابها لا يرون ضيراً في الاقتباس والأخذ عن المذاهب الفلسفية والعقلانية ، واضافتها إلى العلوم الدينية القائمة ، وهؤلاء هم المتكلّمون . وكان المعتزلة الذين كان يرعاهم المأمون قد سبقوا المتكلمين في الأخذ عن الفلسفة الاغريقية والمنطق الارسطوطاليسي لدعم حججهم . غير ان المعتزلة كانت لهم ميول فاطمية ، بينما كان المتكلمون من السنّيين . وازاء المتكلمين كان هناك الشيعة الباطنية الذين كانوا يرون أن للنصوص الدينية تفسيراً باطنياً أشرنا اليه عند كلامنا عن الاسماعيلية . ومقابل الباطنية كانت الفرقة التي تُعرف بالظاهرية ، والتي تقول بالتفسير الحرفي للنصوص الدينية .

وكانت الصوفية تمثل مذهباً فكرياً يختلف في نظرته إلى الدين اختلافاً كلياً عن نظرة المذاهب الآنفة الذكر . وكانت الصوفية في نشأتها حركة تقشّفية زهدية ، ثمّ صارت باطنية تؤمن بأن معرفة الله الحقيقية تتأتّى لطالب الحقيقة بواسطة نور داخلي ، لا بواسطة العقل ، أو بقبول السنّة . وكانت هناك فئة أخيرة هي فئة الفلاسفة من أتباع الفلسفة الافلاطونية المستحدثة . ولم يكن هؤلاء في حاجة إلى معرفة اللغة اليونانية ، لأن كتب الفلسفة كان قد ترجمها حنين بن اسحاق في عهد المأمون . هذه الفئات الثلاث كانت تتجاذب الفكر الاسلامي في الوقت الذي عاش فيه الغزالي ، موضوع بحثنا .

في هذا الجوّ المضطرب سياسياً وفكرياً تبرز على المسرح شخصية الغزالي . في بادىء الأمر تظهر شخصية يكتنفها الضباب ، وعلى كثير من القلق الداخلي . ثم لا يلبث الغزالي طويلاً حتى يخرج إلى النور ، فتبرز لنا القضايا ذات الصلة

الوثيقة بمختلف ميادين النشاط الفكري ، والمتولـّدة من تشابك تلك الميادين وتفاعلها . ان الحياة الفكرية المضطربة التي عاشها الغزالي في البداية واختباره الروحي يجعلان هـذا الرجل المسلم الساعي إلى معرفة الله من أمتع الشخصيات في تاريخ الفكر الديني . ولقد كانت حياته ومؤلفاتـه موضع درس في الغرب أكثر من أي شخص عربي آخر باستثناء النبي محمد . فقـد اعتبره مبشر اميركي أقرب رجل مسلم إلى المسيحية . وكان هذا المبشر يقترح أن تدرّس كتبه في المدارس كي تهدي المسلمين إلى السيد المسيح . ومستشرق غربي آخر هو دنكن ماكدونلد يصفه بأنه « أعظم ، وعلى وجه التأكيد ، أحبّ شخصية في التاريخ الاسلامي » . ويشاركه هذا الرأي المؤرخ الألماني الذي أرّخ للفلسفة العربية ، وهو ت. ج. دي بور . وكان ظهور الغزالي في الوقت المناسب .

— ١ —

ولد أبو حامد محمد الغزالي سنة ١٠٥٨ في طوس ، بخراسان على مقربـة من مشهد . هذه البلدة الصغيرة في الشمال الشرقي من بلاد فارس ، والتي هي الآن خرائب ، كانت فيما مضى بلدة حسنة الازدهار ، غنية بالماء والأشجار والمعادن في الجبال القريبة منها . وكانت هذه البلدة تفاخر أيضاً انها كانت مسقط رأس الشاعر الشهير الفردوسي ، والوزير نظام الملك الذي كان يرعى الغزالي ويتعهده. وبسبب ثورة نشبت (١٣٨٩) في المدينة ضد الفاتـح المغولي تيمور ، الملقب بأمير التخريب والهدم ، هدّمت المدينة ولم يُعَد بناؤها بعد ذلك . وحُوّلت المياه فيها إلى البلدة المجاورة ، مشهد ، المدينة الشيعية المقدّسة التي أخـذت تحتل محلّ طوس .

كان والد الغزالي يشتغل بغزل الصوف ، كما كان يفعل جـده أيضاً ، ولذا لقـّب صاحبنا بالغزالي . ومنهم من يقول انه الغزالي (دون تشديد) نسبة إلى قرية صغيرة تسمّى غزالة . وكان له عم من العلماء يلقـّب بأبي حامـد ، وهو

اللقب الذي يُعرف به الغزالي . وإذ كان والد الغزالي رجلاً فقيراً أميّاً ورعاً ، فقد كان يتضرع إلى الله أن يشب ولده فقيهاً . غير انه لم يعش ليرى ان الله سمع له فاستجاب . وكان لوالد الغزالي ولد آخر اسمه أحمد . وكان أحمد صوفيـاً واعظاً مؤثراً حتى قيل فيه ان « خشب المنبر كان يهتز » في أثناء وعظه عن هول يوم الحشر للخطاة والأثمة .

توفـّي أبوه وهو لا يزال صغير السن ، فأوصى بـه صديقاً من المتصوّفة ليتعهده ويربيه . فبعث به إلى مدرسة طوس . ولأنه كان صوفيـاً ارتأى أن يتعلـّم الولد بعض العقائد الصوفية إلى جانب المعارف الابتدائيـة التي كانت تعلـّم في المدارس . ثم درس أبو حامد في جرجان على بعد مئتين وخمسين ميلاً إلى الجزء الجنوبي الشرقي من بحر قزوين . وكانت الرحلة في طلب العلم أمراً مألوفاً لدى كل من كانت تتوق نفسه إلى المعرفة . كان طالب العـلم يلتحق بقافلة ويبيت في مسجد ، حيث يأكل ويشرب دون مقابل ، إلى أن يصل الى غايته . ولكن أبا حامد لم يكن قد بلغ العشرين من العمر ، وقـد كتب فيما بعد يقول انه « طلب العلم لغير الله فأبى العلم إلا أن يكون لله » . وفي طريق عودته باغتته جماعة من اللصوص ، فجردوه مما كان معه ، وانتزعوا المخلاة التي كانت تحوي كتبه وأوراقـه ومذكراتـه . فتوسّل إلى رئيسها أن يردّ اليه تعليقته . فما كان من رئيس العصابة إلا أن قال له بازدراء : وما نفع المعرفة إذا كانت مدوّنة في دفاتر حتى إذا ضاع الدفتر ضاعت المعرفة معه ؟ وقد انتفع الفتى أبو حامـد من سخرية الرجل فوطـّد العزم منـذ ذلك الحين أن يستظهر ما يتعلمه فلا يجرّده أحد من علمه .

ثم انتقل إلى نيسابور ليستكمل درسه ، وكانت نيسابور ، عاصمة الولاية ، على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب الغربي من طوس . وهنا تعرّف إلى أعظم عالم في البلاد : الجُوَيْني الذي مال اليه . وكان هذا العالم الديني قد درّس في مكة والمدينة فلقـّب بإمام الحرمين . ولم يلبث ان زاد إلى شهرته شهرة بكونه الشيخ الذي أخذ عنه الغزالي . وكان الجُوَيْني متكلـّماً يدرّس علوم الدين في المدرسة

النظاميّة التي أسسها نظام الملك . وكان لهذه المدارس النظامية أوقاف غنية ، فكان طلابها يتعلمون ، ويأكلون ، ويسكنون فيها دون مقابل . وقد قضى أبو حامد في هذه المدرسة ثماني سنوات (١٠٧٧ – ١٠٨٥) يدرس علم الدين والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية . ولم يكن تَعَلّمُ لغةٍ أجنبية من مناهج التدريس في ذلك العهد . ولكن الغزالي كان مزدوج اللسان، شأنه في ذلك شأن كثير من العلماء . فإنه كان يتكلّم الفارسية في بيته وفي حياته اليومية، ولكنه كان يفكّر ويؤلّف بالعربية « لغة الملائكة » عند المسلمين في كل قطر . وفي أثناء تحصيله كان يعلّم مساعداً لشيخه الجُويني، وبعد ذلك كان يعلّم مستقلاً. وكأستاذ برهن على سرعة الخاطر ، وحسن النكتة ، ودقة الملاحظة في معالجته القضايا الدينية والفلسفية ، وتفسيرها للطلاب . ويبدو ان الغزالي كان يدرك مبلغ قدرته وتفوّقه الفكري فحرص على أن يكون في المستوى الذي يليق بقدره . كان الجُويني شيخ الغزالي ، أولاً يفاخر بنبوغ تلميذه وتفوّقه ، حتى انه قال عنه مرّة انه بحر مغرق . ولكن لم يطل الوقت حتى أخذ الحسد منه مأخذاً . وعندما راح الغزالي يقدّم للجويني أول كتاب ألّفه ، قال له : دفنتني وأنا حي ، هلا صبرت حتى أموت ؟ فإن كتابك غطى على كتابي . شعر أبو حامد عندها أن الوقت قد حان ليغادر نيسابور . فتوجه إلى بغداد حيث كانت هناك حلقة تضمّ جماعة بارزة من علماء وأدباء يرعاهم نظام الملك ، العالم الكبير وزير الدولة السلجوقية . وكانت شهرة الشاب الذي كان في السابعة والعشرين من عمره قد سبقته إلى بغداد ، فتلقاه علماؤها بالترحاب والاكرام . وكان نظام الملك قد بلغ إذ ذاك الذروة في العزّة والمكانة في بلاط السلجوقيين ، فكان مَلِكاً بكل ما في الكلمة من معنى ولكن كان ملكاً دون تاج . بدأ يترقى في المناصب في عهد آلِب ارسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) السلطان السلجوقي الثاني . وما إن تُوفي السلطان حتى كان نظام الملك يتولّى زمام ابنه، ووارث عرشه ملك شاه ، الذي كان بعد فتى في الثامنة عشرة من عمره . وكان نظام الملك أفضل من يمثل أحسن ما في الثقافة والحضارة الفارسية في بلاط كان همّه

الأول الحرب ، لا العلم والثقافة . فأغدق العطاء على علماء الدين والشعراء ورفع من قدرهم . وأكثر من بناء التكايا والزوايا . وأوعز باصلاح التقويم . وأهم من هذه جميعها بناء المدارس التي عُرفت باسمه : النظامية . وقد أنشأ منها تسع مدارس في مدن العراق وبلاد فارس الرئيسية . وكانت هذه المدارس نموذجاً للمدارس والمعاهد التربوية التي أسست فيما بعد ، وذلك بوقف الأوقاف لها ، وتوفير الرواتب للمعلمين فيها ، والمأوى والطعام لطلابها . وبايعاز منه طلب ملك شاه عقد مؤتمر للفلكيين حضره الشاعر والرياضي المشهور عمر الخيام ، ليبحثوا أمر تعديل التقويم الفارسي لكي يستقيم مع الأرصاد التي كانت تقوم بها المراصد الفلكية . ونذكر بالمناسبة انه في سنة ١٠٩١ استولى الحشاشون على قلعة أَلَمُوت. وكان نظام الملك من أشد أعدائهم اضطهاداً وتعقباً. غير ان واحداً منهم ، في السنة التالية ، جاء متنكراً بزي صوفي وطعنه بخنجره فقتله . ويذكر ابن خلكان في سيرته هذين البيتين :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة   نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها   فردّها غيرة منه إلى الصدف

بعد مقدمه إلى بغداد بستة أعوام تولى الغزالي تدريس علوم الدين في المدرسة النظامية . وقد ظلّ في هذا المنصب أربع سنوات . ولم يلبث طويلاً حتى بزّ اقرانه من المدرسين، وانتشر خبره خارج قاعة التدريس حيث كان يجتمع قرابة ثلاث مئة مستمع لدروسه . حتى إن مؤسس دولة المرابطين في مراكش واسبانيا سمع به ، فبعث يستشيره في أمر شرعي . ولكن الشهرة والمكانة لم تكن لتشبع ما في نفسه من تعطش . فإنه كان قد بدأ – وهو لا يزال في نيسابور – يشعر بشيء من عدم الرضى روحياً وفكرياً . فإنه في هذه الحالة كان يشبه ديكارت ، أبا الفلسفة الاوربية الحديثة ، بمعنى أن النصّ ، وأن السلطة العليا ، لم يعد لهما في نفسه قبول أو رضى . فكان فضوله العقلي يطوّف به في شعاب العلوم الدينية والفلسفية في ذلك العصر ، كما أشار إلى

ذلك في الفقرة التي توّجنا بها هذا الفصل (١) . ولكن اطلاعه على جميع فروع المعرفة –علم الكلام، والفقه والفلسفة والصوفية– لم يكن ليشبع ما في نفسه، فولّد هذا الفحص الذي قام به عن عقائد الفرق شكّاً. وكان أول الشك عنده انحلال رابطة التقليد في العقيدة . وربما كان التناقض البادي بين تصرّف زملائه وبين تعليمهم من الأسباب التي خلقت في نفسه الشك. وكان هذا العذاب الروحي والجسدي الذي كان يعانيه سبباً في تدهور حالته الصحية . فتخلى عن منصبه وحوّل بصره عن المكانة الرفيعة التي كان يحتلها في بغداد واتجه ببصره إلى العزلة والتأمّل . وحلّ أخوه أحمد محله في التعليم . قصد الغزالي دمشق وكان واليها سلجوقياً . فدخلها بزيّ درويش سنة ١٠٩٥ ، وجعل يعكف في زاوية من منارة الجامع الأموي . ويقول لنا في كتابه المنقذ من الضلال : « اصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي » . وكان يتقلّل في مطعمه ومشربه ، ويلبس الخشن من الثياب ، ويتوكأ على عكاز ، حاملاً جراباً يتدلّى من على كتفه وفيه بعض الزاد والمتاع . وعن طريق الحرمان ، وقهر النفس ، والتأمل ، والصلوات، كان يسعى للحصول على الراحة النفسية التي لم توفّرها له شهرته ، ولا ماله ، ولا أصدقاؤه . ويقول لنا مؤرخ انه كان يكسب بعض قوته بنسخ الكتب . وقد يكون الصحيح في هذه الرواية انه كان يبيع نسخاً من كتابه الذي شرع في تأليفه : احياء علوم الدين ، وهو أحسن كتبه . ويُستشفّ من عنوان الكتاب ان الذي سيحيي علوم الدين ويجدّدها هو الغزالي نفسه ، وذلك بحسب حديث متواتر ان الله وعد المؤمنين بارسال « مجدّد » عند مطلع كل قرن . وكان القرن الخامس قد أشرف على الزوال ، والسادس على وشك الابتداء . وفي سنة ١٩٦١ عقد مؤتمر دولي في المدينة التي أقام فيها الغزالي أول سنتين من اعتكافه وذلك احياء لذكراه .

وفي غضون سنة ١٠٩٩ شعر بحنين إلى الأهل والوطن فقطع عزلته وعاد

(١) الغزالي : المنقذ من الضلال ، نشر عبد الحليم محمود (دمشق ١٣٨٥) ص٧٠ - ٧٠.

إلى أهله ليقضي معهم بعض الوقت . وقبل مغادرته المكان عهد إلى صديق له أن يرعى شؤون أهله وسلّمه ما كان لديه من مال . أما إذا كان عنده زوجة أو زوجتان فأمر اغفل ذكره المؤرخون . وبعد وفاته نسمع ببنات له ولكن لا نسمع بأبناء . وكان للغزالي أخ واحد وعدد من الأخوات .

ومن المسجد الأموي في دمشق توجه الدرويش إلى قبة الصخرة في بيت المقدس، التي وقعت بعد ذلك الحين بوقت قصير في أيدي الصليبيين. ومن بيت المقدس توجه لزيارة الخليل وأماكن أخرى مقدسة عند المسلمين واليهود. وكانت خاتمة تطوافه الحجّ إلى مكة المكرمة والمدينة المنوّرة . وقد حجّ متنكّراً ولكن تنكّره لم يحل دون بعض الناس وبعض العلماء من معرفة حقيقته . فلقد ذكر لنا أكثر من واحد منهم أنه لقيه في الحجّ . تقول رواية انه عندما كان في احدى المدارس التابعة لمسجد سمع شيخاً يذكر اسمه . فما كان منه إلا أن أدار ظهره وخرج حالاً خوفاً من ان يملأ الشيطان قلبه بالخيلاء والغطرسة . وبحسب رواية ابن خلكان انه زار الاسكندرية وانه كان قصد منها ركوب البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش الذي كان قد كتب له . غير ان يوسف توفي قبل هذا الحين بزمن قصير . وإذا كانت رواية ابن خلكان صحيحة فإن ذلك يجب أن يكون في سنة ١١٠٦ . غير أننا نعلم ان الغزالي ، في هذه السنة ، كان يدرّس العلوم الدينية في المدرسة النظامية في نيسابور . وكان قد قبل بهذا المنصب نزولاً عند طلب ابن نظام الملك الذي أصبح وزيراً في خراسان . وبالإضافة إلى إلحاح ابن نظام الملك في قبول المنصب جاءه بعض اصدقائه يطلبون اليه أن يقبل بالمنصب اعتقاداً منهم ان الغزالي هو الذي سيحيي علوم الدين في القرن السادس . وكانوا يحاولون اقناعه بأن القيام بهذه المهمة – احياء الإسلام – لا يتمّ بالخلوة والعزلة .

وبعد انقضاء عشرة أعوام (١٠٩٥ – ١١٠٥) قضاها في غربة روحية عاد الغزالي فظهر رجلاً معافى في جسمه ، متماسكاً في شخصيته . وقبل منصباً في

التدريس في عاصمة الولاية التي يسكنها يشبه المنصب الذي احتله يوماً في عاصمة الدولة . ويقول عن هذا التحول في كتابه المنقذ من الضلال : « لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف » . إلى أن يقول : « فمن ظن ان الكشف موقوف على الأدلة المحرّرة فقد ضيّق رحمة الله الواسعة » .

وقد أصبح لديه الآن كتاب يملي منه في تعليمه وهو كتاب احياء علوم الدين. ولكن لم يطل الوقت حتى أدرك ان فلسفته الدينية الجديدة ونظرته الجديدة إلى الحياة لا يمكن ممارستها ونقلها إلى الآخرين بواسطة الدروس ، وفي قاعات مزدحمة ، وفي مدارس رسمية . ولم يكن الجوّ الفكري الروحي في نيسابور ليختلف كثيراً عن الجوّ الفكري الروحي في بغداد . كان جوّاً لا تنسجم معه روحه . وربما كان اغتيال مولاه الجديد على يد رجل من الحشاشين الذين قتلوا أباه سبباً في يأسه وقنوطه . فعاد يحنّ إلى الخلوة والعزلة .

وظن ان مسقط رأسه مكان قد يوفّر له هذا الجوّ الحميم الهادىء الذي تطلبه نفسه . وفي طوس انشأ زاوية (في الفارسية خانقاه) ومدرسة تابعة لها ، يعلّم فيها الطلاب الصوفية ، ويسترسل في التأمل الذي كانت نفسه تميل إلى الاسترسال فيه . ولكن الزمان بخل عليه ، ففي الثامن عشر من شهر كانون الأول سنة ١١١١ استردّ الله لؤلؤة نفيسة أخرى صاغها الرحمن ولم يعرف البشر قيمتها .

كان الغزالي كاتباً غزير الإنتاج بقدر ما كان مفكراً عميق التفكير . في سنة ١٩٦١ نشر أديب مصري ثبتاً بأربع مئة وسبعة وخمسين كتاباً يُعزى تأليفها له . منها تسعة وستون كتاباً من تأليفه على وجه التأكيد . وأما الباقي منها فمشكوك فيه ، وبعضها غير موجود أو منحول ، أو قد يكون للواحد منها أكثر من عنوان واحد ، فيُظن انها عدة من الكتب ، وبعضها الآخر كناية عن مقالات موجزة . ونكاد لا نعرف فرعاً من فروع العلوم الانسانية لم يتطرّق إلى

معالجته . وكان نظم الشعر سمة تـميّز الرجل الأديب المثقّف في تلك الأيام ، وكان الغزالي يقرض الشعر وله ديوان فيه . وكثيراً ما كان يزيّن نثره بشعر من نظمه . ويقرن الشعر بالموسيقى ، وعلماء الدين يقطّبون الجبين عند ذكر الموسيقى أو عند سماعها . أما الغزالي فكان يجيزها ، كما انه كان يجيز الغناء والرقص ، وذلك اذكاء للشعور الديني . وهذه الفنون الجمالية أصبحت جزءاً من شعائر الصوفية .

ان كتاب احياء علوم الدين ، وهو الكتاب الثامن والعشرون من حيث سنة تأليفه ، أضخم تآليفه وأعظمها قدراً . يتناول في القسم الأول من هذا الكتاب المعرفة والعقائد الاسلامية . ثم يتناول بعد ذلك ، في القسم الثاني ، العبادات كالصلاة والزكاة . وفي القسم الثالث يتناول الرذائل بما في ذلك الشهوة والغضب والطمع والكبرياء . وفي الجزء الأخير يتناول الفضائل كما تتمثل في الصبر والتوبة والورع والتقشف والرحمة والاخلاص والانقطاع إلى التأمل. وقد احتلّ الكتاب في وقت مبكر محله بين الكتب الإسلامية الكلاسيكية ،وأصبح لدى المسلمين ككتاب توما الاكويني في « خلاصة علوم الدين » عند النصارى . يقول فقيه من القرن الثالث عشر إن كتاب احياء علوم الدين يكاد يقترب من منزلة القرآن. ويقول مؤرخ آخر من ذلك القرن انه لو أتلفت جميع الكتب التي ألفت عن الإسلام ، وسلم منها كتاب احياء علوم الدين لاستعاض الناس به عن فقدانها . وقد طبع منه في مصر حوالي عشرين طبعة ، كما انه لا يزال في القاهرة حلقات تجتمع مرّة في الاسبوع لتدارس هذا الكتاب .

خذْ أيّ كتاب من كتب الغزالي واقرأ فيه تشعر فوراً انك في جوّ فكري يختلف الاختلاف كله عن الجوّ الذي يخيم على التآليف اللاهوتية حيث يعتبر الإطناب والكلام المنمّق بديلاً عن الفكر ، وحيث يبدو كثير مما يُعالج فيها تافهاً لا قيمة له . كثير من كتب اللاهوت (علم الدين) تبدو كلاماً ينتقل من فم القائل أو قلمه إلى أذن السامع أو عين القارىء دون أن تنفذ إلى العقل . وعلى

نقيض هذا تأليف الغزالي فإنك تشعر أن كل صفحة يدونها تفيض حياة ونشاطاً فكرياً . اسلوبه سهل واضح ، واما فكره فرصين عميق . ويلجأ الغزالي إلى ضرب المثل وايراد القصة ، فهو من هذه الناحية يذكرنا بالسيد المسيح . فالزارع والكرّام والعامل والفقير والغني وغيرهم ممن نلقاهم في كل يوم يردون في القصص والأمثال . فنقرأ مثلاً أن : خادع نفسه كزارع يقنع باقتطاع الأعشاب دون أن يقتلع الجذور لينقي تربته . ويطلب الغزالي من الخامل الكسول ، أن ينظر إلى النحلة تعمل بجد واجتهاد وتعقّل . تجمع الرحيق من ألطف الأزهار وتبني قرصاً من الشمع مسدّس الأضلاع لا مربعها ، ذلك لأن زوايا المربع تضيّع على النحلة بعض السعة . تعلّمْ من أمانة الكلب وولائه لصاحبه ، فإنه يحرم نفسه النوم ليحرس صاحبه ، وإذا لزم الأمر ضحّى بحياته من أجله . وكثيراً ما يشير أو يستشهد بلعبة الشطرنج مما يدل على انها كانت لعبة يؤثرها . وراكبو الجياد ينبغي لهم ان يترجّلوا مرتين في اليوم كي يريحوا جيادهم من عناء الطريق .

وللمؤلف كتاب آخر جئنا على ذكره آنفاً : المنقذ من الضلال . وهو كتاب صغير الحجم جليل القدر . في الكتاب سيرة حياة الغزالي يكتبها بنفسه ، وفيه اعتراف بما لقيه من القلق الروحي والاضطراب الفكري مما يجعله كتاباً فريداً من نوعه في الأدب العربي . في الكتاب ما يذكرنا بكتاب القديس اوغسطين : « اعترافات » . ذلك ان اوغسطين مرّ في الاختبار الروحي ذاته الذي مرّ فيه الغزالي ، من حيث الضلال في مهامه الفكر الديني قبل ان يتقبل المسيحية عن ايمان ويقين ، وأصبح فيما بعد من أشهر آباء الكنيسة اللاتينيين . كتب الغزالي كتابه المنقذ بعد ان كان قد تقدّم في السن ، وفيه يخبرنا عن مراحل الشك والنقد الذاتي التي يمرّ فيها الساعي إلى معرفة الحقيقة وكيف يهتدي أخيراً بسلوكه حياة الزهد .

في الفقرة المقتبسة من كتاب المنقذ من الضلال التي توّجنا بها هذا الفصل نلحظ في الغزالي انفتاح الفكر المتحرر الذي دفعه ليدرس المذاهب الفكرية

السائدة في عصره لا لينتقدها فحسب ، وإنما ليتفهّم أسباب شيوعها وتقبّلها لدى الناس ، ولكي يرى إذا كان فيها شيء ينتفع به . وقد دفع به فضوله العقلي إلى النظر في اليهودية والمسيحية . ففي كتاب احياء علوم الدين يتكلم عن أخبار داود النبي وعن التوراة والزبور (المزامير) . ومعلوم ان شخصيات يهودية عديدة يرد خبرها في القرآن الكريم. كذلك يرد اسم عيسى (يسوع) في القرآن الكريم . ولا شك في ان الغزالي كان لديه ترجمة عربية للأناجيل الأربعة ولرسائل بولس الرسول . يبدو هنا ، كما هي الحال بالنسبة لمعرفته لليهودية ، أن مصادر عدة من مصادره كانت من الكتب المعروفة بالأبوكريفا. «قال عيسى بن مريم ، عليه الصلاة والسلام » هي عبارته المفضّلة التي يبدأ بها الاقتباس من أقوال السيد المسيح . وأكثر هذه الاقتباسات نجدها في الربع الأول من كتاب احياء العلوم . وفي معالجته الأخلاق والسلوك في كتابه ايها الولد يقول: « إني رأيت في انجيل عيسى ، عليه الصلاة السلام : من ساعة ان يوضع الميت على الجنازة إلى أن يوضع على شفير القبر يسأل الله بعظمته منه أربعين سؤالاً » . ان نظرة الغزالي إلى الأخلاق وحسن السلوك ترفعه إلى أعلى مراتب التعليم في الإسلام .

في عصر الغزالي بلغت حدّة الخصام بين الدين والفلسفة درجة من التوتّر لم تبلغه من قبل . والدين والفلسفة عدوان طبيعيان ، لأن الدين يعتمد الوحي ، والفلسفة تعتمد العقل . في كتاب للغزالي عنوانه مقاصد الفلاسفة كان قد ألفه في وقت سابق ، يحاول عرض أفكار الفلاسفة كما فهمها هو من قراءته ترجمات أصيلة لكتب الفلسفة ، ومن دراسته لما كتبه الفارابي (توفي ٩٥٠) وابن سينا (توفي ١٠٣٧) . وكان كلاهما من انصار الفلسفة الافلاطونية المستحدثة ، وقد جاء على ذكرهما في كتابه الثاني عن الفلاسفة . وأول عهد له بالفلسفة الاغريقية كان وهو بعد طالب علم في نيسابور . ثم انه تابع دراسته الفلسفية فيما بعد وهو استاذ في بغداد . وكان الفلاسفة العرب في معظمهم من

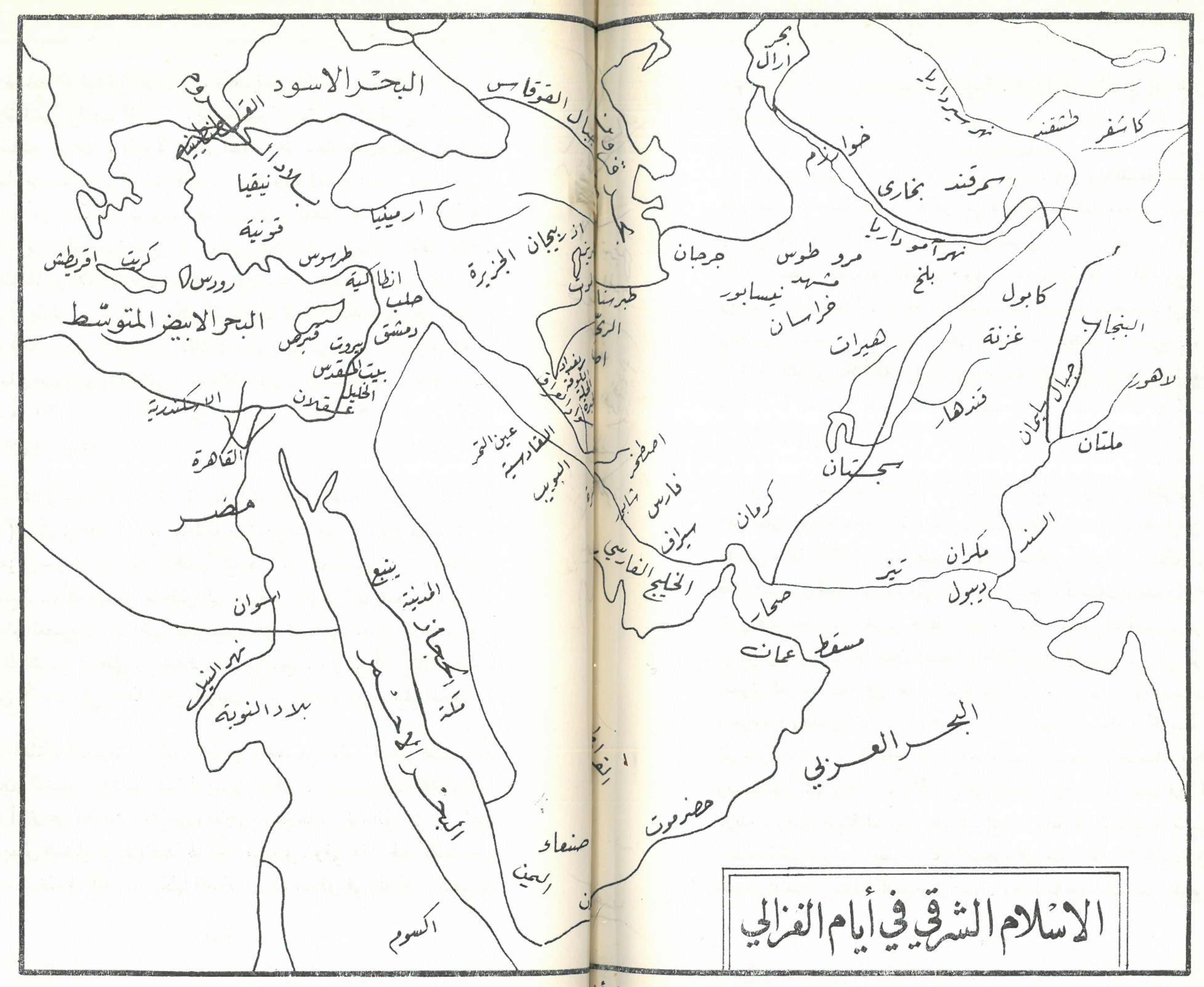
الأطباء ومن العلماء ومن الموظفين في المناصب العليا في الدولة . وفي كتابه مقاصد الفلاسفة تناول الغزالي المنطق والماورائيات والعلوم الطبيعية ، متغاضياً عن الرياضيات . ومن هذه الحقول المختلفة للمعرفة اقتصر في اختياره على المادة التي وعد قرّاءه بأن يعرض لها في كتابه النقدي تهافت الفلاسفة الذي ألفه قبل أن انتابه المرض (١٠٩٥) . وكان ميّالاً للأخذ بالمنطق الاغريقي ، لا سيا القياس المنطقي عند أرسطو ، ولم يكن عنده اعتراض عليه . وفي كتابه المنقذ من الضلال لم يقتصر على الاعتراف بفضل المنطق فحسب بل راح يبرّر اللجوء اليه في علم الدين وعلم الشرع . وقد استخدم المنطق بطريقة فعّالة في ردّه على الفلاسفة . ولم يجد الغزالي تناقضاً بين الرياضيات وتعاليم الإسلام ، غير انه أبدى مرّة ملاحظة يقول فيها إن الرياضيين أقرب أن يكونوا غير مؤمنين منهم مؤمنين .

في كتابه تهافت الفلاسفة يصرّ الغزالي على أن الفلسفة لا يمكن لها أن تكون أساساً للدين أو قاعدة له ، لأن أساس الدين اختبار روحي يشعر به الإنسان في داخله . وقد ذكر عشرين قضية بيّن فيها التناقض بين الفلسفة والعقيدة الاسلامية ، ثم حاول ان يُريَ أن العقل ، وهو ما تعتمده الفلسفة ، لا يقود الإنسان في جميع الحالات إلى معرفة الحقيقة . ومن جملة من تناول كتابَي مقاصد الفلاسفة وتهافت الفلاسفة عالمان اسلاميان من الأندلس : ابن رشد (توفي ١١٩٨ وسنخصص له فصلا في هذا الكتاب) . وابن طفيل (توفي ١١٨٥) . وقد أخذ ابن رشد الغزالي بالنقد الشديد ، ولكن ابن طفيل كان رقيقاً ليّناً في نقده . وقد اشتهر ابن طفيل بقصة مبتكرة وضعها عنوانها حيّ ابن يقظان ، وتشبهها في حبكتها قصة روبنصون كروزو الشهيرة . حاول فيها أن يدعم نظرية الغزالي الصوفية الغيبية من أن الإنسان يتوصل إلى المعرفة الالهية عن طريق نور يضعه الله في قلب الإنسان . وقد تُرجم الكتابان مقاصد الفلاسفة

وتهافت الفلاسفة إلى العبرية واللاتينية . فدخل اسم الغزالي إلى الغرب حيث كان يُعرف بـ Algazel .

إلى أيّ مدى كانت القيود التي قيّد بها الغزالي الفلسفة سبباً في انحطاط الدراسات الفلسفية بعد وفاته هو أمر لا يمكن التأكّد منه على وجه اليقين . ولكن كان للفلسفة أثر ظاهر في جدل الغزالي ، وفي وعظه ، وفي تقبّله القياس المنطقي الارسطوطاليسي ، وفي أخذه بوجهة نظر الافلاطونية المستحدثة وبنظرياتها الفلسفية . وكان ما يقتبسه عن الفلسفة يُدخله في علم الكلام واللاهوت الاسلاميين ، ومن ثمّ بقي الحفاظ على العقيدة الأساسية . وفضلاً عن هذا فإن الغزالي بكتاباته أزال اللغز والشك اللذين كانا يكتنفان الفلسفة ، وجعل منها علماً كسائر العلوم العقلانية يستطيع الرجل المثقف أن يطّلع عليها ويدرك أسرارها .

من الفرق الخارجة على السنّة الاسماعيلية (ويسمّيها الغزالي الباطنية) الذين كانوا موضع هجوم ونقد شديد عند الغزالي . وكان الحسن بن الصباح ، مؤسس فرقة الحشاشين ، من طوس . وكان معاصراً للغزالي . وكان ابن الصباح قد تحصّن في قلعة ألموت ومنها كان يبعث برجاله لاغتيال القادة والزعماء. وهو الذي قتل صديقَي الغزالي ، نظام الملك وابنه . وظلّ الفاطميون قرابة قرنين من الزمن ينازعون العباسيين السلطة والخلافة في الإسلام . وفي الوقت نفسه استولى القرامطة على الجزء الشرقي من الجزيرة العربية ، واجتاحوا العراق وخربوه ، وهددوا سورية ، وحملوا الحجر الأسود من مكة المكرمة (٩٣٠) إلى مقرهم . ان سرّ النجاح الذي أحرزته الدعوة الاسماعيلية يكمن بصفة رئيسية في أنهم وجدوا وارثاً للنبي في شخص عليّ ، ومن بعده في الأئمة من ذريته . وهي حقيقة لم تفت نظر الغزالي . ونظرة الامامية شبيهة بنظرة المسيحية التي تقول إن بطرس كان الصخرة التي بنيت عليها الكنيسة ، ومن بعد بطرس انتقلت السلطة الدينية إلى البابا . وهذا ما جعل الكنيسة البابوية من



الاسلام الشرقي في أيام حوالي ١١٠٠م

أكثر المؤسسات الدينية ثباتاً ودواماً . وكان تعليم الإمام (ولذا سمّيت الباطنية بالمذهب التعليمي) القول الفصل . وإلى جانب العصمة التي يتصف بها الإمام أضافوا التفسير الباطني . ففيه لا يقتصر الداعي على تنقية عقول الذين يدعوهم إلى الانضمام من معتقداتهم السابقة فحسب ، بل ويملأ الفراغ بما يراه ضرورياً لارضائهم . أما السنّة فلم تكن تستطيع أن ترى العصمة تنتقل من النبيّ إلى الخلفاء الأمويين والعباسيين الذين كان بعضهم أبعد ما يكونون عن الاقتداء به . كذلك انتقالها إلى الأمة بناء على حديث يقول : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » لم يكن أمراً مقبولاً . وكذلك لا يمكن أن تكون العصمة للعلماء بناء على حديث يقول : « العلماء ورثة الأنبياء » . ذلك لأنه لم يكن في حياة كثيرين من العلماء والفقهاء ما يوحي بانهم ورثة النبي . وهكذا عجزت السنّة عن أن تفعل ما فعلته الشيعة ، لا سيا الفرع الاسماعيلي منها : الإبقاء على الفكرة الدينامية لإمام ملهَم يقتدي به أتباعه .

كتب الغزالي ست مقالات نقدية نصّفها بايعاز من الخليفة الشاب المستظهر (١٠٩٥) وعنوانها فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية . وكما هو منتظر ، كرّس الغزالي جزءاً كبيراً من الكتاب ليبرهن أن العباسيين أحقّ بالخلافة من الفاطميين . وكرجل مفكّر لم يستطع الغزالي أن يقنع نفسه بالأخذ بمبدإ الإمام المعصوم . وقد أظهر المتناقضات التي تقع فيها التعاليم الاسماعيلية ، بما في ذلك التفسير الباطني وتوكيدهم مذهب التعليم . ونرجح أن كتاباته هذه كانت من الأسباب التي عجّلت في تقويض أسس الدعوة الاسماعيلية فيما بعد .

كانت الفئتان الفكريتان البارزتان من العلماء في ذلك العصر هما فئة المتكلّمين والفقهاء . والقاسم المشترك بينهما القرآن . غير ان الفقهاء كانوا يعتمدون أكثر على الحديث والقياس والاجماع وغيرها من الوسائل التي من شأنها أن تحلّ بعض القضايا التي لم يتصدّ لها أحد من قبل. وفي هذا الحين كانت علوم الدين عند السنّة قد اتخذت شكلها المحدّد ، وكذلك قل في المذاهب الفقهية

الأربعة . أما الغزالي فكان قد تمرّس في علم الكلام والفقه ، لكنه كان يختلف عن غيره في أنه كان جريئاً في نقده الفئتين جهاراً . أما في نقده علم الكلام فكان يتبع مذهب المتكلمين كما علّمه الأشعري (توفي ٩٣٥) الذي كان في يوم من الأيام معتزلياً ، ولذا كان تفكيره يصطبغ بصبغة الفكر الاغريقي ، وكان أيضاً يدرك أهمية التفكير المنطقي . وأما في نقده الفقهاء فكان الغزالي يتبع المذهب الشافعي (انظر الفصل التالي) . في الفصل الأول من كتابه احياء علوم الدين،يشير إلى بُعد الشقة بين ما يؤمن به الزملاء وبين ما يطبقونه في الحياة اليومية . فانهم ، على قوله ، يقنعون بدور الذي ينصّب نفسه قيّماً وحامياً للعقيدة والسنّة ، في الوقت الذي لا تستطيع فيه العقيدة والسنّة ، ما دامتا أمراً نظرياً ، أن تضمنا للفرد الحصول على هدف الحياة النهائي ، الا وهو النجاة والسعادة . واما علماء الدين فهمّهم أمور مادية دنيوية لا أمور روحية . ومنذ المحنة فيعهد المأمون أصبح المتكلمون والفقهاء يأتمرون بأمر الدولة ، شأنهم في ذلك شأن الموظّف في ديوان من الدواوين . وكان معظم القضاة يسعون وراء مصالحهم المادية الخاصة مثل أسيادهم الحكام . وكانوا مثل علماء الدين يهتمّون بالأمور الثانوية أكثر مما كانوا يهتمون بالأمور الجوهرية .

كان للغزالي أثر بالغ في الفئتين ، المتكلمين والفقهاء ، أثر دام زمناً طويلاً . وبسبب هذا الأثر الذي تركه الغزالي أصبح الدين أقرب إلى المعقول ، كما أنه أصبح ذا معنى في حياة الناس ، ولم يعد مجرّد طقوس وشعائر ، بل أصبح حياة روحية . كما ان الفقه أخذ يتحرّر لكي يتلاءم مع التغييرات التي تطرأ في الحياة ، واتسع نطاقه فصار يتعدّى الإطار الديني ليشمل الحياة الفكرية .

تعرّف الغزالي إلى الصوفية في سن مبكّرة من حياته ، ولم يتخلّ عنها حتى وفاته . كان معلمه في مدرسة طوس رجلاً صوفياً . وكانت الصوفية عوناً له وسنداً في فترة الاضطراب والقلق الروحي الذي مرّ فيه . وفي تطوافه وتسفاره كانت الناحية الزهدية التقشفية في الصوفية معواناً له . ثم ان المثالية

الروحية في الصوفية كانت مادة عالجها في بعض مؤلفاته ، وفي البعض الآخر كانت الصوفية وعقيدتها ومثاليتها الموضوع الأول فيها . وقد لحظ الفرق بين سلوك الصوفي وسلوك العالم الديني ، الأمر الذي جعله يرفع من شأن الصوفية ومكانتها الروحية ، يقول :

> اني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلاً .

إذا كانت الصوفية ، بالنسبة إلى نظرة الغزالي ، تتأتى من حوافز الخوف من جهنم فإنها أدنى مرتبة من الطمع في الجنّة. ان دوافع الصوفية العليا هي التوّق إلى الاتحاد بالله ، والتأمل بجمال الله . وهذه النظرة إلى الاتحاد بالله والتمتع بجماله تبدو في كثير من الصلوات التي يردّدها الصوفي ، منها : « ربي، ان كنت أعبدك خوفاً من جهنم فألقني في جهنم ، وان كنت أعبدك طمعاً في الجنّة فاحرمني جنتك ، اما إذا كنت أعبدك لذاتك فلا تمنع عني جمالك الأسنى » .

في عرف المتصوفين ان الصوفية طريق العبد إلى مشاهدة الحق ، وان حياة الصوفي سفَر اليه تعالى . والمسافر يمرّ في مراحل تُعرف بالمقامات ، وفي سفره تعتاده أعراض نفسية تُعرف بالأحوال. اما المقامات فهي أولاً المعرفة المكتسبة عن طريق الذوق أو بواسطة نور يضعه الله في القلب . ثم الشوق ، فالمجاهدة وقهر النفس . والنور الداخلي في الانسان مستمدّ من النور الالهي عن طريق الفيض . وهذه النظرية في فيض النور عالجها الغزالي في كتابه مشكاة الأنوار ، وهو أشبه بتعليق أو تفسير لما جاء في القرآن الكريم : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دريّ ... » (سورة النور الآية ٣٥) .

وفي عرف المتصوّفين ان نفس الإنسان من الله ، فالله غاية النفس . ومطلب النفس الأعظم الصعود إلى الله . غير ان رصانة الغزالي وتعقّله المتزن أبعداه عن غلاة الصوفية الذين كانوا يقولون بالاتحاد بالله . هؤلاء هاجمهم الغزالي وشدّد في نقده لهم . والمجاهدة تبدأ بكبت شهوات الجسد وضبط العواطف ، بما في ذلك الجوع والشهوة والغضب ، وذلك تطهيراً للنفس . ولا يتناسب الاسترسال في الملذات الجسدية مع قهر الجسد وكبت شهواته . أما القصد من العزلة والانفراد فهو التأمل ، وغاية التأمل الصلاة ، وغاية الصلاة الاتصال بالله ، لا الاتحادية . والتأمل بجمال الله يوحي المحبة ، والتأمل بالله يوحي الخشية والورع .

كان لشجب المسيح الفريسيين والكتبة وكان لآرائه في السلوك الدنيوي تأثير في التصوف الإسلامي . وكذلك كان لتفريق بولس الرسول بين الجسد والروح، وهذا في الأساس تقسيم افلاطوني مستحدث . ولعظة السيد المسيح على الجبل (انجيل متى ٥ ـ ٧) أثر ظاهر في أقوال الصوفيين حيث نجد اشارات « للفقراء والمتواضعين » و « لملح الأرض » والعظيم في ملكوت السموات ، والرجل الذي لا يهتم إلا بأكله ومشربه وملبسه، و «الدرر أمام الخنازير». ومن الطبيعي أن ترفض الصوفية قول المسيح « أنا والآب واحد » ويقولون إن هذا خطأ كالخطإ الذي يرتكبه الناظر في قدح مليء بالخمرة فإنه لا يفرّق بين زجاج القدح والخمرة . اما فيما يتعلق بالعجائب التي صنعها السيد المسيح فإنهم يقولون ان بعضها مزوّر زائف ، وبعضها محرّف ، وقلّة منها صحيحة في أساسها .

ويظهر تأثير الغزالي في الصوفية في كثرة الطرق الصوفية التي نشأت بعد وفاته . وكانت أهم طريقة القادرية لمؤسسها عبد القادر الجيلاني . درس عبد القادر في بغداد وتوفي سنة ١١٦٦ . ثم تلا ذلك ظهور طريقة أخرى : الرفاعية لمؤسسها أحمد الرفاعي (توفي ١١٨٣) الذي عاش وعمل في البصرة . وظهر في تونس أبو الحسن الشاذلي (توفي ١٢٥٨) وأسس الطريقة الشاذلية التي

تفرّع عنها قرابة خمس عشرة طريقة صوفية في افريقيا لا تزال إلى يومنا هذا . وبنى الشاذلي تعاليمه على ما جاء في كتاب احياء علوم الدين . وعلى فلسفة الغزالي الصوفية نشأت طرق أخرى في آسيا وافريقيا وانشئت زوايا كالتي أسسها الغزالي في طوس : الخانقاه . وعدد لا يحصى من الأدباء والعلماء الذين زاروا مكة المكرمة أو بغداد أو دمشق عرّجوا على الغزالي لينتفعوا بعلمه الغزير ، إذ انه كان يُعتبر عالم عصره .

عندما ادّى ابن تومرت الشاب (توفي حوالي ١١٣٠) مؤسس دولة الموحّدين في المغرب والأندلس فريضة الحجّ تعرّف إلى الغزالي وهو في دمشق. وبعد ذلك لازمه ودرس عليه ثلاث سنوات . وعندما عاد إلى بلاده في المغرب أعلن أنه المهدي ، وراح يؤكّد وحدانية الله ضدّ عقيدة التشبيه (التي كانت شائعة في أيامه) ، وعاش عيشة التزهّد ، وحرّم الشراب ، وحمل على التأنّق والفساد في العيش .

هناك عوامل عدّة جعلت رسالة الغزالي المعلّم الواعظ تستأثر بعواطف الناس وأهوائهم . منها الأصالة والابداع في التفكير في كل مشكلة عالجها . فإنه كان يعمل جاهداً على أن يفكّر تفكيراً منطقياً منظّماً ، وعلى أن يكون التعبير عن النتائج التي يتوصل اليها تعبيراً دقيقاً واضحاً.وقد تناول الموضوعات الفلسفية والصوفية بطريقة قرّبتها إلى ذوق علماء الدين ، ووضع النموذج لتطور الفكر الإسلامي . ومما جعل لتعاليمه قيمة في أعين الناس ، وقبولاً لديهم ، هو اختباره الشخصي الذي اختبره بذاته عندما راح يصنف المذاهب الفكرية ويدرسها قبل نقدها أو تقييمها . ومن هذه العوامل أيضاً قدرة الغزالي على أن يجعل من السنّة ومن الفلسفة ومن الصوفية نظاماً واحداً منسجماً . وقد كرمته الأجيال التالية باغداق لقبين عليه : الإمام ، والحجّة .

أما أثره في الأوساط غير الاسلامية فكان عن طريق الصوفية . كان علماء اليهود الذين عاشوا في العالم الاسلامي ، الشرقي منه والغربي ، ينشطون إلى

الدراسات العربية . وفي أقل من نصف قرن بعد وفاة الغزالي قام يهودي من طليطلة اعتنق النصرانية وترجم كتب الغزالي الفلسفية إلى اللغة اللاتينية . وفي منتصف القرن الثالث عشر ترجم يهودي آخر من برشلونة كتاب ميزان العمل ، وهو كتاب يبحث في الأخلاق . واقتبس ابن ميمون (توفي ١٢٠٤) من قرطبة ، وهو اشهر فيلسوف يهودي في العصور المتوسطة ، عن كتاب مقاصد الفلاسفة . واما كتاب الغزالي في الصوفية مشكاة الأنوار فقد تُرجم في وقت لاحق وأحدث جدلاً عظيماً بين علماء اليهود. ونظريات علماء اليهود في النفس، وانبثاقها من الله ، ونظرتهم إلى الملائكة ، وعلاقتها بالنور الالهي تعكس لنا أثر الغزالي ونظرياته في هذه الأمور .

ومن بين المؤلفين السريان الذين تأثروا بهذا المفكر المسلم وبتعاليمه نذكر ابن العبري (توفي ١٢٨٦) وهو من اليعاقبة ، وكان اسقف حلب. وكان ابن العبري قد عاش زمناً في بغداد وكتب كتابين في الصوفية جارى في تأليفها الغزالي . وكان كثيراً ما يشير إلى كتاب احياء علوم الدين . ونظرية ابن العبري في معرفة الله ، وفي المراحل والمقامات التي ينبغي لطالب معرفته ان يتبعها ، وفي نظرته إلى الحب الالهي ، تتبّع خطوات الغزالي . وبواسطة الغزالي ردّت الصوفية إلى المسيحية الدّين الذي كانت مدينة به لها ، لا سيا في عهد نشأتها عندما تأثرت إلى حدّ بعيد بالحياة الرهبانية المسيحية .

أما تأثير الغزالي في المسيحية في بلاد الغرب فقد كان أعظم وأعمق . فإن توما الاكويني(١٢٢٥ – ١٢٧٤) كان قد تعرف إلى المؤثرات الاسلامية عندما كان طالباً في جامعة نابولي ، وكانت أول جامعة انشئت ببراءة ملكية . وكان مؤسسها الملك فردريك الثاني ، ملك صقلية ، الذي كان يرعى العلوم العربية ويتعهدها . فإنه أمر بترجمة كتب ابن رشد وغيره من الفلاسفة المسلمين إلى اللغة اللاتينية وجعلها كتباً مدرسية تدرّس في الجامعات . وهناك ، في جامعة نابولي ، درس توما الاكويني الغزالي (Algazel) . وهناك شبه مدهش

بين كتابات توما الاكويني وبين كتابات الغزالي في مواطن كثيرة من تآليفهما .
وهذان العالمان الدينيّان في المسيحية والإسلام يتفقان على نوع المعرفة الكاملة التي تؤهل صاحبها لمعرفة الله والتي يسميها توما الاكويني المشيئة . ويتفق الاثنان ان التأمّل في الله (الحق) — وهو الميزة التي تُميّز الإنسان عن سائر الخلائق — هو أنبل وأسمى غاية من غايات الإنسان ، وان رؤية الجمال الأسنى هي غاية في حدّ ذاتها . وقبل توما الاكويني بوقت طويل كتب الغزالي في احياء علوم الدين: ان السعادة السماوية تتناسب كمياً مع عمق المحبة لله، وهذه المحبة متساوية ومتعادلة مع معرفة الله التي تحصل عليها القلة المختارة من الناس .

وكان العالم الدومينيكي، ريموند مارتن القشتالي، معاصراً لتوما الاكويني. وهـذا العالم أيضاً يقتبس عن كتابي الغزالي : مقاصد الفلاسفة واحياء علوم الدين ، ويشارك الغزالي الرأي في أن السعادة في العالم الثاني سعادة روحية تقوم على مشاهدة الحقّ سبحانه . وقـد مرّ عالم الطبيعيات الفرنسي الشهير باسكال (توفي ١٦٦١) في الأزمة الروحية ذاتها التي خبرها الغزالي، وكالغزالي وجـد راحة لنفسه في الصوفية . وكتابه الموسوم « أفكار » يعكس لنا في ثناياه أثر الفلسفة الاسلامية .

ومن متصوفة المسيحيين الذين وقعوا تحت تأثير الأفكار الاسلامية كان الشاعر الكبير دانتي (توفي ١٣٢١). وفي كتبه النثرية التي تأتي في الدرجة الثانية بعد شعره يقتبس أحياناً كثيرة أقوالاً عن ابن سينا وابن رشد والغزالي . ودانتي في نظريته حول النور الداخلي الذي يضعه الله في قلب الإنسان ، وحول مشاهدة الجمال الأسنى ، والصعود عبر السموات السبع ، يسير على هدي المتصوف الأندلسي الكبير محيي الدين ابن عربي ، ونظرة محيي الدين ابن عربي هذه سبقه اليها الغزالي . ويبدو ان دانتي كان يدرك انه مدين للفلاسفة المسلمين بكثير من نظراته الفلسفية . فلم يشأ ان يحشرهم في جهنم كما كان منتظراً منه

أن يفعل بهم بصفته كاثوليكياً يتّبع تعاليم كنيسته ، بـل وضعهم في موطن الاهمال والنسيان .

اننا إذا أردنا التعرّف عن كثب إلى ملامح شخصية الغزالي وخلقه ، علينا أن نرجع إلى ما كتبه هو لا إلى ما ذكره مؤرّخو سيرة حياته . أما من الناحية الفكرية فقد لحظنا انه كان ذا عقل شغوف بالمعرفة ، وذا فضول عقلي يدفع به للاستكشاف . كان ذا عقل متحرّر وذا تفانٍ في معرفة الحقيقة . وأما من الناحية الخلقية فإن ما يسترعي انتباه القارىء تزهّد الغزالي، وتقشفه، وجرأته الأدبية التي تدفع به للأخذ بأمور تخالف ما اصطلح عليه جمهرة العلماء — مثلاً الموسيقى — كأداة للتعبّد والورع . ومما يستأثر باحترام الناس له جرأته الأدبية ، وتجرّده في نقده زملاءه من علماء الدين والشرع ، وتسامحه الكريم في نظرته إلى المسيحية ، وتشدّده في تقديم الروحاني على المادي في هذا العالم، وفي العالم الثاني . حتى ان الجنة وما جاء في وصفها من ملاذّ إنما هو شيء روحي وسعادة روحية لا مادية . واما فيما يتعلّق بالمسيحية فإن نظرته اليها كانت نظرة سمحاء ما عدا الأمور التي تناقض فيها المسيحية النظرة الاسلامية السنّية. وكان لا يرضى عن لعن الخليفة الأموي الثاني ، يزيد ، الذي تعتبره الشيعة قاتل الحسين حفيد النبيّ . كان الغزالي يقول ان كل مسلم يلعن أخاه المسلم يجب أن يُلعن . وفي كتابه الموسوم ايها الولد الذي ألّفه بعد أن كان قد تقدّم في السن ، يبدو لنا الغزالي ذلك الرجل الذي يعتبر المثل الأعلى في الدين هو الحياة الروحية الداخلية ، والاختبار الروحي الشخصي الذي لا يعتمد على عقيدة ثابتة وعبادة شكلية فقط بل على الأعمال الصالحة . وسعيه الخالص لبلوغ المثل الأعلى في الدين ، والقدر من النجاح الذي أحرزه في هذا السبيل ، وما كان يتحلّى به من نبل في الخلق الكريم ، جميع هذه الصفات المجتمعة في شخص الغزالي تؤهّله ان يحتلّ محراباً في قاعة عظماء القديسين في العالم .

وفي عـدم توافر المعلومات الأكيدة عن حياته العائلية نعود أيضاً إلى

كتاباته على أنها المصدر الرئيسي للتعرّف إلى حياتـه الخاصة . تُجمع المصادر جميعها على أن أخاه أحمد كان الوحيد إلى جانبه عندما كان يحتضر . ونعلم على وجه التأكيد أن كان له زوجة عاشت بعد وفاته ، ولكننا لا نعرف اسمهـا . كذلك لا نعرف أسماء بناته . وكسائر الشباب المسلمين في ذلك الأوان تزوج ولم يبلغ العشرين من عمره . وكنيته « أبو حامد » لا تعني بالضرورة ان كان له ولد اسمه حامد . فإن الكنية في الشرق تُعطى لاشخاص دون أن يكون لهم ولد يُعرف بالاسم الوارد في الكنية . ومن جهة ثانية نشير إلى الملاحظات الدقيقة التي أبداها حول الأولاد وتصرفهم ، وإلى ما قاله عن تربيتهم ، فإنها تنمّ عن معرفة وثيقة بالأولاد وتنشئتهم وتدلّ على انه كان لديه متسع لاكتساب هذه المعرفة عن اختبار شخصي . اما أمّه ، التي ربّت أولادها اليتامى وحدها دون ان يعاونها أحد من الناس ، فقد عاشت إلى أن رأت اثنين من أبنائهـا يحرزان مراتب عالية أفرحت قلبها .

وبهذه المناسبة نرى من الممتع أن نشير إلى ملاحظات الغزالي حول الزواج . يقول في الجزء الأول من كتابه احياء علوم الدين ان الرجل الذي يتزوج امرأة لتديُّنها وورعها فإن الله يمنحه الغنى والايمان ، ومن يتزوج امرأة لغناها وجمالها فإن الله يحرمه المال والجمال . وصمْته عن قضية تربية البنات وتثقيفهن يشير إلى انه لم يرتفع عن المستوى الفكري الذي كان سائداً في محيطه . ولكنه يوصي الزوج ان يعلّم زوجته فروض الصلاة والشعائر الدينية الأخرى . وهو يشرك الزوجة في تحمّل مسؤولية تربية الأولاد . وفي نظره ان تربية الوالدين لأبنائهم ينبغي أولاً وآخراً ان تستهدف تنشئة الأخلاق القويمة فيهم . وفي نظره أن السرقة والكذب من التجارب الأولى التي يتعرّض لها الأولاد ، وينبغي للوالدين أن يولوا اهتمامهم أمر هاتين الرذيلتين . كما أنه ينبغي للوالدين أن يحدّوا من نهم الأولاد في مأكلهم وان يقبّحوا في أعينهم ترف العيش الهانىء ، وان ينذروهم من معاشرة أهل السوء . وأول شيء ينبغي لهـم ان يعتادوه الأكل على مهل ،

وباليد اليمنى ، وان يحترسوا من تلويث ملابسهم في أثناء تناولهم الطعام. ويؤثر ان يلبسوا الأبيض من الملابس لا المزوّق منها الذي تميل اليه نفوس المخنثين من الصبية . وعمل المعلم يبـدأ حيث ينتهي عمل الوالد ، لأن المعلم يحلّ محل الأب [1] .

استطاع الغزالي ، العالم الفقيه الفيلسوف ، الصوفي القديس ، ان يوفـّق بين العقل والايمان ، وأنشأ مذهباً فكرياً في الفلسفة والدين بقي على الأيام موضع رضى السواد الأكبر من المسلمين .

---

(١) لطالب المزيـد نقترح كتاباً عنوانه أبو حامد الغزالي ، الجمهورية العربيـة المتحدة (القاهرة ١٩٦٢) .

الشافعيّ

واضعُ علمِ أصولِ الفقهِ الإسلامي

ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىءَ ، وما في قلبي من علم
إلا وددت أنه عند كل أحد ، ولا يُنسب إليّ . ما كلمت أحداً قط
إلا أحببتُ أن يوفق ويُسدد ويُعان . وما كلمتُ أحداً قط إلا
ولم أُبالِ بيّن الله الحقّ على لسانه أو لساني .

الامام الشافعي

من بين الشعوب القديمة ، كان الشعب السامي أكثر الشعوب تديناً ، وذلك
بحسب ما خلّفه لنا هذا الشعب فى حقل الدين والشرع . فإن الديانات
التوحيدية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام ، تشهد على حسّهم الديني
المرهف ، وعلى نشاطهم في هذا الحقل . ولا نعرف شعباً يضاهيهم في هذا
المضمار . ونكاد نرجّح ان الشعب السامي من أكثر الشعوب ميلاً لوضع القوانين
والشرائع ، ذلك لأن المجتمع السامي المتقدّم كان يعتمد القانون والشرع أساساً
له . وكانت الشريعة البابلية التي وضعها حمورابي (توفي حوالي ١٦٨٦ ق. م.)
شريعة مفصّلة محكمة الوضع أكثر مما كانت عليه الشريعة السومرية ، أو أية
شريعة أخرى معاصرة لها .

ان المسلّة التي نقشت عليها شريعة حمورابي تُظهر تمثال الملك واقفاً ساجداً متعبداً أمام الإله الشمس ، ومادّاً يديه لتلقّي الشريعة . وتُعدّ هذه أول خطوة في تمكين الصلة بين الدين والتشريع . ففي المجتمعات الدينية البدائية لم يكن الدين مصدراً رئيسياً للقانون. غير ان حمورابي البابلي حرص على أن يكون لقوانينه الطابع الإلهي ، بالرغم من ان كثيراً من شرائعه وقوانينه كانت سومرية الأصل . وتابع العبرانيون القدماء من بعده في اضفاء الصبغة الإلهية على شريعتهم . ولم يقتصر العبرانيون على القول ان كل تشريع ورد في سفر الخروج واللاويين والعدد والتثنية أوحى به يهوه مباشرة إلى موسى (سفر الخروج ٢٥ : ١ ،التثنية ٦ : ١)، بل يقولون إن يهوه كتب الوصايا العشر والشريعة على الواح وسلّمها بيده إلى موسى (سفر الخروج ٢٤ : ١٢، ٣١ : ١٨) ، وهكذا نجد ان الشريعة الموسوية كما وردت في اسفار التوراة تختلف عن سائر الشرائع في الشرق الأدنى القديم بكونها شريعة موحى بها جملة وتفصيلاً من الله ، وكان الله عندهم المشترع والقاضي .

– ١ –

ولا يختلف الاسلام في نظرته إلى الشرع عن نظرة العبرانيين القدماء : الشريعة موحى بها من الله . وتخطّى الاسلام المسيحية في هذا المضمار ، لأن مؤسس المسيحية لم يكن يُعنى بقضايا الشرع والقضاء بقدر ما كان يُعنى بالحياة الروحية . وكذلك الأمر في رسول المسيح بولس ، مؤسس المسيحية بين الأمم ، فإنه أيضاً لم يكن يُعنى بالتشريع . ويمكن اعتبار شرائع العهد القديم بمثابة ممهّد للعهد الجديد ، ولكنها ليست جزءاً لا ينفصم عنه. أما الاسلام ، كاليهودية ، فيرى ان على الانسان أن يخدم الله وان يعبده ، لأن الله خلق الانسان ، وهو مصدر كل قوة وسلطان. ولكن هذا الانسان لا يعرف كيف يخدم الله ولا كيف يعبده ان لم يكن يعرف مشيئة الله وارادته . هذه المشيئة وهذه الارادة الإلهية يعلنها الأنبياء ، وأعظم الأنبياء وخاتمهم هو الرسول العربي محمد. ولا يُوحى بالارادة

الإلهية ليؤمن بها المؤمن بل لتكون فرضاً يجب اطاعته والعمل بموجبه. وعصيان أوامر الله ونواهيه إثم ومعصية – تفوق في خطورتها الجرائم المدنية – يُحاسَب عليها المرء في العالم الآتي . وليس الشرع نيراً يثقل كاهل المؤمن ، بل انه امتياز يُمنحه الانسان ، وإذا عمل بموجبه نال الثواب .

ليست الشريعة الاسلامية مجرّد شريعة موحى بها من الله ، بل انها كلمة الله المجسّدة في القرآن الكريم غير المخلوق . انه كان مع الله منذ البدء ، وفي اللوح المحفوظ ، إلى ان أوحى الله به إلى رسوله ليبلّغه الانسان. والقرآن الكريم تامّ أزلي ، عالمي ، شامل ، يصلح لكل انسان في كل عصر وزمان . وهو شريعة سماوية كليّة . وليس للدولة أن تسنّ الشرائع بل عليها أن تطبّق الشريعة السماوية ، لأن الشريعة وجدت قبل أن توجد الدولة ، وقبل أن يخلق الانسان. وهذه الشريعة تحدّد العلاقة بين العبد وخالقه ، كما انها تحدّد العلاقة بين الانسان وأخيه الانسان . والشريعة هداية من الله تُهدي المجتمع للوصول إلى الحياة السعيدة التي يريدها الله لمخلوقاته . ولسنا نعلم امة من الأمم نظرت إلى الشريعة كما نظر المسلمون إلى شريعتهم . فان الاغريق مثلاً ، كانوا يعتبرون الشرائع من وضع الانسان . كذلك يعتبر انسان العصر الحاضر الشرائع والقوانين . أما الرومان ، وهم أعظم أمة مشترعة ، فان نظرتهم إلى الشريعة والقوانين كانت مزدوجة : الشرع موحى به من الله وأما القوانين فمن وضع الانسان .

كان النبي في حياته ، وبصفته رسول الله ، يقوم بالمهام الثلاث : التشريع والقضاء والتنفيذ . في حالة كهذه لا يمكن أن تقوم مشكلات يصعب حلّها . ولكن بوفاته انقطع الوحي ، ولم يرث الخلفاء من بعده وظيفة التشريع التي هي من حق النبوءة. ولكن بصفتهم رؤساء دولة كانوا يقومون بوظيفة القضاء والتنفيذ. وبالتالي تغيّرت الحال ولم تعد الأمة أهل المدينة المنورة ، بل أصبحت الأمة أمة عالمية . فشعر أولو الأمر انهم بحاجة إلى مصادر اضافية تستمد منها القوانين التي لم ينص عليها القرآن الكريم . وفضلاً عن هذا فان القرآن الكريم لم يلم بكل

التفاصيل المتعلّقة بالفروض والشعائر وطريقة القيام بها . فالصلاة فرض على المسلم ، ولكن ليس هناك نصّ على الآيات التي يجب على المصلّي أن يرددها في صلاته ، ولا على عدد الركعات أو السجود . فاتبع المسلمون سنة نبيهم في هذه الأمور ، وأخذوا بسلوكه في حياته مثلاً أعلى لهم . وكان رضاه عن عمل أو عادة يحمل المسلمين على قبوله ، وبهذا أصبح لدى الصحابة والجيل الأول من التابعين تقليدٌ يتبعونه . على أنه عندما توفي الصحابة والتابعون شعر أولو الأمر بضرورة جمع أحاديث الرسول وتدوينها ، وأصبح الحديث مصدراً ثانياً من مصادر الشرع .

ومهما يكن من أمر فان عدد آيات القرآن التي تختص بالتشريع محدود ، وكذلك عدد الأحاديث. على أن ما يطرأ من مشكلات في الحياة ليس له حصر. اذن يتوجّب على أولي الأمر أن يلجأوا إلى مصادر أخرى يستمدون منها القوانين لمواجهة الأمور الطارئة. منها ادراج اقوال الصحابة والتابعين لهم وحتى تابعي التابعين ، وافعالهم في الحديث . ولكن هذه الأقوال والأفعال محدودة ضيّقة الإطار . فلجأوا إلى مصدر أغنى من هذا المصدر الأخير وهو ما يُعرف بالرأي . في هذه الاثناء كان عدد الاحاديث التي جُمعت قد بلغ درجة قصوى . ولم يكن قد وُضع بعد علم يُعنى بالحديث من حيث الاسناد، ولم يكن بعد مجموعات للحديث مدوّنة معترف بها . فكان لكل مدينة كبيرة من مرو ونيسابور في الشرق ، إلى القيروان في الغرب فإلى قرطبة في الاندلس ، عالم في الشريعة وله أتباع . وكان في متناول علماء الشرع آراء الجيل السابق في قضايا الفقه لكي يهتدوا بهديها . ولكن لم يكن لديهم مجموعات لهذه الآراء مدوّنة . ولم يكن قد برز بعد عالم شرع اكتسب شهرة على نطاق الأمة الواسع ليُتّبع ، ربما باستثناء الاوزاعي (توفي ٧٧٤ في بيروت) . ولكن هذه الاتجاهات في قضايا الشرع التي كانت تعبيراً عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المحلية أخذت تتنافس في سبيل الاعتراف بها والأخذ بها على نطاق واسع .

في وسط هذا التضارب في الآراء الفقهية برزت شخصيتان الأولى منهما في الحقل الفكري والثانية في الحقل الديني وهما الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ومالك بن أنس . كان أبو حنيفة (٦٩٩ — ٧٦٧) مولى من أصل فارسي. ونشأ في الكوفة ، ولم يكن في بادىء أمره فقيهاً أو قاضياً ، بل تاجر حرير . اما مالك بن أنس (٧١٨ — ٧٩٦) فقد كان فقيهاً وعالماً دينياً في المدينة . كان ابو حنيفة عالماً يُعنى بالنظريات، واما مالك فقد كان عالماً دينياً يمارس القضاء . ونشأ حول كلّ منهما حلقة من طلاب العلم . وكانت حلقة ابي حنيفة أضيق من حلقة مالك . ولم يفكّر احدهما بوضع مذهب خاص به . ولم يضع ابو حنيفة، صاحب المدرسة العراقية ، كتباً في الفقه ، بل ان ما وصلنا من آرائه الفقهية جاءنا عن طريق طلابه ، وعلى رأسهم ابو يوسف ، قاضي الرشيد ، وصاحب كتاب الخراج . وأصبح المذهب الحنفي أول المذاهب السنّية الأربعة ، واحتلّ المرتبة الأولى بينها . أما تحفة مالك بن أنس الموطأ فقد اعتبرت أول محاولة قصد بها صاحبها أن يضع بين المسلمين دليلاً مختصراً في الفقه يعبر عن وجهة نظر أهل المدينة ، موطن الصحابة ، والمكان الذي نشأ فيه الحديث. وكان المذهب المالكي يعتمد الحديث ، بينما كان المذهب الحنفي يعتمد القياس والرأي . ومن سيرة حياة ابي حنيفة نعلم انه لم تكن له صلة بالمدينة ، فلم يتأثر بمذهبهم الذي يعتمد الحديث والسنّة ، بل كان يأخذ بالاستحسان والقياس . اما مالك فلم يكن يلجأ كثيراً إلى الاستصلاح الذي كان يعتبره اصحابه صالحاً لخير المجتمع ونفعه .

واشتدت المنافسة بين المدرسة العراقية والمدرسة الحجازية ، وكثرت الاتهامات الباطلة التي لا نجد لها مبرّراً . فان المذهب الحنفي كان يضع شروطاً محدّدة معيّنة للرأي ، كما ان المذهب الحجازي كان يضع شروطاً للحديث . وبالرغم من ان المذهب الحنفي كان عموماً يبدو أكثر تحرّراً وانطلاقاً من المذاهب المالكي فان الفروقات بين المذهبين قليلة ودقيقة بحيث انه يصعب على الدارس

ان يكتشفها .

كان الخلفاء العباسيون الأول يميلون إلى المذهب الحنفي ، الأمر الذي رفع من شأن هذا المذهب ومكّن له الانتشار شرقاً . اما المذهب المالكي فقد انتشر غرباً إلى شمال افريقيا وإلى الاندلس. ثم جاء السلجوقيون فاقتفوا أثر العباسيين في تبنّيهم المذهب الحنفي ، ومن بعدهم العثمانيون الأتراك . وقد أخذت الدول العربية المستقلة حديثاً : العراق وسورية ولبنان ومصر بالمذهب الحنفي أيضاً في المحاكم الشرعية الرسمية ، على ان قسماً من السكان في هذه الدول يتّبع مذاهب فقهية أخرى . اما شيوخ الأزهر فمعظمهم من اتباع المذهب الشافعي .

وبين المدرسة العراقية ، وتعرف باصحاب الرأي ، وبين المدرسة الحجازية التي تعرف بأصحاب الحديث ، مكان لمدرسة فقهية ثالثة : الشافعية . ولد مؤسس المذهب الشافعي في فلسطين التي تقع وسطاً بين الحجاز والعراق . وتعلم الفقه في المدينة وبغداد ، وعمل في مكة وبغداد والقاهرة فكان من هذه الناحية منفتحاً على المذاهب الفقهية الأخرى أكثر مما كان سلفاه ابو حنيفة ومالك بن أنس .

— ٢ —

ولد محمد بن ادريس الشافعي في غزّة سنة ٧٦٨ . ومات أبوه بعد مولده بقليل . ولم تكن امه ترى ان للطفل مستقبلاً في غزة فحملته إلى مكة خشية ان يضيع نسبه الشريف . فانه كان قرشياً من ذرية عبد المطلب بن عبد مناف ، فهو يلتقي مع النبي في عبد مناف . وفي رواية ذكرها ابن خلكان « ان امه عندما حملت به رأت كأن المشتري خرج منها حتى انقض بمصر ثم وقع في كل بلد منه شظية ،فتأول اصحاب الرؤيا انه يخرج منها عالم يخص علمه أهل مصر ثم يتفرّق في سائر البلدان . » وكانت غزّة مدينة يرتادها تجار مكة ومن بينهم كان هاشم الجدّ الأعلى للنبي . ومات هاشم في غزّة ، فأصبح للمدينة مكانة

محترمة في عيون القرشيين . وبعد الفتح العربي وفد إلى غزّة مهاجرون من العرب ، ومنهم ادريس الشافعي . لذا خشيت امه أن يضيع نسبه فسارت به إلى مكة لتعرّفه إلى قومه .

كان الصبيّ محمد بن ادريس يذهب مشياً كل يوم من بيته الحقير إلى المسجد الحرام ليتعلّم ما كانت الصبية تتعلّمه في ذلك العصر. ومن الكتّاب في المسجد انتقل ، كما كان شائعاً في زمنه ، إلى الصحراء ليساكن البدو الأعراب وليأخذ عنهم الفضائل الصحراوية ، مثل الفروسية وركوب الخيل والرماية ، وأهم من هذه جميعها أخذ العربية الفصحى عن أهلها . وكانت القبيلة العربية التي أقام بينها تتنقل بين مكة والمدينة ، وكانت قد اشتهرت بصفاء لغتها . وقد لازم هذه القبيلة مدة عشرة أعوام. وكان يقول عن نفسه: « همتي في شيئين في الرمي وفي العلم » . ويقول انه كان يرمي من السهام عشرة تصيب كلها . وقد استظهر عشرة آلاف بيت من الشعر البدوي . ولا شك في ان الصحراء تركت في اسلوبه النثري الأنيق أثراً ظاهراً ، وكذلك في فصاحته وفي نظمه الشعر ، وكان يبدو ، منذ شبابه ، انه مقدم على مستقبل أدبي ممتاز .

ولكن وقع بين يديه كتاب غيّر مجرى حياته . كان الكتاب موطأ مالك، وهو كناية عن المحاضرات التي أملاها مالك ، وجمعت آراء علماء المدينة في الفقه . ويقول لنا الذين كتبوا سيرة حياته انه استظهر الكتاب من أوله إلى آخره (ويقع الموطأ في طبعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، في الف واربع صفحات في مجلّدين) . ولكنه لم يقنع بالنصّ فراح يطلب التعرّف إلى كاتب النصّ . وعند قدَمي ابن أنس الشيخ ، امام المدينة ، جلس الشافعي ثمانية أشهر يتعلّم منه ، ولازمه إلى أن توفّاه الله .

في هذا الحين كان الشافعي قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره ، فأخذ يفكّر في أمرين : الزواج وكسب العيش . اما الزوجة التي اختارها فكانت حميدة ، امرأة من ذرّية عثمان بن عفان . وقد انجبت له ابناً عرف بأبي عثمان ، وابنتين. وهي الزوجة الوحيدة التي نعرفها . ولكنه تسرّى جارية له ولدت له ولداً مات

وهو طفل . اما ابنه ابو عثمان فقد حذا حذو أبيه ودرس الفقه ، وأصبح قاضياً في حلب . وبعد زواج الشافعي بقليل تعرّف إلى والي اليمن الذي كان قد قدم للحجّ . فعرض عليه الوالي مركزاً قبل به الشافعي وذهب معه إلى اليمن . وكانت اليمن تعاني من المنازعات والمشاحنات العلوية الشيء الكثير . وبعد انقضاء أعوام اتهم الشافعي بأنه علويّ ، فنمي الخبر إلى بغداد العباسية ، فأمر هارون الرشيد بحمله مع تسعة من العلوية ، فأمر بضرب رقابهم الواحد بعد الآخر إلى ان جاء دور الشافعي . وكان ثابت الجأش ، فسلّم على الرشيد فردّ الرشيد عليه السلام ولكنه عنّفه على انه تكلّم بغير اذن ، فأجاب الشافعي ، بأن الله غفور رحيم ، وان له قدراً من الحصانة يستطيع بموجبها أن يعرض أمره أمام الخليفة . أُخذ الرشيد بفصاحته وجرأته ، فسمح له أن يدفع عنه التهمة بأنه علوي . فقال الشافعي : كيف يستطيع الرجل أن يتكلم وأن يدفع عنه التهمة ويداه مغلولتان إلى عنقه ! فأمر الرشيد بإطلاق سراحه .

هذه الزيارة التي قام بها قسراً إلى بغداد فتحت أمام الشافعي سبيلاً إلى الاطلاع على المذهب الحنفي . وفي بغداد اتّصل بطلاّب ابي حنيفة وأتباعه . وفي أثناء معاشرة الحنفيين كان هذا العالم الحجازي يحتفظ لنفسه بحق المخالفة والاعتراض والنقاش تمشّياً مع المذهب المالكي الذي يبيح الخلاف والجدل في أمور الفقه . ولكن الشافعي ، في أثناء اقامته في بغداد ، كان يتعرّض لآراء المذهب الحنفي ويأخذ عنه عفواً أكثر مما كان يظنّ ذلك .

وبعد اقامة دامت سنتين أو ثلاثاً في بغداد عاد إلى الحجاز ومعه « حمل جمل من الكتب » ليشغل منصباً في التدريس في الحرم المكّي حيث حصّل علمه الابتدائي . وكان يحضر دروسه علماء جاءوا من جميع الاقطار الاسلامية لاداء فريضة الحج . قضى الشافعي تسع سنوات يعلّم ويعظ ويؤلف ، ولكن كان ينقصه الجو العلمي الفكري الذي لا يتوافر إلاّ في بغداد . لأن الحجاز ، بعد مالك ، لم يوفّر الجو الملائم لظهور النوابغ من العلماء . فكان طلاب مالك

يقنعون بما كان يقوله لهم شيخهم ، ويردّدون آراءه اجتراراً . وكان اتباع مالك يحرصون على خلق هالة من الاحترام يجلّلون بها هامة إمامهم العالم . وقد هاله أمر تعظيم الإمام مالك بن أنس إلى حدّ العبادة . وأدهى من هذا انه سمع ان بالاندلس قلنسوة لمالك يُستسقى بها . فشجب الأمر واظهر غضبه بقوله وبقلمه . ولم يكن الشافعي يدري ان مثل هذا الأمر الذي كرهه سيحصل له يوماً . وبدأ الشافعي في هذا الحين يفكّر بالذهاب إلى « عش العلماء » في الشمال الشرقي ، أي في بغداد . وجاءها هذه المرّة ليس كواحد من اتباع مالك ، ولا كواحد من اتباع ابي حنيفة ، ولكن جاءها كواضع مذهب جديد خاص به : المذهب الشافعي ، الذي اثّر في المذهبَين السابقَين ، وبزّهما في الشيوع والانتشار في ارجاء العالم الاسلامي .

لم يلبث طويلاً في بغداد حتى رأى الناس فيه إماماً غير منازع ، وعالماً دينياً زعيماً بفضل علمه . كان في بغداد ، في ذلك الحين ، خمسون حلقة من حلقات الدراسة في المساجد والجوامع . وكانت حلقته قد بدأت بستة طلاب ، ولكن لم ينقض وقت حتى فاقت جميع حلقات بغداد عدداً . والحلقة كناية عن عدد من الطلاب يحضرون دروس شيخ عالم ، ويجلسون على حصير في شبه دائرة ، ويجلس المدرّس على فراش سانداً ظهره إلى عمود من أعمدة المسجد . ولا تزال هذه الحلقات تُعقد في المساجد حتى يومنا هذا .

وبفضل علمه ورجحان عقله اكتسب الشافعي طلاباً وأتباعاً من اصحاب الرأي ، ومن اصحاب السنّة ، ومن الجماعة التي لم تكن بعدُ قد اعتنقت مذهباً معيّناً . كان الشافعي في نظر الذين كانوا يحضرون حلقته عالماً ينتقي ويصطفي ما يراه صائباً في المذهبَين المالكي والحنفي أكثر مما كانوا يرون فيه عالماً مبتدعاً مبتكراً مذهباً جديداً . وكان من طلابه المتحمسين له كثيراً ابن حنبل الذي وقع ضحية في المحنة أيام المأمون . عندما ذهب ابن حنبل لاداء فريضة الحج اجتمع بالشافعي وتعرّف إلى علمه . ويروى عن ابن حنبل قوله : « لقد ظلّ الفقه علماً مغلقاً حتى جاء الشافعي بمفتاح له » . ويروى عن ابن حنبل قوله : « يروى عن النبي

ﷺ : « ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يقرر لها دينهـا » ، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الأولى ، ويكون الشافعي على رأس المئة الأخرى . غـير ان ابن حنبل عدل عن المذهب الشافعي واستقل برأيه وأصبح فيما بعد مؤسس المذهب السنّي الرابع المحافظ : المذهب الحنبلي .

في أثناء اقامته ببغداد اصدر الشافعي النسخة الأولى لما أصبـح يعرف فيما بعد بالرسالة التي تعتبر اقدم مؤلف يُعنى بالفقه الاسلامي . وكانت الرسالة سبباً في انتشار صيته إلى أقاصي العـالم الاسلامي ، ولا تزال للآن كتاباً مدرسياً يدرّس في مدارس الفقه الاسلامي . واضـاف شهرة إلى شهرته بعـد أن قام بزيارة الاقطار المجاورة ، مثل سورية وفلسطين حيث كان له اصدقاء توثّقت بينه وبينهم عرى الصداقة في مكة المكرمة .

في سنة ٨١٥ (١٩٩ هجرية) غادر بغداد إلى مصر بصحبة والٍ جديد كان قد عيّن على مصر . ومما يستدعي الدهشة هو انه لم يكن قـد قامت في مصر بعد مدن حفلت بعلماء بارزين ، ولم يكن لمصر في ذلك الابان مكانة علمية . ولا يعلّل الشافعي لنا سبب مغادرته بغداد إلى مصر ، ولا يـذكر مؤرّخو سيرته شيئاً عن الاسباب . وعندما كان الشافعي يُسأل عـن السبب كان يقول : من فرط حبي لقصب السكر . ولعل الجواب عنه ان الخلافة افضت إلى المأمون سنة ١٩٨ ، والجو الذي خلقه حـكم المأمون لم يكن جوّاً ملائـماً لتفكير الشافعي . أمّا الاحتفال الرائع الذي احتفله المصريون بمقدمه إلى بلادهم فيدل على ان شهرته كانت قد سبقته إلى هناك ، على بعد المسافة ، وصعوبة المواصلات. في تلك الأيام لم يكن هنالك رياضيّو العاب ونجوم تمثيل تصوّب إليهم الانوار ، بل كانت الجماعة التي تصوّب إليها الانوار جماعة علماء الدين البارزين . وقد تقبّله الناس على انه الامام الموعود به على رأس كل مئة عام لـكي يقـيم للأمة امر دينها ، كما جاء في حديث نبوي شريف . وقد نظر الناس إلى الغزالي ، احد اتباع الشافعي ، على انه من اولئك الذين بُعثوا ليقيموا أمر الدين .

اقام الإمام الشافعي في الفسطاط ، وكان يمشي من هناك فجر كل يوم ، بعد صلاة الصبح ، إلى مسجد عمرو بن العاص ليلقي دروسه فيه . وكانت محاضرته الأولى عن القرآن الكريم ، وقد دامت إلى شروق الشمس ، عنـدما تناول الحديث . وفيما تبقى من الوقت قبل الظهر كان يلقي محاضرة في الوعظ والمناظرة وأُخرى في قواعد العربية والشعر . وعنـد الانتهاء من كل محـاضرة كان يفسح المجال لطرح الأسئلة والنقاش حول الموضوع .

بعد ان قضى الشافعي خمسة أعوام في التـدريس والتأليف ساءت صحته (٨٢٠) وكان ابن اثنتين وخمسين سنة . ويقول لنا المؤرخون انه كان يشكو من البواسير . وقد صحّ تنجيم المنجم الذي ذكره ابن خلـكان من ان المشتري الذي اشرق في فلسطين وانقض في مصر قد أضاء بعلمه بلدان المنطقة بأسرها . تشهد بذلك جماهير الزوّار الذين يزورون قبره عند سفح المقطم ، وعليه قبة انشأها الملك الكامل (١٢١١) ابن اخي صلاح الدين . وكان صلاح الدين نفسه من اتباع المذهب الشافعي . قالوا ومما يدل على ان الشافعي كان في حياته يؤثر أن يدفن في أرض مصر انبعاث رائحة التفسخ في جثته ، عندما ازمعوا نقله إلى بغداد ، فعدلوا عن ذلك. ويؤكد لنا الرواة ان طوال اقامته في بلد ما لم يصب ذلك البلد مرض أو وباء .

ولم ينقطع سيـل الرسائل التي كانت ترده في حياتـه بل استمر بعـد وفاته إلى يومنا هذا . في سنة ١٩٦٥ ظهر مؤلّف كبير (٣٨٧ صفحة) وضعه اديب اطّلع على هذه الرسائل ، فوجد ان نصف اصحابها من الرجال والنصف الآخر من النساء ، كما ان محتويات الرسائل تنقسم إلى قسمين متساويين أيضاً . قسم منها شكاوي وقسم شفاعات والتماسات . اما الشكاوي فتتضمّن أمـور الظلامات والتعدي التي كان يلقاها صاحب الرسالة من الناس او من الموظفين ، واما الالتماسات فكانت في معظمها طلب الانصاف واحقاق الحق ، أو الشفاء من مرض كالعمى والشلل . وكثير من هـذه الرسائل يخاطب فيها الكاتبُ الشافعي بقوله : « يا شفيعي » . هذا وان المؤلف لم يكن في مقدوره ان يثبت

نص الرسائل التي كان أصحابها يسلـّمونها الى القيم على المزار تسليم اليــد والتي كثيراً ما كنت ُتحرق اسبوعاً بعد آخر .

- ٣ -

يسمّى العـلم الذي يعنى بالشريعة الاسلامية علم الفقه ، ولفظة فقه تعني الفهم والادراك ، وهو العلم الذي وضع اصوله الامـام الشافعي . والعلم الذي يعنى بغيره من العلوم يطلق عليه لفظة علم وتعني المعرفة بالشيء . وسمي الفقه فقهـاً لأنه يتطلـّب قدراً كبيراً من الموهبة العقلية وحسن الادراك . وينبغي للفقيه أن يكون صاحب رأي واستقلال في تفكيره اكثر ممـا يتطلب من العالم . وعلم الفقه الاسلامي فريد من نوعه ، بمعنى انه علم عربي أصيل ، وليس كالرياضيات والطـّب وغيرهـــا من العلوم التي تعتبر دخيلة . فلم يكن للفرس او الشعوب الاوربيــة اي اثر فيه ، ولم يتـّبـع في اسلوبه علمـــاً آخر نسج على منواله . ومؤسس عـــلم الفقه لم يكترث بالفلسفة اليونانيـــة ، حتى ولا بالمنطق الارسطوطاليسي ، ولم يمل الى علم الكلام . هذا مع العلم انه عاش في جـــو فكري ديني تصطرع فيه المعتزلة والشيعة والفلاسفة وعلماء الدين في مناظرات ومناقشات حادة ، مستخدمين في ذلك المنطق القياسي ، والطريقـــة التعليمية ، واساليب الوعظ التي من شأنها ان تؤثر فيه وفي اسلوبه ومـع ذلك كله فانه لم يتأثر بها .

ان الغايـة من الفقه في نظر الشافعي ، وفي نظر زملائه من الفقهاء ، تنظيم العلاقة بين الانسان وخالقه (وهي العبادات) وبين الانسان نفسه وسائرالناس (المعاملات) . فالفقه من هذه الناحية يشمل علم الدين (اللاهوت) ، وعليه فان الفقهاء ظهروا قبل علماء الدين زمنياً . يتناول علم الفقه الشامل أحكام

الفروض الدينية والعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحـج . كما انه يتناول وضع القوانين الجزائية والمدنية ، حتى انه يتعدى هذه الأمور فيتناول قوانين السلوك والاخلاق والآداب العامة . وهكذا يقسّم الفقه كل اعمال الانسان إلى حلال وحرام ، وإلى ما يقـــع في درجات متفاوتة بين الفئتين من الاعمال . والحلال قد يكون فرضاً نصّ عليه القرآن الكريم ، أو أوجبته السنة ، أو فعلا مستحبّــا ورد في السنة . وإلا فيكون العمل مكروهاً أو حراماً . ثم هناك طائفة أخرى من الأعمال المباحة . وهنالك المباح .

والقرآن غير المخلوق هو كلام الله ، فهو المصدر الأخـــير للتشريع كله . ومصادر الشريعة الأخرى ثانوية ومكملة وأكثرها مستمدّ من المصدر الأول . فكل قانون ، وكلّ شرع ، مصدره القرآن نصّاً أو ضمناً . هذا هو رأي السنة ، وكان الشافعي يقر هذا الرأي . وجاء في القرآن الكريم « انا أنزلناه قرآناً عربياً » (يوسف، ٢) « وكذلك أنزلناه حكماً عربياً » (الرعد، ٣٧) « قرآناً عربياً غير ذي عوج » (الزمر، ٣٩) وعليه فقد وجب على كل عالم ديني ان يلم الماماً حسناً باللغة العربية ، صرفها ونحوها وبيانها ، كما انه ينبغي للمؤمن ان يتدارس القرآن ، وان يتلو صلواته باللغة العربية . حتى ان الشافعي كان يعتبر كل عقد زواج يعقده الرجل المسلم لا يكون مكتوباً باللغة العربية لاغيــاً . من جهة ثانية كان ابو حنيفة يجيز تلاوة الفاتحة باللغة الفارسية .

ُتعتبر السنـّة ، بعد القرآن الكريم ، مصـــدراً من مصادر التشريع . والسنـّة هي المأثور عن حياة الرسول واخلاقه وأعماله غير التي عليها في القرآن نص معيـّن. وقد حدّد الشافعي السنة على انها التصرف أو السلوك الأمثل الذي سلكه النبي في حياته . والمؤمن ، بحسب ما جــاء في القرآن الكريم (سورة الاعراف،١٥٨، سورة التغابن،٨، كذلك سورة النساء، ١٧٠، سورة الحشر،٧) يؤمن بالله وبرسوله . وكان الشافعي يفسر كلمة « الحكمة » الواردة في القرآن الكريم (سورة المائدة ، ١١٠ ، سورة النساء ، ١١٣ ، سورة الجمعة ، ٢) بأنها

الحديث النبوي . ولكن قد يكون المعنى المراد الأدب الحكمي الوعظي كما هو في بعض أسفار العهد القديم مثل الأمثال ، وسفر الجامعة ، ويعرف بالعبرية بلفظة « حكمة » (hokhmah) .

هنا يخالف الشافعي المذهب المالكي . كان المذهب المالكي يأخذ بسنّة الصحابة والتابعين للانتفاع بها في وضع الأحكام . اما الشافعي فلم يكن يقول بالأخذ عن الصحابة والتابعين ، لانه كان يضع السنّة مع الكتاب في مرتبة واحدة لانها مبيّنة له مفصّلة لمجمله ، فيضعها مع الكتاب إذا صحّت . من هنا كان حرصه على التثبّت من صحة الأحاديث المنسوبة إلى الرسول . فراح الشافعي يضع أصولاً ومقاييس للعلاقة بين السنّة والكتاب . يجب أولاً أن يكون الإسناد صحيحاً غير منقطع ، بل يجب ان يتصل بالنبيّ . والأحاديث الثابتة الصحيحة يجب الا يناقض بعضها بعضاً ، وإذا كان هنالك تناقض بين حديثين فالأقرب منهما إلى القرآن هو الذي يجب أن يكون مقبولاً . وكان الشافعي يرفض الأخذ ببعض الأحاديث في موطّإ مالك لضعف في الاسناد . ولا يمكن لحديث نبوي أن يكون مناقضاً للقرآن ، كما انه لا يمكن لحديث نبوي ان ينسخ ما في القرآن . إذ لا تُنسخ آية قرآنية إلا بآية أخرى أحسن منها . والله سبحانه حرّ في تغيير أحكامه . فالسنّة إذن ، في رأي الشافعي ، مبيّنة للكتاب ومفسرة له . وإذا ثبتت صحة الحديث يجب ان يؤخذ دون تساؤل .

وكما اننا لا نسأل « كيف ؟ » و « لماذا ؟ » في أمور النص كذلك لا نسأل ذلك في الحديث النبوي الثابت . بحسب هذا الرأي يرتقي الحديث الثابت إلى مرتبة الوحي ، وبالتالي إلى مرتبة القرآن بفارق هامّ : في القرآن يتكلّم الله سبحانه ، اما في السنّة فالذي يتكلم هو النبي . والقرآن وحي معنى وحرفاً ، واما السنّة فوحي معنىً فقط .

يذهب الشافعي في الرسالة التي ألّفها إلى انه : يمكن ان يكون الحديث النبوي مطابقاً للكتاب ، أو قد يكون مفسّراً ومبيّناً له ، وقد لا يكون له علاقة

مباشرة مع نصّ الكتاب ولكن لا يجوز بحال من الأحوال ان يُقبل الحديث الذي يناقض أو يغيّر ما في الكتاب أو ينسخه . على ان هذا الموقف الذي وقفه الشافعي من الأحاديث النبوية أوقعه في مشكلات ، منها ضرورة التوسّع في قيمة الحديث بالنسبة إلى تفسيره النص أو تبيانه . ففي القرآن مثلاً (سورة المائدة، ٣٨) يعاقب السارق بقطع يده ولكن في حديث نبوي يمكن الغاء هذا العقاب إذا كانت السرقة أمراً تافهاً . كذلك في القرآن (سورة النور ، ٢) يجلد الزاني مئة جلدة ، ولكن في حديث نبوي يرجم الزاني إذا كانت فعلته شنيعة .

كان للشافعي الفضل في وضعه الحديث الثابت في مرتبة القرآن كمصدر من مصادر التشريع الرئيسية . وإلى جانب هذا وضع الشافعي أيضاً أصول علم الحديث وأحكامه ، حتى انه أصبح علْماً مستقلاً بذاته . ونحن لا نعرف أمة أخرى جعلت من السنّة علماً قائماً بذاته . ويظهر لنا أثر الشافعي في ظهور مجموعات من الأحاديث النبوية بعد وفاته بوقت قصير ، وأصبحت مجموعات مقبولة معترفاً بها .

عندما انتصف القرن الثالث هجري كان قد ظهر عدد كبير من مجموعات الحديث – الثابت منها والمشبوه ، والمتناقض والمنحول – ذلك لأنه كلما ظهرت فرقة سياسية أو دينية ، وكلما طرأ تغيير اجتماعي ، كان الناس يضعون الأحاديث عن لسان النبي تبريراً لدعواتهم ودعماً لنظرياتهم ومآربهم . وكان جامعو الأحاديث يجوبون الأقطار الاسلامية يتلقّطون فيها ما كان يُروى عن النبي . وكانت كل طائفة تحاول تبرير نظريتها بأحاديث معروفة ، وإذا لم يكن هناك أحاديث تلائم دعواهم فانهم كانوا يضعونها . وكان الانقسام الذي حدث في الإسلام ، والذي جعل الناس فئتين شيعيين وسنيين ، باباً واسعاً لوضع الأحاديث . وظلّ الفقهاء وعلماء الدين الأول يبدون استنكاراً لتدوين الحديث خشية اختلاط أمره بالكتاب . وبقاء الحديث رهناً بذاكرة حفّاظه من شأنه

ان يؤدّي إلى اختلاف في روايته بسبب النسيان . وكثيراً ما كان رواة الحديث يضعون الأحاديث عن حسن طوية ، وغايتهم هداية من كان مشككاً أو متردّداً ولكن كثيراً ما كان وضع الأحاديث لغاية في النفس ، مادية كانت أم سياسية . وكان القصاصون الذين يدّعون بانهم من رواة الحديث يضعون الأحاديث الغريبة ظنّاً منهم انه كلما كان الحديث فريداً غريباً من نوعه كان أنفع لتجارتهم . ويذكر الرواة خبر رجل من الكوفة كان يضع الحديث فأعدم هناك سنة ٧٧٢ بعد ان اعترف انه وضع من نفسه أربعة آلاف حديث نشرها بين الناس. ويقال ان الصحابي، أبا هريرة ، روى ٥٣٧٤ حديثاً بعضها مدسوس عليه بعد وفاته . وعندما اعتنق فريق من المسيحيين واليهود الإسلام راح بعضهم يضع الأحاديث الشبيهة بما هو في التوراة والانجيل ناسبينها إلى الرسول العربي . فعندما سئل النبي كم مرّة للرجل ان يغفر زلّة عبده أجاب « سبعين مرة في اليوم » وهو قول من أقوال السيد المسيح . ومثال آخر على هذا عندما أطعم النبيّ بعد معركة وقعت خارج المدينة (٦٢٧) ألف مقاتل تَعِبٍ جائعٍ من دجاجة واحدة وعدد قليل من الأرغفة، وهذه اعجوبة من اعاجيب السيد المسيح .

وهكذا استُخدم الحديث لتبرير أمور طارئة في الحياة الاسلامية وفي الفكر الاسلامي ، كما انه كان أداة في يد من يرى قسوة وتزمّتاً شديداً في النصوص الدينية فيطلب تليينها أو تعديلها .

وشعر الناس انه قد آن لمجموعة الحديث ان تؤخذ بالدرس النقدي بغية وضع علم له منظّم القواعد والأحكام . وكان الشافعي قد مهّد السبيل لذلك . وكان أول من تصدّى لمثل هذا العمل رجل من أتباع مدرسة الشافعي من بخارى يعرف بالبخاري (توفي ٨٧٠) . قيل انه انتقى ٧٣٩٧ حديثاً من مجموعة عدد احاديثها ٦٠٠،٠٠٠ جُمعت من روايات ألف شيخ من شيوخ الحديث ، وذلك في مدى ست عشرة سنة قضاها في التسفار والعمل الشاقّ في بلاد

فارس والعراق وسورية والحجاز ومصر . ومن مجموعة الصحابي أبي هريرة أخذ ٤٤٦ حديثاً . وقبل ان يدوّن الحديث كان هذا الرجل الورع المخلص لعمله يتوضأ ويصلّي ثم يدوّن. وكانت هذه المجموعة، وتعرف بالصحيح، اقدم مجموعة للحديث وأصحّها رواية .

وهكذا أصبح لتدوين الحديث مصطلح واسلوب. والحديث الثابت الصحيح يتألف من جزأين الأول منهما الاسناد ، والثاني المتن . والحديث يجب أن يكون قولاً مقتبساً عن النبي مباشرة . ويبدأ الاسناد هكذا : حدثني فلان ، قال حدثني فلان عن فلان ... قال ... وقد اتبعت هذه الطريقة في الاسناد في العلوم الدينية ، وفي التاريخ ، وفي سائر العلوم . وصحة الحديث تتوقّف على خُلق الراوي وصدقه وقرابته من الذي أخذ عنه في سلسلة الاسناد . وقد قسّموا الحديث إلى أربعة أصناف : الصحيح والحسن والضعيف والسقيم . وكان هذا التقسيم يتناول في الأكثر رجال السند أكثر مما كان تقسيماً قائماً على نقد المتن .

ومما قدّمه الشافعي لعلم الفقه قضية توضيحه وتنظيمه وقضية الاجماع . والاجماع ، بعد الكتاب والحديث ، هو المصدر الثالث الذي يُستمدّ منه الشرع . وكان الاجماع مبدأ يؤخذ به كثيراً قبل زمن الشافعي ، ولكن لم يكن بين الفقهاء أنفسهم اجماع على تحديد الاجماع وشروطه . هل الإجماع اجماع جماعة معيّنة أم اجماع المسلمين كافة ؟ وهل كان الاجماع رأي الفقهاء كافة أم رأي الغالبية منهم ؟

وقد كان للشافعي آراء مختلفة أبداها في أوقات وأمكنة مختلفة ، كما يظهر لنا من دراسة كتابه الموسوم بالأمّ . وقد وصلنا هذا الكتاب الضخم في الفقه عن طريق أحد تلاميذه في مصر (وله طبعة مصرية صدرت في القاهرة سنة ١٩٦١ في ثمانية مجلدات) . ولكنه كان يتشدّد في نقده نظرية الاجماع المحلي أو الاقليمي كما كان يفعل مالك في اعتباره اجماع أهل المدينة المنوّرة في زمنه .

كان الشافعي يقول باجماع أهل الرأي في كل عصر ، أي انه كان يأخذ بنظرية أهل العراق في الاجماع . فوسّع بذلك القاعدة التي يقوم عليها الاجماع باعتباره انه الرأي الذي يقره أهل العلم بالاجماع . ولم يكن الاجماع مبدأ تقرّه جماعة الفقهاء حول طاولة مستديرة ، بل كان مبدأ يتقبّله الفقهاء على انه أمر واقع متفق عليه . وكان الشافعي في جميع مناظراته مع الفقهاء يصرّ على ان حديثاً ثابتاً صريحاً عن لسان النبي يجب ان يفرض سلطانه على كل أمر آخر جرى المسلمون عليه .

يبدو ان فقيهنا الشافعي ، صاحب الذكاء المتوقّد ، عجز عن ان يرى القوة الكامنة في هذا المصدر من مصادر الشريعة . كذلك عجز أصحاب الاجماع عن ان يجدوا له نصّاً في القرآن . فإن الآية الكريمة التي فيها اشارة إلى انهم كانوا « أمة وسطاً » (سورة البقرة، ١٤٣) وانهم كانوا على خلاف فيما بينهم ، كانت بعيدة عن ان تكون نصاً يبرّر الاجماع . إنما كان في الحديث ما يدعم الاجماع، والحديث مهّد السبيل لمبدإ الاجماع ، ومن بعد وفاة الشافعي أصبح الاثنان من مصادر التشريع . ففي الحديث ، مثلاً : « لا تجتمع أمتي على ضلال » . وفي حديث آخر : « ان الله اجاركم من ثلاث : ان يدعو عليكم نبيكم فتهلكوا ، وان ينصر أهل الكذب منكم على أهل الصدق ، وان تجتمعوا على ضلالة » .

ولم يقتصر الاجماع على ملء الفراغ في التشريع حيث لا نصّ ولا حديث ، بل كان يوفّر للقاضي الثقة عند اصدار أحكامه ، كما انه كان يوفّر لمختلف المؤسسات الاجتماعية الضمانة الضرورية لدعمها وتقويتها. فبواسطة الاجماع قُبل نص القرآن كما جمعه الخليفة عثمان، وبواسطة الاجماع أصبح الختان — وهو عادة سامية قديمة العهد — عادة اسلامية متبعة ، وعلامة فارقة كالعمادة عند النصارى . ثم ان بعض الشعائر والعادات الدينية السابقة للاسلام ظلّت متبعة بعد الإسلام وذلك عن طريق الاجماع . كذلك الأمر في ما كان يحسبه علماء الدين خروجاً على الدين ، أو بدعة باطلة ، فإنه بواسطة الاجماع أصبح أمراً

مألوفاً مقبولاً في معتقدات العامة من الناس . ومما يضفي على مبدإ الاجماع امتيازاً لا نجده في مصدري التشريع السابقين ، الكتاب والحديث ، هو ان الاجماع يتجدد من تلقاء نفسه عند علماء كل جيل من الاجيال . فإن الوحي انقطع عند وفاة النبي ، وكذلك جمع الحديث تمّ وانتهى أمره عند انقضاء ثلاثة قرون . فلم يبق من مصدر يتجدّد كالاجماع والقياس ، وبهذا يستطيع فقهاء المسلمين ان يجدّدوا في التشريع لكي يظلّ المجتمع الاسلامي مجتمعاً يتطوّر بحسب الزمن .

والأصل الرابع والأخير في الفقه الاسلامي هو القياس . ولا يعود الفضل في اعتبار القياس مصدراً (أو أصلاً) من مصادر الفقه إلى الشافعي ، كما ان الشافعي لم يضع مبدأ الاجماع . كذلك لا يعود الفضل في وضعه إلى أبي حنيفة الذي كان يأخذ به كثيراً . كان الشافعي ، عندما يشير إلى الفقه العراقي، يسمّي أصحابه « أهل القياس » . ولم يكن المذهب المالكي يثق بالقياس ، واما المحافظون (الحنابلة) فلا يعتبرونه أصلاً .

القياس هو أشبه برأي شخصي . إذا وقع حادث ، أو طرأ في المجتمع طارىء لا نصّ له في القرآن الكريم ، ولا في سنن النبي ، يُقاس الطارىء الجديد بما يقابله أو يماثله من حادث في القرآن أو السنّة ، ويُحكم به استنتاجاً واستدلالاً . وكان أصحاب القياس ، كأصحاب الاجماع ، يجدون صعوبة في ايجاد نصّ في القرآن يبرّر مبدأ القياس . وكان القياس يلقى معارضة عنيفة لدى المحافظين والذين يأخذون بحرفية الكتاب . فكان الحنابلة يأخذون بحرفية النص ، ويستنكرون كل بدعة جديدة . ولم يكن الشافعي شديد الحماسة للقياس . وفي الرسالة يتسامح باللجوء إلى القياس إذا لم يكن نصّ أو حديث أو اجماع ، وفي حالات معيّنة ، يكاد لا يقبل به أصلاً في الفقه . وكان يضع شروطاً أخرى في القياس غير شروط المشابهة والمماثلة ، منها النظر في العلّة التي تكمن وراء النصّ أو السنّة . وهذا الشرط جعل القياس مبدأ يحترمه الفقهاء .

باقراره مبدأ القياس المشروط يكون الشافعي قد أنهى عمله الفقهي العظيم . عندما بدأ عمله كان لديه جميع المصطلحات الفقهية : الحديث ، السنة ، الرأي ، الاجماع والقياس ، ولكنهـا لم تكن مصطلحات محدّدة المعنى والشروط . فاجتهد الشافعي في تحديدها وتقييمها وايجـاد العلاقة المشتركة بينها ، وبذلك يكون قد وضع علماً للفقه محكماً متماسكاً . وصارت نظريته في الاصول النظرية الكلاسيكية . ولقيت القواعد التي سنها للفقه الاسلامي قبولاً عامّاً . ولم يكن قد بقي عليه إلا أن يجد في الحديث ما يدعم به نظريته في اصول الفقه . ولم يجد الشافعي صعوبة في الأمر . ذلك ان النبيّ ، عندمـا ولى معاذ بن جبل على اليمن ، سأله : يا معاذ بم تحـكم ؟ قال : بكتاب الله . قال : فان لم تجـد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيي . قال النبي : الحمد لله الذي وفـّق رسول الله لما يرضاه .

بهذا يكون باب الاجتهاد قد أغلق نهائياً ، وأصبح كل مسلم سني ينتمي إلى مذهب من المذاهب السنية الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعيـة والحنبلية . وله الحق والخيار ان ينضمّ إلى مذهب دون الآخر ، ولكن يتوجّب عليه ان يكون مخلصاً في ولائه للمذهب الذي يختاره ، وان يقبل باحكامه .

لم يجد مؤرخو سيرة الشافعي في خلقه وفي حياتـه ما يؤخذ عليه . حتى لو أراد الناقد ان يجد نقصاً أو عيباً لما استطاع ان يجد ذلك في سجلـّه ، هذا مع العلم ان لدينا ديواناً له من الشعر ، كما اننا نعرف رسائله وأدبه وكلها مصادر أولية تعكس لنا حياته وأخلاقه . وبالمناسبة نذكر ان أدبه الذي يتسم ببساطة الصحراء وصفائها يُعتبر أدباً رفيعاً . فهو أدب واضح في تعبيره وغنيّ بفكره ، ولا يزال الناس يستظهرون شعره ويردّدونه . ومما يتحلى به هذا الأديب والعالم الديني زهده وعزوفه عن الدنيا ، وكرم أخلاقه وتواضعه . ويذكرون أخباراً وروايات عديدة تُظهر لنا كرمه وبذله . ويكثر ترداد خبر توزيعه عشرة آلاف درهم كانت في جيبه وهو في مكة على طريقه إلى اليمن ليتسلـّم منصبه . فقد

كانت أمه توصيه ان يفرغ ما في كيسه من دراهم إذا دخل مكة المكرمـة . وفي القاهرة كثيراً ما وهب آخر درهم في جيبه لقاء خدمة يلقاهـا أو طلب يتقدّم به سائل . وعندما كان يدور النقاش حول كتبه ومؤلفاته في حضرته كان يقول : « وددت ان الناس تعلموا هذا العلم ، ولا يُنسب إليّ شيء منه فأوجر عليه ولا يحمدوني » .

ومما يستأثر باعجابنا بالرجل امانته الفكرية واخلاصه الشديد للحقيقة . كان خطيباً مؤثراً ومجادلاً لا يقارَع ولكن بالرغم من ذلك كله كان يقول :

ما ناظرت أحداً فاحببت ان يخطىء . وما في قلبي من علم إلا وددت انه عند كل أحد ، ولا يُنسب إليّ . مـا كلمت أحداً قط إلا أحببت ان يوفـّق ويسدّد ويُعان . وما كلمت أحداً قط إلا ولم أبالِ بيّن الله الحق على لسانه أو لساني [1] .

الإمام الشافعي ، العالم الديني ، والشاعر ، والكاتب ، والمعلم ، والفقيه ، والرجـل القديس ، وضع أصول الفقه على أساس علمي لا يضاهيه في شموله ، واحاطته ، أي نظام فقهي آخر . هـذا النظام الفقهي نظـّم العلاقـات بين ملايين المؤمنين المسلمين وبين خالقهم ، وبينهم وبين سائر الناس .

(١) ابن أبي حاتم : أدب الشافعي ومناقبه ، نشر عبد الغني عبد الخالق (القاهرة ١٩٥٣) ص ٩١ ، ٩٢ - ٩٣ . محمد بن عمر (فخر الدين) الرازي : مناقب الإمام الشافعي (القاهرة ١٢٣٧) ص ١٣٠ . أبو الفرج ابن الجوزي : تلبيس ابليس ، نشر محمـد منير الدمشقي ، الطبعة الثانية ، (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٢٠ .

الكِنْدِيّ

فيلسوف العرب

ان أعلى الصناعات الانسانية منزلة ، واشرفها مرتبة ، صناعة الفلسفة التي حدّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، لأن غرض الفيلسوف في علمه اصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق .

الكندي

لم يكن هناك ، على وجه التدقيق ، فلسفة تُعرف بالفلسفة العربية . كانت الفلسفة العربية دخيلة بخلاف ما كان عليه الأدب العربي الذي كان أدباً عربياً أصيلاً . ولا تزال لفظتا « فيلسوف » و « فلسفة » المعرّبتان تشهدان على صحة قولنا .

اما إذا أُخذت الفلسفة بمعناها اللغوي الصرف — « فيلوسوفيا » تعني محبة الحكمة — لا بمعناها الاصطلاحي فإن العرب كانوا من محبّي الحكمة . فقد كان الأدب العربي ، منذ أقدم عصوره ، غنياً بحِكَمه ، وبأمثاله ، وبقصصه ، وبخرافاته التي كانت تستهدف غرس الفضائل في نفس المرء ، كالشجاعة ، والكرم ، والعصبية القبلية ، وغيرها من الأخلاق الكريمة . فقد كان عندهم

لقمان ، ضارب الأمثال والحكم ، الذي أصبح ايسوب العرب . ويُعتبر علي بن أبي طالب حكيم العرب كما كان سليمان حكيم العبران القدماء . وإلى علي تُعزى أعداد وفيرة من الاقوال الحكيمة . ولكن الفلسفة لا تمتّ إلى الحكمة بصلة .

وبظهور الإسلام ظهر نوع جديد من التفكير الفلسفي : علم اللاهوت، أو علم الدين . واصول علم الدين المثبتة في القرآن الكريم وفي الحديث تشكل نظاماً شاملاً متوازناً يتناول جميع شؤون الحياة الانسانية ، كما انه يتناول كنه الله وصفاته ، ويفسّر خلق الإنسان وطبيعته ، ويحدّد علاقته بخالقه ، وعلاقته بالطبيعة حوله ، وبأخيه الانسان . هذا النظام الديني الذي أصّل علماء الدين والفقهاء أصوله وضبطوا أحكامه هو الشريعة الاسلامية . ولكن الفلسفة ، منذ ظهورها عند العرب ، لم تكن ذات صلة بالشريعة ، لأن الفلسفة العربية في جوهرها كانت فلسفة اغريقية نقلها إلى العربية تراجمة من النصارى ، ثم أعاد المشتغلون بالفلسفة من المسلمين تأليفها لتلائم نزعة العقل العربي ، ولكي تنسجم مع أحكام القرآن ومع العقيدة الاسلامية . ولكن الاطار العام لهذه الفلسفة العربية ، ومدى شمولها وافتراضاتها الاساسية ظلّت في معظمها اغريقية .

حتى منتصف القرن التاسع للميلاد ، العصر الذي زها فيه الكندي في بلاط العباسيين ، كان علماء الدين السنّيون ، والفقهاء ، والمعتزلة المتطرفون ، والصوفية الغيبية ، هم الوحيدين الذين يتنافسون على السيطرة على تفكير الجماهير . وجميعهم من أهل البلاد الأصليين . ثم أخذ تيّاران حضاريّان يتسرّبان إلى الفكر العربي ، أولهما الفارسي الهندي الذي لم ينطو على مشكلة فكرية بالنسبة للعرب ، ولم يكن بالنسبة اليهم تحدياً ، وثانيهما الفكر الاغريقي الذي كان تحدياً سافراً للفكر العربي السائد آنذاك . وهذا الفكر الاغريقي ، كما ذكرنا آنفاً ، انتقل إلى العرب عبر التراجمة النصارى من السريان ، وغالبيتهم من الأطباء ، في عهد الرشيد والمأمون . وقبل هذه الفترة التي نحن بصددها كان الفكر اليوناني والحضارة اليونانية في عهد السلوقيين والرومان والبيزنطيين

قد انتقلت إلى كل من سورية ومصر ، فلم يكن الفكر الاغريقي غريباً عن الناس ، ولم تكن الحضارة الاغريقية مجهولة عندهم ، بل كان الأمر على نقيض هذا . وفي اثناء خمسة قرون كان العلماء النصارى من السريان في الهلال الخصيب يتدارسون الارث الحضاري الاغريقي ويقتبسون عنه ما كان ينسجم مع ذهنيتهم ، ويدرجونه في صلب حضارتهم السامية . فكان بولس الرسول ، مثلاً ، يجيد الاغريقية ، وعلى اطلاع حسن على الفلسفة الاغريقية . ففي رسائله التي بعث بها إلى الكنائس المسيحية ، التي كانت قد تأسست في الشرق الأوسط، عدد كبير من الامور الفلسفية ذات الأصل الاغريقي تتعلّق بالطبيعة البشرية ، وبتقسيم الجسد . وكانت الفلسفتان السائدتان اللتان كان على المسيحيين الأول ان يجابهوهما اغريقيتين : أولاً ، من حيث الزمن ، الفلسفة الرواقية، ثم الافلاطونية المستحدثة . وهما من نتاج الفكر الاغريقي . وكان على المسيحيين ان يُوجدوا بينهم وبين هاتين الفلسفتين نوعاً من الحوار. كان مؤسس الرواقية فينيقياً قبرصي المولد، اسمه زينون (٣٣٣ – ٢٦١ ق. م.)، وسميت الرواقية نسبة إلى رواق له في اثينا كان يدرّس فيه . كان بولس الرسول وآباء الكنيسة الأول من الاسكندرية هم الذين لقّحوا المسيحية بالفكر الاغريقي . وجعلوا الشعب الاغريقي الروماني يستسيغها ومهدوا لانتشارها في جميع أنحاء الدنيا . وفي الاسكندرية حيث كانت تلتقي موجات الفكر الوثني واليهودي والمسيحي ، فتصطرع احياناً لتعود فتتوافق احياناً أخرى ، نقول في الاسكندرية زها في العشر سنوات الأخيرة من القرن الثاني رجل اكليريكي ينتمي إلى المدرسة المسيحية التعليمية اسمه كلمنت . وكان أولاً رجلا وثنياً ولكنه كان متعمقاً في الفلسفة الاغريقية. وقد اسس كلمنت مدرسة الاسكندرية لعلم اللاهوت المسيحي. وتابع عمله هذا تلميذه الذي فاقه شهرة ، اوريجين. كان اوريجين من مواليد مصر، وقد وُلد وثنياً ثم اعتنق المسيحية . وكان عمله ان يوفّق بين الأحسن في الحضارة الوثنية القديمة وبين الفكر المسيحي الجديد. ولكي يبلغ هدفه هذا لجأ إلى تفسير

النصوص الدينية تفسيراً رمزياً . وحاول رجل يهودي معاصر لبولس الرسول، واسمه فيلو ، من مدرسة الاسكندرية ، ان يوفّق بين الفلسفة الافلاطونية الارسطوطاليسية وبين المعتقدات الدينية اليهودية على ما هي مثبتة في أسفار موسى الخمسة. كما انه حاول ان يفسّر العقيدة اليهودية على ضوء الفكر الاغريقي المعاصر له. ولعلنا نستطيع القول بان أولئك العلماء من المسيحيين واليهود الأول كانوا يحاولون ان يصبغوا الفكر الاغريقي بصبغة ساميّة ، الأمر الذي مهّد السبيل للمسيحية واليهودية ان تصبغا المعارف الاغريقية بصبغتها .

— ١ —

ان الفكر الديني الاسلامي ، كالفكر الديني المسيحي واليهودي ، أحلّ النبوءة ، والتوصّل إلى الحقيقة عن طريق الحدس الداخلي ، المحلّ الأول . والإسلام ، كالمسيحية واليهودية ، يقوم على الوحي ويتطلب الايمان به والتسليم. والعقل السامي لم يكن يرى في القوى العلوية قوى غير عقلانية بالضرورة . من جهة ثانية احلّ الاغريق العقل في أرفع مرتبة ، وجعلوه القوة التي تحدّد ما هي الحقيقة . فكانت فلسفتهم تعتمد العقل البشري وتأخذ بالمنطق كأداتين للوصول إلى الحقيقة . ولا نعلم أمة من الأمم القديمة اعتمدت العقل ووضعت ثقتها به للتوصّل إلى الحقيقة كالامة الاغريقية .

نشأت الفلسفة العربية في مثل هذا الجوّ من الفلسفة الاوربية وفي ألوانها اليهودية المسيحية . ونشأة الفلسفة العربية دليل رائع على قدرة الفكر ان يتخطّى الزمان والمكان ، وان يتغلّب على الحواجز الدينية والحدود القومية . ولا يعزى الفضل في نشأة الفلسفة العربية إلى فلسفة افلاطون وتلميذه ارسطو كما علّما الفلسفة في القرن الرابع قبل الميلاد ، بل إلى آخر شكل من أشكال تطورها في الفلسفة الافلاطونية المستحدثة خلال القرن الرابع الميلادي . هذه

الفلسفة ، الافلاطونية المستحدثة ، نشأت في الاسكندرية كنظام فلسفي تركيبي ، أو جمعيّ يجمع بين عناصر الفيثاغورية المستحدثة التي تبالغ في تقدير الأعداد، وبين بعض العناصر الافلاطونية ، لا سيما الميتافيزيقية منها، والنظريات الارسطوطاليسية المبنيّة على منطقه ، والتعاليم الرواقية الأخلاقية . كما ان في الافلاطونية المستحدثة بعض العناصر الباطنية الشرقية . وفي زمن تالٍ دخلتها عناصر يهودية كما علّمها الربانيون ، وعناصر مسيحية كما فسّرها آباء الكنيسة .

كان انصار الافلاطونية المستحدثة رجالاً من الشرق الأدنى ، وكان المؤسس افلوطين (توفي ٢٧٠ ق. م.) المصري المولد والاسكندراني النشأة والتربية . وكان يعلّم في روما . وكان تلميذه فرفوريوس (لابس الأرجوان ، توفي حوالي ٣٠٥) صوري المولد واسمه ملك ، مما يدل على أصله السامي . وهو الذي فسّر مذهب افلوطين ووضع نظاماً ظلّ سائداً طيلة قرون . وكان لفرفوريوس تلميذ سوري المولد اسمه ايامبليخوس (توفي حوالي ٣٣٣) من اتباع مذهب فيثاغورس المستحدث . وكان هذا التلميذ يذهب إلى ان للارقام أهمية تتجاوز اهميتها الحسابية .

ان التصادم الفكري الذي وقع بين الفكر الاسلامي والاغريقي في القرن التاسع في بغداد جعل هذا القرن من أمتع قرنين عرفها النشاط الفكري في التاريخ العربي . وكان على التاريخ ان ينتظر انقضاء ألف سنة قبل ان يحدث تصادم مماثل . في الفترة الأولى من هذا التصادم كان الفريقان ينظران الواحد إلى الآخر نظرة عداء . فقد كان أصحاب الفكر في الإسلام ، ومعظمهم من علماء الدين ، لا يرون مجالاً للتعايش بين الإسلام والفلسفة الاغريقية . فانها كانت مشكلة واجهها علماء الدين من النصارى واليهود . فقد كان هذا التصادم يعني اما اخضاع علم الدين لأصول الفلسفة ، وهذا معناه القضاء على الإسلام قضاء مبرماً ، واما اخضاع الفلسفة لاصول علم الدين ، وهذا معناه زوال الفلسفة . فلم يكن من اليسير ان يستسلم أحدهما للآخر أو أن يتسامح تجاه الآخر .

وصل الفريقان أصحاب الدين وأصحاب الفلسفة الاغريقية إلى طريق مسدود ، عندها ظهر الرجل الذي كان لها . كان رجلاً ذا ذكاء متوقّد ، فانكب على دراسة الفلسفة . وكان عقله من النوع الذي يتّسع لكل أصناف المعرفة البشرية ، ولم يكن هناك علم غريب لا يتقبّله عقله . فكان حسن الاطلاع على الكيمياء ، والطب ، والتنجيم ، وعلم الفلك ، والرياضيات ، والهندسة ، والطبيعة ، والميتافيزيقا ، كما انه كان يعرف المذاهب الفلسفية – الهندية منها والاغريقية – وعلوم الدين والمنطق . لم يكن هذا الرجل مبدعاً خلاقاً في تفكيره ، ولكن كان من الاصالة في التفكير بحيث ادرك ان بالامكان ايجاد توفيق أو تسوية بين الفكر الاغريقي الدخيل وبين الفكر العربي الأصيل. وقد مهّدت دراسته العلوم اليونانية السبيل لدخول هذه العلوم اللغة العربية والحضارة الاسلامية . واما دراسته الفلسفية اليونانية فقد فسحت له المجال لانتقاء تلك النواحي الفكرية فيها التي من شأنها ان تنسجم مع علوم الدين وجعلها جزءاً لا يتجزّأ عنها . فكان فضله ان اعدّ الطريق إلى مزيد من التفاهم والانسجام بين الفكرين . ان المرتبة التي يحتلها الكندي في التاريخ هي مرتبة الرائد والقائد الذي يشقّ طريقاً جديداً ينتهجه الناس ، وكان على رأس قافلة من أصحاب الفكر الاسلامي انتشر أصحابها في جميع الاقطار الاسلامية حتى بلاد الاندلس في الغرب . وظلّ الفكر الذي حركه نشيطاً فاعلاً حتى القرن الثاني عشر. ولم تنقطع قافلة الفكر حتى أصبحت الفلسفة جزءاً حيوياً لا يتجزأ عن التراث الفكري الاسلامي .

كان معظم أهل الفكر الفلسفي في الإسلام يحترمون الإسلام ويجلونه أعظم اجلال ، ولكن هذا لم يكن ليخفي الحقيقة عن أنظار الناس بأن قبلة الفلاسفة كانت الاسكندرية واثينا . وكان الرازي (توفي ٩٢٥) الفارسي الأصل من أفضل اولئك المفكرين أصالة وابتكاراً ومن أشدهم تطرفاً . في الواقع انه كان فريداً يؤمن بالعقل وباخضاع علم الدين لأصول الفلسفة . وفي نظره ان الأنبياء

بمن فيهم موسى وعيسى ومحمد كانوا أدعياء . وبعد الرازي جاء الفارابي (توفي ٩٥٠) التركي الأصل . وقد كرّمه قومه بتلقيبه « المعلم الثاني » (المعلم الأول هو أرسطو) . وكان الفارابي من الجيل الثاني من الفلاسفة ، واليه يُعزى الفضل في تأليف أول شرح منظّم باللغة العربية لفلسفة أرسطو وافلاطون . ويعتبر بوجه عام انه هو المؤسس الحقيقي للافلاطونية المستحدثة الإسلامية . وفي الواقع ان الفارابي وضع نظاماً فلسفياً أحسن وضوحاً وأفضل ارتباطاً من النظام الذي وضعه الكندي . وهناك مفكران آخران سندرسهما فيما بعد دراسة مفصلة وهما ابن سينا وابن رشد .

– ٢ –

وُلد أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي حوالي سنة ٨٠١ في الكوفة في عهد ولاية أبيه عليها . وتوفي أبوه بعد مولده بوقت قصير . وكان جده قد تولى هذا المنصب من قبله . وتلقيبه بالكندي يدلّ على انه كان ينتسب إلى قبيلة كندة اليمنية . وكانت هذه القبيلة تفاخر ، وبحقّ ، بنسبها الملكي ، ولا سيما بامرىء القيس (توفي حوالي ٥٤٥) أشهر شعراء المعلقات السبع . وقد ذكر النديم البغدادي (توفي ٩٩٥) صاحب الفهرست وأول من ذكر ترجمته ، نسبه في أربعة أسطر ، وسيرة حياته في عبارة واحدة وخصّص ست صفحات لذكر أسماء مؤلفاته . والحقيقة ان ما نالته قبيلته من شهرة بسبب علمه يفوق ما نالته من نسبها النبيل. فقد دخل اسمه التاريخ في بلاد الغرب ، وخُلد في التاريخ العربي . وكان العرب يلقبونه بفيلسوف العرب . والحقيقة كان فيلسوف العرب في أكثر من ناحية واحدة . فإنه كان الفيلسوف الوحيد من بين مشاهير فلاسفة المسلمين الذي كان يتحدّر من أصل عربي صافٍ ، كما كان أول فلاسفة الإسلام . واحتفلت بغداد سنة ١٩٦٢ بذكرى مولده الألفي دعت إليه العلماء والأدباء من أربع قارات .

يقول النديم : « كان فاضل دهره ، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها ، بما في ذلك المنطق والفلسفة والهندسة والرياضيات والموسيقى والتنجيم » . أما كُتّاب السِيَر العربُ الذين جاءوا بعد النديم ، بمن فيهم الذين اختصوا بكتابة سير الأطباء والفلاسفة ، بدءاً بصاعد الأندلسي (توفي ١٠٧٠) إلى القفطي المصري (توفي ١٢٤٨) إلى ابن أبي أصيبعة السوري (توفي ١٢٧٠) فلم يأتوا بشيء جديد عن سيرته وعن حياته الخاصة . فلا يذكر أحد منهم سنة ولادته أو وفاته ، ولا أسماء شيوخه الذين أخذ عنهم ، ولا اسم أمه وزوجته ، وأولاده باستثناء ولد واحد . كان يهمّهم من أمره نسبه الارستقراطي وعدد مؤلفاته الضخم .

تثقّف يعقوب في حداثته وصباه في الكوفة والبصرة ، اللتين بناهما الخليفة عمر بن الخطّاب لتكونا معسكَرين ومستودَعين للجند ، ولكنهما أصبحتا على مرّ الأيام مركزَين بارزَين للعلم والعلماء . وكان بينهما تنافس على احتلال المرتبة الأولى في العلم والثقافة . وفي البصرة وُلد حسن البصري والأشعري واضعا أصول علم الدين حسب العقيدة السنّية . كذلك كانت البصرة مهد المعتزلة ، أنصار العقل . وكان اطلاع الكندي في شبابه على عقائد المعتزلة ونظرياتها في العقل من الأمور التي هيّأته فكرياً أن يستوعب مختلف العلوم بروح العالم فيما بعد. وكانت الكوفة مركزاً لرواة الحديث ، وكانت المدينتان مهداً لنشأة العلوم اللغوية ، وأثر مدرسة الكوفة والبصرة لا يزال إلى يومنا هذا حيث تدرّس العربية ، صرفها ونحوها .

من هناك انتقل هذا الشاب إلى أعظم مركز فكري في العالم الإسلامي ان لم نقل في العالم ، إلى بغداد ، ليتخرّج من مدارسها. ثم التحق ببلاط المأمون حيث كان يقوم بمهام مختلفة ، ويتمتّع مع حشد من العلماء ، برعاية المأمون وسخائه . وكانت سانحة ذهبية لا ريب أن الكندي استفاد منها أتم فائدة. فانه تابع ، في هذا الجوّ ، بنفسه دراسة الفلسفة والعلم الاغريقيّيْن . فقد كان في متناوله ترجمة

حنين بن اسحاق لمؤلفات أرسطو وعلى رأسها كتاب ما وراء الطبيعة . وكتاب آخر ينسب إلى أرسطو وهو الربوبية . وهو من تأليف أحد علماء الافلاطونية المستحدثة ، وعلّق عليه برفوريوس . وقد ترجمه له نصراني من حمص اسمه عبد المسيح ابن نعيمة . وقد عدّل فيلسوفنا الناشىء كتاب الربوبية هذا ورتب موادّه وجعل منه كتاباً مدرسياً استعمله في تعليمه تلميذه احمد ابن الخليفة المعتصم (المعتصم أخو المأمون وخليفته سنة ٨٣٣). هذان الكتابان ما وراء الطبيعة والربوبية تركا في الفلسفة العربية أثراً بالغاً أكثر مما تركه أي كتاب آخر . وفي هذا الوقت كان الكندي قد تقدّم في المناصب حتى انه احتل مكانة مرموقة في بلاط العباسيين كمستشار وكأستاذ .

ان قائمة المؤلفات التي وضعها الكندي ، والتي يعزى تأليفها إليه ، أكبر من أية قائمة أخرى في التآليف العربية ، أو ربما في التآليف اطلاقاً . فان النديم يذكر ٢٣١ عنواناً. وقد ذكر له باحث عصري قائمة تحتوي ٣٦١ عنواناً، منها ٢٧ في الفلسفة ، و ٢٢ في علم النفس ، و ٢٢ في الطب ، والباقي منها موزّع بين الرياضيات ، والبصريات ، والموسيقى ، وعلم الفلك ، والتنجيم ، والجغرافيا ، والمنطق ، والعلوم الطبيعية ، وعلم السياسة ، والوعظ وأمور أخرى (في العطر ، والسيوف ، والمعادن ، والمرايا والساعات) . وكثير من هذه العناوين مقالات قصيرة ، من صفحة أو صفحتين ، وعدد منها نسخ مطابقة للأصل ولكن بعناوين جديدة. وعدد من كتب الكندي مشتبه بصحتها وقد تكون منتحلة . هذا إلى أن قسماً كبيراً منها قد ضاع . ومن مهازل القدر ان ما تحدّر إلينا من كتب الكندي في اللغة اللاتينية يفوق ما تحدّر إلينا عنه في اللغة العربية .

ويعزو القفطي الفضل في ترجمة جغرافية بطليموس إلى الكندي الذي يقول انه ترجمها عن السريانية . كما ان ابن ابي أصيبعة وغيره يضعون الكندي في عداد التراجمة البارزين . غير انه من المشكوك فيه أن يكون الكندي ألمّ

بالإغريقية والسريانية إلماماً يمكّنه من ترجمة الكتب عن هاتين اللغتين . كان التراجمة من النصارى يدرسون الاغريقية في مدارس آسيا الصغرى (بلاد الروم) والسريانية في أديرتهم ، وهذا مما لم يتيسّر للعالم المسلم . ومن المرجّح ان فضل الكندي يقتصر على النظر في الترجمة ، واعادة كتابتها بعربية سليمة تفضل العربية التي كتب بها المترجمون السريان .

- ٣ -

يقول الكندي في مقدمة الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المعتصم بالله ، وعنوانها رسالة في الفلسفة الأولى :

> ان أعلى الصناعات الانسانية منزلة ، وأشرفها مرتبة ، صناعة الفلسفة التي حدّها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، لان غرض الفيلسوف في علمه اصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق[1] .

ان الروح الافلاطونية واضحة في هذا التحديد الذي يحدّد به الكندي الفلسفة . كذلك تظهر الروح الأفلاطونية في العبارة التالية التي ذهب فيها الكندي إلى أن الحق الذي نتوصّل اليه عن طريق الفلسفة هو حقّ سام شامل يتخطى القومية والطائفية . ويقول دفاعاً عن الفكر الدخيل : انه ينبغي لنا أن لا نستحيي من استحسان الحق واقتناء الحقّ من أين أتى ، وان أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا . فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ، ولا تصغير قائله ، فالحقّ يشرّف الجميع[2] . وفي مكان آخر ينبّه طالب الفلسفة إلى أمور ينبغي له أن يتجمّل بها .

ان الكندي ، في تحديده الفلسفة ، وفي كلامه عن طبيعة هذه الصناعة ،

١ - محمد عبد الهادي أبو ريدة : رسائل الكندي الفلسفية (القاهرة ١٩٥٠) المجلد الأول ص ٩٧ .

٢ - قابل المصدر نفسه ص ١٠٣ .

وجد نفسه ملتزماً بالنظرية الخطيرة التي تقول ان الفلسفة أعظم شأناً وأرفع مرتبة من علم اللاهوت والعلمين التابعين له وهما : الفقه والأخلاق، وهي نظرية يرفضها علماء السنّة رفضاً قاطعاً . لقد ذهب إلى أن علم اللاهوت (علم الدين) هو فرع من فروع الفلسفة . فالدين يعتمد الوحي ، والفلسفة تعتمد العقل . والفلسفة تعتمد المنطق بينما يعتمد الدين الإيمان والتسليم . غير ان الحقيقة التي يتوصل اليها الإنسان عن طريق الدين لا تتعارض بشيء مع الحقيقة التي يتوصل إليها عن طريق الفلسفة . وكان يتابع القول في ان الحقيقة التي يُوحى بها إلى النبيّ تنسجم مع الحقيقة التي يحصل عليها الفيلسوف . وكان يصرّ على القول بأن على علماء الدين أن ينتفعوا بالمنطق الذي هو أداة الفلاسفة، ولكن دعوته كانت صرخة في واد . فقد كانت آراء المعتزلة وآراء الكندي الفلسفية كفراً في أعين حماة الإسلام المحافظين . لكن فيلسوفنا الناشىء ، حرصاً منه على البقاء في حظيرة الإسلام ، أخذ يعدّل نظرته الفلسفية . ففي تعليقه على مؤلفات أرسطوطاليس (كمية كتب ارسطوطاليس) يسلّم بان العلم الإلهي أشرف مقاماً من العلوم البشرية ، ولكنه يصرّ على أن ليس هناك من تناقض وتعارض بين النتائج التي يتوصل إليها العلمان ، الإلهي والبشري . وواضح لديه ان المعرفة النبوية تلقائية تهبط على صاحبها بواسطة الوحي فلا تكلّف جهداً ولا بحثاً . هي معرفة قائمة بذاتها ، ومن نوع فريد في بابه . أما المعرفة المتأتية عن الفلسفة فيحصل عليها صاحبها بجهد وكدّ . وهي معرفة تخضع للتجربة والبرهان ، ويعبّر عنها بالمنطق . والنبوة امتياز يمنح لقلة من الناس ، وهي ملكة تامة كاملة ، بينما الفلسفة باب مفتوح يلجه من شاء من الناس . ومع هذا كله كان الكندي يصرّ على ان المعرفة التي يحصل عليها النبيّ الكامل هي المعرفة ذاتها التي يتوصل إليها الفيلسوف المقتدر . وهذا يجعل حجج القرآن في بعض القضايا كخلق العالم من العدم ، وبعث الموتى ، حججاً قوية أكيدة أكثر من حجج الفلسفة وبراهينها . فالحقائق القرآنية يتقبلها الناس بالايمان والتسليم .

والوحي في القرآن صريح لا يقبل التـــأويل في هاتين القضيتين : الخلق والبعث . ففي سورة يس (الآية ٧٨، ٧٩) يوحي الله إلى نبيه أن يجيب عن تساؤل المشكـّكين عندما يسألون : « قال من يحيي العظام وهي رميم » بقوله تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم » . ويتابـع الوحي في السورة ذاتها (الآية ٨٢) « انما امره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ». والكندي في تعليقه على الآية يقول ان الله ، بصفته خالقـاً ، مبدع ، لا يحتاج إلى مادة ولا إلى زمان . أما الانسان فبحاجة إلى المادة وإلى الزمان . ان الله يخلق بإرادته الخلاّقة ، وبقدرته المطلقة ، وهاتان الخاصّيتان يعوزهما الانسان . أما جواب الكندي عن قول المعترض : كيف يخلق الله من العدم ؟ فقد كان جواباً مبتكراً إذ فسّر « كن » تفسيراً مجازياً رمزياً في رسالة بعث بها إلى أحمد بن المعتصم يحاول الكندي أن يجيب عن سؤال طرحـه طالب حـائر في معنى الآية « والنجم والشجر يسجدان » (سورة الرحمن ٦ قابل أيضاً سورة ١٨ : » ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » . فيقول ان فعل سجد له معنى يختلف عن معنى السجود في الصلاة . في هذه الحالة يعني الطاعة ، بمعنى أن هذه المخلوقات النجم والشجر والشمس والقمر الخ في نمـوّها وتطوّرها وتصرّفها انما تتبع القوانين التي وضعها الله لها . فهي إذن « تطيع » لا تسجد كما نسجد نحن في الصلاة . وهذا فتح في التفسير ربما لم يدرك الكندي أهميته ، فإنه مهّد السبيل للتفسير الرمزي للنصوص الدينية . وقد اتبعه في ذلـك أصحاب الفلسفة الذين جاءوا بعده . وهكذا أصبح التفسير الرمزي أداة خير في تطور الفكر الاسلامي . وهي أداة ينتفع بها المصلحون المحدثون في العصر الحديث . وبين التفسير الرمزي والتفسير الباطني خطوة قصيرة ، وقد خطاها غلاة الشيعة الذين يأخذون بالمعنى الباطني للنصّ . وفي التزام الكندي العقيدة القرآنية في الخلـْق من العدم انحرف كثيراً عن النظرية الارسطوطاليسية التي

تقول بقدم المادة ، وان الله خلق من مادة . لكن الفلاسفة الاسلاميين الذين أتوا بعده لم يأخذوا بمبدإ الخلق من العدم . فان ابن سينا وابن رشد كانا يقولان بمبدإ أسطو المعدّل . وبذلك جرّوا على أنفسهم الاتهـام بالكفر من قبل علماء الدين السنـّيين .

من مقدمته المنطقية ، بأن المادّة محدودة، يتقدم الكندي ليبرهن فلسفياً على وجود الله . ولأن المادة محدودة لا يمكن أن تكون علـّة كون ذاتها ، كما انه لا يمكن أن تكون علـّة استمرارها . فتحتاج في خلقها إلى غير متناه ، وغير المتناهي هو الله . وليس الله خالقاً ومبدعاً فحسب ، وانما هو مصدر البقـــاء ، وكل شيء لا يبقيه الله يزول . ويسيّر الله العالم المادي بواسطة قوانين طبيعية وضعها كي تكون بمثابة سبل ومسالك تسير المادة بموجبها . والعلل التي تسيّر الكون محدودة في الزمان والمكان . أمـا الله فقديم . هو العلة الأولى ، وهو العلـّة الحقيقية ، وعلـّة العلل . هو يفعل ولا ينفعل ، يرى ولا يُرى ، يحرّك ولا يتحرّك .

ومن البراهين التي يقدّمها الكندي لاثبات وجود الله هو هـــذا النظام العجيب في ترتيبه . فان الأجرام السماوية ، والكائنات البشرية ، وكل الخلائق الحية ، وكل الأجسام الجامدة غير الحية تسير بموجب هذا النظام بدقـة فائقة . كذلك الأجزاء التي تتألف منها الأجساد الحية وغير الحية مرتبة ترتيباً مدرّجاً، جزء منها يقوم بوظيفته . وهذه الرتابة في النظام الذي يسود الكائنات ، أجزاء ووحدات ، لم تفت انتباه الفلاسفة اليونان ، بدءاً بسقراط ، بل انهم لاحظوا دقة النظام في الكون ، ولذا سمّوه cosmos التي تعني لغوياً النظام والترتيب والانسجام . غير ان فلاسفة العرب عزوا هـــذا النظام العجيب إلى قوة خارجية ، واحدة ، شاملة ، خلقية ، هي الله . وهذا مـــا لا نراه في تطوّر المذاهب الفلسفية الأخرى .

أما نظرية الكندي في النفس فهي أقرب أن تكون إلى أفلاطون منها إلى

أرسطو . وعلى وجه التدقيق ، فان نظرته إلى النفس هي نظرة أصحاب الافلاطونية المستحدثة ، كما وضعها أفلوطين في كتاب التاسوعيات الذي ينسب تأليفه خطأ إلى أرسطو . والروح عند الكندي ليست جسماً بل هي جوهر واحد بسيط ، منبثق من الله كما ينبثق النور من الشمس . وهي ليست مادة بل جوهر إلهي . وما دامت النفس ملاصقة أو قائمة في الجسد فهي في حالة تتمكن فيها من تجاوز حدوده ، ولكنها تتأثر بفعل الأجرام السماوية . وأصلها الإلهي يميّزها ويفصلها عن الجسد وشهواته . وإذا انفصلت عن الجسد تعود إلى حيث أتت ، أي إلى النور الإلهي ، وتكتسب القدرة على أن ترى الحق سبحانه . وتقسيم الإنسان إلى جسد وروح يذكرنا بتقسيم بولس الرسول له . وواضح ان الكندي لم يقدّم لنا شيئاً جديداً في هذا الموضوع . في آخر رسالته في النفس يقول :

> فيا أيها الإنسان الجاهل ألا تعلم ان مقامك في هذا العالم إنما هو كلمحة ، ثم تصير إلى العالم الحقيقي ، فتبقى فيه أبد الآبدين ؟ وإنما أنت عابر سبيل في هذا الأمر ارادة باريك عزّ وجلّ فقد علمته جلة الفلاسفة واختصرناه من قولهم ان النفس جوهر بسيط [1] .

أما في قضية العقل التي تبحث عادة مع موضوع النفس ، فان الكندي العالم ليس واضحاً في رأيه ، لأنه يضيع في الرأي بين أرسطو وافلاطون وافلوطين. يفرّق أرسطو بين عقلين ، أهمها العقل الفاعل ، وله كيان ميتافيزيقي وهو غير قابل للفساد والانحلال ويبقى كذلك . وهو الوسيط بين العالم الروحاني والعقل البشري . ويرى بعض الكتّاب المسلمين في هذا العقل روح القدس ، بكلام آخر يرون فيه جبريل واسطة الوحي .

---

(١) أبو ريدة : رسائل الكندي الفلسفية ، المجلد الأول ، ص ٢٨٠ .

وفي رسالته في العقل يفرّق بين العقل الذي يكتسب المعرفة (العقل المكتسب) والعقل الذي يفعل (العقل الفاعل) . ويوضح الفرق بينهما فيقول ان العقل المكتسب شأنه شأن الرجل الذي يتعلم الخط ويتقنه كفنّ ، وأما العقل الفاعل فشأنه شأن الرجل الذي يمارس هذا الفنّ فعلاً لا نظراً . ويقول الكندي ، في مناسبة أخرى ، ان الحرّية والخلود يوجدان حيث يوجد العقل . ويضيف انه بواسطة العقل ، وبفضل معرفة الله ومعرفة الصالح من الأفعال ، يصل الانسان إلى أعلى مراتب الخير لنفسه .

كانت الفلسفة في نظر الكندي ، كما كانت في نظر غيره من الفلاسفة ، أمّ العلوم . ففي تحديده الفلسفة تحديداً مسهباً يذكر ان غاية الفلسفة علم الأشياء بحقائقها في كينونتها وفي صيرورتها . ومن آثار هذه النظرة إلى الفلسفة في العصور المتوسطة ذكر الفلسفة في ألقابنا العلمية فنقول دكتور فلسفة في هذا العلم ، ودكتور فلسفة في ذلك العلم ، وسواء أكان العلم علماً طبيعياً كما في الفيزياء أو الكيمياء ، أم علماً من العلوم الإنسانية .

كان الكندي يحترف مهنة الطبّ . وقد ذكرنا سابقاً ان الطب والفلسفة كانا علمين لا ينفصم أحدهما عن الآخر ، فقد كان من يحترف أحدهما يحمل لقب حكيم . وكان الكندي طبيباً في بلاط الخلفاء الذين زهوا في عصرهم ، ولكن بحسب رواية ذكرها القفطي نلاحظ انه لم يكن يمارس الطب بصورة خاصة . ويبدو انه كان يميل إلى تدارس الكتب والمؤلفات أكثر مما كان يميل إلى معالجة المرضى . كان للكندي جار تاجر على كثير من الثراء ، وكان له ولد مصاب بالشلل لم يستطع طبيب في بغداد أن يشفيه . فعلم هذا التاجر ، وبكثير من الدهشة ، ان جاره طبيب ممتاز كما انه فيلسوف بارز . وقد استجاب الكندي لطلب التاجر وأفلح في شفاء الولد بواسطة الموسيقى .

ليس فيما تبقّى من الرسائل الطبّية الست والثلاثين التي ألفها الكندي ، شيء من الابتكار أو الجدّة ، إلا إذا نسبنا الأصالة إلى محاولته الغريبة باعطاء الأدوية

والعلاجات على أسس من علم الرياضيات. فقد اكتشف باحث عصري في مؤلَّف صغير للكندي في الأدوية المركبة ان صاحبه اكتشف علاقة خفيّة بين النفس والطبيعة. أما في علم الكيمياء فاننا نعلم ان للكندي رسالتين في العطر، انتاجه وفوائده، لا سيما ماء الورد. كما اننا نعلم أن له رسالتين أخريين في نقد الكيمائيين لشعوذتهم، ولمحاولاتهم اليائسة، في تحويل معادن بخسة إلى معادن ثمينة. وهنا لا بدّ من الاعتراف بفضل الكندي العالِم، فانه، عالماً وفيلسوفاً، كان يرى ان رسالته هي نقل علوم الأوّلين. وبالإضافة إلى فضله في نقل العلم وحفظه، فان له فضلاً آخر، وهو تعميمه ونشره بين الناس، وهذا معناه إعادة كتابة هذه المواضيع العلمية بلغة جديدة سهلة الادراك تلائم قدرة الطلاب على التحصيل. وله رساله صغيرة تحتوي على مئة تعريف من مصطلح الفلسفة والعلم، وعنوان الرسالة في حدود الأشياء ورسومها. ويمكن اعتبار هذه الرسالة أول قاموس خاص في العربية يعنى بالمصطلحات العلمية. وأما نصيحته للمتَطبّب كما وردت في سيرته لابن أبي أصيبعة فموجزة ولكنها جامعة:

> ليتّق الله المتطبب ولا يخاطر فليس عن الأنفس عوض. وكما يحب أن يقال انه كان سبب عافية العليل وبرئه كذلك فليحذر أن يقال انه كان سبب تلفه وموته.

وإلى الكندي العالم يعود الفضل في أول تقسيم منظّم للعلوم في اللغة العربية، وهو موضوع عالجه قبله علماء الاسكندرية. والكندي يقسم العلوم إلى قسمَين رئيسيَّين: العلوم الفلسفية والعلوم الإلهية. ويندرج تحت العلوم الفلسفية الرياضيات وعلم الطبيعة (الفيزياء) وعلم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) والسياسة والمنطق. ولعل الرياضيات كانت تأتي بعد الطب أهمية عند الكندي. فانه ألف أربعة عشر مؤلفاً في الرياضيات لم يبق منها إلا عدد قليل. وفي أربع رسائل منها يتناول الأرقام الهندية واستخدامها. ويقسّم أحد هذه الكتب الرياضية إلى خمسة فصول «تماثل عدد العناصر الخمسة في الطبيعة»، وعدد

أصابع اليد الخمس، وعدد السيارات الخمس، وعدد دوائر العرض الخمس، وعدد الأصوات الخمسة الموسيقية». ويبدو واضحاً من كلامه في الاعداد انه كان يأخذ برأي أصحاب الفلسفة الافلاطونية المستحدثة الذين كانوا يرَون ان الأعداد وجدت قبل المعدودات، وان لها قوى سحرية غريبة تتعدّى قيمتها ونفعها كأرقام في علم الحساب. كان الكندي يسرف في اعتباره العلوم الرياضية أشرف العلوم وأسبقها. ولم يقدّمها على العلوم الطبيعية وحسب، وانما كان يقدّمها على العلوم الفلسفية.

ومن العلوم المشاركة للرياضيات والمرتبطة بها علم الفلك. وقد ذكروا للكندي أربعة وأربعين عنواناً في علم الفلك. وفي ما تحدّر إلينا من رسائله في علم الفلك يبدو أثر النظام الذي وضعه بطليموس في كتابه المجسطي. ولم يكن الكندي عالماً ناقداً في حقل الفلك والتنجيم، كما كان في حقل الكيمياء العلمية والكيمياء القديمة. فكان يقول بأن للاجرام السماوية أثراً في حياة الناس ومقدّراتهم، ولكن دون أن يوفـّق بين هذا القول وبين قدرة الله. وبعض هذه الكتب تُرجم في وقت مبكّر إلى اللاتينية، مما كان سبباً في انتشار شهرته في الغرب. وقد عرفه علماء الغرب على انه كان منجماً أولاً.

وهنالك علم آخر جعل اسم الكندي معروفاً في الغرب وهو علم البصريات التي يدعوها هو نفسه المناظر. وقد بنى رأيه في البصريات على كتاب بطليموس الموسوم بـ «هرمونيكا» وعلى كتابين آخرَين يُنسبان إلى اقليدس، وهذه الكتب الثلاثة مترجمة إلى العربية فكانت في متناوله. وكان يقول ان النور ليس بحاجة إلى الزمن في سيره من مصدره، وان النظر يتمّ بواسطة أشعة تنبعث من العين فتقع على المرئيّ فيراها الناظر. أما في الحواس الأربع الباقية فإن الكندي يرى ان أعضاء الحسّ هي التي تتلقـّى التأثيرات من الخارج وليست هي الفاعلة، كما هي الحال في العين. وأما زرقة السماء فان الكندي يعلـّلها في رسالة خاصة يقول فيها ان الزرقة هي نتيجة اختلاط الغبار والبخار في

الهواء (هذا الاختلاط الذي يضيئه نور الشمس) مع ظلام الجوّ . وكان لمؤلفاته في المناظر التي تُرجمت إلى اللاتينية ، الفضل في ادخال علم البصريات إلى أوربا . فان العالم الفيلسوف الانكليزي الشهير ، روجر بايكون (توفي ١٢٩٤) والعالم البولندي في الطبيعة والرياضيات وِتلو (ايرسمو تشيولك، توفي ١٢٨٥) إلى جانب غيرهما من علماء الغرب، انتفعوا بعلم الكندي وبمؤلفاته في هذا الحقل، ولكن مؤلفات الكندي في هذا الموضوع هيّأت الجوّ لعالم عربيّ بزّه في هذا الحقل، وهو الحسن بن الهيثم (توفي حوالي ١٠٣٩ في القاهرة) أعظم عالم مسلم في الفيزياء ، ومن أعظم علماء البصريات في جميع العصور . وقد بزّ ابن الهيثم الذين سبقوه إلى هذا العلم بإبداعه وباسلوبه النقدي . وفي كتاب له لم ينشر ينقد فيه بطليموس يصرّ ابن الهيثم على القول ان الحقيقة يجب أن يُسعى إليها لذاتها ، وكل امرىء يفتّش عن شيء لذاته ، لا لغيره ، فان اهتمامه الكبير يقتصر على اكتشاف ذلك الشيء . ويتابع الحديث قائلاً ان الله لم يخلق العلماء معصومين عن الخطأ ، وان معرفة الحقيقة تحصل عن طريق النقد الشديد لآراء الغير ، وبواسطة التجرّد عن الغرض والهوى الشخصي . ويطلب إلى الساعي نحو الحقيقة ان يتذكّر ان الحقيقة الخالصة الظاهرة للعيان ليست أمراً ميسوراً جاهزاً يتلقّاه الانسان ، بل هي نتيجة سعي وبحث .

في جميع العلوم التي ذكرناها آنفاً – باستثناء البصريات – لم يكن هناك علماء سبقوا الكندي ليأخذ عنهم . وفي حقل الموسيقى كان الكندي مبتكراً لم يأخذ عن غيره شيئاً . فقد ذكر كُتّاب السّيَر من العرب عناوين كتب كثيرة عن الغناء ، الغناء العربي الذي نشأ في الجزيرة وتأثر فيما بعد بالغناء الفارسي ، ولكن لم يتحدّر إلينا شيء منها ، والراجح ان ليس بينها كتاب جدير بأن يقارن بمعالجة الكندي العلمية الدقيقة لموضوع الموسيقى . طبعاً سبقه إلى معالجة هذا الموضوع جماعة من الاغريق ، ومن أصحاب الفيثاغورية

المستحدثة ، وبعض أصحاب الافلاطونية المستحدثة ، الذين يجب أن يكون قد انتفع بعلمهم وتأثر بكتاباتهم . وفضله في هذا الحقل يقتصر على نقل هذا العلم إلى العربية بطريقة علمية . والنقل يقتضي الأمانة والدراية في حسن الأداء . وفي أدائه وتعبيره عن فكره العلمي كان الكندي أبداً يضع نصب عينَيه حاجة المتعلم إلى الوضوح والسهولة . واما من جهة الابتكار والإبداع فلم يكن يعوز الكندي شيء منهما. فقد أضاف إلى أوتار العود وتراً نظرياً خامساً فحصل على السلّم الثاني المضاعف دون أن يكون هناك حاجة إلى المناوبة . ولا يزال السلّم الموسيقي الذي وضعه شائع الاستعمال إلى يومنا هذا . وباستخدامه حروف الهجاء علامات موسيقية في السلّم يكون قد تفوّق على الاسلوب الاغريقي . وقد ظهر في هذا الحقل الموسيقي ، الذي اكتشف من بين كنوز الأقدمين ، خمس عشرة رسالة تحمل اسمه . ولم يبق منها سوى خمس . وفي احدى هذه الرسائل ترد لفظة موسيقي (ونقول الآن موسيقى) في العنوان لأول مرة في التاريخ العربي . وفي معالجته علم الموسيقى يتكلّم الكندي عن التأليف ، وعن اللحن ، وعن الإيقاع ، كما انه يعالج أموراً أخرى تتعلّق بالموضوع .

والكندي الموسيقي كالكندي الفيلسوف مهّد السبيل لعالمَين كبيرين جاءا بعده وبزّاه في حقلَي الموسيقى والفلسفة . وهما الفارابي وابن سينا . وقد خصّ الفارابي ثلاثة كتب من أمهات كتبه بمعالجة موضوع الموسيقى ، الأمر الذي جعله يحتلّ أعلى مرتبة بين الموسيقيين النظريّين عند المسلمين [1] .

---

(١) أما من أراد الاطلاع على أمر الكندي العالم فعليه مراجعة كتاب أحمد الاهواني : الكندي فيلسوف العرب (القاهرة ١٩٦٢) .

ومن حسن طالع فيلسوفنا الكندي ان كان في متناوله ترجمات عربية قام بها تراجمة ممتازون مقتدرون . وكان قرّاء الكندي عديدين وذلك لما تميّز به من علم غزير ومعرفة شاملة . كانت اسبانيا عند منتصف القرن الثاني عشر مركزاً لنشاط الترجمة ، ولكن المترجمين كانوا ينتمون إلى أعراق بشرية مختلفة . وظلت طليطلة ، حتى بعد اعادة فتحها وارجاعها إلى النصارى ، مركزاً للفكر الاسلامي ، وأصبحت ممرّاً لانتقال كنوز المعرفة العربية إلى أقطار أخرى. وبفضل نشاط رئيس الأساقفة فيها، ريموند (١١٢٦ – ١١٥٢)، نشأ في المدينة معهد للترجمة اجتذب اليه عدداً من العلماء في القارة الاوربية، ومنها الجزر البريطانية . وظلت طليطلة قرابة مئة سنة مركزاً ثقافياً نشيطاً . وفي سنة ١٢٥٠ اختيرت هذه المدينة لتكون مركزاً لمدرسة تدرس فيها العلوم الشرقية ، وهي أول مدرسة من نوعها في اوربا . وقد اسستها رهبانية « الوعّاظ » وذلك لتدريب المرسلين والمبشرين إلى المسلمين واليهود .

من روّاد الترجمة في طليطلة رجل انكليزي عالم في الرياضيات وفي علم الفلك اسمه روبرت أُف تشستر ، الذي نشط للعمل من سنة ١١٤١ إلى ١١٤٧ واشتهر بترجمته القرآن إلى اللاتينية لأول مرة . ومن مؤلفات الكندي اختار فصولاً من كتاب أحكام النجوم . وقد ترجم جون (يوحنا) الاشبيلي (توفي ١١٥٧) أربع رسائل حول هذا الموضوع . وكان جون مسيحياً مستعرباً اختلط أمر كتبه بكتب يهودي متنصر يُعرف بالاسم ذاته . وهناك مترجم اسباني آخر اسمه ارنولد من فيلانوفا (توفي ١٢٦٠). وكان طبيباً درس العربية على بعض زملائه من المسلمين في بلنسية مسقط رأسه . وقد ألّف كتاباً عنوانه في معرفة قوى الادوية المركّبة .

غير ان أعظم المترجمين في هذه الفئة كان رجلاً ايطالياً اسمه جيرارد

الكريموني. وقد قضى جيرارد معظم أوقاته في طليطلة ، غير انه رجع أخيراً إلى بلدته حيث توفي سنة ١١٨٧ . وقد اختار من مؤلفات الكندي ثلاث رسائل ، الأولى منها في ماهية النوم والرؤيا والثانية في العقل والثالثة في العناصر الخمسة .

ولم تقتصر ترجمة كتب الكندي على اللاتينية بل ان بعضها وجد طريقه عبر الترجمة إلى العبرية . وعلى سبيل المثال نذكر رسالتيه في المواليد والمطر ترجمها رجل يهودي فرنسي اسمه كلونيموس بن كلونيموس .

وبعد اختراع الطباعة بقليل (حوالي ١٤٤٠) قُيّض لبعض كتب الكندي في اللاتينية ان تُطبع مراراً مما ادّى إلى انتشار اسم الكندي Alkindus واثره العلمي . ومن أول ما طُبع له كتاب ظهر في مدينة البندقية سنة ١٥٠٧، ثم تلاه طبع كتاب آخر في شتراسبورغ (١٥٣١) وآخر في نيرمبرغ (١٥٤٨) وغيرها في مدن أخرى . واستمرّت هذه الحركة الفكرية في طليطلة فعبرت الجبال في الشمال واتصلت بفرنسا واواسط اوربا حتى الجزر البريطانية . وكان أول كتاب طبع في بريطانيا كتاب أقوال الفلاسفة وحكمها (طبعه وليم كاكستون ، وستمنستر ١٤٧٧) وهو مقتبس عن كتاب عربي عنوانه مختصر الحكم ومحاسن الكلم تأليف مبشّر بن فاتك (توفي ١٠٥٣) وهو كناية عن مجموعة أقوال وحكم تتضمن عدداً من تآليف الكندي. وأقوال الكندي الحكمية تحث على السعي وراء الفضيلة ، والهدى بموجب العقل، والامتناع عن الشره، والصبر عند المكاره ، والتسليم بأن الشقاء والبؤس والموت من الامور الملازمة للحياة البشرية . وقد عدّ الطبيب الايطالي ، والرياضي الشهير ، جيرونيمو كاردونو ، من أهل القرن السادس عشر ، الكندي من بين

الاثني عشر مفكـّراً من مفكري الدنيا العظام . وفي الآونة الأخيرة قام علماء غربيون باعادة النظر في مؤلفاته وطبعها من جديد .

- ٤ -

ان ما نعرفه عن حياة الكندي الخاصة وعن عائلته يسير ، لا يشبع فضول الباحث . وعبثاً نبحث عن مصادر تلقي أنواراً على هذه الناحية من حياتـه . وفي عبـارة وردت في وصيته يتكلـّم عن ولد له اسمه محمد ، وهـذا جل ما نعرفه عن الابن .

هناك عدد من القصص والنوادر المبثوثة في الأدب العربي فيها ما يصوّر لنا شخصية الرجل وخلقه وسلوكه . عندما افضت الخلافة إلى المتوكل ونشأت ردة فعل عنيفة ضد حركة النظر العقلي التي كان المأمون يرعاها فـَقـَدَ الكندي– وكان يُعدّ من جماعة العقلانيين المتحرّرين – منصبه في البلاط . وتقول الروايـة ان الخلافة لم تفض إلى أحمد بن المعتصم لأنه كان تلميذ الكندي ، وكان قد تشرّب مبادىء الفلسفة وأخذ بالكثير من آراء استاذه . ومما زاد في مخاوفه هو انـه وجد نفسه هدف مؤامرة حاكها اثنان من خصومه كانا ينافسانـه في البلاط ، وهما أحمد ومحمد ابنا موسى بن شاكر . وبأمر من الخليفة جُلد صاحبنا الذي كان قد بلغ الثالثة والستين من العمر خمسين جلدة ، وخُوّل الرجلان مصادرة أثمن ما لديه : مكتبته المعروفة في بغداد بالمكتبة الكندية . ولا بد أن هذه الحادثة كانت لطمة شديدة لروح هذا العالم مع أن أثرهـا لم يبق إلا إلى حين . ذلك ان المتوكل كان قد عهد إلى صديق للكندي ان ينظر في أمر ترعة كان المتوكل قـد عهد إلى ابني شاكر بحفرها من نهر دجلة ، فحفراهـا بكلفة باهظة ولكن الماء لم يسل فيها . ويبدو ان الرجل أدان ابني شاكر وهدّدهـا بافشاء

أمرهما للخليفة ان لم يردّا إلى الكندي مكتبته التي كانا قد نقلاها إلى البصرة . وكان ابنـا شاكر يعلمان جيداً بان الصلب على ضفة دجلة ينتظرهمـا إذا ابلغ الرجل امرهما إلى المتوكل . فرداها . على ان ذلك لم يقلل من اهانة الكندي الذي كان قد تعرّض للجلد بسببهما .

كان إعراض الخليفة عن الكندي سبباً في فقدانه نفوذه وهيبته مما دفع بـه إلى حياة العزلة . وكان في عزلته كئيباً متجهّماً . وينبغي ان يكون في طبعه وخلقه ما أبعده عن الناس وجعله غريباً في مجتمعه . فقد كان مصاباً بـداء الغطرسة الفكرية . يقال انه دخل مرّة على المأمون فجلس في مكان أرفـع من المكان الذي كان يجلس فيه أحد علماء الدين . فغضب الرجل وقال له : كيف تجرؤ على الجلوس حيث جلست وأنا إمام ؟ فأجابه الكندي على الفور : لانني أعرف ما تعرفه ولكنك لا تعرف مـا أعرفه . ولم يسلم علماء الدين الذين كانوا يخالفونه الرأي من لذع قلمه وقارص كلامه . فقد نعتهم بالجهل والتعصب وقصر النظر ، وقال عنهم انهم يتاجرون بالدين .

ومما نفـر الناس منه بخله . وقد اتفق الناس ، الاصدقاء منهم والخصوم ، على القول انه كان بخيلاً شديـد الحرص في البذل والنفقة . وفي معرض الكلام عن سيرته وعن أخلاقه خصّه النديم بهذه النقيصة . ولكن أشدّ خصومه كان الجاحظ الكاتب الأديب الساخر الذي بوّأه مكاناً عالياً في قائمة البخلاء في كتابه المشهور بعنوان البخلاء . ومعروف ان من أنبل الفضائل التي يتمدحهـا العربي الكرم وان من أرذل الرذائل البخل . ويروي الجاحظ عن لسان رجل استضاف الكندي انه بينما كانا يأكلان دخل عليهما ثالث ، فلم يدعُ الكنديّ الرجل إلى الأكل . ويقول راوي الحديث انه خجل من تصرّف الكندي الذي نعته بقوله انه « ابخل خلق الله » .

وقد روي عنه انه قال في وصيته لابنه :

يا بنيّ ، الأب ربّ ، والأخ فخ ، والعم غمّ ، والخال وبال ، والولد كمد ، والأقارب عقارب ، وقول « لا » يصرف البلا، وقول « نعم » يزيل النّعم ، وسماع الغناء برسام حادّ ، لأن الانسان يسمع فيطرب ، وينفق فيسرف ، فيفتقر فيغتمّ ، فيُقتل ويموت . والدينار محموم فإن صرفته مات ، والدرهم محبوس فإن اخرجته فرّ [1] .

يبدو من اسلوب العبارة ان كاتبها كان يستهدف السجع واللعب بالالفاظ أكثر مما كان يستهدف تقرير الحقائق . وإذا كان كاتبها حقيقة الكندي فلا شك انه كان يخرّف حين كتبها .

ولسنا نعرف شيئاً أكيداً عن تاريخ وفاة الرجل وعن العلة التي مات بها . ولكن على وجه التقريب يجب أن يكون قد توفي سنة ٨٧٣ وهو في الثانية والسبعين من عمره . ويقال انه توفي في حريق لم يُعلم له سبب. غير ان منجّماً معاصراً للكندي اسمه أبو معشر يذكر لنا رواية أخرى عن سبب وفاته . كان هذا الرجل قد أخذ عن الكندي وانتفع بكتبه ، فانتحل اثنين منها مدّعياً انه مؤلّفها . وبهذا أصبح من أكثر الناس استشهاداً بهما في اوربا في العصور المتوسطة. واسمه بالشكل اللاتيني Abulmasar . يقول لنا أبو معشر ان الكندي كان يشكو من ألم في ركبته . وكان الكندي يداوي مرضه هذا بالخمرة المعتّقة . فلما استبدلها بالعسل ساءت صحته ، وازدادت آلامه ، إلى ان بلغت الدماغ فمات .

---

(١) ابن أبي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، نشر اوغست ميلر (القاهرة ١٨٨٢) مجلد ٢ ، ص ٢٠٩ .

كان يعقوب بن اسحاق الكندي رائداً من رواد الفلسفة العربية ، وعالماً واسع الاطلاع ، ومؤلفاً غزير الانتاج . وفضله انه جعل من المعارف اليونانية جزءاً لا يتجزّأ عن المأثور الفكري الاسلامي ، وشقّ طريقاً نحو التوفيق بين الفلسفة والعلم الالهي ، واقام للفكر الاغريقي حرماً ثابتاً في الحضارة العربية .

ابن سينا
شيخ الأطباء والفلاسفة

وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني . وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن .

ابن سينا

كانت العلوم العربية في اوائل القرن الحادي عشر ، وهو القرن الذي بلغناه في دراستنا لصانعي التاريخ العربي ، قد نشأت وجرى تصنيفها ، وسارت في طريق التطوّر والتقدّم . ووضعت كذلك حدود فاصلة بارزة بين علوم الدين وعلوم الاوائل . ويعنون بالاوائل علماء الاغريق وفلاسفتهم . وكانت علوم الدين تشمل الحديث ، والعلم الالهي ، والفقه ، وما تحتاج اليه من علوم اللغة العربية التي يحتاج اليها العالم الديني . وتشمل علوم الاوائل الفلسفة وما اليها من علم المنطق ، والطبيعة (الفيزياء) وما بعد الطبيعة (الميتافيزيقا) والرياضيات وعلم الفلك .

ولأن علوم الاوائل كانت علوماً دخيلة ، كما ذكرنا آنفاً ، فقد كان الناس

ينظرون اليها نظرة سلبية . وكان كل مسلم يشتغل بهذه العلوم الدخيلة يُعتبر متهماً في دينه. لذلك راح الفلاسفة المسلمون، بدءاً بالكندي ، يبذلون قصارى جهدهم لجعل الفكر الفلسفي فكراً أصيلاً في الحضارة العربية لا فكراً دخيلاً . وحاولوا ان يبنوا الجسور بـين الفلسفة والعلم الالهي . وكانت الرياضيات كما نقلوها عن اقليدس، والهندسة كما نقلوها عن بطليموس ، تشكل جزءاً رئيسياً أساسياً في الصرح العلمي . وكان المنطق جزءاً آخر هاماً . وكان علماء الدين القدماء من المسلمين يجادلون علماء الدين من النصارى الذين كانوا على علم بالفلسفة الاغريقيـة وبالجدل الاغريقي (الديالكتيك) . ولم يمض وقت حتى اقتبس المسلمون اساليب المنطق الارسطوطاليسي ، وظهر من بينهم علماء الكلام . وكان من ابرزهم الاشعري الذي علـّم في المدينتين البصرة وبغداد (توفي ٩٣٥). حتى ان الغزالي الذي ألـّف كتباً في نقد الفلاسفة كان يدافع عن المنطق ويدعو إلى اللجوء اليه في العلم الالهي .

كان الطب قسماً من العلوم مستقلاً بذاته . فقـد عرف العرب شيئاً عن الطب الشعبي في جاهليتهم ، وما تحدّر اليهم جاء عن طريق الرواية والرواة . ولكن هذا الطب العربي البدائي أخـذ يتطوّر في بلدان الهلال الخصيب حيث وقـع تحت تأثير الطب السرياني الفارسي الذي كان بدوره متأثراً بالطب الاغريقي . وكان اطباء الخلفـاء الأمويين واطباء الخلفاء العباسيين الأول من النصارى السريان . وقد وفـّرت ترجمة جالينوس إلى العربية في عهد المأمون للمسلمين مجال الاتصال بالطب الاغريقي . وقد برهن العرب عن اقتدار وتفوّق في حقل الطب ، واتسع أمامهم المجال للابتكار ، ولتقديم خدمات جليلة مما اكسبهم شهرة عالمية .

لم يكن الطب ، منذ نشأته الأولى ، ينفصم عن الفلسفة بل ظلّ العلمان ، الفلسفة والطب ، طوال قرون ، متلازمين . ويـكاد يكون معظم الفلاسفة العرب ، من الكندي في بغداد حتى ابن رشد في قرطبة ، أطباء . وكان الخلفاء

والسلاطين يعيـّنونهـم كأطباء في البلاط ، ومؤدّبين ، ومستشارين سياسيين . وإذا كان أحـدهم قد أدّى خدمة كمستشار سياسي لخليفـة أو سلطان ، فإن مؤرخي السير فاتهم ان يذكروا لنا شيئاً من ذلك .

ولم يخرج ابن سينا عن القاعدة ، فقد كان طبيباً وفيلسوفـاً . ان الكندي عرّف أبناء قومـه إلى الفكر الاغريقي ، ولكن لا يمكن القول ان الكنـدي خلـّف لنا نظاماً فكرياً من وضعه وخاصاً بـه . وكان الرازي (توفي ٩٢٥) ثورياً إلى درجة لم يستطع معها ان يكون ذا أثر في حياة الناس الفكريـة . فكانت عقيدته تتركـّز على الانسان ، وعلى العقل ، وعلى الله ، ولم يظهر اهتماماً بالدين، والنبوة ، والعلم الالهي . على ان الرازي يعتبر في تاريـخ الطب أفضل الاطباء المسلمين ابتداعاً وابتكاراً ولا يتنازع في هذا الأمر اثنان. فإن في رسالته في الجدري والحصباء اقدم محاولة للتفريق بين المرضين من جهة سريريّة . هذا إلى جانب اعتبار الرسالة قطعة رائعة في أدب الطب . وحاول الفارابي (توفي ٩٥٠) في نظامه الفلسفي ان يوفـّق بين فلسفة ارسطو وافـلاطون . ولكن غلبت السياسة على تفكيره . وكتابـه المدينة الفاضلة ، الذي وضعه على مثال كتاب افلاطون بعنوان الجمهورية ، اسهام بارز في هذا الميدان . وله فضل آخر وهو نظريتـه في الموسيقى التي اكسبته شهرة لم يكتسبهـا مسلم آخـر في هذا الحقل .

بقي على ابن سينا ، موضوع بحثنا في هذا الفصل ، ان يضع الفلسفة العربية على نظام محكم شامل مترابط الأجزاء . ان النشاط الفكري الذي بدأ بالكندي وتطوّر على يـدي الرازي والفارابي بلـغ الذروة في نشاط ابن سينا الطبي والفلسفي . اسلافه مهدوا له السبيل العلمي، ولكنه فاقهم مرتبـة وعلواً . ومؤلفاته في الفلسفة والطب بقيت قيد الاستعمال زمناً طويلاً بعد ان كان الناس قد نسوا مؤلفات من سبقه في هذين الحقلين . والنجاح الذي أحرزه ابن سينا

الفيلسوف الطبيب لم يحرزه رجل آخر من منافسيه في هذين الحقلين . فهو يمثل الذروة في الطب والفلسفة عند العرب .

— ١ —

ولد أبو علي الحسين بن سينا في قرية صغيرة تدعى افشنة بالقرب من بخارى عاصمة بلاد الصغد . وكان أبوه قائد حامية لقلعة بالقرب من أفشنة في عهد الأمير نوح بن منصور الساماني . وينتسب امراء آل سامان لرجل عُرف بهذا الاسم وكان زرادشتياً ثم اعتنق الإسلام . وانخرط ابناؤه في جيش المأمون وابلوا بلاء حسناً، فكافأهم المأمون بولاية عدد من المقاطعات. وفي عهد الامراء السامانيين — وكان أحدهم يرعى الرازي ويتعهده — أصبحت بخارى مركزاً ثقافياً فكرياً . وانتقلت عائلة ابن سينا مع أبنائها الثلاثة إلى بخارى ، وهناك تلقى الصبي علومه الابتدائية .

عندما بلغ الحسين العاشرة من عمره كان قد قرأ القرآن ودرس الأدب العربي. وكان أبوه قد علّمه العقيدة الاسماعيلية ، ذلك لأن أباه كان قد اعتنق هذا المذهب على يد أحد الدعاة الاسماعيليين من مصر . وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره — هذا إذا كنا لنصدّق كلامه — كان قد حذق عدداً من العلوم ، ودرس الطب (الذي وجده درساً يسيراً) لنفسه وبدأ يطبّب ويعلم الطب . وتعرّف إلى علم الرياضيات الهندي على يدي رجل بقّال . وفي الوقت ذاته كان يغوص في علم الفقه. وكانت العائلة قد استضافت أحد رجال الفلسفة أبا عبد الله النائلي وطلبت اليه ، بالمقابلة ، ان يعلّم الحسين كتاب الايساغوجي لبرفوريوس، وكتاب المبادىء لاقليدس ، وكتاب المجسطي لبطليموس . ولكن لم تطل مدة اقامة الفيلسوف في بيت الحسين لأن هذا اكتشف لنفسه انه يستطيع حل القضايا الهندسية التي لم يكن معلمه يستطيع حلّها . وواضح ان الحسين كان

مبكّر النضج عقلياً ، ويجب ان يكون قد اكتشف هذه الحقيقة لنفسه . وكان شغوفاً بالمعرفة ، ويحب التحصيل ، فثابر على اشباع فضوله العقلي .

بلغت شهرة هذا العالم الطبيب وهو لا يزال دون العشرين من العمر ، مسمع الأمير نوح الذي كان يشكو من مرضٍ ألمّ به . فشفاه الحسين وكافأه الأمير بأن أذن له باستعمال مكتبته والانتفاع بما فيها من كتب . ويقول : « رأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد » . فانكبّ بكليته على دراستها واستوعب ما فيها في غضون ثمانية عشر شهراً . ذلك انه كان له قدرة على الاستظهار بسرعة غريبة ، وعلى الاستيعاب بيسر. وبعد زمن احترقت هذه المكتبة التي درس فيها صاحبنا. وراحت الألسن تلوك الروايات من ان الذي أحرقها هو الحسين ليظلّ الوحيد الذي يعرف محتواها . وهو اتهام قديم ألصق بغيره من الناس في مثل هذه الظروف . ولكن لم يكن لدى ابن سينا سبب أو مبرّر ليقوم بعمل كهذا ، لأنه كان فريداً في علمه ومعرفته . وقبل ان تحترق المكتبة ، كان ابن سينا — وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره — قد اودع فيها النسختين الوحيدتين لكتابين كان قد ألّفهما .

في سيرة حياته (وقلّ ان يكتب الأديب العربي سيرة حياته بنفسه) التي أملاها على تلميذه الوفي وصديقه الذي عايشه طوال حياته ، أبي عبيد الجوزجاني، ترك لنا ابن سينا صورة ممتعة مفصّلة عن طريقة تحصيله . وهذا الوصف تجده في الكتب الثلاثة التي تُعنى بالسّير : القفطي وابن خلكان وابن أبي اصيبعة [1] .

وكلما كنت اتحيّر في مسئلة ولم أكن أظفر بالحدّ الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى

(١) القفطي : تاريخ الحكماء نشر يوليوس لبرت Lippert (ليبسك ١٩٠٣) ص٤١٥. ابن أبي اصيبعة ، مجلد ٢ ، ص ٣ . ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة ١٢٩٩) مجلد ١ ، ص ٢٧٢ .

فتح لي المنغلق ، وتيسّر المتعسّر ، وكنت أرجع بالليل إلى داري
وأضع السراج بين يديّ واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني
النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما
تعود إليّ قوتي ، ثم ارجع إلى القراءة. ومهما أخذني أدنى نوم أحلم
بتلك المسائل بأعيانها، حتى ان كثيراً من المسائل اتّضح لي وجوهها
في المنام ، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ووقفت عليها
بحسب الامكان الانساني . وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما
علمته الآن .

ولكن هذا المفكّر الواثق من نفسه لم يحسب حساباً لعلم يعصي عليه .
فقد وقع على كتاب عنوانه بعد الطبيعة ويعزى لارسطو، عصى عليه فهمه. يقول
لنا انه قرأ المخطوطة هذه اربعين مرّة فلم يفقه لها معنى . ولكن، لحسن طالعه
ولحسن طالع الناس من بعده، وُفّق ابن سينا إلى ورّاق توسّل اليه ان يبتاع منه
كتاباً للفارابي في ما وراء الطبيعة ، فاشتراه ابن سينا بعد تردّد . وكانت هذه
الحادثة نقطة تحوّل في حياة ابن سينا ، وفي اتجاه نشاطه الفكري . ذلك ان
اهتمامه أخذ ينصبّ على الفلسفة ، لا سيما الفلسفة الافلاطونية المستحدثة . وبعد
زمن قصير دخل عامل جديد في حياته المثمرة وهو اهتمامه بالسياسة .

كانت المنطقة التي عاش فيها ابن سينا طوال سنين معتركاً بين قوتين
تصطرعان للسيادة عليها : الايرانيين الفرس ، والطورانيين . وكان يمثل
الفرس آنذاك آل سامان . وكان الفرس على جانب من الثقافة والحضارة ،
وكانوا يفاخرون باستقلالهم وبسيادتهم ، ولكن نجم الذين كانوا يمثلونهم أخذ
بالأفول . وكان الطورانيون ، ويمثّلهم الغزنويّون ، حديثي العهد بالحضارة
وباساليب الحكم . وفي سنة ٩٩٩ اتمّ سلطانهم الكبير ، محمود الغزنوي ، فتح
ما وراء النهر بما في ذلك عاصمتها بخارى . ولكن السلطان محمود كان متشدّداً
في عقيدته السنية ، لا يرحم ولا يشفق على انسان يخرج عن السنّة . وكان إلى

جانب تزمّته في الدين رجلاً لا يحترم العلم ولا العلماء . فلم يكن ابن سينا يرى
في هذا السلطان رجلاً يستطيع ان يعمل تحت حكمه . وبعد ان فقد ابن سينا
مولاه الذي كان يرعاه ، الأمير نوح بن منصور ، توفي والده .

فقرر ابن سينا الرحيل. ولكن طريقه كانت طويلة محفوفة بالمخاطر والآلام
وخيبة الآمال . وأخيراً وجد نفسه في خدمة أمير بويهي في اصفهان . وكان
البويهيون شيعة من الفرس . وكانوا يرجعون بنسبهم إلى ملوك فارس قبل
الإسلام . وكانت السلطة الحقيقية في بغداد في يدهم بينما كان الخليفة العباسي يحكم
صورياً . وراح ابن سينا ينتقل على غير هدى من أمره من قصر أمير بويهيّ إلى
قصر أمير آخر كأن لا غاية لديه أو هدف. وقد تنقّل بين اثني عشر أميراً .
وعندما بلغ جرجان وجد ان الأمير الذي يمكن له ان يستقبله وان يرعاه قد
توفّي . فعبر الصحراء من هناك وذهب إلى خراسان . وعلى الطريق فقد عدداً
من رفاقه . وأصبح الآن (١٠١٥) في بلاد فارسية بويهية . وشعر وهو في
الرّي (على بعد خمسة أميال من طهران) بشيء من الاستقرار والسعادة في
خدمة أميرة من الأميرات . وكانت هذه الأرملة المحنكة قد قبضت على
زمام الحكم حتى بعد ان كان ابنها بلغ سنّ الرشد . ثم انها حاولت ابعاد
السلطان الشهير محمود الغزنوي عن بلادها مذكّرة إياه بأن الناس يهزأون بقائد
عظيم مثله إذا هو هاجم ممتلكات امرأة أرملة . ولسنا نعلم على وجه التدقيق
المهمة التي انيطت بابن سينا في قصر هذه الأميرة . وبعد انقضاء سنتين أو ثلاث
« اتفقت أسباب أوجبت الضرورة لها خروجه إلى قزوين ومنها إلى همذان » .

ولسنا ندري طبيعة هذه الظروف التي أوجبت ذهابه إلى همذان حيث
اتصل بخدمة شمس الدولة. وكان سبب اتصاله بشمس الدولة هو ان ابن سينا شفاه
من مرض القولنج الذي كان يشكو منه . ولم يطل الوقت حتى أصبح الشيخ
وزيراً، وهذا أعلى منصب شغله حتى ذلك الحين. وعندما غادر بخارى غادرها
بزي الفقهاء الذين كانوا يلبسون الطيلسان ويضعون مناديل حول أعناقهم. اما الآن

فلبس لباس الوزراء . وما لبث طويلاً في منصبه حتى نقم عليه الجيش لأسباب نجهلها وطالبوا الأمير بقتله . فاختبأ الوزير ابن سينا في بيت صديق له مدة اربعين يوماً . ولكن نوبة من القولنج عاودت شمس الدولة فطلبه واعتذر اليه طالباً منه الشفاء . وبعد ذلك اعيد إلى منصبه الوزاري في حفلة اقيمت خصصاً له .

وبعد وفاة شمس الدولة اكتُشف ان ابن سينا كان يكاتب سراً علاء الدولة أمير اصفهان . فأُلقي في أحد سجون القلاع مدة أربعة أشهر ، ثم أطلق سراحه . وغادر المكان سراً بزيّ رجل متصوّف وبرفقة عبدين له ، وأخيه (الذي يجب أن يكون قد لازمه طوال هذه المدة)، وصديقه الوفي الجُوزجاني. وفي قصر علاء الدولة احتُفل بقدمه (حوالي ١٠٢٣) وأُنزل في بيت فخم حسن الأثاث . ويبدو انه لم يتسنم منصباً رسمياً بل انصرف إلى الدرس والتأليف . وكانت تقام مساء الجمعة حلقة برعاية الأمير علاء الدين كان يحضرها أهل العلم فيتناقشون في القضايا العلمية والفلسفية . وبعد الحلقة الفكرية كانوا ينصرفون إلى الشراب ورقص الجواري . وهكذا أصبحت اصفهان لشيخنا التاعس المنهوك القوى مكان راحة ونشاط فكري . في هذا الجوّ انصرف إلى التأليف العلمي .

والحقيقة انه لم ينقطع عن الحياة الفكرية الناشطة . ففي جرجان أتمّ كتابة عدد من الرسائل ، وبدأ في تأليف كتابه المشهور : القانون . وبينما كان في الريّ ألف كتاب المبدأ والمعاد، وفي همذان أتمّ تأليف كتاب القانون الذي كان قد بدأه في جرجان ، وشرع في تأليف كتاب الشفاء . وعندما كان في السجن ألف كتاباً في القولنج وآخر عنوانه حيّ ابن يقظان . والآن في اصفهان اتمّ كتاب الشفاء واختصره في كتاب آخر عنوانه النجاة وأعاد كتابة القانون وكتب تفسيراً وتعليقاً على المجسطي . ويقال انه كان يكتب وهو على ظهر جواد برفقة مولاه عندما كان يخرج للحرب . وانه ليصعب على المرء ان يتصوّر

كيف ان هذا الرجل كتب ما كتبه ، وألّف ما ألّفه في ظروف قاسية كالتي مرّ فيها من أخطار السفر ، وآلام المرض ، والهرب من وجه السلطان ، ومن السجن .

للمرء ان يسأل عن سبب الحياة المضطربة القلقة التي عاناها ابن سينا قبل مقدمه إلى اصفهان . فلا ابن سينا يذكر شيئاً عنها ولا صديقه الجُوزجاني الذي أملى عليه الفيلسوف سيرة حياته . غير اننا نلحظ ان الجُوزجاني كان في بعض الأحيان يحثّ الشيخ على الكتابة والتأليف، مما يدل —وهذا افتراض نفترضه— على ان ابن سينا كان يحاول ان يقوم بدور لم يكن مؤهّلاً للقيام به . ولنا ان نفترض أيضاً انه لم يكن يحسن معاشرة الناس . وقد يكون السبب في ذلك مصاعب تتعلق بشخصيته . فإنه من الملاحظ ان ابن سينا كان على شيء كثير من الغطرسة العقلية ، فكان يحتقر صغار الناس ويحسد كبارهم ، كما انه كان موضع حسد لدى أقرانه وزملائه في البلاط . وفي جدله ومناظرته كان يحاول الحطّ من قدر مناظره وتشويه ما يقوله . وفي رأي الرازي — الذي كان يفوق ابن سينا ابداعاً — ان ابن سينا يجب ان يظلّ في حقل عمله : فحص البراز والبول .

ومن الخصوم الذين حاولوا الحطّ من قدر ابن سينا جماعة علماء الدين المتزمتين . فإنهم كانوا يرمونه بالزندقة . وكان ، بتصرفه وسلوكه ، يوفّر لهم أسباب النقد الذي كانوا يوجّهونه اليه . فإنه لم يكن في تصرّفه يتمشى مع العرف والتقليد المتّبع ، الأمر الذي لم يحببه إلى الرجل المسلم العادي . فقد كانت نظرة عامة الشعب اليه نظرتهم إلى الكندي : انه ساحر مشعوذ . وفوق ذلك كان ابن سينا رجلاً أعزب يتملكه السأم والضجر ، فكان ينصرف إلى الشراب والنساء والمأكل اللذيذ . والخمرة التي كان يشربها لكي تبعث فيه النشاط للتحصيل والعمل المستمر — كما يقول لنا في سيرته — أصبحت تتحكم فيه وتستعبده . وكان يبرّر شرب الخمر بحسب تفسير غريب لنصّ القرآن . كان

يقول : « ان شرب الخمرة ، بحسب الآراء الدينية ، محرّم على الحمقى والمغفلين ، وبحسب آراء أصحاب العقل ، محلّل لاصحاب العقل » . وكان ابن سينا يميل إلى المرأة ، كا ان المرأة كانت تميل اليه . ولا نستطيع معرفة عدد السراري اللواتي تسرّاهن . وعندما كان اصدقاؤه يسدون النصح اليه ان يعتدل في عيشه كان يقول لهم : اني اوثر عيشاً قصيراً رحباً على حياة طويلة ضيّقة .

وقد وردت في أخباره قصة فارسية تشهد على صحة ما قيل في مزاياه ، وتؤكّد لنا ان الرجل لم يكن فاقد الاحساس بل كان على شيء من حسن النكتة . ففي فجر يوم بارد في همذان طلب من تلميذ ان يأتيه بماء ليشرب . فتردّد التلميذ، فالماء البارد في يوم كذلك اليوم، وفي مثل تلك الساعة المبكرة، مضرّ بالعروق وبالأعصاب . فعنّفه ابن سينا على اعتراضه وذكره بقوله انه هو أعظم طبيب في عصره . ثم تابع ابن سينا كلامه إلى التلميذ فذكر له كيف انه لم يدّع النبوة كا ألحّ عليه هذا التلميذ من جملة من ألحّ عليه ان يدعيها . ثم قال : « بعد وفاة النبي بأربع مئة سنة لا نزال نطيع أوامره بينما أنت، وأنت أقرب الناس إليّ ، تعصي أمري بجلب ماء للشرب . فكيف استطيع أن أكون نبيّاً ؟ » .

اما حلقة الطلاب الذين أخذوا عن هذا المعلم الفيلسوف فقد كانت حلقة كبيرة واسعة تشمل عدداً لم يحضروا بانفسهم بل كانوا طلاباً بالمراسلة . وكان يجيب عن كل سؤال فوراً ويجيب عنه بنفسه . وقد شذت عن هذا الأمر جماعة من العلماء في شيراز التي تقع إلى الجنوب الغربي من ايران . فإنهم لم يكتبوا له ليسألوه عن قضية ما بل بعثوا اليه برسول يحمل اليه تعليقاتهم وردودهم على كتابه المختصر الأصغر الذي كان قد كتبه في جرجان وأدرجه فيما بعد في كتاب النجاة . وصل الرسول عند مغرب الشمس . فطلب الشيخ ورقاً وحبراً وقلماً — وبعض الشراب — وراح يجيب عما ورد في رسالتهم . وكان أخوه وصديقه الجُوزجاني يشاركانه الشراب . وما انتصف الليل حتى ملّ الاثنان ،

فأمرهما أن يأويا إلى الفراش . اما هو فقضى الليل يكتب لانه قال إنه لا يريد ان يؤخر الرسول دون سبب . وما ان اشرق النهار حتى كان قد كتب خمسين صفحة .

كانت الحملات العسكرية التي يشترك فيها تعكّر عليه صفو الحياة الفكرية التي ألفها . وكان الأمراء البويهيون المستقلون في حرب دائمة فيما بينهم ، فكانوا في الوقت ذاته يخشون الخطر الغزنوي الذي كان يهدّدهم مجتمعين . في سنة ١٠٣٠ ، أو حوالي ذلك الوقت ، بعث السلطان محمود ابنه على رأس حملة عسكرية ضد اصفهان . فهبّ علاء الدولة إلى تحرير اصفهان من الغزاة واصطحب معه ابن سينا. وعندما رجعا وجد ابن سينا ان مكتبته قد نُهبت، وحُمل بعض كتبه إلى غزنة . ومن جملة ما نهب من كتبه مخطوطة كتابه الموسوم بالانصاف الذي كان يحاول فيه ان يحكم بين المذاهب الفلسفية المتناقضة والمتعارضة. اما علاء الدولة فخرج إلى الحرب ثانية علىرأس جيش لمحاربة العدو قبل ان يهاجمه العدو . فخشي ابن سينا ، ان هو بقي في المدينة ، ان يقع في الأسر في حالة الهزيمة . فقرّر الالتحاق بالأمير . وكان في هذا الحين يشكو من القولنج ، فكان يحقن نفسه ثماني مرات في اليوم الواحد . غير ان حالته الصحية ساءت كثيراً وبدت عليه أعراض مرض الصرع . فاخذ يداوي نفسه بالترياق مع متابعة العلاج ضدّ القولنج بالحقن ، ولكن كان يضيف الآن حبّ الكرفس . غير ان هذا الحبّ زاد في حدّة السحج . وكان بعض خدمه قد سرق له مالاً ، وخوفاً من افتضاح أمرهم ، اضافوا إلى الحقن شيئاً من الأفيون ، لا سيا وانهم أيقنوا انه على وشك الموت ، ولكنه نجا من الموت باعجوبة .

وخرج علاء الدولة ذات يوم على رأس جيش وتوجّه إلى همذان . ولهمذان في نفس ابن سينا ذكريات مؤلمة . ولكنه شعر بأن واجبه كطبيب يحمله على مرافقة الأمير . فعاوده المرض وشعر ان قواه أخذت بالانهيار . فكف عن العلاج قائلاً : « ان المدبر الذي كان يدبّرني قد عجز عن التدبير والآن فلا تنفع المعالجة » . ولكن كاتب سيرته يقدّم لنا تعليلاً آخر فيقول : « كان الشيخ

قويّ القوى كلها . وكانت قوة المجامعة من قواه الشهوانية أقوى وأغلب ، وكان كثيراً ما يشتغل فأثّر في مزاجه [1] » .

وأخيراً جاءته منيته . توفي في شهر حزيران ، أو شهر تموز ، سنة ١٠٣٧ وهو في الثالثة والخمسين من عمره . ودفن خارج أسوار همذان .

— ٢ —

نلحظ في تطور حياة ابن سينا ، العالم الطبيب الفيلسوف ، ثلاث مراحل . في المرحلة الأولى ، وهو لم يبلغ العشرين بعد ، وهي مرحلة الدراسة ، تعلّم علوم زمانه بدءاً بالقرآن وانتهاء بالطبّ . في المرحلة الثانية ، وكان قد بلغ العشرين من عمره ، حصل علوم الاغريق بدءاً بفلسفة ارسطو المزعومة (ما بعد الطبيعة) كما فسرّها الفارابي ، وانتهاء بارسطو وافلاطون وافلوطين . اما في المرحلة الثالثة ، وكان قد بلغ الثلاثين ، فكان قد استقلّ بذاته ، وراح يضع النظريات ، ويقوم بالتجارب ، وينقد ويبحث ، وأخيراً أفلح في وضع نظام علمي فلسفي شامل متكامل يحق لنا ان نسميه باسمه : النظام السينوي . حتى ان النظام القديم الذي كان قد تناوله بذكائه وبعبقريته أصبح يبدو نظاماً جديداً . وكان نظامه يشمل الله والانسان والكون كوحدات مستقلة ، وكوحدات مترابطة ، متصلة الواحدة منها بالاخرى . وفي الوقت ذاته تناول العلوم الطبية بالاسلوب ذاته لينتهي إلى النتائج ذاتها التي انتهى اليها في نظامه العلمي الفلسفي . وهذان النظامان ، الفلسفي والطبي ، كانا يُدرّسان في مدارس الشرق ، وكانا يستخدمان طوال قرون في الغرب .

ألّف ابن سينا ثلاثة كتب جديرة بأن تسمّى موسوعات ، اثنين منها في

(١) ابن أبي اصيبعة ، مجلد ٢ ص ٨ ، والقفطي ص ٤٢٥ .

الفلسفة . ومن المستغرب ان عنوان احدهما الشفاء والكتاب الثاني في الفلسفة عنوانه الاشارات والتنبيهات. اما الكتاب الموسوعة الثالث فقد كان في الطب، وعنوانه القانون . والكتب الثلاثة من روائع الكتب . وله كتاب آخر في الفلسفة عنوانه النجاة وهو اختصار موجز لكتاب الشفاء. وقد ألفه نزولاً عند الحاح تلميذه الوفي . وهذا أضخم كتاب ألفه (ستة مجلدات في طبعة القاهرة ، ١٩٥٢ — ١٩٦٥) . ويحتوي هذا المؤلّف الضخم على أربعة كتب رئيسية في المنطق ، وفي الطبيعة ، وفي الرياضيات ، وفي ما بعد الطبيعة . ويقسم كل كتاب من هذه الكتب الأربعة إلى اجزاء ، والاجزاء إلى فصول ومقالات .

كان ابن سينا الفيلسوف ينتمي إلى جماعة الفلاسفة الذين يوصفون بالتأمل والتفكر . كان اهتمامه ينصبّ في الدرجة الأولى على فلسفة ارسطو في ما بعد الطبيعة وعلى فلسفة افلاطون كما أعاد الفلاسفة الهلينيون تفسيرها وتوضيحها ، وعلى تطبيق هاتين الفلسفتين على العقيدة الاسلامية . في فلسفة ما بعد الطبيعة الارسطوطاليسية تجد انه يركّز على الوجود (being) وكذلك ابن سينا في علم الإلهيات فإنه يركّز أيضاً على علّة الوجود . والله في نظر ابن سينا وجود مطلق ، وكائن أسمى . والوجود والبقاء واحد في ذات الله. هو واجب الوجود الأوحد . هو فاعل لا منفعل . وفي جميع هذه الأحوال هو وحده لا مثيل له. وهو أقدم من الكون ، وهو مبدعه وخالقه ومتنزّه عنه . وصفاته كالقدرة والمعرفة تنشأ عن وجوده غير المتغيّر . وواضح ان فكرة ابن سينا عن الله (التي تقول انه العلّة الأولى ، والمحرّك الأول) تختلف عن فكرة ارسطو التي تقول ان الله لم يخلق العالم ولا يأبه له . ان إله ابن سينا هو الإله السامي"، ولكن يعبّر عنه بالمصطلح الفلسفي الاغريقي . وهو الإله ذاته الذي تؤمن به المتكلّمة من المسيحيين واليهود .

واليك فقرة مثالاً على اسلوبه في التفكير :

كل سلسلة مترتبة من علل ومعلولات — كانت متناهية أو غير

متناهية — فقد ظهر انها ، إذا لم يكن فيها إلا معلول ، احتاجت إلى علة خارجة عنها ، لكنها تتصل بها لا محالة طرفاً . وظهر انه ان كان فيها ما ليس بمعلول ، فهو طرف ونهاية ، فكل سلسلة تنتهي إلى واجب الوجود بذاته [1] .

لجميع الأشياء ، خلا الله ، طبيعة مزدوجة . فانها كائنات ممكنة — ليس بالضرورة — وممكنة الوجود وجميعها تعتمد واجب الوجود . والانسان من مادتين : الجسد والروح . وهذه العقيدة الافلاطونية التي كان يأخذ بها هو والمتكلّمون المسيحيون ، كانت ترضي نفوس الناس ، ان من جهة الأخلاق ، أو من جهة العقيدة الدينية . ومادة النفس شيء قائم بذاته مغاير للجسد ومستقلّ عنه . النفس تحتاج إلى الجسد لتكون عاملة . وهي جزء من النفس العالمية التي هي الانبثاق الثاني الذي انبثق من الله . كان الانبثاق الأول العقل العالمي ، وكان الانبثاق الثالث المادّة . فالنفس موجودة ، إذن ، قبل الجسد ، وهي جوهر حقيقي ، لا مادي ، ولا يعتريها فساد ، بل هي خالدة . (ارسطو كان ينكر خلود النفس) وانتقال النفس عند الوفاة إلى جسد جديد عن طريق التقمّص أمرٌ لا يقرّه ابن سينا ، لأنه كان ينكر التناسخ. وعنده ان هناك أكثر من عقل واحد . وأثر نشاط العقل في الجسد يبدو في حركات الرجُل وفي ردود الفعل العاطفية فيه .

وعلاقة النفس في الجسد تبدو بصورة واضحة في قصيدة لابن سينا في النفس. وهي قصيدة مشهورة لا يزال الطالب العربي ، حتى يومنا هذا ، يستظهرها . والفكرة الرئيسية التي تدور القصيدة حولها هي ان النفس البشرية شعاع سماوي يُسجن في ظلام الجسد ، ولكنه يحنّ دوماً للرحيل إلى المصدر الذي صدر عنه.

هبطت اليك من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزّز وتمنّع

(١) الاشارات والتنبيهات : طبعة سليمان دنيا (القاهرة ٩٥٨) ص ٤٥٥ .

محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى بمدامع تهمي ولمّا تقلع
وتظلّ ساجعة على الدمن التي درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدّها قفص عن الأوج الفسيح الأربع
حتى إذا قرب المسير من الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مخالفة لكل مخلّف عنها حليف الترب غير مشيّع
هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجّع

اما النبوّة ، وهي عقيدة اساسية في الإسلام، فقد شغلت بال جميع الفلاسفة المسلمين . وكعقيدة شغلت قضية النبوة في الفكر الاسلامي حيّزاً لم تشغله من قبل ولا من بعد . اما النظرة الاغريقية إلى النبوّة كقضية فلسفية فقد كانت نظرة غامضة يكتنفها الابهام . وظلّت عند المفكرين الاغريق قضية ثانوية لا كغيرها من القضايا التي نشأ حولها نظام فكريّ معيّن . وكان للعبران القدماء أنبياء ، وفي اللغة العبرية والعربية يستعملون اللفظة ذاتها (نبي) ، ولكن انبياء العهد القديم لم يبلغوا الشأو الذي بلغه النبيّ محمد في القرآن . وأصبح الايمان بنبوة محمد عقيدة تأتي في الدرجة الثانية بعد الايمان بالتوحيد .

لا نعرف فيلسوفاً مسلماً — باستثناء الرازي — تحدّى في فلسفته عقائد قرآنية . وإذا كان الفلاسفة المسلمون اختلفوا فيما بينهم وتخاصموا، فإن اختلافهم وتخاصمهم كانا في مسائل تتعلق بالعلم الالهي (اللاهوت) . ولم يقنع ابن سينا بالاعتراف بحقيقة النبوة ، بل كان يصر في مناظراته على وجوبها وضرورتها . وكان يتبع الكندي في رأيه ان النبوة تمثل أسمى موهبة في الانسان وأكملها . ويتميّز النبيّ الحقيقي بعقل أسمى ، وبحدس عجيب ، وبخيال صاف ، وأهم من هذا انه يتميّز بقدرة على اكتساب احترام الناس له واطاعة أمره . ويحصل على المعرفة فجأة ومباشرة ودون الاستعانة بتعليم من قبل الناس . ويتصل بالحقّ

الأعلى بواسطة جبريل . ورسالة النبوة ضرورية طالما ان الناس متفاوتون عقلاً ومواهب ، سواء أكان ذلك من جهة الكم أم من جهة النوع .

ان وظيفة النبي تبليغ الوحي . ولكي تفهم عامة الناس الرسالة ويتقبّلوها فان النبي يلجأ إلى الرموز والامثال والمجازات التي يجب أخذها حرفياً . اما أصحاب العقول الراجحة فليس هناك ما يحملهم حملاً على الأخذ بها . وملذات النعيم ، مثلاً ، التي يرد وصفها في النصوص الدينية ، يجب ان تؤخذ على انها ملذات روحية لا جسدية . هي ملذات الروح . وليس العقاب والثواب للجسد ، لأن الجسد غير خالد . وبعث الاجساد أمر لا أدلة عقلية عليه . والعالم قديم ، لا نهاية له ، اما بعث الجسد فانه يعني ضمناً ان العالم ليس قديماً بل له نهاية . ومبدأ قِدَم العالم واضح في فلسفة ابن سينا ، وذلك بحسب نظريته في الخلق . فإن الخلق عنده فيض من الله . وتختلف نظريته هذه عن نظرية الخلق عند ارسطو ، وعن النظرية المادية في الخلق ، في ان العالم يظلّ قائماً إلى الأبد وبدون إله . وعندما كان ابن سينا يؤلّف كتبه كان يضع قبالته دوماً العامة من الناس والخاصة منهم . فوضع الشفاء والنجاة للعامة . اما كتابه الاشارات والتنبيهات فقد كتبه لتلاميذه. اما كتاباه حكمة المشرقيين وحي ابن يقظان فانهما من الكتب الباطنية المعدّة لفئة خاصة من الناس تستطيع فهمها. وذكرنا سابقاً ان الاسماعيلية كانت معروفة بالباطنية . وفي كتاب له معدّ للعامة من الناس يقول ابن سينا إن بعث الاجساد أمر يقبله الانسان بواسطة الايمان . اما في كتاب له معدّ لأصحاب العقول الراجحة فانه ينكر بعث الأجساد قطعاً . ومن هذا القبيل تحليله شرب الخمرة . وكان الغزالي يقول بهذين المستويين في الفلسفة ، واحد للعامة من الناس والثاني للخاصة منهم ، ولكنه لم يستخدمه على النطاق الواسع الذي استخدمه فيه ابن سينا .

إلى جانب العقيدة في النبوة ، كانت العقيدة بالقضاء والقدر تحتلّ أيضاً حيّزاً كبيراً في الفلسفة الدينية عند المسلمين . وهي قضية تتضمن مسائل لها

علاقة بقدرة الله وبحرية تصرّف الانسان أي التخيُّر ، والثواب والعقاب على أعمال يعملها الانسان . وواضح ان هذه العقيدة قرآنية ، وجذورها متأصلة في العلم الالهي الاسلامي ، وفي المجتمع الاسلامي أيضاً . ولكن ابن سينا كان يؤمن بقوانين العلّة والمعلول المنطقية ، فوجب عليه ان يؤمن بحرية الانسان ، أي بالتخيير ، ومن ثمّ بمسؤولية الانسان عن أعماله ، تاركاً لله ان يُعنى بأمر القوى العامة التي تضبط شؤون الكون . ولكن رأي السنّة هو ان القضاء والقدر يتناول أمرين : قضاء الله العام الشامل الأبدي ، واطاعة الانسان أمر هذا القضاء في الزمان والمكان . وهنا جلب ابن سينا نقمة السنّة عليه بعد ان كان قد جلب عليه النقمة من جرّاء انكاره بعث الأجساد ، وتعليمه بقِدَم العالم .

وقد أبدى ابن سينا بالصوفية اهتماماً خاصاً على انها مظهر من مظاهر التقوى والورع في الإسلام . وكان اهتمامه بها لميول شخصية خاصة ، ولاسباب فلسفية . ونعتقد ان ابن سينا كان يلجأ إلى الصوفية في الأزمات النفسية التي عاناها . ونذكر انه هرب مرّة متخفياً بزيّ رجل صوفي . وبالاضافة إلى تناوله موضوع الصوفية في الفصول الثلاثة الأخيرة من كتابه الاشارات والتنبيهات فانه خصّ الصوفية أيضاً باثنتين وثلاثين رسالة أو فصلاً . وفي الاشارات يركّز القول على ان أسمى درجات السعادة هي السعادة الفكرية الروحية لا الجسدية ، وعلى ان هذه السعادة لا تحصل للانسان بوسائل مادية . وفي نظره ان التقشّف في العيش والزهد فيه لا يضمنان للمرء الحصول على السعادة ، بل على المرء ان يسعى للحصول على النور الداخلي الذي يتوافر له بواسطة الملائكة بصفتهم وسطاء وشفعاء بين الانسان وبين الأجرام السماوية . ويبدو من كلام ابن سينا هذا أثر الفلسفة الافلاطونية المستحدثة ونظريتها في النور والفيض، واثر نظرية المعرفة الروحانية التي كان يعرفها الشرق الأدنى القديم . والصلاة أساسية فيها تسعى النفس البشرية نحو كمالها . ومن الأمور الجوهرية في الصلاة التأمّل ، والتأمل

في الله بغية الاتصال به ورؤيته روحياً ، لأن رؤية الله هي الهدف الأسمى والغاية النهائية .

وبهذا يكون ابن سينا قد مهّد السبيل لحكمة الاشراق التي بدأ في وضعها أحد أتباعه ، السهروردي ، وهو الذي أمر صلاح الدين بقتله وهو في السادسة والثلاثين من عمره سنة ١١٩٢ .

اشتهر ابن سينا كطبيب أكثر مما اشتهر كفيلسوف . فإن له من الكتب الطبية ثلاثة وأربعين كتاباً أضخمها وأطولها بقاء كتاب القانون في الطب . وأول طبعة عربية للكتاب ظهرت في روما (١٥٩٣) ويحتوي على ٨٨٣ صفحة من قطع الربع وعدد كلماته نحو مليون كلمة . ويمكن اعتبار هذا الكتاب انه تنظيم لعلم الطب كما كان الطب معروفاً في عصره . كما ان كتابه الشفاء يمكن اعتباره تنظيماً وتقعيداً للفلسفة . في كتاب القانون حاول ابن سينا ان يؤلف بين طب ابقراط وطب جالينوس مع ادخال عناصر طبية من بلاد فارس والهند ، وبين طب السريان والعرب ، هذا بالاضافة إلى ما أدرجه في الكتاب من اختباراته الشخصية ومن التجارب التي قام بها. وإذا حكمنا على الكتاب بناء على رواجه وشيوعه في الشرق والغرب جاز لنا القول بأن الكتاب لم يكن له مثيل في ذلك العصر . وقد حل كتاب القانون محل كتب الطب التي ظهرت قبل ذلك الحين ، وظل الكتاب الطبي المعتمد في الشرق حتى القرن العشرين . وظل في الغرب كتاباً مدرسياً يعلّم في مدارس الغرب الطبية حتى القرن السابع عشر ، وفي مدرسة طبية في اميركا اللاتينية ظل كتاباً طبياً معتمداً في التدريس حتى القسم الأخير من القرن التاسع عشر . يقول أحد الذين ارخوا لعلم الطب : « انه ظل توراة الطب أطول مما ظل أي كتاب آخر » . ويعود معظم الفضل في نجاحه إلى التصنيف المسهب المفصّل ، وإلى لغته الصافية ، واسلوبه المشرق ، وإلى الشمول في معالجته جميع الأمراض .

وعلى الرغم من انه يشوب الترجمة اللاتينية التي قام بها جيرارد الكرموني

(توفي ١١٨٧) في طليطلة ، عدم التقيد بالأصل في عدة مواضع ، فقد اعيد طبعها مراراً عديدة . وفي الثلث الأخير من القرن الخامس عشر اعيد طبعه خمس عشرة مرة إلى جانب طبعة عبرية . في ذلك الحين أضحى اسم ابن سينا بشكله اللاتيني (Avicenna وذلك بواسطة العبرية حيث لفظة ابن تصبح aven) معروفاً في الاوساط العلمية في اوربا . وكان اسمه بعد ذلك الحين يتردد صداه من دير إلى آخر في فرنسا إلى المدارس في اواسط آسيا . وفي كتاب القانون ذكر للعلاقة الوثيقة بين العواطف والشعور وبين الحالة الفيزيولوجية للجسم ، كما انه يلمّح لعلاج الأرق بواسطة الانتصاب في الوقفة ، وعلاج الجنون بواسطة البرداء . ويضع اهمية خاصة على التغذية ، وعلى اهمية المناخ في الصحة . اما في الجراحة فإنه يستخدم مخدّراً يبتلعه المريض كالخمرة ، مثلاً ، الممزوجة ببعض العقاقير . وكتاب القانون يشير أيضاً إلى أن مرض السل ينتقل بالعدوى وإلى ان الأمراض تنتشر بواسطة القذارة والأوساخ والمياه ، كما انه يفرّق بين مرض التهاب الحيزوم وبين ذات الجنب، ويعزو فقر الدم إلى دودة في المصران. واما في علم الادوية فإنه يشير إلى قرابة سبع مئة وستين عقاراً ، كما انه يوصي بأن يجرب الدواء أولاً على الحيوانات .

وله كتاب آخر في الطب من الدرجة الثانية ولكنه كتاب اكتسب شهرة لانه نُظم شعراً . واستخدام الشعر في التعليم أمر معهود وقديم وذلك لتيسير التعلّم عن طريق الاستظهار . وكان ابن سينا أول من استخدم الشعر في تعليم الطب والمنطق . وكان بحر الرجز ، بالنسبة إلى سهولته وحسن ايقاعه ، البحر المفضّل عند أصحاب اللغة . وألّف لبناني نصراني ارجوزة من هذا النوع ظلّت قيد الاستخدام حتى زمن قريب . اما ارجوزة ابن سينا في الطب فعدد أبياتها يفوق الألف . وقد ترجمت إلى اللاتينية وطبعت في مدينة البندقية بعد ذلك بقرن من الزمن ، وزاد في قيمتها وشيوعها بين الناس تعليق ابن رشد عليها .

وكعالم كان على ابن سينا أن يلمّ بالعلوم الطبيعية جميعها . وفي كتابه الشفاء أجزاء تُعنى بعلم الطبيعة ، وبعلم الانواء ، والحيوان ، والنبات، وطبقات الأرض ، وعلم النفس ، والرياضيات. ولم يكن كالكندي في نظرته إلى التنجيم، فإن ابن سينا ينكره . اما في علم الكيميا فكان يوافق الكندي في رأيه من امكانه تحويل المعادن إلى ذهب وفضة. وكان المنطق في نظره من العلوم المدخلة إلى سائر العلوم ، بمعنى انها ضرورية لفهمها . وقد استخدم المنطق كمقدّمة لكتابه الشفاء . وألحق الموسيقى بالعلوم الرياضية ، وكان يشدّد في القول ان لها أثراً في النفس . وعالج الموسيقى في الشفاء وفي النجاة وفي غيرهما من مؤلفاته التي لم يصلنا منها سوى مؤلّف واحد في الموسيقى . وقد ترجم ما كتبه في النجاة إلى الفارسية ، اللغة الأمّ عنده ، كما انه ترجم أيضاً بعض انتاجه الفلسفي . وبعمله هذا يكون قد أدخل الفكر اليوناني الفلسفي إلى بلاد فارس، وأدخل المصطلحات الفلسفية التي كانت في معظمها من اللغة العربية .

اما من حيث ضخامة التأليف فإن ابن سينا ينافس الكندي على احتلال أعلى مراتب الفضل . فإن ابن خلّكان يعزو اليه تأليف مئة كتاب . غير أن أديباً مصرياً يعنى بالكتب (١٩٥٠) اثبت لابن سينا ٢٦٧ مؤلّفاً بقي منها مئتان . وفي فهرست مكتبة جامعة برنستون نجد ١٨٧ عنواناً (بين كتاب ومقال ورسالة) تحت اسم ابن سينا (Avicenna) .

يلقّب ابن سينا بجالينوس العرب. وليس ما يمنع من تسميته أيضاً بارسطو العرب . اما أهله وصحبه وعارفو فضله فكانوا يلقبونه بالشيخ الرئيس . ولكن علماء الدين كانوا يقولون عنه انه كافر . وقد اوغروا صدر الخليفة العباسي المستنجد ، فأمر باحراق كتبه في احدى الساحات أمام الجمهور . ولكن على مرّ الزمن تناسى الناس ما كان يلصق باسمه من شر وكفر ، ولم يعد أحد يذكر عنه سوى الخير والفضل . فإن ثلاث دول – تركيا وايران والبلدان العربية مشتركة – احتفلت بعيد مولده الألفي بحسب التقويم القمري (سنة ٣٧٠

هجرية ويقابلها سنة ٩٨٠ ميلادية) . وقد وُلد والده في بلخ إلى الجنوب الشرقي من بخارى . وكانت بلخ فيما مضى من الأيام مركزاً بوذياً ، وملتقى يلتقي فيه الفرس والأتراك . وأما اشتقاق اسمه « سينا » ومعناه فأمر غير واضح ، فإنها لفظة غير ساميّة . وقد حاول بعضهم ان يعتبر « سينا » لفظاً مرادفاً « للصين » ولكنه رأي مستبعد ، لأن السين والصاد حرفان يختلفان في العربية . اما مهرجانا طهران وبغداد فقد كانا من المهرجانات الأدبية الدولية ، وكانا دافعاً لنشر مجلدات عديدة عن المحتفى بذكراه [1] .

ولم يقتصر أثر ابن سينا الفكري على أبناء دينه من المسلمين بل تعدّاهم إلى السريان النصارى الذين درسوا فلسفته وانتفعوا كثيراً بطبّه . فإن أحد علماء السريان ، ابن العبري (توفي ١٢٨٦) – وقد ذكرنا سابقاً انه كان قد درس الكندي – درس ابن سينا دراسة وافية وانتفع بعلمه . وقد ترجم أقساماً من كتاب الشفاء إلى اللغة السريانية . وكان يأخذ بآرائه الفلسفية ، ولا سيما تلك التي تدور حول النفس البشرية . وألّف ابن العبري السرياني كتباً في الطبيعة والفلك والطبّ . وفي أحيان كثيرة يذكر فضل ابن سينا الذي سبقه إلى هذه المعارف ، وأحياناً أخرى ينقد آراءه .

بوفاة ابن سينا وصلت الفلسفة الاسلامية المشرقية فجأة إلى نهايتها المحتّمة .

---

(١) لجنة الآثار الوطنية ، كتاب المهرجان لابن سينا (طهران ١٣٣٥) .
Iran Society, Avicenna Memorial Volume (Calcutta, 1956) .
Zabihollah Safa, Le livre du millenaire d'Avicenne (Teheran, 1953) .
جامعة الدول العربية : الكتاب الذهبي (القاهرة ١٩٥٢) .
ومن اراد المزيد عليه ان يراجع أحمد ف. الاهواني : ابن سينا (القاهرة ١٩٥٨)
سهيل ن. افنان : Avicenna : His Life and Works (London, 1958) :
Sayyid Husain Nasr, Three Muslim Sages (Cambridge, Mass. 1964) .

فإن الحركة الفكرية الناشطة التي بدأها المأمون قبل ذلك بقرنين من الزمن كانت قد استنفدت قواها الفاعلة . واتجه النشاط الفكري العربي ناحية العلوم الدينية التي بلغت ذروتها على يدي الغزالي الذي عجّل في تقويض الصرح الفلسفي بمهاجمته الفلسفة والفلاسفة . ومما زاد في سرعة التقهقر الفلسفي الفكري الحروب الصليبية والغزوات المغولية . ودخل الإسلام المشرقي في عصوره المظلمة . ولكن من حسن الطالع ان افول نجم الفلسفة في المشرق كان بشيراً بطلوعه في المغرب ، حيث بلغت الفلسفة ذروتها على يدي ابن رشد القرطبي ، وهو من أتباع ابن سينا في أكثر من ناحية من نواحي تفكيره . وكان فيلسوف التاريخ، ابن خلدون التونسي ، أحد اولئك الذين اقتفوا آثار ابن سينا ، وأخذوا بآرائه العلمية والفلسفية . وهذان الرجلان ، ابن رشد وابن خلدون، سيكونان موضع دراستنا في الفصلين التاليين .

ان خطورة شأن الفلسفة العربية بالنسبة إلى علماء الكلام عند المسيحيين ناجمة عن كونها فلسفة اسلامية تهدف إلى التوفيق بين الفلسفة الاغريقية والفكر الاغريقي وبين عقيدة التوحيد في الإسلام . فهي ، إذن ، نظام فلسفي يصلح أن يكون أداة للتوفيق بين الفكر الاغريقي والفلسفة الاغريقية وبين العقيدة المسيحية ، لأنها بأسلوبها ومحتواها يمكن أن تحلّ بعض المشكلات في العقيدة المسيحية . وأول من ادرك خطورة شأن الفلسفة العربية والانتفاع بها في علم الكلام عند المسيحيين كان رجلاً المانياً ينتمي إلى الرهبانية الدومينيكية وكان قد درس في بولونيا ، ودرّس في جامعتي باريس وكولون، واسمه البرت الكبير (توفي ١٢٨٠). حاول ألبرت أن يؤلّف بين فلسفة ارسطو وبين اللاهوت المسيحي مستخدماً لذلك التعليقات التي علّق بها فلاسفة المسلمين على ارسطو، والتفسيرات التي بها فسّروا ارسطو . وإلى جانب تأليفه خلف ألبرت الكبير حلقة من

طلاب وأتباع اشهرهم رجل ايطالي هو توما الاكويني الذي كان راهباً دومينيكياً أيضاً . وهنا بزّ التلميذ معلمه (بالرغم من أن التلميذ مات قبل معلمه بست سنوات) . وكان توما الاكويني قد درس على ألبرت وهو بعد في طور تكوينه الفكري ، فكان أثر المعلم في تلميذه عميقاً ودائماً .

بعد ان أنهى توما الاكويني دراسته في جامعة كولون راح يدرّس في جامعة باريس وفي جامعات وطنه ، ايطاليا . ويكاد توما الاكويني ان يكون أفضل المتكلمين المسيحيين الذين وضعوا نظاماً للاهوت الكاثوليكي ، ولذا لقّب بأمير المتكلمين . في تآليفه ، واشهرها وأبعدها أثراً الخلاصة اللاهوتية ، يكثر توما من ذكر اسم ابن سينا ومن نقده . والنظام الفلسفي الذي وضعه توما أصبح نظاماً يعرف باسمه الفلسفة الاكوينية ، وأصبح اتباعه يعرفون بالاكوينيين . وبفضل توما الاكويني وألبرت الكبير (وقد طوّبتهما الكنيسة قديسين) وجدت الفلسفة العربية سبيلها إلى الغرب حيث رسخت جذورها في التربة المسيحية .

وقد بلغ أثر الفلسفة العربية الجزر البريطانية . فإن فيلسوفاً وعالماً انكليزياً اسمه روجر بيكن (توفي ١٢٩٤) كان قد درس في اوكسفورد وباريس ، ومال بكليته إلى الفلسفة العربية والعلوم العربية . وكان يعتبر ابن سينا أعظم ثقة في الفلسفة بعد ارسطو . وكان بيكن يقوم بتجارب في حقل الكيمياء والبصريات ، ولذا اتّهمه أهل زمانه بأنه كان يتعاطى أعمال السحر والشعوذة . كما ان الرهبانية الفرنسيسكانية التي كان بيكن ينتمي اليها ، اتهمته بالكفر والخروج على العقيدة الصالحة بكتاباته . وقد حُبس في باريس عدداً من السنوات . وممن تأثروا بفلسفة ابن سينا وبتعاليمه عالم لاهوتي ينتمي إلى الرهبانية الفرنسيسكانية اسمه دنز سكوتس المولود في دنز من أعمال سكوتلندا والمتوفى سنة ١٣٠٨ . وكان هذا العالم المتكلم قد درس وعلّم في اكسفورد وفي باريس وكولون .

سيطر أبو علي الحسين ابن سينا ، الطبيب الفيلسوف ، والعالم الشاعر ، والشيخ الرئيس ، على الفكر الاسلامي الفلسفي ، وعلى الطب العربي مـــدة ألف سنة ، ومهّد السبيل للفلسفة المسيحية واللاهوت المسيحي ان يسيطرا في أثناء العصور المتوسطة ، وفي أثناء العصر الحديث ، على الفكر الغربي .

ابن رُشْد
الشارح الأكبر

فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد ان سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم في السماء — يعني الفلاسفة — اقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف فأخـذت اتعلّل وانكر اشتغالي بالفلسفة . ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل.

ابن رشد

ظلّت الأندلس ، بعد فتحها على أيدي المسلمين ، قرابة قرنين من الزمن تعتمد على المشرق في نموّها الفكري ، وتطوّرها الروحي . ومـا كان لهذه الرابطة الفكرية الروحية ان تنفصم . فكان حكام الأندلس من المسلمين ينهجون في حكمهم منهج الأمويين في سورية ، بينما كانت العامـة من المسلمين تنهج في الفكر منهج أهل الحجاز والعراق . وكان طلاب العلم ، بعد انهاء تحصيلهم في مدارس قرطبة واشبيلية وغرناطة وطليطلة ، يرحلون في طلب المزيد من العلم إلى مكة والمدينة وبغداد والقاهرة ، على غرار ما نشهده اليوم من ارتياد طلاب آسيا وافريقيا معاهد العلم العالية في اوربا واميركا . وقد سبق ان ذكرنا ان العربي ، لكي يتم ثقافته ، كان يرحل إلى الصحراء ليأخذ عن فصحائهـــا صفاء

اللغة العربية . اما المسلم الأندلسي فكان يرحل إلى مراكز العلم في بلاد المشرق .

وكانت فريضة الحجّ من عوامل الاتصال بين الأندلس وبلاد المشرق . كان طالب العلم الأندلسي يرى في الحج سانحة تستهوي مشاعره . فإن مرافقته قافلة تغادر بلده إلى اداء فريضة الحج ، وبقاءه سنة أو ما يزيد عن سنة يزور الجوامع والمساجد ويحضر حلقات علماء الدين فيها ، كانت في حدّ ذاتها تثقيفاً . وقد لحظنا هذه الظاهرة عندما أخذنا الغزالي بالدرس في فصل سابق . كان طالب العلم يعود إلى موطنه وفي يده اجازة من شيخ حضر حلقته واجازه . فيطمئنّ إلى انه سيحظى بمقام رفيع بين العلماء . فكانت الاجازة في يده بمثابة بطاقة دخول تؤهّله للاندراج في جماعة العلماء ، هذا إلى جانب كونها شهادة تؤمّن له وظيفة مدرّس ، أو واعظ ، أو قاض شرعي . كانت الطريق إلى الأندلس مزدوجة . فكان الخلفاء والأمراء في الأندلس يوجّهون الدعوات للادباء ، والشعراء ، والمحدّثين ، وعلماء الدين ، والمغنّين ليحضروا إلى الأندلس للتدريس في جامعاتها . وكان غيرهم يهاجر إلى الأندلس بدون دعوة . فقد كانت الأندلس بلاداً تستهوي مشاعر الناس كما يستهوي العالم الجديد مشاعر المهاجرين اليه . ويجب أن يكون هذا « الاستنزاف العقلي » للمشرق قد بدأ في وقت مبكّر . فقد دعا أحد أحفاد عبد الرحمن الأول (٨٢٢) زرياب المغنّي الفارسي من بغداد لزيارة الأندلس ، وعندما حضر خرج الأمير إلى ظاهر المدينة لاستقباله ، وجعل له مرتباً قدره ثلاثة آلاف دينار ، وأنزله داراً ثمنها أربعون ألف دينار . وبعد وقت قصير أصبح زرياب الشابّ الطريف ، والشاعر الذي كان يعرف عشرة آلاف أغنية مع الحانها ، معبود الطبقة الارستقراطية . وبلغت الرحلة من المشرق إلى المغرب ذروتها في عهد عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين سنة ٩٢٩ ، وفي عهد ابنه الحكم . ومن جملة العلماء الذين وجّهت اليهم الدعوة ليحتلوا منصباً في التعليم في جامعة قرطبة كان اللغوي

العراقي الشهير أبو علي القالي . وعندما طلب اليه الخليفة ان يتكلّم في الوفد الذي حضر من بلاد الروم ومن غيرها من البلدان ، حمد الله وصلى وسلم على نبيّه ثم أرتج عليه وتلعثم من روعة الموقف فلم يعلم ما يقول . فنهض إلى المنصّة خطيب آخر وألقى ارتجالاً خطبة مسجوعة اثبتها المقّري في تاريخ الأندلس في صفحتين ونصف الصفحة . ودفع الحكم مبلغ ألف دينار ثمناً لكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني ، وهو من ذرية الامويين .

وكانت تجارة الكتب تسير أيضاً من المشرق إلى المغرب . فكان الحجاج وتجار القوافل يحملون في حقائبهم في طريق عودتهم كثيراً من الكتب الجديدة التي كانت تظهر في الشرق . وجميعنا نذكر خبر موطّأ ابن مالك ، ذلك الكتاب الذي أصبح بعد وفاة صاحبه بقليل المرجع في الشريعة والقانون في الأندلس ، وفي سائر بلدان المغرب ، وكيف انهم كانوا يعتبرون مؤلّفه من اولياء الله . فالحياة الاسلامية التي لم تعرف المجالس السياسية والمسارح التمثيلية على ما نعهده في الحياة الاغريقية ، كانت ترفع من قيمة الكتاب وتجلّه كمصدر اوليّ للمعرفة . ويخبرنا المقّري عن عالم من أهل قرطبة كان شديد الرغبة في الحصول على كتاب له به حاجة . وصدف ان وقع بصره عليه عند ورّاق وكان هناك آخر يريد شراءه . فتزايد الاثنان إلى ان تجاوز الثمن قيمة الكتاب . فقال له العالم القرطبي : يا رجل ان قيمة الكتاب لا تساوي هذا المبلغ من المال . فقال الرجل : « اني لا اعلم ماذا يحتوي الكتاب ، وانما في بيتي خزانة للكتب كبيرة انفق عليها علّني اكسب احترام العلماء من الناس . وعلى أحد رفوفها مكان لهذا الكتاب الحسن التجليد ، الجميل الخط ، واني على استعداد ان أدفع أي مبلغ من المال في سبيل الحصول عليه » .

ان الفِكَر التي تنتقل من بيئة إلى بيئة أخرى ، ومن مناخ فكري إلى مناخ آخر ، يعتريها من التغيير والتبديل ما يعتري النباتات التي تنقلها من تربتها إلى تربة جديدة . فإنها تكتسب خصائص جديدة . ويلاحظ هذا المبدأ في الشعر حيث

نرى الموشّح الاندلسي انعتق من بحوره التقليدية وأصبح له صلة وثيقة بالموسيقى. وهذان الفنّان، الشعر والموسيقى، أصبح لهما أوزان جديدة واصول جديدة في النغم وفي الفكرة . وقد راج الغناء الشعبي رواج موسيقى الجاز العصرية في يومنا هذا . والفكرة الرئيسية في الشعر كانت الحبّ ، ولكن الحب العذري. وظهر في القرن الحادي عشر شعراء متجولون محترفون وراحوا ينتقلون من قصر أمير إلى آخر يمتدحون العظماء ، ويتغنون بأمجادهم . وكانوا يذهبون من بلد إلى آخر ينشدون اشعارهم الغنائية الغرامية . وانتقلت العدوى سريعاً إلى الشعراء النصارى من أهل الأندلس ، وراحوا ينظمون الشعر الغنائي الرقيق . وفي القرن الثاني عشر أخذ شعراء قشتالة وجنوبي فرنسا يقلّدون الشعراء الغنائيين العرب، وهكذا نشأ شعراء التروبادور. وانتشر هؤلاء الشعراء الغربيون، والشعراء المغنّون إلى ايطاليا حيث زهوا حتى انصرام القرن الثالث عشر .

— ١ —

لم تكن الفلسفة بين المستوردات الفكرية في أوائل العهد الأندلسي . نسمع بأكثر من عالم واحد تلقّى علومه العالية ، في أثناء القرن التاسع ميلادي ، في المشرق ، بما في ذلك الهندسة والمنطق ، وهما العلمان الفلسفيّان اللذان لم يكن هنالك اعتراض شديد عليهما في الأوساط الدينية الاسلامية. كذلك نسمع عن رسائل في الفلسفة كانت تجد سبيلها إلى الأسواق الأندلسية حوالي سنة ١٠٠٠ . غير اننا لا نسمع عن فيلسوف واحد بارز من بين المسلمين في الأندلس خاض في علم ما وراء الطبيعة إلا في أثناء القرن الثاني عشر . ولكن قولنا هذا لا يعني ان الاندلس لم تنتج علماء في حقل العلوم الطبيعية .

غير انهم كانوا يولون علم الفلك اشدّ اهتمامهم وذلك بعد منتصف القرن العاشر بتشجيع من قبَل ولاة قرطبة . وكان أكثر علماء الفلك من المنجمين

الذين يعتقدون بأن للأجرام السماوية أثراً سحرياً في شؤون الناس من مولدهم حتى موتهم ، اي انهم كانوا في هذا الشأن من اتباع أبي معشر الذي زها في بغداد ومات سنة ٨٨٦ . واقدم عالم اندلسي مسلم بارز كان رجلاً من قرطبة . وكان فلكياً رياضياً اسمه المَجْريطي (توفي حوالي ١٠٠٧) . وقد حرّر المجريطي زيج الخوارزمي ونقّحه ، ثمّ حوّل التقويم من الفارسي القديم إلى التقويم الاسلامي الهجري . وبدّل كذلك خط الطول القديم بخط طول قرطبة . وكان أعظم طبيب جرّاح عرفه العرب اندلسياً مسلماً اسمه ابو القاسم الزهراوي (توفي حوالي ١٠١٣) . كان ابو القاسم طبيب القصر عند الحكم ، ابن أول خليفة اندلسي . وكانت رائعته الطبية التي ترجمت إلى اللاتينية تحتلّ مرتبة رفيعة في الاوساط الطبية ، وظلّت طوال قرون المرجع الطبي في الجراحة في سالرنو من اعمال ايطاليا ، وفي مونبيليه في فرنسا ، وفي غيرهما من المعاهد الطبية .

كان القرن الثاني عشر حقّاً اعظم قرن في تاريخ الفكر الاندلسي وقد استهلّ القرن بظهور أبي بكر ابن باجّة الفيلسوف الذي كان مثل اقرانه في المشرق عالماً وطبيباً وموسيقياً ووزيراً . ولكنه اختلف عنهم قليلاً في انه كان من اتباع ارسطو أكثر مما كان من اتباع الافلاطونية المستحدثة. وُلد ابن باجّة في سرقسطة . والتحق بخدمة والي غرناطة المرابطي ، فكان وزيراً عنده قرابة عشرين عاماً . ثم التحق بخدمة والي سرقسطة ، ومات سنة ١١٣٨ وهو في اوائل الاربعين من عمره . مات مسموماً على يدي طبيب زميل دسّ له السمّ في مدينة فاس . واحتذى ارسطو في فلسفته في ما وراء الطبيعة ، وفي علم الطبيعة ، وفي علم النفس. وقد كتب شروحاً لارسطو . غير ان افضل تصانيفه كتاب تدبير المتوحد . وغاية الكتاب اثبات كون الفيلسوف النافذ العقل قائماً في العالَم ولكنه ليس جزءاً من العالَم ، وانه يستطيع بلوغ الكمال بعزل نفسه عن الدنيا ، والسعي للاتحاد بالله ، وهو مطلب الفلسفة . وكان ، مثل

ابن سينا ، يرى ان الفلسفة علم باطني للنخبة العاقلة النيّرة ، اما التفسير الحرفي للعقائد القرآنية كأمر المعاد والجنة ، فأمور تُترك للعامة من الناس . وقد اضطهده قومه وعدّوه من المارقين الهالكين ، حظه في ذلك حظّ الفلاسفة في المشرق .

وجاء بعد ابن باجّة ابو بكر ابن طُفيل . وكان مثله طبيباً وفيلسوفاً ووزيراً . وُلد ابن طفيل في ولاية غرناطة في العقد الاول من القرن الثاني عشر . ولم يكن يعرف ابن باجّة ، سلفه ، معرفة شخصية . كان يحترف الطب في غرناطة ، ثم عُيّن وزيراً لسلطان الموحدين ورئيساً لاطبائه . وبقي في هذا المنصب عشرين سنة . ثمّ اعتزل الخدمة وعيّن وزيراً لسلطان الموحّدين في سبتة وطنجة . وهنا استرعى ابن طفيل اهتمام السلطان، ابي يعقوب يوسف، ابن مؤسس السلالة . فمال اليه أبو يعقوب . وكان أبو يوسف يحلم بأن يجعل من عاصمة بلاده — مرّاكش — بغداد ثانية . كان هو نفسه قد درس الفلسفة، وكان يرعى العلماء ويتعهّدهم . وكان ابن طُفيل طبيبه الخاص ، وقاضيه ، وان لم يكن وزيراً له فانه كان أحد مستشاريه . وبواسطة ابن طفيل ونفوذه في البلاط احضر ابن رشد إلى القصر .

ان الأثر الفلسفي الوحيد الذي تحدّر الينا من ابن طُفيل ، والذي له شأن ، هو كتابه حيّ ابن يقظان الذي أخذ عنوانه عن ابن سينا الذي كان قد سبقه إلى تأليف كتاب رمزي خيالي عنوانه أيضاً حي ابن يقظان . ولكن الاقتباس عن ابن سينا ينتهي عند العنوان فقط ، إذ ليس من علاقة بين الاثنين في المحتوى . ذلك ان كتاب ابن طفيل قصة فلسفية غيبية من ابتكاره وابداعه . وفي مقدمة الكتاب يذكر ابن طفيل فضل ابن سينا ويطريه ولكنه يأخذه بالنقد لانه خلط بين آراء أرسطو وبين آرائه الشخصية ، ودون تمييز بين الرأيين . كما انه ينقد الفارابي على سطحيته وعدم غوصه في المعاني . ويأخذ على الغزالي ما وقع فيه من التناقض، وعلى ابن باجّة اعتماده المنطق والعقل، واهماله البحث والحدس الداخلي.

ولد بطل قصة حيّ ابن يقظان ولادة تلقائية في جزيرة غير مأهولة من جزائر الهند الاستوائية ، حيث ربّته ورأمته ظبية كانت قد فقدت طلاها . وقد اكتشف حيّ ابن يقظان انه أعلى مرتبة من سائر الحيوان ، وأرفع شأناً ، عندما اكتشف لذاته انه عريان فراح يغطي جسده بأوراق الشجر ، ويسلّح نفسه بهراوة . وعندما انتقل في حياته إلى طور الصيد استعاض عن الأوراق بالجلود . وأحزنه موت الظبية فراح يحاول ان يجد لنفسه السرّ بين الجسم الحيّ والجسم الميت. ثمّ اكتشف النار التي تولّدت بسبب القيظ عن محاكّة الأشجار في الاحراج الكثيفة. ثمّ ينتقل من المحسوس الملموس إلى المجرّد. وادرك العلاقة بين الخاص والعام . وما ان بلغ العشرين من عمره حتى كان قد اكتشف لنفسه ان الروح جوهر غير قابل للفساد ، جوهر خالد ، وان الله حكيم عليم غفور .

مغزى القصة : ان الإنسان الذي لا يقع تحت تأثير العقيدة التقليدية، والذي لا يعرّض للضغط الاجتماعي ، يستطيع بالعقل ، وبواسطة الادراك الحسيّ ، ان يتوصل ، شيئاً فشيئاً ، إلى معرفة اليقين . ويدرك مدى اعتماده في وجوده على كائن أعلى .

وما كان بالعسير على الناس ان يدركوا مغزى القصة ، وقيمتها ، والسحر الذي به تستهوي عقولهم . فانها تؤلّف بين الفلسفة وبين القصة تأليفاً شائقاً . وكانت أول طبعة لها بالعربية تلك التي نشرها ادورد بوكوك بواسطة مطبعة اوكسفورد (١٦٧١) مرفقة بترجمة لاتينية لها . وقد ترجمت بعد ذلك إلى الانكليزية (قام بترجمتها س. اوكلي ١٧٠٨) ثم الى العبرية وإلى بعض لغات اوربية أخرى . وقد اهتمّ بالقصة جماعة دينية انجيلية تعرف بطائفة كوايكرز (Quakers) . وأصبح حي المثال الذي قلّده روسّو في كتابه الموسوم اميل وروبنصون كروزو في مؤلّف ده فو .

- ٢ -

كان ذلك سنة ١١٦٤ ، وكان المكان مرّاكش . وكان السلطان الموحّدي الثاني ، ابو يعقوب يوسف ، يستقبل في ديوانه ابن رشد الذي قدّمه اليه صديقه ابن طفيل . يقول ابن رشد عن هذه المقابلة الأولى ما يلي :

فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين ، بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي، ان قال لي: ما رأيهم في السماء — يعني الفلاسفة — أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف ، فأخذت اتعلّل وانكر اشتغالي بعلم الفلسفة . ولم أكن أدري ما قرّر معه ابن طفيل. ففهم أمير المؤمنين مني الروح والحياء والتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلّم على المسألة التي سألني عنها ، ويذكر ما قاله ارسطو وافلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد من ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم اظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يبسطني حتى تكلّمت فعرف ما عندي من ذلك [١] .

ان ما قرّره الاثنان ، ابن طفيل والسلطان ، هو ان يتولى هذا الفيلسوف الشاب ، ابن رشد ، اكمال ما شرع به ابن باجّة من جعل ارسطو مفهوماً ، وفي متناول عقول الناس . ذلك لأن السلطان الخليفة أبا يعقوب لم يكن قد قرّر بعد في نفسه إذا كانت الصعوبة في فهم ارسطو ناشئة عن ارسطو ذاته أم عن تقصير ودقة في الترجمة . فعيّنه السلطان ليقوم بهذه المهمة وخلع عليه خلعة سنية ، إلى جانب مرتّب يدفع له . وبعد ذلك عيّنه قاضياً على اشبيلية .

(١) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ؛ نشر دوزي الطبعة الثانية (ليدن ١٨٨١) ص ١٧٤ - ١٧٥ .

كانت هذه المقابلة نقطة تحوّل في حياة أبي الوليد محمد ابن رشد . وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ في بيت من الفقهاء . فتعلّم الفقه في صباه . وكان أبوه وجده قاضيين بحسب المذهب المالكي في العاصمة . وإلى جانب هذا كان جدّه إمام المسجد الكبير في تلك المدينة . وبالنسبة إلى مقام عائلته وبيئته فقد توافر للصبي أحسن التعليم والتثقيف . وبعد ان درس اللغة والشعر والقرآن والحديث استظهر الموطّأ . وكانت قرطبة في أيامه قد أصبحت بعد عهد عبد الرحمن والحكم المركز الفكري للاندلس كما انها كانت من أفضل المدن الاوربية علماً وثقافة . ويقال ان مكتبتها كانت تضمّ أربع مئة ألف كتاب مدوّنة اسماؤها في فهرست من أربعة مجلّدات . وقد دوّن الحكم على هوامش بعض المخطوطات ملاحظاته . وكان الحكم محبّاً للكتب، وربما كان أعظم خليفة عالم بين الخلفاء المسلمين . وكان للجامعة التابعة للمسجد الكبير في المدينة معاهد لعلوم الدين ، وللفقه ، ولعلم الفلك ، وللرياضيات ، وللعلوم الطبية . وكانت اجازة هذه الجامعة توفر لحامليها أرفع المناصب ، وأعلى المرتّبات في البلاد كلها . وهذه الجامعة اقدم زمناً من الازهر في القاهرة ، ومن المدرسة النظامية في بغداد . كان يؤمّها الطلاب من جميع أنحاء شبه الجزيرة الايبرية (اسبانيا والبرتغال) ومن بلدان المغرب . في هذه الجامعة تخصص أبو الوليد في دراسة الفقه والطب ، وهما العلمان اللذان يليقان بأهل الفكر في ذلك العصر . وكانت الفلسفة تلازم الطبّ في ذلك العصر ، وكانوا يطلقون عليهما اسم الحكمة . والأمر الوحيد الذي نعرفه عن الاستاذ الذي علّمه الفلسفة هو انه كان مدرساً في الطب . ولا يمكن ان يكون ابن رشد قد درس على ابن باجّة ، لأن ابن باجّة مات ولابن رشد اثنتا عشرة سنة من العمر. كما انه ليس لدينا أدلة تاريخية على انه درس على ابن طفيل . كان تلميذهما بمعنى انه درس كتبهما وليس سوى هذا .

بعد ان أتمّ دراسته مارس الشاب الطبيب الفقيه حرفتيه الطبّ والفقه في

بلدته ثم في مراكش . وكان في أثناء احترافه الطب والفقه يتابع دراسته في الفلسفة . ويتفق مؤرخو سيرته ، بدءاً بابن الأبّار البَلَنْسي وابن أبي أُصيبعة الدمشقي ، على انه كان عالم عصره واحد ثقاته في علمي الطب والشريعة . وقد قضى شطراً من حياته في قرطبة ، وفي مراكش ، في ظروف سياسية مضطربة قلقة . فانه وُلد في عهد سلطان من سلاطين المرابطين ، وعندما بلغ العشرين من عمره وجد نفسه يعيش في عهد سلطان من سلاطين الموحّدين الذين كانوا قبل ذلك بسنة قد انتزعوا مراكش من أيدي أصحابها المرابطين . وكان المرابطون قد اسسوا مراكش وجعلوها عاصمتهم . وصارت اشبيلية ، بدلاً من قرطبة ، تقوم بمهام عاصمة فرعية . وكان أصل الموحّدين ، كالمرابطين ، من البربر ولكنهم كانوا من اتباع المهدي . وكان المهدي يركّز على وحدانية الله . وكان هذا التركيز على التوحيد بمثابة ردّ فعل للميول التي كانت تظهر عند المشبّهة من السنّة . ولكن المهدي لم يكن مؤسس السلالة المالكة . وبقيت السلالة على تزمّتها وتشدّدها في صفاء العقيدة ، ولكنها كانت تبدي شيئاً من التحرّر في الترخيص للفلسفة ، وفي رعايتها الفلاسفة ، بالرغم من انها كانت تتشدّد في قضية الجهاد ضد النصارى في شمالي الاندلس . وقد بلغت رعاية الفلسفة واصحابها الذروة في عهد السلطان الثاني، أبي يعقوب يوسف (١١٦٣— ١١٨٤) الذي ضمّ إلى قصره أولاً ابن طفيل ، ومن بعده ابن رشد . وهذان العالمان أضفيا على جوّ قصره هالة من المجد الفكري الذي لم تقو الأيام على محو ذكراه .

كان تعيين ابن رشد قاضياً على اشبيلية من قبل أبي يعقوب سبباً في ازدياد نفوذ ابن رشد وعلو مقامه . وإلى جانب هذا كان منصب القضاء بالنسبة إلى هذا الرجل العالِم عاملاً من شأنه ان يوفّر له الاستقرار والاطمئنان فينصرف إلى التأليف . وقد اشتهرت مدينة اشبيلية بمكانتها في عالم الفنون الجميلة . يظهر لك هذا من قول ابن رشد لزميله الطبيب ابن زهر الذي كان يجلّه ويحترمه :

« عندما يموت عالم في اشبيلية يبعثون بكتبه إلى قرطبة لتباع ، وعندما يموت موسيقيّ في قرطبة فانهم يبعثون بآلات الطرب التي خلّفها لتباع في اشبيلية ». وكان ابن زهر من ألمع أفراد أسرة كانت تباهي بانها انتجت ستة أجيال من الاطباء . وكان هو نفسه من أبرز الشخصيات في المدينة . وكان صديقاً لقاضينا ابن رشد . ويبدو ان الرجلين كانا يتناظران في فضائل مدينتيهما .

وبعد بقائه في منصبه مدة قصيرة (١١٦٩ ـ ١١٧١) نُقل القاضي ابن رشد ليشغل وظيفة كانت قد شغرت ، وكان اثنان من أجداده قد شغلاها من قبل . فرحب بهذا الانتقال ، إذ انه كان يوفّر له متسعاً من الوقت للبحث والدرس . وظل في منصبه الجديد في قرطبة قرابة عقد من الزمن . وفي سنة ١١٨٢ اقترح ابن طفيل المُسِنّ على السلطان الخليفة ان يستدعي ابن رشد ليكون طبيبه الخاص . وبعد سنتين توفي أبو يعقوب . وبعد ذلك بسنة توفي ابن طفيل (١١٨٥) .

وبعد أن تولى المنصور، ابن أبي يعقوب، الخلافة (١١٨٤ ـ ١١٩٩) استدعى ابن رشد اليه ليجدّد له تعيينه . وعندما حضر استقبله استقبالاً حاراً وقربه وعيّنه وزيراً — وكانت مرتبته تفوق مرتبة سائر الوزراء بمن فيهم ختنه — الأمر الذي يشير إلى التقدير الذي كان الخلفاء يقدرون به العلماء . وبعد التحاقه بخدمة المنصور بسنوات عديدة تميّزت بالعلاقات الودية والاحترام المتبادل ، صدر أمر الخليفة ، فجأة ودون سبب ظاهر ، بنفي ابن رشد ، وكان قد بلغ الثامنة والستين من عمره ، إلى مكان منعزل ناء ليس بالبعيد عن مدينة قرطبة . وأُحرقت كتبه ، مع كتب فلاسفة آخرين ، في كل من الاندلس ومراكش ، وأُبقي على كتب الطب والحساب والفلك . تقول رواية ان سبب نقمة الخليفة على طبيبه عبارة وردت في رسالة لابن رشد في الحيوان يقول فيها انه رأى زرافة في حديقة « ملك البربر»، غير ان ابن رشد اوضح قائلاً: « انما قلت ملك البرّين أي المغرب والاندلس وانما تصحفت على القارىء». ولكن الخليفة لم يرض

عن الايضاح . وتقول رواية ثانية ان سبب نقمة الخليفة كان ورود عبارة « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة » . وقد استلّ خصومه هذه العبارة من موقعها في النصّ وأوّلوها تأويلاً خاطئاً . اما السبب الحقيقي فغير واضح . ولكن الشيء الواضح هو ان ما حلّ بالفلاسفة قبله ، مثل ابن باجّة ، وابن سينا ، والكندي ، قد حلّ الآن بفيلسوفنا ابن رشد : نقمة عامة الشعب على الفلسفة والمتفلسفين . وبعد حوالي سنتين ، وفجأة بدون أسباب ظاهرة ، عاد الخليفة فرضي عن ابن رشد واعاده إلى منصبه . والظاهر ان الخليفة كان لمّا نفاه قد أرغم على النزول عند ارادة علماء الدين ، وعند ضغط الجماهير لحاجته اليهم في حربه ضدّ قشتالة . وبزوال هذه الأسباب شعر بحرية التصرّف ، فكان ما كان من أمر اعادة ابن رشد إلى منصبه . ولكن في هذه الأثناء كانت حالة ابن رشد الصحية قد ساءت ، فمرض بعد عودته ، وتوفي في العاشر من شهر كانون الأول عام ١١٩٨ . اما ابناؤه ، فان واحداً منهم درس الطبّ والآخرين ساروا في طريق التقليد العائلي ، فكانوا من الفقهاء والقضاة . ونزولاً عند رغبة عائلته نقلت رفاته ، بعد اشهر ثلاثة ، إلى قرطبة . اما مولاه الخليفة فقد مات بعد ذلك بسنة .

ان الصورة التي خلّفها لنا مؤرخو سيرته ترينا ابن رشد رجلاً شغوفاً بطلب العلم ، عفّاً إلى درجة التقشف والزهد ، متواضعاً لا يطلب شيئاً ما لنفسه ، قانعاً بعيشه ، زاهداً في السلطان ، وراغباً عن المسكر . ويقولون انه لم يدع مرّة الدرس والقراءة منذ عقل إلا ليلة وفاة أبيه وليلة زواجه . وفي صباه نظم شعراً غزلياً ولكنه أحرقه فيما بعد . وواضح انه لم يكن يشبه زملاءه في الغطرسة الفكرية التي كان معظمهم يتميّز بها . وكان كريماً إلى حدّ الاسراف في كرمه . وكان كرمه ، إلى جانب انقطاعه إلى طلب العلم والمعرفة ، يبدو في تقتيره على نفسه في ملبسه ، وفي النزر القليل الذي تركه من مال وحطام . وعندما كان اصدقاؤه يعذلونه ويقبّحون كرمه واحسانه إلى اعدائه كان يقول

لهم : وما الفضل في الكرم تبذله للصديق ؟ الفضل في الاحسان احسانك إلى عدوك . كان يعطي من يسيء اليه ويقول له : نصيحتي لك الا تفعل هذا مع غيري ان كنت لا تريد ان يحطّم انفك . وكان يتغاضى عن الاهانة تلحق به ، ولكنه لم يكن ليتغاضى عن نقد لاذع لا مبرّر له يوجّه إلى صديق في حضرته . وذات مرّة أمر بجلد شاعر لأنه هجا عالماً صديقاً له . وكان ايمانه بالله راسخاً لا يتزعزع ، شأنه في ذلك شأن سائر الفلاسفة المسلمين . لا بل ان علمه كان يرسّخ عقيدته بالله . كان يقول : ان من يدرس تركيب الجسم البشري يزداد ايمانه بالخالق المبدع . وأكثر من هذا كان ابن رشد كما كان سائر الفلاسفة المسلمين يقومون بشعائر الدين وبفروضه . وفي البيان الذي أصدره المنصور ونفاه بموجبه اعتراف بأن ابن رشد كان يقوم بفروض الدين وشعائره . وانما الخليفة فسّر هذا الأمر على انه خداع ومراء .

- ٣ -

لسنا نعلم على اليقين أي كتب من كتب ابن رشد خسرها العالم بعدما صدر الأمر بنفيه وحرق كتبه . ولكن مما يدهشنا ان ابن أبي أصيبعة ، الذي عاش بعد الحادثة هذه بنصف قرن ، يذكر ، في جملة ما يذكره عن كتب ابن رشد ، لا اقلّ من خمسين كتاباً ، هذا إلى جانب عدد كبير من الشروح لارسطو وجالينوس . وتشمل قائمة ابن أبي أصيبعة كتباً من ابتكاره وابداعه في الفلسفة والطب والفقه . وقد حلّ الطبّ محل الفقه ، مع العلم ان ابن رشد كان يميل إلى الفقه أكثر مما كان يميل إلى أي موضوع آخر . وأخيراً استأثرت الفلسفة باهتمامه . ومن كتبه في الفقه كتاب بداية المجتهد ، وهو افضلها في هذا الحقل (نشر المجلد الأول منه في القاهرة سنة ١٩٦٦) . وبعد وفاة ابن رشد بقرنين من الزمن راح شاعر ينظم فيه قصيدة يتمدحه بسبب هذا الكتاب . وفي الأدب

العربي يُعرف ابن رشـــد بالقاضي ، كما كان ابن سينا يعرف بالشيخ الرئيس ، والكندي بفيلسوف العرب ، والشافعي والغزالي بالإمام .

ان افضل مؤلفاته في الطب كتاب الكلّيات في الطب [١] وهو كتاب جامع يتناول في اجزاء منه علم التشريح ، وعلم وظائف الأعضاء ، والصحة ، والمرض ، وتشخيص المرض ، والعقاقـير ، وعلم الصحة ، وعلم المداواة . ويذكر ابن رشد في كتابه هـذا ان من يصاب بالجدري فلن يصيبه المرض ثانية . وفيه وصف علميّ لوظيفة شبكيّة العين . وقـد ترجم الكتاب إلى اللاتينية (وعنوانه في اللاتينية colliget والكلمة تحريف لكلّيات) ولكنه لم يعش طويلا بسبب منافسة كتاب ابن سينا « القانون » له . وفي نهاية هذا الكتاب يذكر ابن رشد انـه اوعز إلى ابن زهر ان يضع ملحقاً لهـذا الكتاب يجمع فيه بعض الأمور الخاصة بالطبّ . وكان ابن رشد يعتبر ابن زهر صديقه اعظم طبيب سريريّ بعد جالينوس .

ان ابن رشد الفيلسوف يسمو على ابن رشد الطبيب . فقد ظلّ وفياً مخلصاً في ولائه لوالد الخليفة الذي حقّره واهانه . كان والد الخليفة قـد أوكل اليه أمر شرح فلسفة ارسطو — الفلسفة التي كانت مكتوبة بلغة اجنبية وتحت تأثير بيئة حضارية تختلف عن حضارة العرب — وتيسير فهمها ، وجعلها مستساغـة لدى القراء من العرب والمسلمين ، وذلك بعد مرور ألف وخمس مئة سـنة على وفاة صاحب هذه الفلسفة . ولم يكن ابن رشد يعرف اللغة الاغريقية ، فـكان اسلوبه في دراسة ارسطو ان أخذ بدرس ترجمات عربية لمؤلفاته دراسة نقديـة مركـّزة، ثم مقابلتها بترجمات الشروح الاغريقية لارسطو وبالشروح التي قام بها غيره من فلاسفة العرب . وراح يدرسها درساً وافياً ثم أعاد كتابتهـا . وكان احياناً ينحي باللائمة على الفلاسفة العرب الذين سبقوه لقبولهم دون تمحيص آراء

(١) مصور قام بتصويره معهد الجنرال فرنكو (مراكش ، ١٩٣٩) .

منحولة تُعزى لارسطو ، واحياناً أخرى لمخالفتهم آراء « المعلم الأول » .

في عرضه فلسفة ارسطو ، كان ابن رشد يستهدف ثلاث فئات من القرّاء : المبتدئين ، والمتوسطين ، والمتقدمين ، من طلاب الفلسفة . وكانت الكتب التي ألـّفها تتلاءم مع تقسيمه للقراء فجاءت في ثلاثة احجام متفاوتة . وقـد شرح بعض كتب ارسطو على المستويات الثلاثة ، وبعضها على مستويين ، والباقي منها على مستوى واحد. ففي الكتب المعدّة للمبتدئين كان ابن رشد يلخّص ويفسّر ، ويكتب بلغته الخاصة ، ويعيد ترتيب المواد ، ويدرج فيهـا معلومات اخرى مستمدّة من مصادر اخرى . فاسفرت هذه المحاولة عن كون هذه الكتب كتباً اقرب ان تكون من تأليف ابن رشد مما هي إلى الشروح كما هو متعارف بـين الناس . ولكن كان يسم هذه الكتب بانها « تلخيص » [١] بصورة غير دقيقة . واكثر كتب ابن رشد التي تحدّرت الينا معنونة « بتلخيص » . وقـد ذكر ابن أبي اصيبعة ثمانية كتب عن جالينوس عنوانها كلها «تلخيص»، اما الشرح الكبير المفصل للطلبة المتقدمين فانه الكتاب الحقيقي الذي اراده شرحـاً لارسطو . والطريقة التي اتبعها في شرحه هذا كانت تبدأ بتدوين نصّ ارسطو فقرة فقرة، ثم يتبع كل فقرة بشرح مفصل ، وكان الشرح احياناً اطول من النصّ ذاته ، كما انه كان يبقي على الفصل التامّ بين النصّ وبين الشرح. فكان بهذا يتبع الاسلوب الذي كان المفسرون يلجأون اليه عند تفسير القرآن الكريم وشرحه . وربما كان شرحه لكتاب ارسطو تفسير ما وراء الطبيعة [٢] أهم كتبه في هـذا الحقل الفلسفي . وهو كتاب يدلّ على مـدى العمق الذي غاصه ابن رشد الشارح ليدرك افكار ارسطو ، وليفرّق بين ما هو ارسطوطاليسي وما هو افلاطونية مستحدثة . ومما يذكر ان فلاسفة العرب ظلوا قروناً يعتمدون خطأً كتابـاً

(١) اذا أردت مثلا على الترجمات الانجكليزية راجع : Averroes Epitoma of Parva Naturalia tr. Harry Blumberg (Cambridge, Mass, 1961).

(٢) Ed. Maurice Bouyges, in Bibliotheca Arabicum Scholasticorum, 3 vols. (Beirut, 1938 - 48).

افلاطونياً مستحدثاً ظناً منهم انه هو كتاب ارسطو في العلم الالهي theology .
وأكثر الشروح من هذه الفئة تحدّرت الينا في ترجماتها العبرية واللاتينية .

اما الشرح الذي أعده ابن رشد للطلبة المتوسّطين فيقع وسطاً بين المختصر للمبتدئين والمطول للمتقدمين . وعنوان هذا الكتاب الجوامع . ويقوم فيه المؤلف بالاقتباس المباشر دون اكثار ويتناول النصّ إذا كان مركزاً بالتطوير . وعندما يكون النصّ مبهماً غامضاً فانه يتناوله بالتفسير والتوضيح ، وإذا اقتضى الأمر فانه يضرب المثل . واحياناً يلجأ إلى مواد ومصادر تعود في الزمن إلى ما بعد ارسطو . ولم يصلنا من الجوامع سوى نسخ قليلة بالعربية .

ولم يقتصر عطاء ابن رشد على الشروح والتفاسير . فان مشكلة العلاقة بين الدين والفلسفة ، المشكلة التي شغلت بال أسلافه من الفلاسفة المسلمين قروناً ، استأثرت باهتمامه الشديد . ففي كتابه الضخم الموسوم بتهافت التهافت ، والذي انتقد فيه كتاب الغزالي تهافت الفلاسفة ، كان يتبع الاسلوب ذاته الذي اتبعه في شروحه ، أي أنه أخذ الكتاب فقرة فقرة وعمد إلى تفنيدها لا إلى شرحها . وكفيلسوف شعر ابن رشد ان من واجبه الدفاع عن زملائه الفلاسفة وحمايتهم ضد اتهام حجة الاسلام لهم بالمروق من الدين ، والمروق جزاؤه الموت ، لأن عدو الدين هو أيضاً عدو الأمة . وفضلا عن هذا فقد ألصقت بابن رشد تهم القول بقدم العالم ، وانكار حشر الأجساد وعلم الله بالجزئيات ، مع أن هذه كلها قيلت قبل زمنه . وفي نظره ان أبا حامد (هكذا كان يشير إلى الغزالي) لم يفهم مقاصد الفلاسفة . فهؤلاء ذهبوا إلى أن علم الله يختلف عن علم الانسان . علم الله سبب أما علم الانسان فمسبَّب . وإذا كان علم الانسان كعلم الله في طبيعته فإن الانسان يصبح شريكاً له ، والله تعالى يقول : « لا شريك له » (سورة الأنعام ، ١٦٣) .

وفي مكان آخر يقول ابن رشد ان الله لا يعلم الجزئيات أكثر مما يعلم وال

عن جزئيات تنفيذ أمر ما في ولايته معرفة مباشرة . اما فيما يتعلق بالقضاء والقدر فان موقف ابن رشد منه كان موقفاً وسطاً . فالانسان في أعماله ليس مخيّراً كل التخيير ولا مسيّراً كل التسيير . وارادته رهن بعوامل خارجة عن ذاته . وقد اشتهر ابن رشد بكتابه تهافت التهافت أكثر مما اشتهر بغيره. ولكن لم ترق فلسفته مسلمي المشرق . ذلك ان فلسفته ظهرت في الفترة التي أصبحت فيها الفلسفة وقفاً على علماء الدين الذين همّهم دعم العقيدة وتقويتها .

ومن العطاء الأصيل الذي قدّمه ابن رشد كتابه فصل المقال الذي حاول فيه التوفيق بين الفلسفة والدين . وقد ألّف هذين الكتابين تهافت التهافت وفصل المقال في حدود سنة ١١٨٠ ، وهما يمثلان طور النضج في تفكيره الفلسفي . وفي وقت مبكّر تُرجم الكتابان إلى العبرية واللاتينية . ويصرّ مؤلّفهما على القول ان الحقيقة التي يتوصل اليها الانسان عبر الفلسفة لا تختلف عن الحقيقة التي يتوصل اليها عبر العلم الالهي ، وإذا وجد تناقض ظاهر بين الاثنين فينبغي ان يوفّق بينهما عن طريق تأويل النصّ الديني وتفسيره — وهذه النظرية ليست من بنات فكره بل سبقه اليها آخرون . والتفسير المجازي أو الباطني لنصّ القرآن يفترض ان لبعض الآيات معنى خفياً باطنياً . فقد جاء في أكثر من آية من آيات القرآن ذكر العرش. وفي سورة هود، الآية ٩ « وكان عرشه على الماء». فلا يمكن قبول المعنى حرفياً . وهذا التأويل المجازي ينبغي أن يقتصر على فئة قليلة كما انه ينبغي عدم اعطاء هذه المعرفة للعامة من الناس . وإذا وجد التأويل الباطني طريقه إلى العامة وحدث من جرّاء ذلك تشويش للعقول ، فإن الذي ينبغي ان يلام على هذا هو العالم الديني لا الفيلسوف . وينهي ابن رشد كلامه في هذا الموضوع قائلا :

ان الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، فالأذاة ممّن ينسب اليها هي أشدّ الأذاة مع ما توقع بينهما من العداوة

والبغضاء والمشاجرة ، وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة (١) .

وفي مكان آخر يقسّم ابن رشد المعرفة إلى ثلاثة أنواع : المعرفة البرهانية وهي التي تعتمد على القياس العقلي ، وهي من اختصاص أهل الفلسفة . والمعرفة الخطابية وهي التي تعتمد على النصوص الدينية وعلى الرمز ، والغاية منها اشباع رغائب العامة من الناس . وبين النوعين يقع النوع الثالث من المعرفة : المعرفة التعليمية وتعتمد الرأي وهي من اختصاص علماء الدين من المتكلمين .

وفي فصل ملحق بكتاب فصل المقال رسالة عنوانها الكشف عن مناهج الأدلة يحاول فيها ابن رشد ان يثبت وجود الله عن طريق السببية . لا يحدث شيء دون مسبّب. والاسباب جميعها تنتظم فتفضي إلى العلة الأولى، إلى وجود الصانع . ويرى هذا الفيلسوف ان العالم كائن مستمرّ يتألف من أشياء حيّة وأشياء جامدة مترابطة بواسطة مبدإ السببية . ويريد ان يقول ضمناً إن مبدأ السببية ثابت دائم ، كذلك هي الاشياء التي يتكون منها العالَم . وهذا يجعل العالم أزلياً بواسطة علّة خلاقة متحركة . وهذه القوة المبدعة الخلاقة تتجدّد تلقائياً نتيجة للتغيّرات التي تطرأ لحظة بعد لحظة . والقوة المبدعة تعمل بقوة الاستمرار . وتعليل ابن رشد لأزلية العالم يختلف عن نظرة ابن سينا ، وفي الوقت ذاته كانت نظرة مهّدت السبيل للنظرة العلمية الحديثة التي تقول بالنشوء والتطور . اما فيما يتعلّق بالخلود فان ابن رشد يقول ان خلود النفس البشرية لا يمكن التدليل عليه بالأدلة والبراهين الفلسفية . وإذا كان هناك معاد أو حشر للجسد فلن يكون الجسد هو ذاته. وفيما يتعلّق بالنبوة فان ابن رشد يؤمن بها، ويكرّر ما قاله غيره من ان هناك حقائق وأسراراً تعطى للعامة من الناس ، وغيرها تحتفظ بها الخاصة منهم . وهذا أمر معروف في ديانات الشرق الأدنى

(١) George F. Hourani, Averroes : on the Harmony of Religion and Philosophy (London, 1961) p. 70.

القديم ، والسيد المسيح عندما سئل لماذا يعلّم بالامثال أجاب « قد أعطي لكم ان تعرفوا أسرار ملكوت السموات ، واما لاولئك فلم يعط » (انجيل متى ١٣ : ١١) .

لم يكن وضع ابن رشد ، كفيلسوف مسلم ، بأفضل من وضع غيره من الفلاسفة الذين سبقوه . فإن ولاءه الفكري كان ولاء مزدوجاً : ولاءه الفكري للحضارة الاغريقية والفلسفة الاغريقية ، وولاءه الروحي للحضارة العربية والعقيدة الاسلامية . ولم يكن هو نفسه يرى تناقضاً بين الفكرين . وليس لنا ان نشك في اخلاصه لنفسه عندما راح يفسّر لنا لماذا لا يرى تناقضاً . ولكن ما كان يرضيه ، وما كان يقنعه ، لم يكن ليرضي المسلمين أو يقنعهم . فانه ، بالنسبة اليهم ، كان هذا الولاء الفكري المزدوج لا يختلف عن الولاء السياسي المزدوج في يومنا هذا والذي لا يقبل به أحد من الناس . ولكن ابن رشد في وعظه وتعليمه الفلسفي لم يكن ليجابه الناس مجابهة مباشرة بل كان يعرض آراءه بطريقة غير مباشرة ، لأنه لم يكن يرغب في المجابهة والمصادمة فيما يتعلق بالعقيدة الاسلامية . ولكن بالرغم من حرصه هذا فانه هوجم بأعنف مما هوجم به أسلافه من الفلاسفة . ففي كتب التاريخ والأدب يضعونه في قائمة الملحدين . وكتبه تأتي في رأس قائمة الكتب المحرمة . وادهى من هذا كله ان يكون هذا الملحد رجلا مسلماً قاضياً ، وابن قاض ، وحفيد قاض .

بذل ابن رشد قصارى جهده ليقنع الناس ان الاسلام لا يتعارض مع الارث الروحي الاغريقي، وانه يمكن التوفيق بينهما ، ولكن مسعاه لم يكلّل بالنجاح. وبالرغم من انه حاول مراراً الاستشهاد بآيات قرآنية لدعم تفسيره ، فانه لم يوفّق في ذلك . وكل ما جاء لتفسير نظريته في ازلية العالم كان يخالف تعاليم الوحي . ان الله تعالى يقول للشيء « كن فيكون » . ومهما يكن التفسير الذي فسّر به القضاء والقدر ، والذي به فسّر علم الله ، فان ابن رشد، في نظر علماء الدين ، كان يخالف نظرتهم إلى قدرة الله وعلمه . ومهما يكن مذهبه في امكان

المعاد وحشر الاجساد فانه ، في نظر علماء الدين ، كان يبعث الشك في وعد الله بجنة نعيم يخلد بها المؤمن . جاء ابن رشد إلى قومه ، وقومه رفضه . وحكم عليه المسلمون في مشرقهم وفي مغربهم بالنسيان والاهمال . اما نظرة اليهود والمسيحيين اليه فكانت نظرة عطف وتقدير .

— ٤ —

ان العطاء الفكري الأصيل الذي اعطاه ابن رشد في حقل الشرع والطب والفلسفة لم يكن ذا قيمة عظيمة . وللمرء ان يسأل ، إذن : في أي حقل من حقول المعرفة كان عطاؤه الخاص الذي اشتهر به ؟

كانت شهرته تقتصر على انه شارح كبير ، ولكن الشرح ، بحسب اصول البحث الحديث ومستواه ، لا يُعدّ عملاً عظيماً اليوم . ولكن قولنا هذا لا ينطبق على العصور السابقة . فلو لم يُشرح ارسطو لما انتفع أحد بفلسفته ، وإذا رجع المرء اليه غير مشروح فلا ينتفع أحد بفلسفته . ومعلوم ان ابن رشد لم يكن أول شارح لارسطو ، المعلم الأول . في الواقع انه كان آخر شارح من شرّاح ارسطو الكبار من الاغريقيين ومن العرب . ولكن ما ان ظهر شرحه مترجماً إلى العبرية واللاتينية حتى اهمل الناس سائر الشروح السابقة . اما الترجمات العبرية فقد قام بها يعقوب أناطولي (نابولي ١٢٣٢) ويهوذا كوهن (طليطلة ١٢٤٧) . اما الترجمات اللاتينية فقد كان أول من قام بها ميخائيل سكوت (١٢٢٠) وهرمن الألماني (١٢٤٠) وكان يرعى الترجمتين الامبراطور فردريك الثاني ملك صقلّية . وهكذا بعد وفاة ابن رشد بخمسين سنة اصبح اسمه Averroes اسماً مشهوراً في الاوساط الفكرية في اوربا . ثم ظهرت فيما بعد ترجمات لاتينية متتالية ، افضل من هذه لاعتمادها الترجمة العبرية . وفي القرن الخامس عشر ، القرن الذي تميّز بظهور الطباعة ، ظهر في البندقية أكثر من خمسين طبعة

لابن رشد في اللاتينية . وفي العقد السابع من القرن الخامس عشر ظهرت في بادوا ثلاث طبعات لمؤلفات ابن رشد الرئيسية . وأدقُّ ترجمة واضبطها هي الترجمة التي ظهرت في البندقية سنة ١٥٥٣ . وعمّت « الرشدية » (Averroism أي دراسة ارسطو بواسطة شروح ابن رشد) البلدان الاوربية ، وأصبحت درساً رئيسياً في مناهج الدراسات الجامعية ، وحركت الفكر الاوربي على مدى ثلاثة قرون كما لم تحركه حركة فكرية أخرى . وهكذا أصبحت « ترجمة لاتينية لترجمة عبرية لشرح عربي قائم على ترجمة عربية لترجمة سريانية للأصل الاغريقي » الشرارة الأولى لحركة فكرية في المسيحية في العصور المتوسطة .

على مرّ الزمن أثارت الفلسفة الرشدية ، بتركيزها على العقل ، ردّة فعل دينية في اوربا كتلك التي اثارتها فلسفته في العالم الاسلامي . فإن توما الاكويني تناول ابن رشد بالنقد الشديد أكثر مما تناوله مصدراً فلسفياً يرضى عنه . وقد ترأست الحملة ضده جامعة باريس . فقد حرّم مجلس عمدتها سنة ١٢١٠ كتب ارسطو وابن رشد . وبعد مضي احدى وعشرين سنة صدر حرم بابوي يحرّم كتبهما إلى ان تُنقّح ويُحذف منها ما لا توافق عليه الكنيسة . وفي سنة ١٢٧٧ قام اسقف من باريس ينقد الفيلسوفين مبيّناً اغلاطهما في أكثر من مئتي خطأ . فكانت الحرب في العالم المسيحي ضدّهما كالحرب التي قامت ضدّهما في الاسلام بفارق كبير وهو ان في الاسلام كان النصر حليف السنّة والسلفية ، بينما كان النصر في المسيحية حليف العقلانية . ونستطيع ان نردّ التحرّر الفكري العصري من القرن الثامن عشر وما قبله من عصور إلى اساتذة الفلسفة في القرن الثالث عشر في جامعتي باريس وبادوا الذين كانوا يعلمون الفلسفة الرشدية والفكر الرشدي . كان أول اوربي في العصور الحديثة اعاد اهتمام الناس بابن رشد رجلاً فرنسياً شهيراً ارنست رينان ، الذي عقد حول فلسفة ابن رشد دراسة نال بموجبها شهادة الدكتوراه في الفلسفة (١٨٥٢) واكسبته شهرة واسعة . وفي نظر رينان ، الفيلسوف والمستشرق ، ان ارسطو علّل الكون وفسّره ، اما

ابن رشد فقد شرح لنا ارسطو وفسّره . وقبل رينان بقرون راح دانتي يحشر ابن رشد مؤلّف الشرح الكبير مع ابن سينا في الزمرة الممتازة التي تضمّ اقليدس وبطليموس وأبوقراط وجالينوس . اما ميخائيل سكوت وروجر بايكون فقد وضعاه بعد ارسطو في مراتب العلماء الفلاسفة .

اما في الشرق الحديث فقد عاد الاهتمام بابن رشد عند مطلع القرن العشرين عندما شرع صحافي مسيحي من مواليد طرابلس يكتب في مجلته مجلّة الجامعة (الاسكندرية) سلسلة من المقالات عن ابن رشد وعن حياته وفلسفته . وكان يعتمد في دراسته على ما كتبه رينان [1] . وقد أثارت هذه المقالات جدلاً عنيفاً مع المصلح المصري ، محمد عبده ، بالرغم من ان محمد عبده نفسه أخذ كثيراً عن ابن رشد وفلسفته في مبدإ السببية . وأول كتاب لابن رشد ظهر في العربية كان كتابه فصل المقال مع ملحق وهو الكشف عن المناهج (نشره م. ج. ميلر ، مونيخ ١٨٥٩ . ثم اعيد طبعه في مصر ١٨٩٤ – ١٨٩٥) . وقد أصدرت المطابع في السنوات الأخيرة عدداً من الكتب عن ابن رشد وعدداً آخر من كتب ابن رشد نفسه [2] . وبهذا يكون فيلسوفنا ابن رشد الذي زها في القرن الثاني عشر ، والذي كان يناصر العقل ، قد أسهم في القرن العشرين في احياء الفكر العربي المعاصر .

ينتهي الدور الذي لعبه الفكر العربي الفلسفي فجأة بابن رشد . ولم يخلّف ابن رشد الاندلسي ذرية علمية . ولم يتقدّم الفكر الاغريقي الذي وجد طريقه إلى الحضارة العربية قبل ابن رشد بأربعة قرون تقدماً يذكر ، كما ان هذا الفكر الاغريقي ذاته لم يتقدم تقدماً ملموساً منذ القرن الخامس ميلادي ، أي قبل

---

(١) فرح انطون : ابن رشد وفلسفته (الاسكندرية ١٩٠٣) وقد اعيد طبعه .

(٢) ماجد فخري : ابن رشد ، فيلسوف قرطبة (بيروت ١٩٦٠) .
عباس محمود العقاد : ابن رشد (القاهرة ١٩٥٣) .
محمد ي. موسى : بين الدين والفلسفة (القاهرة ١٩٥٩) .

ظهور الاسلام . لكن الكندي ، والذين أتوا بعده ، بعثوا هذا الفكر الاغريقي حيّاً نشيطاً ، ووجّهوه في سبل جديدة . وان لم يكن قد ادّوا خدمة فكرية سوى انهم نقلوا هذا الفكر إلى العالم الاسلامي المشرقي ، ومن ثمّ إلى العالم اللاتيني في الغرب ، لكفاهم فخراً بانهم خدموا الانسانية . ولكن الأمر لم يقتصر على مجرّد نقل هذا الفكر نقلاً غير متفاعل ، بل انهم حرصوا على حفظه من الضياع ، وأغنوه بعطائهم الفكري ، ثم نقلوه . ويقع فضلهم الكبير حيث تلتقي الفلسفة مع الدين ، وحيث يتعارض العقل مع الايمان . فإن الاغريق بآلهتهم المتعدّدة – زفس وافروديت (عشتروت الساميّة) والشمس والقمر – وباساطيرهم وخرافاتهم المتناقضة التي كان يقصد بها أحياناً السخرية والعبث لم يتناولوا الدين بالرصانة والوقار اللذين تناوله بهما الساميون . فلم يبدُ للعقل الاغريقي انهناك تناقضاً بين الفلسفة واللدين. اما المسيحيون فانهم جابهوا هذه المشكلة ذاتها التي جابهها المسلمون – التوفيق بين العقيدة والفلسفة . ولكنها عند المسيحيين لم تكن مشكلة بالمستوى الذي كانت عليه عند المسلمين الذين يؤمنون بان القرآن غير مخلوق ، فما جاء فيه هو كلام الله المنزل .

اما آباء الكنيسة من الاغريق واللاتين فلم يشعروا ان هناك مشكلة . فانهم قبلوا الفِكَر الفلسفية بيسر وبدون عناء فكري ، وإذا كانوا قد عالجوا القضايا الحادّة المثيرة فانهم عالجوها بطريقة عرضية دون غوص إلى الأعماق . فإن أكثرهم كان ممن قد اعتنق المسيحية ، وكانوا قبل ذلك يعتنقون مذاهب الافلاطونية المستحدثة وأفكارها . فإن الكاتبين المسيحيين الشهيرين من شمالي افريقيا ، ترتوليان (توفي حوالي ٢٣٠) والقديس اوغسطين (توفي ٤٣٠) ، لم يغوصا إلى أعماق المشكلة (التوفيق بين العقيدة الدينية والفلسفة) . ففي نظر القديس أنسلم (Anselm) ، كما هي الحال في نظر القديس اوغسطين ، ان الايمان الديني حقيقة قائمة بذاتها يفسّرها ويحدّدها الوحي ذاته . أي ان الأمر خارج كلياً عن ارادة المرء واختباره . ولم ينهض علماء الدين المتكلمون من

المسيحيين إلا في العصور المتوسطة – بعد ان ظهر الاسلام وعانى ما عاناه من هذه القضية – لمجابهة هذه المشكلة الفكرية ، مشكلة الايمان والعقل . وكان توما الاكويني من اوائل علماء الكلام المسيحيين الذين تزعموا الحركة . وكان توما يستقي الكثير من آرائه من ابن رشد ، كما انه أخذ عن ابن سينا ، وكثيراً ما كان يأخذه بالنقد . ولكن فيلسوفاً انكليزياً معاصراً (الذي يقول انه لا يدري ماذا كان سيحدث لولا ان العناية الالهية لم تخلق لنا اوغسطين) يرى ان توما الاكويني لم يكن ليستطيع ان يفعل ما فعله في حقل اللاهوت المسيحي لو لم يكن قد استعان بابن رشد وبشرحه ارسطو . وأصبح أتباع ابن رشد في الغرب يعتبرون ابن رشد ، وارسطو ، والعقل ، كالفاظ مترادفة لشيء واحد. ان تطوّر الفلسفة المسيحية على ايدي توما الاكويني وغيره من المتكلمين المسيحيين تأثّر إلى حدّ بعيد بما قدّمه فلاسفة المسلمين في حقل التوفيق بين العقل والايمان .

ومع انتقال الفلسفة العربية إلى اوربا عبر الجسرين : الاندلس وصقلية ، تمّ أيضاً انتقال العلوم العربية وغيرها من العناصر الثقافية . ذلك ان الفلاسفة المسلمين الذين تناولناهم بالدراسة كانوا ، إلى جانب كونهم فلاسفة ، علماء في الرياضيات والفلك والطبّ ، وهي علوم حذقها العرب . ففي اللغات الاوربية الآن عدد كبير من المفردات التي أخذت عن العربية والتي تشير إلى غنى الارث الحضاري الذي انتقل من العرب إلى اوربا . وإذا تركنا كلمات عربية الأصل مألوفة مثل الجبر والصفر والغورثم (حتى الخوارزمي) فاننا لا نعدم أمثلة عديدة غيرها مثل لفظة surd (وفي اللاتينية surdus) التي هي مترجمة من العربية : الجذر الاصم ومثل لفظة sine (وفي اللاتينية sinus) التي هي مترجمة من العربية : الجيب . اما أثر العرب في علم الفلك فيظهر في اسماء نجوم مثل Altair, Algedi, Acrab وعربيها العقرب والجدي والطائر . ناهيك ببعض المصطلحات العلمية مثل لفظة zenith وعربيها « السمت » و nadir وعربيها

« النظير » . ومن المصطلح الطبي العربي انتقل عدد منه إلى اللغات الاوربية مثل soda وعربيها الصداع و syrup، sherbet وعربيها شراب، و alchohol وعربيها الكحل و alkali وعربيها القلي . ولفظة dura mater و pia mater ترجمتان لاتينيتان لمصطلحين طبيين عربيين : الامّ الجافية (الغشاء السميك الذي يغلّف الدماغ) والام الرقيقة (الغشاء الرقيق) .

يصادف انبلاج فجر جديد في اوربا ، فجر يتميّز بالعقلانية وبالمنجزات العلمية – التي اسهم العرب فيها من قبل – أفول نجم العرب فكرياً . منذ مطلع القرن التاسع للميلاد حتى منصرم القرن الثاني عشر كان العرب ارقى الشعوب علمياً في العالم قاطبة . وكانت اللغة العربية تباهي باضخم انتاج فكري في الأدب والعلم والفلسفة بما في ذلك اللاتينية . وبعد ذلك الحين خبا نور العلم في كل مكان من العالم العربي . وفي وسط هذا الظلام الفكري الذي اكتنف العالم الاسلامي بدءاً بالقرن الثالث عشر بدا بصيص نور في افريقيا الشمالية . كان مبعث هذا النور ابن خلدون ، موضوع دراستنا في الفصل التالي .

أبو الوليد محمد ابن رشد – طبيب وفيلسوف وعالم وشارح –
أفلح في تقريب ارسطو من مدارك الناس ، وتزعم حركة عقلانية
دامت زمناً طويلاً ، ومهّدت السبيل لعصر النهضة في اوربا .

ابنُ خَلْدُون

أوّل فلاسفة التاريخ

إذ هو [التاريخ] في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأولى . تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال ... وفي باطنه [باطن التاريخ] نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفية الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بان يعدّ في علومها وخليق .

ابن خلدون

لم تشارك شعوب شمالي افريقيا العرب ، وهم ينعمون بعصرهم الذهبي، سواء أكان ذلك في المشرق أم في الاندلس . ولكنها شاركت في عصر الظلام ، الذي حل بعد ذلك. كانت بلدان افريقيا الشمالية تقع على طريق المجرى الثقافي الفكري الذي كان يجري من بغداد نحو قرطبة في الاندلس. ولكن ذلك المجرى لم ينفتح ولا من ناحية على شمالي افريقيا . لم يكن تركيب شمالي افريقيا الاجتماعي عرقياً ودينياً وسياسياً بحيث يدعو إلى النشاط الفكري ، ويشجّع على طلب العلم والمعرفة . ففي التربة ، من ليبيا إلى مراكش ، كانت تنمو الحروب وتنشأ

المشاحنات أكثر مما كان ينمو السلم والاستقرار . فقد كانت مهداً للثائرين والمنشقّين . ففي تلك العصور لم يكن للعلم والمعرفة والثقافة ان تنمو إلا برعاية خليفة أو أمير ، هذا إذا توافرت شروط الاستقرار والازدهار .

في عهود سابقة اندمج الفينيقيون والرومان بالسكان البربر الأصيلين في شمالي افريقيا ، والأكثر أهمية من هذا ان العرق العربي اندمج بهم بعد القرن السابع للميلاد عندما تمّ للمسلمين فتح البلاد . وكان للأثر العربي في تركيب السكان الاجتماعي أثر أهم من الأثر الذي خلّفه كل من الفينيقيين والرومان. ولكن هذا الدمج العنصري تمّ في الجزء المحاذي للشاطىء . وكان العنصر العربي كلما تقدّم غرباً في فتوحاته خفّ أثره في التركيب العرقي للمجتمع . وأفضل شاهد على هذا ، اللغة . فإن اللغة العربية سادت في ليبيا وتونس ولم يبق من يتكلّم لغة البربر سوى جماعات قليلة هنا وهناك ، وفي الجزائر يشكل الناس الذين يتكلمون البربرية اقلية في البلاد ، اما في مراكش فإن ما ينيف على ثلث السكان حتى الآن يتكلمون البربرية في حياتهم العادية .

عندما تناولنا قيام الدولة الفاطمية بالدرس تطرقنا إلى الكيفية التي عبّر بها البربر عن عدم رضاهم عن الإسلام ، فقد اعتنقوا مذاهب الفرق المنشقة عن السنّة ، أو الفرق المارقة . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر حرّض الخلفاء الفاطميون قبيلة بني هلال — وهي قبيلة عربية اشتهرت بشدتها في الحرب والغزوات ، وكانت مضاربها في مصر — على مهاجمة اعدائهم إلى الغرب. وكانت هذه القبيلة كبيرة بعدد فرسانها ، قوية الشكيمة في الحرب . فلم يمض زمن حتى بسطت سيطرتها على بلاد البربر وقضت على ما تبقى من الحضارتين الرومانية والبيزنطية . ولكن لم يكن لبني هلال كبير فضل في الاسراع في تعريب البلاد الذي كان قد بدأ في هذه الفترة ، اما تاريخهم البطولي فقد دوّن في قصة شعبية معروفة موسومة بسيرة بني هلال ، التي لا يزال يقصّها القصاصون في المقاهي حتى يومنا هذا في أنحاء عديدة من البلدان العربية . وما ان بزغ فجر القرن

الرابع عشر ، وهو القرن الذي نتناوله في دراستنا ابن خلدون ، حتى كان سكان افريقيا الشمالية قد تميّزوا في أربع فئات : فئة من المستعربة من سكان المدن على الشاطىء وفي الأرياف ، وفئة القبائل العربية البدوية المنتجعة إلى الجنوب ، وفئة من البربر المستعربين على الشاطىء ، والفئة الرابعة قبائل بربرية بدوية تقطن داخلية البلاد حتى الصحارى في اواسط افريقيا .

وشهد القرن الرابع عشر زوال ملك دولة الموحدين ، الدولة الوحيدة التي استطاعت في التاريخ الاسلامي الافريقي ان توحّد شمالي افريقيا من ليبيا حتى مراكش في دولة واحدة . وقام على اعقاب دولة الموحدين دولتان بربريتان قويتان ، الأولى منهما دولة المرينيين في مراكش (المغرب) والثانية دولة الحفصيين في تونس (افريقيا). وظلّت الجزائر ، الجزائر على ما نعهدها جغرافياً اليوم ، موضع نزاع مرير بينهما. فإن تلمسان — وهي مدينة جزائرية — كانت تستطيع ان تقف في وجه أي من الدولتين وتتحداهما فتؤسس لنفسها امارة مستقلة . واما ليبيا فكانت واحدة مع تونس .

من الظروف المؤاتية التي ساعدت الدولة المرينية على قيامها وبسط نفوذها انها استولت أولاً على مراكش ، قلب دولة الموحدين المنقرضة . وكان احتلال مراكش (١٢٦٩) عاصمة الموحدين ، ذروة انتصاراتهم في المغرب . ولكنهم اتخذوا لأنفسهم عاصمة جديدة ، وذلك باعادة بناء مدينة فاس . وكانت الدولة المرينية وارثة الممتلكات الاسبانية حيث كانت مهدّدة دوماً بظهور دول مسيحية ناشئة . ودفعهم انهزامهم أمام ملك قشتالة سنة ١٣٤٠ إلى الاتجاه شرقاً . وبعد هذا بوقت قصير تجرأ سلطان المرينيين ، أبو عنان ، فاتخذ لنفسه أرفع لقب في الإسلام وهو : أمير المؤمنين ، مقلداً منافسه الحفصي . وكانت المنافسة بين المرينيين والحفصيين على السيادة في تلك المنطقة محور السياسة في السنوات التي تلت في شمالي افريقيا . غير انه في أثناء عهود الدولتين المتنافستين كان يقوم أحياناً من يغتصب السلطة منها أو من يعلن استقلاله التام عنها .

اما الحفصيون فكانوا يفاخرون بان مؤسس دولتهم ، أبا حفص ، كان من
بين السابقين إلى اتباع تعاليم ابن تومرت كما انه كان قائداً عند مؤسس دولة
الموحدين (عبد المؤمن ، ١١٣٠ – ١١٦٣) . وكان أحد أبناء أبي حفص قد
تعيّن والياً على تونس (١٢٠٧) . وخرج أحد أحفاده على سلطة الموحدين
معلناً استقلاله ، ولكنه قنع بأن يلقب نفسه أميراً (١٢٢٨) . ولكن أخاه
الذي خلفه (حوالي ١٢٥٠) لقّب نفسه أمير المؤمنين ، واعترفت به كذلك
مكة المكرمة . ولهذا كان الحفصيون يدّعون بانهم الممثّلون الحقيقيون للتقاليد
التي سارت عليها دولة الموحدين . وقبل هذه الأحداث بقليل غادر الجدّ الأبعد
لابن خلدون مدينة اشبيلية ليلتحق ببلاط الحفصيين . وكان الحفصيون الذين
اتصل بهم ابن خلدون بادىء الأمر أقوى الحكام في شمالي افريقيا .

في هذه الأثناء ظهرت دولة صغيرة بين الدولتين الكبيرتين المتنافستين ،
عاصمتها تلمسان الواقعة عند الحدود الشمالية الغربية للجزائر . وكان حكامها من
زعماء قبيلة زناتة الشديدة الشكيمة . وكانت دولتهم الناشئة معرّضة لغزوات
الدولتين من الشرق والغرب . وكانت تعاني من المصائب والويلات التي تميّزت بها
تلك الفترة من التاريخ في تلك البقعة المضطربة . وكانت حياة ابن خلدون
ونشاطه السياسي والعلمي يتمركزان في هذه المدن الثلاث : تلمسان وفاس
وتونس . وبعد مولده بقليل استطاع أحد السلاطين المرينيين ان يجتاح تونس
حتى مشارف القيروان مما جعل البلاد في حالة من الضعف والاضطراب ناهيك
بالفوضى السياسية . غير ان دولة الحفصيين دامت زمناً بعد زوال ملك
المرينيين منافسيهم ، وكانت نهاية حكمهم على يد العثمانيين سنة ١٥٧٤ بعد ان
حكموا مدة ثلاثة قرون ونصف القرن . اما مراكش فقد حافظت على استقلالها
حتى سنة ١٩١٢ حين صارت محمية فرنسية .

– ١ –

ولد عبد الرحمن أبو زيد ابن خلدون في تونس في السابع والعشرين من شهر
أيار سنة ١٣٣٢ ، في عائلة تفخر بنسبها العربي ، وتباهي بمآتي أفرادها السياسية
والفكرية في كل من البلدين اشبيلية وتونس . وكانت عائلة ابن خلدون ترقى
بنسبها إلى عرب الجنوب في حضرموت (ولذا يعرف أيضاً بالحضرمي) من
حيث قدم جدّه الأعلى إلى الأندلس مع جيش الفتح في القرن الثامن ، ونزل في
اشبيلية . وفي اشبيلية تقلّد أجداده منصباً رفيعاً بعد منصب في القضاء والحكم .
وقبل ان تسقط اشبيلية في يد النصارى (١٢٤٨) بوقت قصير هاجر أحد
أفراد العائلة إلى تونس والتحق ببلاط الحفصيين . وراح أفرادها يتقلدون
المناصب الرفيعة ذاتها التي كان يتقلدها أجدادهم من قبلهم في اشبيلية .

يخبرنا ابن خلدون في سيرته ، التي كتبها هو نفسه ، انه تعلّم كما كان يتعلم
أولاد الاشراف والعائلات البارزة في ذلك العصر . كان تثقيف الولد يبدأ في
البيت تحت إشراف الأب ، ثم ينتقل إلى كتّاب تابع لمسجد ، ومن ثم يلتحق
بحلقة شيخ عالم . وفي زمن ابن خلدون كان أكثر الشيوخ العلماء الذين يعقدون
حلقات التدريس لاجئين من الأندلس . وكان من أبرزهم علماً محمد بن ابراهيم
الأبيلي (نسبة إلى مدينة فيلا في الأندلس) الذي علّمه الرياضيات والمنطق ،
ومن ثم انتقل على يديه إلى علم ما وراء الطبيعة وغيره من العلوم الفلسفية .
وبعد ان انهى ابن خلدون علمه في المدارس – وكان قد بلغ السابعة عشرة –
بدأ يحصل العلوم بنفسه . في هذه الفترة كانت دولة الحفصيين قد بلغت الذروة
في القوة والمنعة . ففي سنة ١٣٤٧ ، بعد ان كان أبو الحسن ، أحد السلاطين
المرينيين ، قد اخضع تلمسان لسلطانه ، تقدّم شرقاً يحالفه النصر في افريقيا
حتى بلغ القيروان . لكنه أرغم في السنة التالية على العودة غرباً وذلك لقيام
ثورة داخلية في بلاده كان يتزعمها ابنه ، أبو عنان . وفي أعقاب النصر الذي
احرزه أبو الحسن رحل عدد من العلماء المراكشيين والاندلسيين واستقروا في

تونس حيث وجد فيهم ابن خلدون ضالته ، فأخذ عنهم الفلسفة والمنطق والعلم الالهي وعلم الفقه . ولكن عندما عاد السلطان إلى مراكش أخذ معه العلماء في حاشيته ، ورافقهم في رحلتهم غرباً علماء تونس ، الأمر الذي جعل مدينة فاس قبلة للعلماء تتيح لطلاب العلم ما لا تتيحه تونس .

فُجع ابن خلدون الشاب بوفاة والديه بمرض الطاعون الذي اجتاح العالم آنذاك (١٣٤٥) . كما ان عدداً من شيوخه لاقى حتفه في هذا الوبأ . وكان أبوه قد اعتزل العمل بالشؤون السياسية وانقطع إلى الدراسات الدينية . وفي سيرة ابن خلدون الموسومة بالتعريف يذكر ابن خلدون أمه مرّة واحدة وذلك بمناسبة وفاتها بالطاعون . وينبغي ان يكون له أخوان ، أخ أكبر اسمه محمد ، وأخ أصغر اسمه يحيى الذي سلك طريق العائلة التقليدية فانصرف إلى السياسة. ومع انه يفترض ان تكون سيرة حياته التي كتبها، افضل سيرة من نوعها كتبها مفكر مسلم عن حياته، فانها لا تشبع فضول القارىء العصري. فهي سيرة تخلو من المسحة الانسانية ، ذلك ان ابن خلدون لا يذكر شيئاً عن زواجه – الذي يجب ان يكون قد تمّ في حدود سنة ١٣٤٥ – من ابنة قائد حفصيّ كان في الوقت نفسه ، وزير الحربية . وكانت الزوجة الوحيدة حتى زمن وفاتها .

وكان زواجه ، وهو في الحادية والعشرين من عمره ، إلى جانب وفاة والده ، دافعاً بابن خلدون للسعي وراء الرزق . وأول منصب تقلده وظيفة حامل الاختام في بلاط الحفصيين. وخرج مولاه للحرب مصطحباً ابن خلدون. ولكن النصر لم يحالفه ، فهرب ابن خلدون وسار هائماً على وجهه من مكان إلى مكان يقيناً منه ان تونس ليست البلد الذي يرجو فيه الخير . وكان هذا نهاية اختباره الأول كموظف في بلاط السلاطين . ولم يكن اختباره الثاني بأفضل من اختباره الأول . ففي سنة ١٣٤٥ قبل دعوة وجهها اليه السلطان المريني ، أبو عنان ، الذي كان آنذاك أعظم سلطان في شمالي افريقيا ، والتحق بحاشيته الخاصة التي كانت تضمّ فلاسفة ومنجمين وعلماء دين وشعراء ومستشارين جاء

على ذكرهم في مقدمته المشهورة . وكان شديد الميل إلى الشيخ الأبيلي . وقد سُرّ ابن خلدون المتفتح الذهن ، الشغوف بالمعرفة ، لوجوده في هذا الجوّ العلمي، ولكنه لم يكن يستسيغ عمله ، إذ ان وظيفته كانت تقتصر على تسجيل الأحكام الصادرة عن السلطان أو تدوين الوثائق التي ترد إلى القصر . ويقول في ذلك ان أحداً من أهله لم يشغل منصباً كهذا المنصب الكتابي .

بعد ثلاث سنوات ، عندما شرع السلطان أبو عنان يعدّ العدة لغزو تونس، اكتشف ان كاتبه التونسي ، ابن خلدون ، كان يحوك مؤامرة مع أحد الولاة الحفصيين المعزولين ، فارتأى انه من الحكمة ان يلقي به في السجن . ووراء قضبان السجن ظلّ صاحبنا السياسي المشاغب واحداً وعشرين شهراً بالرغم من طلبات العفو التي رفعها . وآخر استرحام للعفو عنه كان قصيدة تتألف من مئتي بيت ذكر منها شيئاً في سيرته في التعريف ، والتي يقول انها اعجبت السلطان كثيراً. غير ان أبا عنان توفيّ قبل ان صدر الأمر بالعفو عنه واطلاق سراحه وردّ كرامته واعتباره اليه .

بعد هذا يبدو ابن خلدون لنا رجلاً جديداً يختلف عن ابن خلدون قبل سجنه . لقد ادرك الآن انه يعيش في جوّ من المؤامرات التي كان يدبرها الوزراء الطامعون في الحكم مستخدمين لذلك المطالبين بالعرش كستار يعملون وراءه في الخفاء ، فراح ينسج على منوالهم . فكان يولي ولاءه هذا المطالب بالعرش ليعود فيوليه من كان يبدو له أنه أقرب إلى الظفر من غيره . وكان أحدهم أبا سالم ، وهو أخو أبي عنان الذي كان قد نفاه . فعمل ابن خلدون له سرّاً . وعند استيلائه على الحكم كافأه السلطان الجديد بتعيينه كاتباً له . وتولى إلى مدّة من الزمن « خطة المظالم » للنظر في الأمور التي يتناولها الشرع . وقد أفلح ابن خلدون ككاتب في وضع اسلوب رفيع في المراسلات السلطانية لصفاء لغته ، وجميل اسلوبه ، وبلاغة انشائه . ولكن كرجل سياسة برهن عن عدم اقتدار وحنكة . وعند وفاة السلطان أبي سالم عاد ابن خلدون إلى سابق

سيرته السياسية فوجد نفسه غائصاً في المؤامرات حتى عنقه . ومن حسن طالعه هذه المرّة انه نجا بنفسه من القتل . وكان أمامه طريق واحد مفتوح : الطريق المؤدي إلى الشمال ، إذ لم يسمح له ان يسلك طريقاً آخر . اما زوجته — وهذه أول مرة يأتي على ذكرها في سيرته — فقد ارسلها مع اولادها إلى أخيها في قُسَنْطينة .

وفي السادس والعشرين من شهر كانون الأول سنة ١٣٦٢ نزل صاحبنا المنفي في غرناطة ، آخر معقل للمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية . وكان على العرش محمد الخامس الذي كان قد التجأ إلى بلاط أبي سالم عندما خُلع عن العرش مرة. وقبل هذا الحين كان أبو سالم نفسه قد التجأ إلى بلاط محمد الخامس عندما نفاه أخوه . وكان محمد الخامس أحد أحفاد محمد الأول الغالب ابن الأحمر (توفي ١٢٧٣) باني الحمراء ، القصر الشهير الذي اكمل بناءه محمد الخامس . ومن المستغرب ان ابن خلدون لا يشير إلى الحمراء بالاسم ، على انه من المرجّح ان يكون مكتبه ، عندما كان موظفاً ، في الحمراء ذاتها . غير انه في بضعة أبيات من الشعر يمتدح قاعة الاستقبال الفخمة حيث كان السلطان يجلس إلى زائريه . وعندما كان محمد في منفاه في مدينة فاس كان وزيره لسان الدين ابن الخطيب برفقته . وكان لسان الدين من أعلم العلماء في غرناطة كما كان ابن خلدون من اجل العلماء في مراكش . وفضلاً عن هذا كان لسان الدين طبيباً عظيماً . وظفر لنفسه بمكان في تاريخ الطب عندما استطاع أن يرى ان الطاعون مرض ينتقل بالعدوى وان يبرهن على ذلك. فتحاب الرجلان في فاس وأصبحا صديقين وفيين كل منهما معجب بالآخر. فلا عجب إذا استُقبل ابن خلدون فيغرناطة بالتكريم والخِلَع.

وبعد وصول ابن خلدون بوقت قصير عهد اليه ، بصفته موظفاً في البلاط ، بأمر المفاوضة مع بطره بن الهنشة الظالم ، ملك قشتالة باشبيلية مقر أسلافه من اسرته ، والمدينة التي كان يتوق لرؤيتها أكثر من أية مدينة أخرى في الأندلس. وكان ملك قشتالة قد سمع عن عائلة ابن خلدون ومكانتها في اشبيلية ، وذلك

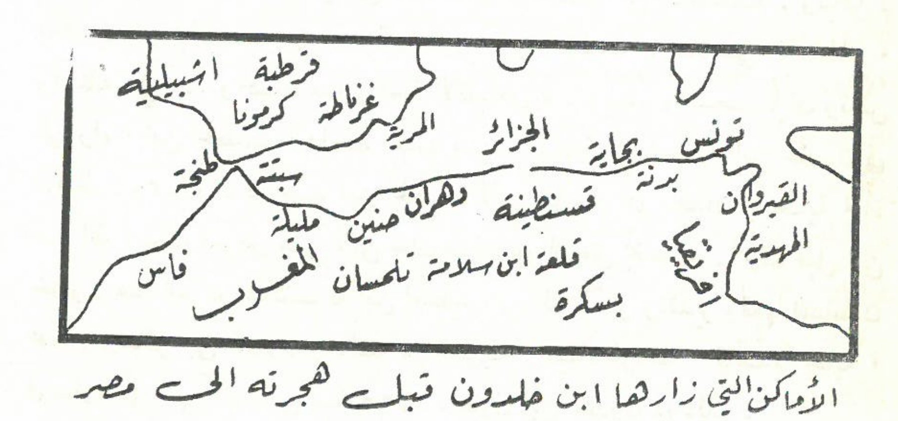
عن طريق طبيبه اليهودي . فاستقبله باكرام واجلال . ثم أراه ما تبقى من قصور المدينة في احياء السكن ، وعرض أن يرد عليه تراث سلفه إذا أراد ان يبقى في اشبيلية ويلتحق بقصره . ولكن هذا العرض المغري ، حتى وان كان صادراً عن اخلاص ، لم يلق صدى عند ابن خلدون . غير انه قبل هدية أخرى « بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيين » وكان هذا أول اختبار اختبره ابن خلدون ، المؤرخ العتيد ، في بلاد النصارى في اوربا .

عندما رجع إلى غرناطة كان يشعر بكثير من الاستقرار والطمأنينة لثقة السلطان به ولصداقته الحميمة مع رئيس وزرائه ، الأمر الذي شجعه على ان يلتمس من السلطان ان يعمل على استحضار عائلته من قُسَنطينة . ولكن لم يكد يستقر نهائياً حتى « خيّلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستي للسلطان ، واشتماله علي ... وشممت منه رائحة الانقباض » . ويبدو واضحاً ان رئيس الوزراء ، ابن الخطيب ، داخَله الحسد بسبب المكانة التي احتلها ابن خلدون في البلاط . ومما زاد في حسد ابن الخطيب لابن خلدون ان سلطان بِجَاية ، أبا عبد الله ، بعث بعرض مغرٍ لابن خلدون ان هو التحق بخدمته . وقد قبل ابن خلدون هذا العرض فكتب له ابن الخطيب رسالة شكر وتقدير وقعها السلطان محمد. وسافر ابن خلدون وعائلته من المَريّة ، ميناء غرناطة ، قاصدين بجاية ، فوصلوها في شهر آذار من سنة ١٣٦٥ . يقول ابن خلدون في ذلك :

وركبت البحر من ساحل المرية منتصف ست وستين ونزلت بجاية لخامسة من الاقلاع. فاحتفل السلطان صاحب بجاية لقدومي، واركب أهل دولته للقائي ، وتهافت أهل البلد علي من كل اوب يمسحون اعطافي ، ويقبّلون يدي ، وكان يوماً مشهوداً . ثم وصلت إلى السلطان فحيّا وفدّى وخلع وحمل ، وأصبحت من الغد ، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابي ، واستقللت بحمل ملكه ،

واستفرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه [1] .

وكان أبو عبد الله محمد هو نفسه الوالي الحفصي الذي نُفي إلى مراكش والذي اتصل به ابن خلدون سراً وسُجن بسببه مدة طويلة . ولكن ابن خلدون تابع فيما بعد سعيه في التوسّط لصديقه لدى سلطان فاس الجديد فأعاد اليه ولايته. وما ان استعادها حتى أعلن استقلاله . وكانت بِجَاية ميناء تجارياً مزدهراً في شرقي الجزائر . وكان للمدينة في القرن الرابع عشر تاريخ مثير حافل . فانها استقلت ثلاث مرات عن تونس ، وصدّت ثلاث غزوات قامت بها تِلِمْسان ضدّها . ومرّة واحدة (سنة ١٣٤٧) استسلمت إلى أحد السلاطين المرينيين ، أبي الحسن ، دون مقاومة تذكر.



الأماكن التي زارها ابن خلدون قبل هجرته الى مصر

كانت بداية عهده في بجاية كحاجب بداية حسنة ، ولكنها لم تنته على ما كان يرغب فيه ابن خلدون. وهذا المنصب الذي عُهد به اليه كان أرفع المناصب التي بلغها ابن خلدون في حياته السياسية . ولكن الفترة بين بلوغه الأوج وبين

(١) محمد ابن تاويت الطنجي : التعريف بابن خلدون وبرحلته غرباً وشرقاً (القاهرة ١٩٥١) ص ٩٨ . وهذه الطبعة تعتمد مخطوطتين في استانبول بخط المؤلف .

سقوطه إلى الحضيض كانت فترة قصيرة جداً . ففي السنة التالية قام أبو العباس صاحب قُسَنطينة ، وهو ابن عمّ للسلطان ، بمهاجمة بِجَاية وقتل السلطان أبا عبد الله. فانتهز ابن خلدون هذه الحادثة ليسلّم المدينة إلى أبي العباس الذي كافأه بالابقاء عليه في منصبه. ولكن لم يمض وقت طويل حتى نقم عليه السلطان الجديد فهرب ابن خلدون طلباً للنجاة من القتل . وكان هذا بداية فترة قلقة مضطربة في حياة ابن خلدون السياسية المديدة ، فترة دامت عقداً من السنين .

شعر ابن خلدون السياسي الطريد ، بعد ان قضى شطراً من حياته يسعى جاهداً لنيل المراتب والعلى ، بخيبة أمل مريرة . وتاقت نفسه إلى الهدوء والسكينة . فرغب عن حياة المدن وراح يفتّش عن هناء العيش في مكان منعزل. فاختار لنفسه مقاماً في واحة بَسْكرة في جنوبي الجزائر. ولكن رجلاً موهوباً غنيّاً بالخبرة ذا شهرة واسعة لا يمكن له ان يحجب الأنظار عنه . فراح سلطان تِلِمْسان ، هذه المرة ، يطلب اليه ان يلتحق به . وكان هذا السلطان ختن أبي عبد الله . ولكن ابن خلدون أرسل أخاه يحيى عوضاً عنه . وكان يحيى يشغل مركزاً حكومياً في بِجَاية ، وأسره أبو العباس فترة من الزمن ثم أطلق سراحه . وقنع ابن خلدون باثارة القبائل وتحريضها — ومعظم تلك القبائل من بني هلال — ضد خصمه القديم ومولاه أبي العباس لصالح السلطان الجديد ومولاه في تِلِمْسان . وعندما ذهب ابن خلدون في زيارة إلى تلمسان علم ان أحد السلاطين المرينيين ، عبد العزيز ، كان قادماً على رأس جيش لمحاربة المدينة . فأسرع هارباً نحو هُنَين ليركب من هناك سفينة إلى اسبانيا . ولكن نفراً من جيش المريني لحق به وأدركه وأحضره إلى السلطان . وعندما ايقن السلطان عبد العزيز ان هذا الرجل غير المرغوب فيه (ابن خلدون) لم يكن قاصداً غرناطة ليطلب اليها التدخل في شؤون شمالي افريقيا أطلق سراحه .

عندما عاد ابن خلدون إلى الصحراء عدل عن ولائه القديم وأصبح داعية

يبث الدعوة للدولة المرينية ضد تلمسان . حتى انـــه وطـّد العزم على ان ينتقل بعائلته إلى فاس (١٣٧٢) . وفي طريقهم إلى فاس هاجمهم البدو الذين كانت تلمسان قد حرّضتهم ضدّه . غير انهـــم نجوا من الموت باعجوبة ، ومن حسن حظهم أنهم لم يفقدوا سوى متاعهم . وعندما وصل إلى فاس وجد ان العهد قد تغيّر ولم يكن الحكام الجدد يظهرون له الودّ والاحترام . وبعد فترة قضاها في السجن شعر ان جميع الأبواب قد سدّت في وجهه في المغرب . فقصد غرناطة مخلّفاً وراءه عائلته . ولكن لم يكد يحطّ الرحال في غرناطة حتى كانت فاس قد خاطبت السلطان في ارجاعه اليهم .

بعد هذا لم يخامر ذهن ابن خلدون أي شك في ان السياسة ليست مهنته ، وان هذه الحياة التي يحياها ليست الحياة الهانئة التي يطلبها. فانقلب ابن خلدون السياسي إلى ابن خلدون العالم . وصدف ان قبيلة عربية منحته الحماية واستضافته في مرابعها ، في مكان يدعى قلعة ابن سلامة الواقعة في قرية في مقاطعة وهْران . فانتقل إلى قلعة ابن سلامة في ربيع ١٣٧٥ مصطحباً عائلته وكتبه وأوراقه وعاقداً العزم على بدء حياة جديدة . والواقع ان خصومه السياسيين الذين أودوا به إلى هذه الحالة كانوا مبعث خير لابن خلدون نفسه وللعالم اجمع ، وهو أمر لم يستطع أحسن اصدقائه ان يفعله معه . وما ان استقر به المكان حتى شرع في تأليف الكتاب الذي اشتهر به : المقدّمة ، وهو الجلد الأول الذي اراده ان يكون مقدّمة للتاريخ المطول الموسوم بـ « كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر » . انكبّ على الكتابة مدة أربع سنوات متناسياً العالم حوله . والعالم يذكره بهذا الكتاب الذي قضى السنوات في تأليفه . ونحن نسلّم بأن مقدمته ما كانت لتحتل هذه المكانة في عالم التاريخ والاجتماع لو لم يكن صاحبها قد عاش حياة مليئة بمختلف الاختبارات التي اكسبته هـــذه النظرة إلى المجتمع وتطوّره . في شهر تشرين الثاني سنة ١٣٧٧ فرغ من تأليف مقدّمته . ويقول بهذا الشأن :

أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب ، في مدة خمسة اشهر آخرها منتصف عام ٧٧٩ ثمّ نقحته بعد ذلك وهذبته .

خمس سنوات من العزلة ــ السنة الخامسة قضاهـا في الفراش بسبب مرض أصابه ــ لم تكن لتدفع بابن خلدون إلى الخروج من مخبإه في الصحراء . ولولا رغبته وحاجته إلى مراجع كان يفتقر اليها في تأليف تاريخه لما ترك مقامه في تلك القرية النائية . وكان المكان الطبيعي للرجوع إلى المراجع تونس ، مسقط رأسه ، التي كانت في هذه الفترة في حيازة صديقه القديم ، وعدوّه القديم ، السلطان أبي العباس . وكان السلطان أبو العباس يومئذ أعظم حاكم في شمالي افريقيا واقواهم منعة . ولم يكتف بالعفو عنــه ، بل انه ردّه اليه ، ورعاه بعطفه ، شأن من يعفو عند المقدرة . وقبل هـذا الحين بوقت قصير كان ابن خلدون قد نقّح بعض اجزاء من تاريخه واهداه إلى السلطان . ولكن سوء الطالع لم يكن ليفارق ابن خلدون . ذلك ان حاشية البـــلاط من أصحاب الدسائس اقنعوا السلطان أبا العباس ان وليّ نعمته الجديد ، ابن خلدون ، رجل داهية في حياكة الدسائس والمؤامرات ، وانه ينبغي للسلطان ان يكون حذراً فلا يأمن له، لا سيما إذا خلا له الجوّ . ويذكر لنا ابن خلدون في سيرته اسم رئيس القضاة في البلاط ويتهمه بانه الواشي به عند السلطان . ذلك لان حلقة هــذا القاضي والجماعة التي كانت معجبة به اخذتا بالانصراف عنــه ، والالتحاق بحلقة ابن خلدون، وعليه ، عندما أراد أبو العباس الخروج الى الحرب استدعى ابن خلدون وطلب اليه ان يرافقه . ولكن ابن خلدون توسّل اليه ان يعفيه من المهمة لانـه عازم على قضاء الحج . وهو عذر لا يمكن لحاكم ، مهما بلغ بـه الطغيان ، ان يرفضه . وصدف ان كان في الميناء مركب على أهبة الاقلاع إلى مصر ، فركبه صاحبنا الطريد وبلغ الاسكندرية في الثامن من شهر كانون الأول سنة ١٣٨٢ ، بعد سفرة استغرقت خمسة وأربعين يوماً . وكان هذا آخر عهد له بوطنه .

وما كان علماء مصر وشيوخها بحاجة إلى من يعرفهم إلى هذا العالم السياسي التونسي . ولم يمض وقت على وصوله مصر حتى عُرض عليه منصب مدرّس في الأزهر ، اقدم جامعة واشهرها في تلك البقعة من العالم . ومن ثمّ شغل منصب استاذ في كليتين أُخريين، هذا إلى جانب قبوله مشيخة احدى الطرق الصوفية . وقد حفظ لنا في التعريف بعض خطبه الاولى التي كان يلقيها في هذه المعاهد المختلفة والتي كان يبدأها بمقدّمة يمتدح فيها السلطان ويعظمه . ويقول لنا أيضاً ان جمهرة العلماء الذين حضروا هذه الخطب أبدوا اعجابهم الشديد به . وإلى جانب هذه المناصب التي شغلها عُيّن قاضي المذهب المالكي ست مرّات ، مع العلم ان هذا المنصب يتضمن معنى سياسياً كان يطمح أكثر من عالم إلى الوصول اليه . وقد احتفظ ابن خلدون بزيّ ملبسه المغربي ، كما انه لم يغيّر خطّه في الكتابة . وكانت محاضراته في مختلف المعاهد تدور حول الحديث والفقه ، مع التركيز على الفقه المالكي . ولنا ان نرجّح انه كان يستطرد أحياناً فيأتي على ذكر بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية التي عالجها في مقدّمته .

في السنة الثانية لاقامته في مصر تعرّف إلى السلطان المملوك بَرْقُوق الذي كان فيما مضى عبداً شركسي الأصل ، ثم استطاع ان يغتصب السلطة في كل من مصر وسورية . فطلب ابن خلدون من برقوق ان يتوسط له لدى أبي العباس ان يرسل اليه عائلته وكان قد خلّفها في تونس . وما كان يدور في خلد ابن خلدون ما يخبئه له القدر . وفي عبارة وجيزة في « التعريف » يقصّ علينا خبر الفاجعة التي نزلت به :

> فكثر الشغب عليّ من كل جانب ، واظلم الجوّ بيني وبين أهل الدولة . ووافق ذلك مصابي بالأهل والولد ، وصلوا من المغرب في السفين ، فأصابها قاصف من الريح فغرقت وذهب الموجود والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على

> الخروج عن المنصب (١) .

لا يخبرنا ابن خلدون شيئاً عن عدد أولاده كما انه لا يقول لنا إذا كان قد تزوّج بعد وفاة زوجته .

في مصر اتمّ العالم ابن خلدون ثقافته وقد بلغ الثانية والخمسين . وفي مصر عرف الثقافة الاسلامية المشرقية عن كثب بمعاشرته علماءها وشيوخها . وكانت ثقافة اسلامية تفوق الثقافة الاسلامية التي عرفها في بلاد المغرب . كان يفكّر في بادىء الأمر ان يقصر تاريخه على الإسلام ودوله في المغرب من بربر وعرب . ولكن القادم من المغرب وصحاريه إلى القاهرة لا بد أن يرى فيها « حفرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الامم » . فهي مدينة تحيط بها من كل صوب قصور وقلاع ومساجد ومدارس، وفي فلكها تسطع نجوم علمائها، وتربتها تتجدّد خصباً بفيضان النيل سنة بعد سنة ، واسواقها مليئة بنتاج أرضها المعطاء . هذا الاختبار الجديد الذي اختبره ابن خلدون في مصر رسّخ في نفسه صحة بعض النظريات التي كان يأخذ بها وهو بعد في المغرب يعيش في ظروف تختلف عن ظروف مصر . وفي الوقت ذاته أخذ يغيّر رأيه في امور أخرى بسبب إقامته في مصر وبسبب خبرته الجديدة . فقد زاد اقتناعه بأن في ثنايا الرخاء الاقتصادي والازدهار الاجتماعي تكمن بذور الضعف والتقهقر . غير انه عدل عن رأيه الأول بأن اصلاح المجتمع لا يتمّ إلا عن طريق الحاكم المفرد القوي العادل ، وأصبح يؤمن الآن ان الزعامة المزدوجة من رجال السياسة والعلم هي الكفيلة بإصلاح المجتمع وتقدّمه . فرجل السياسة يضمن الاستقرار ويوفّر الحماية ، واما رجل العلم فانه يخطّط ويضع القوانين التي تنظم شؤون الفرد والمجتمع . فيصبح القانون ، لا الحكم ، طريق التقدّم والازدهار .

وكان على هذا المؤرخ العالمي ان يمرّ في اختبار ثان يكمّل به ثقافته العامة

(١) التعريف ، ص ٢٥٩ .

الشاملة : تأدية فريضة الحج . وقد تمّ له ذلك سنة ١٣٨٧ بعد ان كان قد عزم
على تأدية هذه الفريضة قبل ذلك بخمس سنوات ، كما يقول لنا نفسه . واقتضاه
الحجّ ثمانية اشهر تعرّف في اثنائها إلى علماء من تركستان والهند وآسيا الشرقية
وجنوبي افريقيا ، فزادت معرفته بمختلف الاوساط الاجتماعية الاسلامية .
وعندما عاد إلى مصر قصّ على مولاه السلطان ما خبره في حجّه .

وفي السنة التالية (١٣٨٩) خُلع السلطان بَرْقُوق إثر ثورة عسكرية .
وكانت مثل هذه الثورات والانقلابات العسكرية كثيرة الوقوع بين المماليك .
وعندما استعاد عرشه بعد سنة من الزمن اكتشف ان من جملة القضاة الذين
وقّعوا على فتوى بخلعه كان ابن خلدون الذي رعاه بعطفه . فبعث اليه ابن
خلدون بقصيدة تنمّ عن حزن وأسى يستعطف بها السلطان برقوق ويطلب اليه
ان يعفو عنه . ويقول معتذراً ان توقيعه الفتوى جاء نتيجة اخضاعه لضغط
من قبل زملائه . ثم يذكّر السلطان بكرمه السابق وكيف انه رعاه وآساه
بفقد الزوجة والأولاد . وقد كان لطلبه اثر طيب في نفس برقوق فعفا عنه
وردّه إلى منصبه . فنعم بالراحة والاستقرار بعض سنوات يقول عنها انه لم
يخيّم عليها ضباب أو قتام. فانصرف بعد ذلك إلى التدريس والقضاء والتأليف،
وإلى جانب هذا راح يسعى إلى توثيق عرى الصداقة بين حكام مصر واهليها
وبين حكام المغرب واهليه . وقام بزيارة بيت المقدس وبيت لحم ، ولكنه رفض
ان يدخل كنيسة القبر المقدس « إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصليب
بزعمهم » . والمسلم لا يؤمن بأن المسيح قد صُلب .

لدى وفاة السلطان برقوق (١٣٩٩) تسنّم العرش ابنه الناصر فرج ،
وكان آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، فكان ذاك مبعثاً لقيام اضطرابات وقلاقل
في البلاد . وصادف ان ظهر خطر على مصر من جهة الشمال ، الخطر المغولي .
فعرض السلطان الناصر على ابن خلدون جزيل انعامه على ان يلتحق بحاشيته ،
وذلك عندما كان يعدّ العدة للتوجه شمالاً لصدّ جيوش الاعداء من المغول .

وفي خيمة من خيام التتر في معسكر للجيش المغولي خارج اسوار دمشق ،
وذلك صباح العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٤٠١ (وكان صباحاً قارس البرد)،
اجتمع مفكّر الإسلام الاول ، ابن خلدون ، وتيمورلنك سيد تركستان وقاهر
بلاد العجم وغازي روسيا حتى موسكو ، والطامح الآن إلى الاستيلاء على
سورية . واما تيمورلنك فانه كان قد استباح مدينة حلب مما اكسبه لقب أمير
الدمار . وكانت دمشق تأتي في القائمة ثانياً . غير ان السلطان الناصر كان قد
سبقه إلى دمشق ، ولكنه اضطر إلى الرجوع إلى القاهرة بسبب قيام فتنة فيها
مخلّفاً قوّاده في المدينة المحاصرة ليتولّوا الدفاع عنها . وقد وطّد العسكريون
العزم على ان يقاوموا ، ولكن سكان دمشق المدنيين من مصريين وسوريين ،
بمن فيهم ابن خلدون ، كانوا يرون غير هذا الرأي . فبعثوا ابن خلدون سرّاً
للمفاوضة مع الغازي تيمورلنك . وكانوا قد دلوه سرّاً من على سورها كما حدث
فيما مضى من الزمن للرسول بولس الذي هربوه من على السور بسلّة . وسار
ابن خلدون إلى خيمة تيمورلنك فاستقبله بحفاوة واكرام . وبعد ان حيّاه ابن
خلدون قبّل يده .

دامت المفاوضات بين ابن خلدون وتيمورلنك ، بواسطة ترجمان ، اربعين
يوماً . وتعتبر هذه الأحاديث من امتع الأحاديث من نوعها في التاريخ . وبعد
ان وجه تيمورلنك إلى ضيفه بعض الاسئلة الخاصة عنه وعن منصبه ، راح يسأله
اسئلة المستفسر عن احوال افريقيا والمغرب ، وعن جغرافيتها ، وعن حكامها،
واحوالها الاقتصادية ، إذ أنه كان رجلاً يحلم بالاستيلاء على الدنيا كلها . وكان
ابن خلدون حذراً لبقاً مقنعاً في اجوبته . وكانت سلامته وسلامة زملائه نصب
عينيه عندما كان يفاوض الغازي . ولكن الغازي المغولي لم يقنع بالاجوبة
الشفهية ، فطلب اليه ان يكتب له الاجوبة. وفي هذه الاثناء اهدى ابن خلدون
إلىمضيفه مصحفاً وسجادة وأربع علب من حلوى مصر. وصدر الأمر بالافراج
عنه وعن رفاقه . وفي النهاية سأل تيمورلنك ابن خلدون ان كانت عنده بغلة ،

فقال ابن خلدون: «نعم». قال تيمورلنك: « وتبيعها ؟ » فأجاب ابن خلدون:
« مثلي لا يبيع مثلك . انما أنا أخدمك بهـا وبأمثالها لو كانت لي » . فقال :
« انمـا أردت أن اكافئك عنها بالاحسان » . فقال ابن خلدون : « وهـل بقي
احسان وراء ما أحسنت به ! » .

وغادر الوفد المصري دمشق تاركاً اياها تلقى من البلاء ما لاقته حلب من
قبل . وبينما هم في الطريق ، بعد صفد ، هاجمهم البدو وسلبوهم وتركوهم عراة.
وعندما وصل القاهرة تسلـّم ثمن البغلة الذي كان قد أرسل اليه بواسطة رسول
مصري ذهب ليفاوض الفاتح المغولي . ويسهب ابن خلدون في تفاصيل هـذه
الفترة من حياته في سيرته التعريف . ثم يذكر بعد ذلك انه عُزل من القضاء
للمرة الخامسة. وكان ذلك قبل وفاته المفاجئة في السادس عشر من شهر آذار
سنة ١٤٠٦ ، وكان له من العمر ٧٤ سنة . ودفن في مقـبرة للصوفية في باب
النصر في المدينة التي عمل فيها قرابة ربع قرن من الزمن .

— ٢ —

ان انتاج ابن خلدون الادبي — بالرغم من انه من نوع الموسوعات الجامعة —
لا يقاس من حيث الكمية بانتاج ابن سينا والكندي وغيرهما من أرباب القلم .
وقد ألـّف أديب مصري (١٩٦٢) كتاباً في وصف مؤلفاته ، عدد صفحاته
٣٣٩ ، وفيه ثبت بسبعة مصنـّفات من المصنفات الثانوية ، ومصنف واحـد له
اهميته ومقامـه . ومن المصنفات الثانوية ثلاثـة تعالج المنطق والرياضيات
والصوفية واثنان منها شرحان لديوانين من الشعر ، واثنان يلخص فيهما المؤلف
ابن رشد وأحد علماء الدين .

اما تاريخه العامّ ، وعنوانه كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب
والعجم والبربر ومن عاصرهم من السلطان الأكبر ، ففي سبعة مجلدات أولهـا

المقدّمة ، وفي المجلد الأخير ملحق عنوانه التعريف ، وهو سيرة حياته كما سردها
هو نفسه .

يقتبس ابن خلدون كثيراً من معلوماته التاريخيـة عن الذين سبقوه من
المؤرخين لا سيما الطبري وابن الأثير ، وكان معظمهم من مؤرخي الحوليات .
ولكنه يتبع اسلوب جمع الحوادث التاريخية — مع بعض التفسير لهـا — حول
أشخاص، ودول وحكام . وهو اسلوب وضعه المؤرخ الكلاسيكي العربي الثالث،
المسعودي (توفي ٩٥٧). ولكن مما يدعو إلى الاستغراب ان ابن خلدون لم يطـّلع
على ما كتبه المسعودي . وفي هذا التاريخ الذي كتبه ركـّز ابن خلدون اهتمامه
على الناحية السياسية . ولانه أخذ على نفسه ان يؤرخ للعجم ، وهي لفظة تعني
سائر الشعوب من غير العرب ، فقد وجد نفسه محمولاً على ان يؤرخ تأريخاً عاماً
يشمل العالم كله . ولكن المستوى الذي وضعه لنفسه لم يكن بالمستوى العالي ،
لأن مصادر معلوماته التاريخية عن الشعوب السامية القديمة وعن العالم الاغريقي
الروماني كانت محدودة وبعضها مغلوط . ولم يكن افقـه التاريخي ذاك الأفق
البعيد ، بل كان محدوداً بسبب ضآلة المصادر التي تعنى بتاريخ اوربا الوسيط .
ولم يكن ابن خلدون يعرف لغة أجنبية ، والواقع انه كان يقول ان تعلم لغـة
أجنبية مضرّ للعربي ، لأن ذلك من شأنه ان يحد من قدرته على حذق العربية ،
اللغة الأمّ . والنوع الوحيد من قيام الدول وسقوطها الذي تناوله ابن خلدون
بالدرس من جميع النواحي كان الخلافـة الاسلامية التي قامت على الدين وعلى
قبائل بدوية ، بعضها كان من البدو الرحّل . ثم تعاقب عليها الأتراك فالفرس
فالبربر الذين كانوا أيضاً في طور البداوة .

يظهر فضل علمه في معرفته الوثيقة بأحوال افريقيا الشمالية — العرب منهم
والبربر — وبأحوال مصر وغرناطة ، وجميعهـا يتناولها بكثير من الحيـاد
والموضوعية بطريقة تستأثر بالاعجاب . وقلّ ان يطنب في امتداح صديق له ،
وقلّ ان يحتقر خصماً أو يزدري عدوّاً . فقـد كان ابن خلدون المؤرخ يختلف

الاختلاف كله عن ابن خلدون السياسي . ويعتبر تاريخه من المصادر التي لا يمكن لمؤرخ حديث ان يستغني عنها إذا ما أراد ان يدرس تاريخ الدولة المرينية والدولة الحفصيّة . وفي ثنايا هذا التاريخ شذور من معلومات مبثوثة هنا وهناك لا يمكن ان تجدها عند غيره من المؤرخين . فانه يذكر ، مثلاً ، ان في مالي (في السودان) مرضاً غريباً . ولعله اقدم ذكر لمرض النوم .

لو ان جميع مجلدات هذا الكتاب ، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، فقدت – باستثناء المقدّمة – مع جميع مصنفات ابن خلدون الثانوية الأخرى لظلّ ابن خلدون يحتفظ بمحراب في قاعة عظماء الدنيا .

في بدء مقدمته يذكر لنا ابن خلدون كيف انه يختلف في نظرته إلى التاريخ عن نظرة سابقيه من المؤرخين ، ويشير إلى نقطة الانطلاق الجديدة التي منها سينطلق في كتابة التاريخ . يقول :

> اما بعد فان فنّ التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الاقوال ، وتضرب فيها الامثال ، وتطرف بها الاندية إذا غصّها الاحتفال ، وتؤدّي لنا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الاحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال . وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بان يُعدّ في علومها وخليق[1] .

(١) مقدمة ابن خلدون ، نشر علي وافي الطبعة الثانية القاهرة (١٩٦٥) ص ٣٥٠ .
Franz Rosenthal, Ibn Khaldun, The Muqaddimah : An Introduction to History (New York, 1958) vol. I, p. 6.

كان ابن خلدون قد درس الفلسفة ، وعلم الدين ، والتاريخ ، ولحظ كيف ان الفِكَر الفلسفية ، وكيف ان اساليب التفكير العقلاني طُبقت في العلم الالهي ولكنها لم تمس علم التاريخ ، ولم يلحظ ان احداً حاول تطبيقها في هذا الحقل . فاتخذ لنفسه هذه المهمة . وقد بدا له انه ايسر لنا ان نطبق اسلوب الفلسفة واساليب الفكر العقلاني على التاريخ . لأن للتاريخ مجرى ، وقد اشترك هو ذاته في صنع التاريخ . والنقطة الاساسية هي ادخال المنطق في علم التاريخ . لقد حاول أن يخضع علم التاريخ لقواعد العلم الطبيعي . فهو يرى ان الحوادث التاريخية مترابطة متصلة الواحدة منها بالاخرى اتصالاً منطقياً . إذن فالمظاهر الاجتماعية نتيجة قوانين تعمل فيها وتخضع لها . غير أن هذه القوانين لا تعمل في المظاهر الاجتماعية بتلك الصرامة التي تعمل في المظاهر الطبيعية ، كما انه لا يمكن تطبيق هذه القوانين في علم التاريخ بالصرامة ذاتها التي نطبقها في العلوم الطبيعية . وهذا مما يجعل التاريخ علماً يُعنى بالمجتمع من نواحيه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، كما انه يجعله فرعاً من فروع الفلسفة . وعندما يحاول المؤرخ ان يعلّل التاريخ والتطور الاجتماعي تعليلاً عقلانياً فانه يفلسف التاريخ .

ليس المجتمع ، في نظر ابن خلدون ، جامداً تعوزه الحركة . المجتمع في تبدّل وتغيّر مستمرين . وتطوّر المجتمع البشري من الطور البدائي إلى الطور البدوي ، فإلى الطور الحضري ، وما اليه من نشأة الزراعة والصناعة ، يتّبع سنّة نستطيع ان نلاحظها . ثم ان التطور الاجتماعي رهن عوامل مختلفة تشمل فيما تشمله عامل المناخ ، والتربة ، والغذاء ، والموارد المعدنية . وهي عوامل طبيعية جغرافية أكثر منها عوامل بيولوجية فردية . ثم هناك اعتبارات وخصائص ذهنية نفسية لا يمكن اهمالها او التغاضي عنها . فإن معنويات الجيش في ساحة المعركة عامل له من الاهمية أكثر مما للأعداد . كما اننا لا يمكن ان نصرف النظر عن الغيبيّات . فإن النصر الذي حالف الجيوش العربية بعد ظهور الإسلام دليل واضح على ان هناك عناية الهية كانت ترعى الفتوحات . وهذا يذكرنا بكتاب ابن خلدون عن الصوفية .

عندما ينتقل المجتمع البشري من طور البداوة ورعاية الماشية إلى الطور الحضري الزراعي فإن اقتصاده لا يتبدل ويتغير وحسب ، وانما يزداد غنى وازدهاراً . والصناعة تزيد في الثروة . ويتعقّد الاقتصاد ويتداخل كلما تقدّم المجتمع المنظم وتطوّر . ويظلّ اقتصاد الدولة اقتصاداً سليماً مزدهراً طالما هناك توازن بين نشاط الفرد ومبادأته وبين سيطرة الدولة . فالقيود التعسفية تضرّ بالنمو الاقتصادي .

وقد سمّى ابن خلدون هذا العلم الذي يعنى بالمجتمع والذي يقول انه اكتشفه لذاته ، « علم العمران » . ويتماسك المجتمع بفضل العصبية التي تجمع بين أفراده . وتكون العصبية في اشدها في الطور القبلي البدوي ، وإذا اضيف اليها عامل الدين صارا مزيجاً لا يمكن مقاومته ، وهكذا يولد المجتمع ، ثم ينمو ، فيزدهر في ظلّ العصبية والعمل المشترك للصالح العام . ثم ان المجتمع يبلغ القمة في التقدم والعمران ليبدأ التقهقر والضعف بسبب عدم كفاءة الحكام ، وغطرستهم ، واسرافهم في البذخ ، وفسادهم ، وتبذيرهم ، وبسبب خمول الرعية وانصرافها إلى الملذات . وتصبح الدولة فريسة هينة لعدوّ خارجي .

في آخر فصل من المقدمة يبحث ابن خلدون أمر التربية والتعليم . وابن خلدون يعتبر التربية ظاهرة اجتماعية عرضة للتغيّر والتبدّل تبعاً للتغيرات الاجتماعية . وفي عملية التربية ينبغي للولد ان يبدأ بالبسيط ثم ينتقل إلى المعقد ، كما انه يجب ان يبدأ بالعامّ ثم ينتقل إلى الخاص . ولا يجوز ان يتخذ من القرآن الكريم كتاباً مدرسياً في الصفوف الابتدائية . ولا يجوز للمعلم ان يلجأ إلى اساليب العنف والقسوة مع الطالب ، إذ ان من شأن العنف ان يؤثر في خلق الولد وفي تصرفه الاجتماعي . وغاية المعلم يجب ان تكون تنشئة ملكات الطالب وتعويده السلوك القويم لا عن طريق التلقين وحسب ، وانما ايضاً بطريق غير مباشر وذلك بأن يكون المعلم قدوة لتلميذه .

ولكن يبدو انه لم يكن لفلسفة ابن خلدون في التاريخ والتربية أي أثر في جيله او في الأجيال التي تلت .

- ٣ -

الحقيقة هي ان هذا الفيلسوف ظهر في غير زمانه وفي غير مكانه . فقد تأخر ظهوره بحيث لم يعد في قدرته ان يوقظ شعباً يغطّ في سبات العصور المتوسطة . ولم يكن هناك من مترجم غربي لينقل فكره إلى اوربا . ولم يكن له سابق مباشر ظهر قبل ظهوره ليمهّد له ، كما انه لم يكن هناك من خلف يخلفه . فلم تنشأ مدرسة فكرية نستطيع ان ندعوها المدرسة الخلدونية . فكان ابن خلدون اشبه بشهاب لمع قليلاً في سماء افريقيا الشمالية ، ثم اختفى غير مخلّف وراءه أثراً لشعاع .

والواقع ان ابن خلدون يمكن تشبيهه بمنارة أشعل نورها قبس اضاء في العراق قبل زمنه بستة قرون ليخمد ضياؤه في الأندلس بعد ذلك الحين بأربع مئة سنة . وقد انتقل شيء من هذا القبس إلى شمالي افريقيا إثر استعادة النصارى بلاد الأندلس . كان حملة هذا القبس من اللاجئين الذين هربوا من الأندلس على أثر استعادة الاسبان لها . وبعض هؤلاء كانوا اساتذة لابن خلدون . لا بدّ ان يكون ابن خلدون قد شعر بفراغ فكري في أرض مولده . كان وطنه الفكري في بلاد الأندلس من حيث هاجر جدّه الأعلى قبل هذا الحين بقرن من الزمن . ونحن إذا نظرنا اليه من هذه الأبعاد يتراءى لنا ابن خلدون شامخاً كقمة الألب أو افرست في بقعة ليس فيها جبال .

من بين جميع الشعوب ، كان الأتراك العثمانيون ، الذين شادوا صرح اقوى دولة اسلامية في العصور الحديثة واطولها عمراً ، أول من عُني بأمر نظريات هذا الفيلسوف . فقد اتّضح للأتراك ان لنظريات ابن خلدون اهمية خاصة

بالنسبة إلى مشكلاتهم . ولذا شرع مفكرو الأتراك عند مطلع القرن السابع عشر يتنافسون فيما بينهم في الكتابة عن ابن خلدون ، او في ترجمته إلى لغتهم . وصدرت أول ترجمة تركية للمقدّمة سنة ١٨٣٠ .

وجاء الفرنسيون بعد الأتراك . فقد نشر المستشرق الشهير سلفاستر دي ساسي بعض مقطوعات من مقدمة ابن خلدون في العربية . ثم تلا ذلك نشر المقدمة بالعربية . وقد قام بهذا العمل العظيم كاترمير (١٨٥٢ – ١٨٥٦) ثم تلا ذلك ترجمتها إلى الفرنسية على يدي وليم م. دي سلين (١٨٦٢ – ١٨٦٨) . وهذه الترجمة الفرنسية هي التي عرّفت علماء الغرب بهذا العالم التونسي . ولكن عندما اكتشفه الغرب كان الزمن الذي يمكن ان يؤثر ابن خلدون في الفكر الاوربي قد ولّى ، ذلك لأن العلوم الاجتماعية التي عالجها ابن خلدون كانت قد انتظمت في الغرب . ولكن اكتشاف ابن خلدون كان موضوع دهشة واعجاب . اما سبب الدهشة فلأن الناس اكتشفوا ان أرباب العلم من الغربيين الذين فلسفوا التاريخ ونظّموا العلوم الاجتماعية (أمثال ماكيفلي وفيكو الايطاليين ، ومونتسكيو واوغست كومت الفرنسيين ، وآدم سمث الانكليزي) لم يكونوا أول من عرف هذه العلوم بل كان قد سبقهم إلى ذلك عالم من الشرق . واما سبب الاعجاب والاكبار فلأن بعض المبادىء السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لحظها ابن خلدون ، والقوانين التي استمدّها من ملاحظاته هذه ، كانت على جانب كبير من الاهمية والجدة . وفي العقود الأخيرة ظهرت مقالات و كتبت اطروحات عديدة حول نظريات ابن خلدون . وأول ترجمة انكليزية كاملة للمقدمة قام بها عالم اميركي اسمه فرانتز روزنتال [1] .

(١) وقد كتب عن ابن خلدون ثلاثة علماء آخرون ، هم محسن مهدي وعنوان كتابه :
Ibn Khaldun's Philosophy of History.
(لندن ١٩٥٧) ، وشارل عيساوي وعنوان كتابه :
An Arab Philosuphy of History.
(لندن ١٩٥٠) ، Nathaniel Schmidt, Ibn Khaldun, Historian, Sociologist and Philosopher (New York, 1930).

وقد عبّر المؤرخ الانكليزي المعاصر الشهير توينبي في كتابه Study of History عن تقدير الغرب لابن خلدون ، وعن العطاء العلمي الذي قدّمه للعالم بقوله : « لقد تصور ووضع ابن خلدون فلسفة وقاعدة للتاريخ لا نشك في انها اعظم عمل من نوعه قام به عقل بشري في أي زمان ومكان » .

اما العرب فانهم لم يكتشفوا ابن خلدون إلا في زمن متأخّر، كما انهم تردّدوا في تقدير فضائله العلمية . وقليلون هم الطلاب الذين اعترفوا بفضله ، واشهرهم المقريزي ، المؤرخ المصري (توفي ١٤٤٢) . ولم يكن لعلم ابن خلدون وفلسفته أي أثر في المجتمع العربي. ولم تظهر طبعة عربية كاملة لتاريخه حتى سنة ١٨٦٧ (من مخطوطة تشوبها الأخطاء) ولم تنشر سيرته كاملة بالعربية حتى سنة ١٩٥١ . وأول عربي قام بدراسة ابن خلدون دراسة علمية رصينة كان طه حسين الذي كان مقدراً له ان يصبح عميد الأدب في مصر . وكانت دراسته هذه اطروحة كتبها باالفرنسية (١٩١٧) ثم تُرجمت ونُشرت بالعربية بعد ذلك الحين بثماني سنوات . ولكن الصورة التي يعطينا إياها عن ابن خلدون صورة رجل أناني ، تعوزه الأمانة الفكرية ، مسلم قولاً لا فعلاً. حتى إن حزنه على عائلته التي غرقت في البحر كان حزناً متكلّفاً مصطنعاً . وجاراه في هذه النظرة لابن خلدون عدد من الادباء المصريين والسوريين والعراقيين. وسبب النقمة على ابن خلدون هو ما كتبه عن العرب . ألم يخصّص فصلا عنوانه : « في ان العرب لا يتغلبون إلا على البسائط » وآخر « في ان العرب إذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب » ؟ أليس هو الذي قال ان معظم الذين اشتغلوا بالعلم لم يكونوا عرباً بل كانوا من الفرس ؟ ثم ، ألم يقل عن الشعب المصري انه شعب يميل إلى اللهو ، والعبث ، وعدم الاكتراث بالمسؤولية ؟ ثم ألم يقل عن نسب الفاطميين انه نسب صريح صحيح ؟ إذن في نظر العرب كان ابن خلدون معادياً للعرب ، ومن البربر ، وأنه انتحل لنفسه نسباً عربياً . وقد بلغ العداء لابن خلدون

ذروته عندما اقترح وزير المعارف العراقي (۱۹۳۹) ان يُنبش قبره وان تُحرق كتبه .

ولكن على مرّ الأيام أخذ ادباء العرب على عاتقهم ان يردّوا لابن خلدون اعتباره ومقامه . يقول بعض المدافعين عنه – وان كان دفاعهم لا يقوم على اساس صحيح – انه لم يكن يقصد بالعرب سوى الأعراب منهم أي البدو ، وسرعان ما انقلبت النقمة إلى رضى . حتى انه في سنة ۱۹٦۲ اقيم في القاهرة مهرجان احياء لذكرى ابن خلدون . وراح الخطباء من مختلف الأقطار العربية يتبارون في مدح الرجل واظهار فضله وعطائه العلمي [١] . وفي السنة ذاتها اقيم مهرجان آخر لابن خلدون في مدينة الرباط في مراكش . وفي الوقت ذاته قام ادباء آخرون في ايران وباكستان والهند يعرّفون بابن خلدون لقرائهم [٢] .

وقد يسأل سائل : أي مرتبة يجب ان يحتلّ في التاريخ رجل كابن خلدون خلف ارثاً فكرياً قبل زمنه ؟ لقد أجاب عن هذا السؤال الاستاذ نثانايل شمت (Schmidt) عندما قال : « ان من يشق طريقاً جديداً يدعى رائداً ، حتى وان تنوسي الطريق ، وعاد آخرون فوجدوا اليه سبيلاً . ومن يتخطى

---

(١) اعمال مهرجان ابن خلدون (القاهرة ۱۹٦۲) . ولمزيد من الاطلاع على ابن خلدون وحياته ومصنفاته راجع محمد عبد الله عنان : ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري ، الطبعة الثالثة (القاهرة ۱۹٦٥) . ساطع الحصري : دراسة عن ابن خلدون (بغداد ۱۹٦۱) .

(٢) أعمال مهرجان ابن خلدون (القاهرة ۱۹٦۲) . ومهرجان ابن خلدون (الرباط ۱۹٦۲) . ولزيادة المعرفة بابن خلدون راجع محمد ع. عنان : ابن خلدون : حياته وتراثه الفكري ، طبعة ثالثة (القاهرة ۱۹٦٥) . وساطع الحصري : دراسة عن ابن خلدون (بغداد ۱۹٦۱) .

اقرانه ، ويتقدم على زملائه يدعى قائداً ، حتى وان مرّت قرون عديدة قبل ان تعود الأجيال لتكتشفه وتمشي في خطواته [١] » .

كان عبد الرحمن أبو زيد ابن خلدون ، المؤرخ ، والفيلسوف ، وعالم الاجتماع ، والفقيه ، أول من فلسف التاريخ ، وآخر جبّار من جبابرة الفكر في الإسلام .

---

(١) Nathaniel Schmidt, p. 64

فهرس الاعلام

— ب —

— خ —

— د —

— ر —

— ص —

— ط —

— ظ —

— ع —

— غ —

— ف —

— ق —

— ك —

— ل —

— م —

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —